

في تاريخ
الدولة الإسلامية المشرقية المستقلة
عن الخلافة العباسية

دكتور

إبراهيم عبد النعم سلامه أبو العلا

مدرس التاريخ الإسلامي والعقائد الإسلامية

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

مركز الإسكندرية للكتاب

٤٦ شارع الدكتور مصطفي مشرفه - الأرايطة

الإسكندرية - تليفاكس : ٤٨٤٦٥٠٨

في تاريخ الدولة الإسلامية المشرقية المستقلة عن الخلافة العباسية

شبكة كتب الشيعة



دكتور

بهايم عبد المنعم سلامة أبو العلا
مدرس التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

shiabooks.net

رابط بديل < mktba.net

٢٠٠٥

مركز الاسكندرية للكتاب

٤٦ شارع الدكتور مصطفى مشرفة - الازارطة

الاسكندرية - تليفون وفاكس : ٤٨٤٦٥٠٨

إهداء

إلى ذكرى والديّ رحمهما الله وتعهدهما بواسع
رحمته وأسكنهما فسيح جناته

مُقَدِّمَةٌ

إنطلق المسلمون من شبه الجزيرة العربية لنشر الإسلام في الآفاق، فشملت فتوحاتهم عالماً واسعاً من الأقاليم والأجناس والشعوب واللغات المتباينة من أواسط آسيا شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً. وعلى الرغم من وحدة الدولة الإسلامية خلال عصرى الراشدين والأمويين، إلا أن هذه الأقطار الواسعة التي اتحدت برباط الإسلام، لم تتحد في قومياتها أو بيناتها أو لغاتها، فقد ظل كل إقليم له قوميته وشعبه وبيئته ومصالحه الخاصة به. ثم جاءت الدولة العباسية التي قامت على أكتاف الموالى الفرس والتي كانت تحمل في أحشائها بذور الانفصال، فالدولة منذ قيامها كانت تهدف إلى المساواة بين العرب وبين الشعوب المفتوحة جرياً على حكم الإسلام، فأيقظت بذلك الروح القومية بين تلك الشعوب.

غير أن الدولة العباسية رغم مركزية نظام الحكم لم تحافظ على وحدة أقاليم العالم الإسلامي لاسيما المناطق الطرفدارية البعيدة عنها، فانفصلت عنها الأندلس وبعد قليل قامت الدولة الإدريسية في المغرب، وبات من الطبيعي أن ينزع كل إقليم إلى الاستقلال بشئونه عن السلطة المركزية في بغداد كلما سنحت له الفرصة بذلك. ولقد نتج عن المركزية الإدارية التي انتهجتها الدولة العباسية، أعباء ثقلاً على خلفاء العصر العباسي الأول، وذلك باتساع أملاك الخلافة وتعددتها، مما أدى إلى ظهور

حركات المعارضة والعصيان التي عبرت عن النزعة الإقليمية في معظم الولايات خاصة الشرقية.

وحين بدأت الدولة العباسية تدرك خطر هذه الحركات الانفصالية، لجأت في علاجها إلى سياسة اللامركزية في الحكم، وقسمت الدولة منذ عهد الخليفة هارون الرشيد إلى مناطق إدارية ثلاث وعهد بإدارتها إلى ولاية العهد من أبنائه، كما أقر الدولة الأغلبية التي أقامها إبراهيم بن الأغلب في أفريقية. وسار الخليفة المأمون على هذه السياسة اللامركزية استجابة لتطلعات الولايات من ناحية، ولتخفيف الأعباء الجسيمة عن كاهل الخلافة كسلطة مركزية من ناحية أخرى، فوافق المأمون على قيام الدولة الزيدية في اليمن (٢٠٤هـ/٨١٩م) لمواجهة الحركات العلوية التي كانت تهدد مركزية الخلافة في اليمن والحجاز، كما اضطر المأمون أيضا أمام تعدد حركات المعارضة بالخروج عن التبعية للعباسيين، إلى قبول النظام اللامركزي في خراسان نفسها رغم اعتبارها هي وسائر أقاليم المشرق الإسلامي المعين الخصيب الذي تستمد منه قوتها وأنظمتها منذ بداية نشر دعوتها؛ فقلد الطاهريين حكمها للإشراف على شئون الولايات الشرقية، كذلك قلد العباسيون فيما بعد آل سامان بلاد ما وراء النهر حفاظا على أملاكهم هناك، ولنشر الإسلام فيما ورائهم من أمم الترك الوثنية. وعلى الرغم من استقلال هذه الدويلات استقلالا جزئيا، فقد حافظت على ولائها واعترافها بالسيادة الروحية العباسية حتى في أشد فترات ضعفها.

ولاشك أن هذه النزعات الاستقلالية في المشرق قد أضرت بوحدة الدولة الإسلامية سياسيا، إلا أنها قامت بدور إيجابي في نشر الإسلام فيما وراء الحدود الإسلامية في آسيا والهند، كما أدى التنافس بينها إلى

ازدهار الحضارة الإسلامية في تلك الجهات وظهور مراكز حضارية زاهرة فيها يومها العلماء والأدباء والتجار مثل نيسابور وسمرقند وبخارى.

ويتناول هذا الكتاب تاريخ بعض الدويلات الإسلامية المشرقية التي استقلت عن الخلافة العباسية. وهو يحتوى على ثمانية فصول خصصت الأول منها للحديث عن الدولة الطاهرية في خراسان، وتحدثت في الفصل الثانى عن الدولة الزيدية في طبرستان، وأفردت الفصل الثالث للحديث عن الدولة الصفارية في سجستان ، أما الفصل الرابع فهو عن دولة السامانيين في بلاد ماوراء النهر، وتناولت في الفصل الخامس بعض جوانب من حضارة الصفاريين والسامانيين، في حين خصصت الفصل السادس لدراسة تاريخ الدولة الزيدية في إقليم الديلم، وفي الفصل السابع تحدثت عن الدولة الغزنوية وفتوحاتها في أفغانستان وبلاد الهند، وأخيراً تناولت في الفصل الثامن تاريخ الدولة الغورية في أفغانستان والهند. واختتمت الكتاب بثلاثة ملاحق ترتبط ارتباطاً وثيقاً بموضوع الكتاب، كما زيلته بثلاث خرائط توضيحية،

والله ولى التوفيق.

د. إبراهيم عبد المنعم سلامة أبو العلا

الفصل الأول

الدولة الطاهرية

(٢٠٥-٢٥٩هـ / ٨٢٠-٨٧٢م)

- تقديم.
- عرض جغرافى لإقليم خراسان.
- الطاهريون والدولة العباسية.
- (صعود نجم طاهر بن الحسين)
- قيام الدولة الطاهرية.
- ولاية طاهر بن الحسين على خراسان وتأسيس الدولة الطاهرية.
(٢٠٥-٢٠٧هـ / ٨٢٠-٨٢٢م)
- ولاية طلحة بن طاهر (٢٠٧-٢١٣هـ / ٨٢٢-٨٢٨م).
- ولاية عبد الله بن طاهر (٢١٣-٢٣٠هـ / ٨٢٨-٨٤٥م).
- ضعف الدولة الطاهرية فى عهد حكامها الأواخر.
(٢٣٠-٢٥٩هـ / ٨٤٥-٨٧٤م)

الفصل الأول

الدولة الطاهرية

(٢٠٥ - ٢٥٩ هـ / ٨٢٠ - ٨٧٢ م)

تقديم:

بدأت بلاد فارس (إيران) تتطور تطوراً إسلامياً بعد الفتح العربي الإسلامي لها مباشرة، فقد بدأت الصبغة الإسلامية والثقافة الإسلامية تنتشر فيها منذ إتمام حركة الفتح العربي، وقد اشتدت الحركة الإسلامية فيها بدخول أهلها الذين أطلق عليهم الفاتحون اسم الموالي في الإسلام، ثم أخذت شخصيتها الإسلامية في الظهور معبرة عن نفسها بانضمامها إلى حركات المعارضة التي قامت في وجه الحكم الأموي، فقد إنضم الموالي الفرس إلى حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي، ثم في جيوش مصعب بن الزبير، ثم في ثورة محمد بن الأشعث، ولعل نجاح القيسية بزعامة عبد الله بن خازم في السيطرة على خراسان، وضرب (ابن خازم) النقود الذهبية باسمه دون الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، يعتبر من أولى المحاولات الاستقلالية في خراسان، ويعلق البلاذري على حركة ابن خازم بقوله "وولي ابن خازم ابنه محمداً هراة، وجعل على شرطته بكير بن وشاح وصفت له خراسان" (١). غير أن هذه المحاولة فشلت بمقتل زعيمها ابن خازم على أيدي رجال الخليفة الأموي لرفضه مبايعته، وكان ذلك في عام ٧٢ هـ.

(١) البلاذري، فتوح البلدان، علق عليه رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية،

وكانت غطرسة العرب وجشع ولائهم، من أسباب جنوح أهل خراسان للثورة، ولذلك كان الجراح بن عبد الله عامل الخليفة عمر ابن عبد العزيز على خراسان يرى أن خراسان لا يمكن حكمها إلا "بالسيف والسوط"^(١). ورغم محاولة بعض الخلفاء الأمويين احتواء جنوح الخراسانيين للثورة، إلا أن هذا لم يمنعهم من العمل على تقويض هذه الدولة. ويرجع الطبري ببداية الحركة الشيعية في خراسان والتي كانت ترمى إلى إسقاط البيت الأموي، إلى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز، غير أن الحارث بن سريح لم يرفع علم المسودة (العباسيين) إلا في عام (١١٥ هـ / ٧٣٤ م)، كما خرج يحيى بن زيد العلوي في خراسان على طاعة الأمويين، ولكنه قتل بها في عام ١٢٦ هـ / ٧٤٣ م، وعلق جسده بباب جوزجان، وظل معلقاً هناك إلى حين انتصار أبي مسلم الخراساني على قوات الأمويين.

ولكن بداية ظهور القومية الإيرانية ظهوراً واضحاً كان في عام ١٣٢ هـ / ٧٤٩ م، لأن الإيرانيين كانوا وراء الحركات التي أدت إلى نجاح العباسيين في الوصول إلى السلطة بمساعدة أبي مسلم الخراساني وأهل خراسان في هذا التاريخ^(٢). ولعل خوف العباسيين من تزايد نفوذ أبي مسلم الخراساني، وجنوحه للاستقلال بخراسان، كان من أسباب

(١) عن سوء معاملة الجراح بن عبد الله لأهل خراسان انظر: ابن خلدون، العبر، الطبعة الثالثة، دار الفكر، بيروت ١٩٩٦، ج ٣، ص ٩٥.

(٢) عن أحوال خراسان في أواخر العصر الأموي، ودور أبي مسلم في الثورة عليهم راجع: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف، مصر، بدون تاريخ، ج ٧، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، القاهرة ١٣٥٧ هـ، ج ٤، صفحات متفرقة، نبيلة حسن محمد، محاضرات في تاريخ الدولة العباسية، بيروت، بدون تاريخ، ص ١٥ -

تخلصهم منه فى عهد الخليفة أبى جعفر المنصور. ولقد شهد العصر العباسى الأول نفوذ الموالى الفرس فى مجالات الدولة المختلفة، ولهذا عرف عند المؤرخين بعصر النفوذ الفارسى الأول، إذ نشهد فيه سيطرة العنصر الفارسى وغلبته على جميع مناحى الحياة أدبية ومادية، فقد كان من الطبيعى أن يعتمد العباسيون على الفرس وعلى أهل خراسان بوجه خاص فى تصريف شئون دولتهم إعترافاً منهم بفضلهم عليهم. ولذلك أسلم الخلفاء العباسيون فى هذا العصر أزمة أمورهم إلى الفرس، وأفسحوا لهم المجال فى تولى المناصب الكبرى، فتولى البرامكة الوزارة واستبدوا بالدولة دون الخليفة هارون الرشيد، كذلك ظهر التأثير الفارسى فى الحركات الدينية التى اتجهت اتجاهها قومياً شعوبياً يستهدف الطعن فى السيادة العربية، وإحياء المجد الفارسى القديم، وقد عمد الشعوبيون الفرس إلى تمجيد العنصر الفارسى والحط من شأن العرب، والتعصب للفارسية أدبياً وسياسياً واجتماعياً^(١). وبدأ الشعب الإيرانى يعبر عن نفسه تعبيراً قومياً بظهور الإمارات المستقلة عن الخلافة العباسية، وأولها الدولة الطاهرية فى خراسان التى كانت أسبق أقاليم المشرق الإسلامى فى النشاط السياسى فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى)، إذ بدأت فيها تيارات سياسية تهدف إلى الاستقلال منذ عهد الخليفة المأمون.

عرض جغرافى لإقليم خراسان :

كلمة خراسان مركبة من مقطعين : "خور" أى شمس، و"اسان" بمعنى شروق، أى أن خراسان تعنى شروق الشمس. وهى تذكرنا بعبارة الإمام محمد بن على العباسى التى وجهها إلى دعائه حينما أرسلهم سراً

(١) عبد العزيز الدورى، العصر العباسى الأول، بغداد، ١٩٤٥، ص ١٥٨ وما بعدها، السيد عبد العزيز سالم، العصر العباسى الأول، الإسكندرية ١٩٩٥، ص ٦ - ٨.

إلى خراسان، لبث الدعوة العباسية هناك بقوله "..... وبعد فكأنى أتفاعل إلى المشرق وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح هذا الخلق"^(١). وخراسان في الفارسية القديمة، معناها "البلاد الشرقية". وكان هذا الاسم في أوائل العصور الوسطى يسرى بشكل مطلق على جميع الأقاليم الإسلامية في شرق الصحراء الكبرى (المفازة) حتى حدود بلاد الهند، فخراسان في مدلولها الواسع كانت تضم كل بلاد ما وراء النهر في الشمال الشرقي، عدا سجتان وقوهستان، وكانت حدودها صحراء الصين والباشان من ناحية آسيا الوسطى، وجبال هندكوش من ناحية الهند. إلا أن حدودها صارت فيما بعد أكثر حصراً وأدق تعييناً كما يذكر "لسترنج"، حتى يمكن القول إن خراسان أحد أقاليم إيران كان يمتد إلى نهر جيحون في الشمال الشرقي، وكان يشمل جميع المرتفعات فيما وراء مدينة هراة (القسم الشمالي الغربي من أفغانستان الحالية)، وكذلك البلاد الواقعة في أعالي نهر جيحون من ناحية البامير^(٢).

وكان إقليم خراسان في أيام العرب، ينقسم إلى أربعة أرباع تُسبب كل ربع إلى إحدى المدن الأربع الكبرى التي كانت في أوقات مختلفة عواصم للإقليم وهي: نيسابور، ومرو، وهراة، وبلخ. وفي أعقاب الفتح الإسلامي الأول للإقليم، كانتا عاصمتا خراسان في مرو، وفي بلخ، إلا أن

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار صادر، بيروت (مصورة من طبعة بريل ١٩٠٦)، ص ٢٩٤، مجهول، أخبار الدولة العباسية، وفيه أخبار العباس وولده، تحقيق عبد العزيز الدوري وعبد الجبار المطلبي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧١، ص ٢٠٦ - ٢٠٧، أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية بدون تاريخ، ص ١٤٩.

(٢) لسترنج (كي)، بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة وتعليق بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مطبعة الرابطة، بغداد ١٩٥٤، ص ٤٢٣.

الطاهريين (كما سنذكر) نقلوا دار الإمارة إلى ناحية الغرب فجعلوا نيسابور عاصمة الإقليم في أيامهم، وهي أكبر مدينة بين هذه الأرباع. ولأهمية نيسابور باعتبارها عاصمة الدولة الطاهرية، سوف نلقى الضوء عليها.

ففي الفارسية الحديثة ينطق اسمها : نيشابور، وهي في العربية : نيسابور. وهو مشتق من (نيوشاه بور) في الفارسية القديمة، ومعناه : (موضع، أو عمل سابور الطيب). وسميت المدينة بذلك نسبة إلى الملك سابور الثاني الساساني الذي جدد بناءها في القرن الرابع الميلادي، في حين أن الذي أسسها كان سابور الأول بن أردشير بابكان. وفي صدر الإسلام أطلق على نيسابور : أبرشهر، ومعناها بالفارسية (مدينة الغيم)، ولقد ظهرت هذه التسمية (أبرشهر) في السكة القديمة التي ضربها فيها الخلفاء الأمويون العباسيون. وأطلق عليها الجغرافيون العرب مثل المقدسي اسم "إيرانشهر" أي مدينة إيران. غير أن هذا الاسم كان اسما شرفيا وغير رسمي^(١).

وكانت نيسابور في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) مدينة عامرة بالمباني، مساحتها مقدار فرسخ في مثله، ولها مدينة وقلعة "القهندز" وربض، وبها ميدان يعرف بنمعسكر، وبقرية دار الإمارة، وتفضى إلى ميدان آخر عرف باسم ميدان الحسينيين، والحبس يقع على مقربة من دار الإمارة، ومقدار المسافة بين كل بناء من هذه الأبنية الحيوية بالمدينة نحو من ربع فرسخ. وللمدينة أربعة أبواب (باب القنطرة، باب سكة معقل، باب القهندز، باب قنطرة تكين)، وهي عامرة

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٢٩٩، ٣١٤، ويسميتها ابن حوقل (صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٩، ص ٣٦١) أبرشهر.

بالأسواق بأربضها، وأعظم أسواقها : سوقان أحدهما يعرف بالمربعة الكبيرة، والآخر يعرف باسم المربعة الصغيرة. وأسواقها مكتظة بالحوانيت، وبها كثير من الخانات والفنادق لسكنى الغرباء والتجار، وفيها أصناف كثيرة من المتاجر، ووجدت خانات متخصصة لكل حرفة على حدة، فهناك خان الأساكفة، وخان البزازين، وخان الخرازين وغيرها.

ويذكر ابن حوقل أنه ليس في كل خراسان مدينة "أصح هواء وأفسح فضاء وأشد عمارة من نيسابور"، وتجارها أهل ثراء، ويومها السابلة والقوافل كل يوم، مما يدل على ضخامة تجارتها وعظمة أسواقها. وتصدر أصناف كثيرة من ثياب القطن والأبريسم إلى سائر البلدان. ويضيف المقدسي أن شرب أهلها من نهر يقال له وادي سغاور، ينحدر إليها من قرية "بشتنقان". ويدير سبعين رحى، ومنه تحمل قننى كثيرة تجرى تحت الأرض، ويجرى النهر فيها مسافة فرسخ، وإذا ما جاوزت القننى المدينة ظهرت على وجه الأرض فتسقى المزارع والبساتين، وبالإضافة إلى مياه نهر وادي سغاور، كان يوجد في داخل نيسابور وفي دورها آبار كثيرة عذبة^(١).

ويذكر ياقوت الحموي أن المدينة كانت تسمى في أيامه (ق ٧ هـ / ١٣ ق م) : نشاوور. وأنه لم ير في خراسان مدينة أحسن منها، وكانت محلة شاذياخ أهم محلاتها وكانت قديماً بستاناً لعبد الله بن طاهر في أوائل القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، حين نزل نيسابور واتخذها داراً للإمارة. وتقوم نيسابور في الوقت الحالي كما يذكر (لسترنج) في الجانب

(١) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٦٣، المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٣٠٠، ٣١٤.

٣٣٩، لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٢٥ - ٤٢٦.

الشرقى من سهل نصف دائرى تكتنفه الجبال ويواجه المفازة وهى فى جنوبه. وإشتهرت فى سهل نيسابور كما يذكر المقدسى (ق ٤هـ / ١٠م) أربعة رساتيق بوفرة خصبها وهى (الشامان، ريونو وما زالت قائمة فى غرب نيسابور، وما زل، وبشتفروس). وإلى جنوب شرقى نيسابور ينقسم طريق خراسان العظيم، عند مرحلة عرفها العرب باسم (قصر الريح)، ومنها كان طريق مرو يتجه شرقاً، وطريق هراة إلى الجنوب الشرقى^(١).

ومن أهم مدن ربع نيسابور مدينة المشهد (مشهد الإمام) وهى اليوم قاعدة القسم الإيرانى من خراسان، ومدينة طوس وهى على بعد بضعة أميال من شمال المشهد، وبها قبر هارون الرشيد (ت ١٩٣هـ / ٨٠٩م) وقبر الإمام الثامن على الرضا وقد مات من سم دسه له المأمون (ت ٢٠٢هـ / ٨١٧م). وتتألف مدينة طوس من مدينتين توأمين هما (الطابران ونوقان)، وتعود شهرة نوقان فى (ق ٣هـ / ق ٩م)، إلى صنع البرام التى تحمل إلى سائر البلدان، وكان يستخرج من جبالها أيضاً معدن الذهب والفضة والنحاس والحديد. ومن مدن ربع نيسابور أيضاً بيهق وسبزوار، وجوين وجاجرم وإسفرايين، وأستو وكوجان، وراذكان ونساء، وابيورد، وكلات وخابران وسرخس^(٢).

أما بقية أرباع خراسان (مرو، بلخ، هراة) فسوف نقف عندها، عندما نأتى على ذكرها فى ثنايا الحديث عن تاريخ الدويلات المستقلة فى الفصول التالية من الكتاب.

(١) المقدسى، أحسن التقاسيم، ص ٣٥٢.

(٢) عن وصف هذه المدن راجع : لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٢٩ - ٤٣٨، والمصادر المذكورة هناك.

الطاهريون والدولة العباسية :

(صعود نجم طاهر بن الحسين) :

ارتبط الطاهريون بالأسرة العباسية ارتباطاً وثيقاً منذ أن كانت دولتهم ما تزال في رحم الأحداث التاريخية، ولم تخرج بغيره إلى الوجود الفعلي فالجد الأعلى للطاهريين ويدعى (رزيق) كان في الأصل مولى لأبي محمد طلحة بن عبد الله الخزاعي الذي تولى سجستان لسلم بن زياد، وكان رزيق هذا قد اعتنق الإسلام في البصرة على يد الإمام علي بن أبي طالب في عام ٣٦هـ / ٦٨٤ م، وكان لأبناء رزيق علاقة وثيقة بالأسرة العباسية منذ بداية دعوتها، فقد كان مصعب بن رزيق جد طاهر بن الحسين مؤسس الدولة الطاهرية حاكماً لمدينة (بوشنج) بولاية هراة^(١)، ونراه في زمن الدعوة العباسية يشغل منصب الكاتب لأحد رجال أبي مسلم الخراساني، وقد ورد اسمه أيضاً خلال حكمه لبوشنج في أخبار ثورة (يوسف البرم) الذي انتزع منه هذه المدينة كما يذكر (المؤرخ الكرديزي صاحب كتاب زين الأخبار).

(١) بوشنج أو فوشنج تقع على مسيرة يوم من غرب هراة. ومكانها حالياً مدينة غريان، ولقد وصف ابن حوقل بوشنج بقوله أن بناءها حسن تحف به الأشجار، وبها أشجار العرعر الذي يحمل خشبه إلى سائر النواحي. ولبوشنج سور وخنق وثلاثة أبواب. ويذكر ياقوت الحموي أن العجم في عصره كانوا يطلقون عليها (بوشنك)، ومما اختلفت به بوشنج الأرحية التي تديرها الرياح. وفي عام ٧٨٣هـ / ١٣٨١ م، غزاها تيمور لنگ ونهبها، على الرغم من ارتفاع أسوارها وعمق ماء خندقها (ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٦٨، المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٩٨، ياقوت الحموي، معجم البلدان، القاهرة ١٩٠٦، ج ١، ص ٧٥٨، لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٥٣).

ويرجح (بارتولد) أن مدينة بوشنج قد ردت لمصعب بن رزيق عقب إخماد الثورة بها، وخلفه في حكمها ابنه الحسين بن مصعب وكان من كبار أعيان خراسان، ولقد خدم الحسين بن مصعب الأمير عبد الله المأمون الذي تولى أعمال المشرق الإسلامي في حياة أبيه هارون الرشيد، وكان من قواد جيشه ومن أقرب رجاله المقربين إليه، وحينما توفي الحسين بن مصعب في عام ١٩٩هـ / ٨١٤ م، حضر المأمون جنازته وبعث لأبنة طاهر وكان بالعراق يعزیه في وفاة والده (١). وكان طاهر بن الحسين الذي ولد في عام ١٥٩هـ / ٧٧٥ م ببلدة بوشنج، من كبار القواد العباسيين حكمة وشجاعة، وقد بدأ نجمه في البروغ منذ عام ١٩٤هـ / ٨٠٩ م، حينما شارك في قيادة الجيش العباسي الذي حاصر الثائر رافع بن الليث بن نصر بن سيار بمدينة سمرقند في بلاد ما وراء النهر، غير أنه يفهم من رواية (ابن خلدون) أن طاهرا بن الحسين كان يتقلد منصباً مرموقاً في خراسان لعله منصب قائد الجيش بها، حينما استدعاه هرثمة بن أعين صاحب خراسان لقتال رافع بن الليث فابن خلدون يقول "وإستقدم - هرثمة - طاهر بن الحسين من خراسان فحضر عنده، وعاث حمزة الخارجي في نواحي خراسان لخلاتها من الجند" (٢). وبعد وفاة والده الحسين بن مصعب، قلده المأمون حكم ولاية بوشنج خلفاً له.

(١) بارتولد (فاسيلي فلاديميروفتش)، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، الطبعة الأولى، الكويت ١٩٨١، ص ٣٣١.

(٢) ابن خلدون، العبر، ج ٣، ص ٢٨٧.

وفى عام ١٩٥هـ / ٨١٠ م بدأ الصراع بين ابني هارون الرشيد الخليفة محمد الأمين (١٩٣ - ١٩٨هـ / ٨٠٨ - ٨١٣ م)، وولى عهده عبد الله المأمون، وأخذ كل واحد منهما يعمل لإزاحة أخيه عن طريقه، فانفتح بذلك باب الفتنة بينهما. ولما علم الفضل بن سهل وزير المأمون بمسير جيش الخليفة الأمين إلى خراسان بقيادة علي بن عيسى بن ماهان لإجبار المأمون على التنازل عن ولاية العهد وتجريده من سلطاته، أسند إلى طاهر بن الحسين ولاية (الرى) التى تقع فى الطرف الشمالى الشرقى من إقليم الجبال (عراق العجم)^(١)، وعهد إليه بقيادة الجيش الذى أعده للتصدى لجيش الأمين، لما عرف عنه من شجاعة وإخلاص فى خدمة المأمون والخلافة العباسية (قتاله لرافع بن الليث)، فضلاً عما كان يتمتع به طاهر رغم حداثة ظهوره فى الأوساط العسكرية، من مقدرة حربية وحزم وسداد الرأى ومعرفة بمكاند الحروب، فنزل طاهر الرى ووضع بها المسالِح والمراصد كما يذكر ابن خلدون^(٢)، وعقد الوزير الفضل بن سهل بيده على سنان رمح طاهر اللواء الذى عمل من أجله ويذكر

(١) الرى هى مدينة ريجس Rhages عند اليونان، وكانت الرى فى ق ٤هـ / ق ١٠ م، أكبر المدن الأربع لإقليم الجبال وهى البلاد الممتدة من سهول العراق والجزيرة غرباً إلى صحراء فارس شرقاً، وقد وصفها ابن حوقل بقوله "ليس بعد بغداد فى المشرق مدينة أعمر من الرى، إلا أن نيسابور أكبر منها وأفسح رقعة". وكانت الرى أيام الخلافة العباسية تسمى المحمدية لأن محمد المهدي قد نزلها فى خلافة أبيه أبى جعفر المنصور وبنى أكثر مبانيها، وصارت أكبر دار للضرب، ووجد أسمها على كثير من النقود العباسية، واشتهرت الرى بكثرة متاجرها، وبها نهران للشرب، وبها بنانين جليلين هما دار البطيخ (سوق الفاكهة)، ودار الكتب (ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٠٤، ٣٢١، المقدسى، أحسن التقاسيم، ص ٣٩٠-٣٩١، لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٢٤٩ - ٢٥٠).

(٢) ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٢٩٢.

(الجهشياري) أن الحسين بن مصعب عندما علم بموافقة ابنه طاهر على المسير إلى الرى لقتال جيوش الخليفة الأمين، نصحه بعدم الاشتراك فى هذه الفتنة بين ابني الرشيد، فرفض طاهر ورد على أبيه رداً يدل على الذكاء والطموح وقال له "خفت إن لم أقبل ما دعيت إليه، أن يقلد الأمر غيرى وأضم إليه، فلأن أكون متبوعاً أفضل من أكون تابعاً"^(١).

وكان على قيادة جيش المأمون أيضاً قائداً آخر هو (هرثمة ابن أعين) الذى يرجع إليه الفضل فى إعداد جيش المأمون إعداداً قوياً. أما الأمين، فلم يكن موفقاً فى اختيار قواده، فقد اختار (على بن عيسى ابن ماهان)، وكان هذا القائد والياً على خراسان أيام الرشيد، ولذا كان يعرف أحوالها حق المعرفة، ولكنه كان مكروهاً من الخراسانيين لأنهم لم ينسوا له ظلمه وقسوته. ويذكر ابن خلدون أن الفضل بن سهل هو الذى دس أحد عيونهم عند الفضل بين الربيع وزير الأمين، فأشار به عليهم. "لما فى نفوس أهل خراسان من النفرة عن ابن ماهان فجدوا فى حربه، ويقال حرّض أهل خراسان على الكتب إلى ابن ماهان ومخادعته إن جاء"^(٢).

تقدم على بن عيسى بن ماهان نحو الرى لقتال طاهر بن الحسين دون أن يستعد له استعداداً كافياً، وذلك لأنه كان يستهين بشأن طاهر لحدائته، ولاغتراره بكثرة جموعه وتفوقه العسكرى (بلغ عدد جنده ما بين ٤٠ - ٦٠ ألف مقاتل)، وكان يقول فى هذا الصدد "مثل طاهر لا نستعد له"، فهو إنما "شوكة من أغصاني، ومثل طاهر يتولى الجيوش،

(١) الجهشياري، كتاب الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، القاهرة

١٩٣٨، ص ٢٠٥.

(٢) ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٢٩٢.

وقال لأصحابه : ما بينكم وبين أن ينقصف انقصاص الشجر من الريح والريح العاصف إلا أن يبلغه عبورنا عقبة همذان، فإن السخال لا تقوى على النطاح، والبالغ لا صبر لها على لقاء الأسد، وإن أقام تعرض لحد السيوف وأسنة الرماح، وإذا قاربنا الرى ودنونا منهم فت ذلك فى أعضادهم"^(١). وبلغ من غرور قائد جيش الأمين ووثوقه من الظفر بمنافسيه، أن أخذ معه قيد فضة ليقيد به المأمون كما يذكر الإمام السيوطى^(٢).

وحدث الاشتباك بالقرب من الرى، ولما خرج أحد أصحاب ابن ماهان على طاهر بن الحسين بالسيف أظهر شجاعة فائقة، إذ حمل عليه وأخذ السيف بيده وصرعه، وعندما أحرزت قوات ابن ماهان تفوقا على قوات طاهر بن الحسين فى بداية المعركة أظهر طاهر رباطة جأش وكفاءة عسكرية عظيمة، فأمر جنده بالقيام بهجوم خاطف على قلب جيش على بن ماهان، فتحول الموقف لصالح طاهر، فانسحب جناح ابن ماهان، وكثر القتل فى أصحابه وسقط هو قتيلا بضربة سهم فى الميدان، ولم ينقذ المنهزمين إلا حلول الليل بعد أن التجأ كثيرون منهم إلى معسكر طاهر بن الحسين بعد أن أمنهم، واحتوى طاهر على أموال ابن ماهان، واحتذ رأسه وأرسلها إلى المأمون، فطيف بها فى خراسان، فسر المأمون بهذا الانتصار وبويع له بالخلافة، وأمد طاهر بن الحسين بالأموال والرجال،

(١) ابن الأثير، الكامل، ح ٥، ص ١٤٣، ابن خلدون، نفسه، ح ٣، ص ٢٩٢، سالم، العصر العباسى الأول، ص ٧٤.

(٢) السيوطى، تاريخ الخلفاء، تقديم عبد الله مسعود، دار القلم العربى، حلب، ١٩٩١، ص ٢٨٠. وإن كان ابن خلدون (العبر، ح ٣، ص ٢٩٢) يقول أن السيدة زبيدة ام الخليفة الأمين هى التى أعطته هذا القيد بعدما أوصته خيرا بالمأمون، وقالت له : "إن سار إليك فقيهه به مع المبالغة فى البر والأدب معه".

وسماه (ذا اليمينين)، وأمره أن يزحف إلى العراق عن طريق حلوان،
"وعقد له على المشرق" كما يذكر ابن ظافر الأزدي^(١).

ولقد تباينت ردود أفعال الناس في بغداد لما قتل على بن همام
وهزم جيشه، فقد استهتر الخليفة الأمين بالخبر، إذ قطع عليه الناعي لذة
الصيد وزجره لما أبلغه به، قائلا "ويلك! دعني فإن كوثرًا صاد سمكتين
وأنا ما صدت شيئا بعد"، ثم ندم على خلعه أخاه الأمين فيما بعد، بينما
أرجف الناس ببغداد إرجافا شديدا^(٢). ولما وصلت الإمدادات العسكرية
التي أرسلها المأمون إلى طاهر بن الحسين، قسم طاهر الجيش قسمين،
اتجه بأحدهما إلى بغداد عن طريق حلوان والأهواز، فلما صار إلى الأهواز
استولى عليها ثم امتد إلى واسط، وسار القسم الثاني من الجيش بقيادة
هرثمة بن أعين إلى بغداد عن طريق حلوان، ولم تغلج الجيوش (٢٠ ألف
فارس) التي أرسلها الأمين بقيادة عبد الرحمن بن الأنباري لإيقاف هذا
الزحف، بل إن طاهرا بن الحسين هزم هذه الجيوش مرتين عند همذان
وملكها، ثم استولى على قزوین، وهزم القوات الكثيفة التي أرسلها الأمين
مددا لعبد الرحمن بن الأنباري بقيادة عبد الله وأحمد ابن الحريشي،
فانهزم الجميع إلى بغداد، "وأقبل طاهر بن الحسين نحو البلاد وحده
وأخذه إلى حلوان، فخذق بها وجمع أصدا" كما يذكر ابن خلدون^(٣).

(١) ابن ظافر الأزدي، أخبار الدول المنقطعة تاريخ الدولة العباسية، تحقيق محمد بن

مسفر بن حسين الزهراني، مكتبة الدار، المدينة المنورة، ١٩٨٨، ص ١٥٠،

ابن الأثير، الكامل، ج ٥، ص ١٤٣ - ١٤٥، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢٨٠.

(٢) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢٨٠ - ٢٨١.

(٣) ابن ظافر الأزدي، أخبار الدول المنقطعة، ص ١٥٠، ابن الأثير، الكامل، ج ٥،

ص ١٤٨، ابن خلدون، العبر، ج ٣، ص ٢٩٤.

وكان للإتصاريين اللذين أحرزهما طاهر بن الحسين على قوات الأمين أثرهما الكبير فى إضعاف الروح المغنوية لدى قواد وجيوش الأمين، فبعد أن قلد الوزير الفضل بن الربيع أسد بن يزيد بن مزيد وكان متعصبا لعروبته، قيادة الجيش وحرصه على الاستبسال فى قتال قوات المأمون الفرس، من أجل الحفاظ على قوة الشعب العربى، فشل فى تسييره لأن القائد العربى كان له مطالب مالية، فاعتقله الخليفة الأمين، وقلد عمه أحمد بن مزيد حرب طاهر بن الحسين، وسير معه عبد الله بن حميد بن قحطبة، ولما علم طاهر بذلك تمكن عن طريق جواسيسه وعيونه من الإيقاع بين قواد الأمين، فاختلوا وقاتل بعضهم بعضا حتى اضطر قائدا الجيش إلى الرجوع من (خانقين) إلى بغداد دون ملاقة طاهر، الذى تقدم إلى حلوان نفسها فنزلها "وجاءه هرثمة فى جيش من عند المأمون ومعه كتاب بأن يسلم إلى هرثمة ما ملكه من المدن"^(١).

ساعت أحوال الخليفة الأمين وشغب عليه الجند، وانقلب عليه الحسين بن على بن عيسى بن ماهان أحد قادة جيشه، ووثب عليه وهو فى قصر الخلد، فأخرجه وخلعه وباع للمأمون، وحبس الأمين مع أمه وولده بقصر المنصور، كما اضطربت أحوال البلاد وكثر خروج الثوار على طاعة الأمين، فى الكوفة، والبصرة، ومكة، والمدينة، والشام. وتقدم الجيش الخراسانى نحو بغداد واتفق القائدان طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين على أن يقوم الأول بمهاجمة بغداد من الغرب بينما يهاجمها الثانى من ناحية الشرق. وتقدم الجيشان حتى بلغا أرباض بغداد حيث حدثت معارك مختلفة بين الفريقين، ولم يكن جيش الأمين (الذى خلصه

(١) ابن الأثير، الكامل، ح ٥، ص ١٤٨ - ١٤٩، ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٢٩٥ -

٢٩٦، نبيلة حسن محمد، المرجع السابق، ص ١٠١.

قائده السابق أسد بن يزيد من قيوده وأعادته إلى (قصر الخلد)، قويا، كما لم يكن قواده في حالة معنوية عالية، بل أن أسد بن يزيد قائد الجيش هرب جبنا عن ملاقاته قوات طاهر بن الحسين ودام الحصار مدة ١٥ شهر، وقد أصيب عمران بغداد من جراء هذا الحصار الطويل بأضرار كبيرة بسبب قذائف المنجنيق والنفط، فتهدمت أسوارها ومبانيها واشتعلت النيران في كل مكان، ونفذت الأقوات، وانتشرت الأمراض، فضاقت الأمور على الأمين ونفذت الأموال التي كانت بحوزته، فاضطر إلى بيع كل ما كان موجودا في خزائنه من الأمتعة، وضرب أواني الذهب والفضة دنائير ودراهم للإتفاق منها على الجيش^(١).

على أن الذين أبلوا في هذا الحصار هم أهل بغداد ولا سيما جماعة العيارين أو القتبان، الذين دافعوا عن بغداد ببسالة نادرة، وفي هذه الأثناء كتب طاهر إلى المأمون يستأمره في أمر محمد الأمين المحاصر بداخل بغداد، "فبعث إليه بقميص غير مقور فعلم أنه يريد قتله، فخلص الجيش إلى قصر محمد وأحدقوا به، فوجه إلى هرثمة يسأله الأمان فأمنه، وضمن له الوفاء من المسلمين"^(٢). ولعل الأمين فكر في أن يستأمن هرثمة بن أعين دون طاهر بن الحسين، لكبر سن الأول، ولقسوة الثاني فغضب طاهر من هذا الإجراء لأنه أراد أن يكون له شرف أسر الأمين. وأخيرا اتفق القائدان على أن يتولى هرثمة مهمة القبض على الأمين بينما تعطى إشارة الخلافة (القضيب والبردة) لطاهر بن الحسين، غير أن طاهرا أمر جنده بالقبض على الأمين وقتلوه ثم نبحوه، ومضوا برأسه إلى طاهر،

(١) المسعودي، مروج الذهب ومعاون الجوهر، طبعة بيروت، ١٩٦٨، ح ٣، ص ٤٠٦، ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٢٩٩، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢٨١، سالم، نفسه، ص ٧٦ - ٧٧.
(٢) ابن ظافر الأزدي، أخبار الدول المنقطعة، ص ١٥١.

فأمر برفعه على برج من أبراج مدينة بغداد حتى رآه الناس، ثم بعث به إلى المأمون في خراسان في المحرم من سنة ١٩٨هـ / ٨١٣ م، وخلص الأمر للمأمون^(١). ويعلق الدكتور العبادي على نهاية الصراع بين الأمين والمأمون مبرزاً دور ظاهر بن الحسين في ترجيح كفة المأمون بقوله: "إن الأمين لم يكن موفقاً في رجاله، فلم يكن لديه من الساسة والقواد من يضارع الفضل بن سهل أو ظاهر بن الحسين، وهذا كان له أثر كبير في نجاح سياسة المأمون"^(٢).

(١) لمزيد من التفاصيل عن الفتنة بين الأمين والمأمون انظر: الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ح ٨، ص ٣٧٤ - ٣٧٨، ابن الأثير، الكامل، ح ٥، ص ١٤٩ وما بعدها، ابن خلدون، العبر، ح ٣ ص ٢٩٧ - ٣٠٢، سعد زغلول عهد الحميد، التاريخ العباسي والأندلسي، طبعة دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٧، ص ١١٤ وما بعدها.

(٢) أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، ص ٩٨ - ١٠٠.

قيام الدولة الطاهرية

ولاية طاهر بن الحسين على خراسان وتأسيس الدولة الطاهرية (٢٠٥ -

٢٠٧هـ / ٨٢٠ - ٨٢٢م)

حُسم الصراع بين الأمين والمأمون لصالح الأخير، ويفهم من روايات ابن الأثير أن انتصار المأمون ما هو إلا انتصاراً للمشرق الإيراني على المغرب العربي، ذلك الانتصار الذي أعاد إلى الأذهان قيام أمر العباسيين على أكتاف الخراسانية وزحف هؤلاء نحو الغرب وتغلبهم على العالم العربي الشامي؛ ولقد ترجم الوزير الفضل بن سهل الإيراني الأصل شكل هذا الصراع الشعبي أو العنصري بين العرب والفرس، فكان يشبه أصحابه بنقباء الحركة العباسية الأولى، وكان يقول كما يذكر ابن الأثير: "للتيمي نقيمك مقام موسى بن كعب، وللربعي نقيمك مقام أبي داود، وخالد بن إبراهيم نقيمك مقام قحطبة"^(١).

ولما قتل الأمين نادى طاهر بن الحسين بالأمان ودخل بغداد يوم الجمعة فصلى بالناس وخطب للمأمون وذمّ الأمين، ووكل بحفظ القصور الخلفية، وأخرج زبيدة أم الأمين وابنيه موسى وعبد الله إلى الزاب الأعلى. وحسب السياسة التقليدية للخذاء العباسيين عمل الخليفة المأمون بإيعاز من وزيره الفضل بن سهل على التخلص ممن يستشعر خطره من كبار رجال الدولة الذين مهدوا له الطريق إلى الملك، فأمر طاهر ابن الحسين أن يتخلى عن كل المدن التي افتتحها أثناء الصراع مع الأمين وهي كور الجبل والعراق وفارس والأهواز والحجاز واليمن، وقدم عليها

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ٥، ص ١٢٧، سعد زغلول عبد الحميد، التاريخ العباسي

الحسن بن سهل، كما أمره بأن يسير إلى قتال (نصر بن شيبث بن سيار) الذي تغلب على نواحي حلب، وأسند إليه حكم الولايات المضطربة والتي لم تكن قد دخلت في طاعته بعد، وهي الموصل والجزيرة والشام والمغرب^(١).

ويذكر اليعقوبي أن طاهراً بن الحسين لم يتلق قرار تعيينه على هذه البلاد، إلا بعد أن ترك بغداد وشرع فعلاً في محاربة نصر بن شيبث. ولما وصل نائب الحسن بن سهل إلى العراق أبدى طاهر بن الحسين استياءه وتبرمه تجاه هذه المهمة، وقال: "ما أنصفني أمير المؤمنين" وفي رواية أخرى قال "حاربت خليفة، وسقت الخلافة إلى خليفة، وأمر بمثل هذا، وإنما كان ينبغي أن يوجه لهذا قائداً من قوادى". ولقد كان الفضل بن سهل كما ذكرنا وراء إخراج طاهر بن الحسين عن بغداد، لأنه حسده على المكانة الرفيعة التي وصل إليها بعد مقتل الأمين واستيلائه على العراق، ولذلك سعى في إبعاده عن مسرح الأحداث في العراق، ولقد ظل طاهر بن الحسين يحارب نصر بن شيبث حتى استدعاه المأمون إلى بغداد بعد رجوعه إليها في عام ٢٠٤هـ / ٨١٩ م، فأصاب طاهر ابنه عبد الله بن طاهر في حرب نصر بن شيبث، ووافى الخليفة المأمون عند النهروان قادماً من الرقة، ودخل معه بغداد في صفر من نفس العام (٢٠٤هـ / أغسطس ٨١٩ م)؛ وبعد وصول الخليفة إلى بغداد قلد طاهر بن الحسين الجزيرة والإشراف على السواد، كما أسند إليه أيضاً منصب الشرطة في جانبي بغداد الشرقي والغربي^(٢).

(١) ابن الأثير، الكامل، ح ٦، ص ٣٥٧، ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٣٠١ - ٣٠٢.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ح ٦، ص ٣٦١، ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٣١٤.

وفى عام ٢٠٥هـ / ٨٢٠ م أسند الخليفة المأمون إلى طاهر بن الحسين ولاية المشرق من مدينة السلام (بغداد) إلى أقصى عمل المشرق من حلوان إلى خراسان^(١)، وتشمل هذه الولاية خراسان وسجستان وكرمان وطبرستان، إذ كانت الأحوال تنذر بالاضطراب والفتنة هناك. ولقد تعددت الآراء حول الأسباب التي جعلت المأمون يقلد طاهر بن الحسين هذه الولاية؛ فالأستاذ (عباس إقبال) يذكر أن المأمون قد قلده إياها مكافأة له على خدماته في الظاهر، وإبعاداً له عن بغداد وقصر أيد سيطرته عن أمور الخلافة في الباطن، لا سيما وأن طاهر قتل الأمين أخاه، فأبعده المأمون عن ناظره بهذه الإمارة، وقد قبل طاهر هذه المهمة لأنه كان يخشى الخليفة المأمون على نفسه^(٢)، في حين يذهب الدكتور فتحى أبو سيف إلى أن ولاية طاهر بن الحسين لخراسان كانت جزءاً من اتجاه السياسة العباسية نحو اللامركزية في الحكم، تلك السياسة التي بدأت معالمها منذ عهد الخليفة هارون الرشيد، وذلك استجابة لمطالب الولايات من ناحية، ولتخفيف الأعباء عن كاهل الخلافة كسلطة مركزية من ناحية أخرى. ولذلك وافق المأمون على قيام الدولة الزيدية في اليمن (٢٠٤هـ / ٨١٩ م) لتقف في مواجهة الحركات العلوية أو الخوارجية التي كانت تهدد مركزية الخلافة في اليمن والحجاز، وبالمثل فإنه أمام الظروف التي تعرضت لها الولايات الشرقية من تعدد حركات المعارضة المطالبة بالخروج عن التبعية للعباسيين، اضطر المأمون إلى قبول النظام اللا

(١) ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٣١٤.

(٢) عباس إقبال اشتياني، تاريخ إيران بعد الإسلام، نقله عن الفارسية د. محمد علاء

الدين منصور، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٨٩، ص ١٤٤.

مركزى فى خراسان نفسها، رغم اعتبارها أرض الدعوة ومعينها
العسكرى الذى لا ينضب^(١).

ويذكر كل من ابن الأثير وابن خلدون روايتين حول ولاية طاهر
بن الحسين لخراسان، يفهم من إحداها أن هذه الولاية تمت بفضل تدبيره
هو نفسه، وذلك أن صديقه الوزير أحمد بن أبى خالد قد أثار شكوك
ال خليفة المأمون حول مقدرة والى خراسان (غسان بن عباد) فى دفع
أخطار الترك الطامعين فى خراسان، فقال له "أخاف أن تخرج عليه
خارجة من الترك فتهلكه". فوافق المأمون فى شكوكه هذه وسأله عن
يصلح لولايتها، فأشار عليه بطاهر بن الحسين، غير أن المأمون خشى
من استقلال ابن الحسين بها وقال عنه: "هو خالع"، فهذا الوزير من
وساوس الخليفة تجاه طاهر بن الحسين، وضمنه له، فاستدعاه الخليفة
وقلده أمر هذه الولاية، فخرج من يومه إليها وعسكر خارج بغداد، وولى
المأمون مكانة بالجزيرة ابنه عبد الله بن طاهر وكان ينوب عن أبيه فى
منصب صاحب الشرطة ببغداد. ثم سار طاهر إلى خراسان فى آخر ذى
القعدة سنة ٢٠٥هـ^(٢).

أما الرواية الثانية فى سبب ولاية طاهر خراسان، كما يذكر
ابن خلدون "أن عبد الرحمن المطوع جمع جموعاً كثيرة بنيسابور لقتال
الحرورية، ولم يستأذن غسان بن عباد وهو الوالى على خراسان، فخشى

(١) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى، الطبعة
الثالثة، القاهرة ١٩٥٣، ح ٢، ص ٦٧، فتحى أبو سيف، خراسان تاريخها السياسى
والحضارى من سقوط الحكم الطاهرى إلى بداية الحكم الغزنوى، القاهرة ١٩٩٥،
ص ٥.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ح ٦، ص ٣٦١، ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٣١٤ - ٣١٥،
نبيلة حسن محمد، محاضرات فى تاريخ الدولة العباسية، ص ١١٦.

أن يكون ذلك من المأمون، فاضطرب وتعصب له الحسن بن سهل، وخشى المأمون على خراسان فولى طاهرا وسار إلى خراسان فأقام بها إلى سنة سبع^(١). يقصد سنة ٢٠٧ هـ. ويتضح من هذه الرواية أن الخليفة المأمون قلد طاهرا بن الحسين ولاية خراسان خوفا من استبداد واليها غسان بن عباد واستقلاله بها. وحرصا من الخليفة المأمون على بقاء هذه الولاية ذات المكانة الاستراتيجية بالنسبة للخلافة العباسية تحت السيادة العباسية، ولطالما لعب طاهر بن الحسين هذا الدور في الدفاع عن أملاك العباسيين والقضاء على القلاقل والفتن في الولايات المضطربة، كما حدث عندما قلده ولاية الموصل والجزيرة من قبل.

مما تقدم يتضح أن الخليفة المأمون قدم حرصه على بقاء ولاية خراسان تحت السيادة العباسية، خوفا من استيلاء الأتراك عليها أو استقلال غسان بن عباد بها، على شكوكه التي كانت تساوره ناحية طاهر بن الحسين. ولعله وافق على ولاية طاهر بن الحسين لخراسان من منظور النظام اللامركزي، وفوضه في حكم هذه الولاية حكما ذاتيا تحت السيادة العباسية، للإشراف على الشؤون السياسية والاقتصادية للولايات الشرقية، وتحقيق هدف الخلافة في إبقاء هذه الولايات تحت سلطانها، وذلك بتنسيق العلاقات السياسية والاقتصادية بين الدولة الطاهرية وبين الخلافة العباسية بوصفها ممثلة الزعامة السياسية والروحية للعالم الإسلامي كما يذكر ابن طيفور^(٢).

(١) ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٣١٥.

(٢) ابن طيفور، كتاب بغداد، نشر عزت العطار الحسيني، القاهرة ١٩٤٩، ص ٧٤، فتحى أبو يوسف، خراسان، ص ٦.

ولقد ذكرنا اعتماداً على رواية (ابن ظافر الأزدي) أن المأمون أسبغ على قائده طاهر بن الحسين لقب (ذو اليمينين) وذلك بعد انتصاره على جيوش علي بن عيسى بن ماهان في مبتدأ الصراع بينه وبين الخليفة الأمين. غير أن الأستاذ (عباس إقبال) يذكر أن الأقوال اختلفت في سبب هذه النسبة، (فالبیهقي) يقول إنه لما استقدم طاهر بن الحسين بعد فتح بغداد الإمام علي بن موسى الرضا بأمر الخليفة المأمون (وكان ما يزال في خراسان)، وبايعه بولاية العهد، بايع طاهر بن الحسين ولي العهد الجديد بيده اليسرى، محتجاً في ذلك بأن يده اليمنى مشغولة ببيعة المأمون في خراسان، فقد كان عادة بنى العباس أن يحضر الخليفة ومعه ولي عهده إلى المسجد في وقت أخذ البيعة، ويبايعهما الناس فيبايع الرجل الخليفة بيده اليمنى وولي عهده بيسراه ولما نقل علي الرضا هذه الواقعة للخليفة المأمون، قال المأمون : أسمى يسرى طاهر اليمنى أيضاً حتى لا تنفض بيعته للإمام علي بولاية العهد، ومن ثم اشتهر طاهر بلقب (ذو اليمينين)^(١).

ومن أهم الأحداث أثناء ولاية طاهر بن الحسين لخراسان، ازدياد نفوذ الخوارج في إقليم سجستان التابع لسلطان صاحب خراسان، فقد اشتدت شوكة حمزة الخارجي الذي كان قد ثار في سجستان منذ عهد الخليفة هارون الرشيد، ولكن طاهر بن الحسين كلف ابنه طلحة والي سجستان بالقضاء على فتنة الخارجي هذا، فدخل معه في صراع كان النصر فيه سجلاً بينه وبين الطاهريين حتى انتهى الأمر بانتصار طلحة بن طاهر في عام ٢١٣هـ، ووفاة حمزة في هذا التاريخ.

(١) البیهقي، تاريخ البیهقي، ترجمة يحيى الخشاب وصادق نشات، القاهرة ١٩٥٦.

ويبدو أن طاهراً أراد الاستقلال الفعلى عن السيادة العباسية، وعزم على عصيان الخليفة المأمون بعد ما شعر بقوته، ففي جمادى الأولى من سنة ٢٠٧هـ / ٨٢٢ م، ظهرت ميوله نحو الحكم المستقل فأهمل اسم الخليفة المأمون فى خطبة الجمعة ودعا بصلاح الأمة، فكتب صاحب البريد بذلك إلى المأمون بخلعه، فدعا الخليفة بالوزير أحمد بن أبى خالد وعنفه وحمّله مسئولية جنوح طاهر بن الحسين نحو الاستقلال وألزمه بإتهاء هذا التمرد فقال له : "أنت ضمنته ! فسر وأنتنى به، ثم جاء من الغد الخبر بموته، فقال المأمون للبريد ونعم الحمد لله الذى قدّمه وأخرنا"^(١).

وقد أثارت وفاة طاهر بن الحسين الفجائية الشكوك حول أسباب تلك الوفاة. واختلف المؤرخون حول ذلك، فقال بعضهم أن وفاته كانت طبيعية، بينما جاء فى روايات أخرى أن وفاته كانت غير طبيعية، وألصقت التهمة بالخليفة المأمون الذى دبر قتله بالسم. ولكن المرجح أن وفاة الطاهر بن الحسين كانت طبيعية ولم يكن للخليفة ووزيره دوراً فيها، يدل على ذلك أن العلاقة بين الطاهريين وبين العباسيين كانت وثيقة وقائمة على الود والاحترام فقد كان بنى طاهر والمأمون (تجاوزاً) من أصل عنصرى واحد وهو العنصر الفارسى، ولم تكن لدى المأمون أية شكوك فى حسن نوايا طاهر بن الحسين، فقد تلقى الأخير قبل وفاته من المأمون رسالة تفيض ودا وتقديراً، كما أن الخليفة المأمون كتب لعبد الله ابن طاهر يعزيه فى والده وبعث إليه رسالة تفيض بالأسى والحزن على فقده، حقيقة أنه حمد الله على وفاته كما يذكر ابن خلدون، ولكن على ما

(١) ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٣١٥.

يبدو أنه حمد الله على تجنب المسلمين شر حدوث فتنة لا يعلم أوارها إلا هو.

كذلك لو كانت وفاة طاهر بن الحسين من تدبير الخليفة المأمون، لتغيرت العلاقة بينه وبين بني طاهر عقب وفاة طاهر، وكان في إمكانه نكبتهم بعزلهم عن حكم خراسان وتجريدتهم من مناصبهم العليا التي كانت في أيديهم، كما فعل أبوه الخليفة هارون الرشيد مع البرامكة الذين جنحوا للسيطرة على دولته، ولكن الذي حدث هو العكس تماماً، فقد ظلت علاقة الأسرة الطاهرية بالخلافة العباسية مستمرة وقوية وقائمة على التفاهم والتعاون، وظل بنو طاهر يحكمون خراسان حتى سقطت دولتهم في سنة ٨٧٢/٢٥٩ م على يد يعقوب بن الليث الصفار كما سنرى، وظل منصب شرطة بغداد ورأئياً لأفراد هذه الأسرة حتى عام ٩١٣/٣٠٠ هـ م تقريباً. ولقد ثبت الخليفة المأمون طلحة بن طاهر على ولاية خراسان، وقد قابل الطاهريون ثقة المأمون بالإخلاص من جانبهم، وحرصوا على تطوير التعاون معه والاعتراف بسلطانه.

ولاية طلحة بن طاهر (٢٠٧ - ٢١٣ هـ / ٨٢٢ - ٨٢٨ م):

كان طلحة بن طاهر يحكم سجستان في أيام أبيه وكان يعيش فيها حتى وفاة أبيه، فلما وصله خبر موت أبيه قدم خراسان بعدما قلده الخليفة المأمون أمرها، فبعث بدوره (إلياس بن أسد الساماني) لحكم سجستان. ويبدو أن الخليفة المأمون أراد الاستقرار لولاية خراسان تحت حكم الوالي الجديد، خوفاً من مهاجمة أعداء الخلافة العباسية لها، منتهزين فرصة وفاة القائد المحنك طاهر بن الحسين، ولذلك أرسل أحمد بن أبي خالد ليقوم بأمره، وبالفعل وجه أحمد بن أبي خالد اهتمامه لغزو بلاد ما وراء

النهر حيث توجد القبائل التركية المتوثبة للخروج على طاعة العباسيين ومهاجمة أملاكها في المشرق، وافتتح أشروسنة. وأسر (كاووس بن خالد حدّ وابنه الفضل)، وبعث به إلى الخليفة المأمون، كذلك نجح أحمد بن خالد في القضاء على تمرد الحسين بن الحسين بن مصعب بكرمان، وقبض عليه وأتى به إلى المأمون فعفا عنه. ونظراً لدور هذا القائد في حفظ ولاية بني طاهر في خراسان، فقد وهبه طلحة بن طاهر ثلاثة آلاف ألف درهم وعروضاً بألف ألف، كما وهب لإبراهيم بن العباسي كاتب أحمد ٥٠٠ ألف درهم^(١).

كذلك وجه طلحة بن طاهر اهتمامه لمواصلة قتال الخوارج في سجستان للقضاء عليهم، ونجح في التغلب التام على حمزة الخارجي. غير أن طلحة توفي بعد هذا الانتصار بقليل (٢١٣هـ / ٨٢٨ م)، وأتاب الخليفة المأمون خلافته إلى أخيه عبد الله بن طاهر وكان في (كرمانشاه) يستعد لحرب (بابك الخرمي)، فأنفذ عبد الله بموافقة المأمون أخاه يدعى علي ابن طاهر من جانبه إلى خراسان ليحكمها نيابة عنه^(٢).

ولاية عبد الله بن طاهر (٢١٣-٢٣٠هـ / ٨٢٨-٨٤٥ م):

كان عبد الله بن طاهر ينوب عن أبيه طاهر بن الحسين بالشرطة في بغداد، حينما كان والده حاكماً على الجزيرة. وعندما قلد المأمون طاهراً بن الحسين ولاية خراسان (٢٠٥هـ)، ولى مكانه بالجزيرة ابنه عبد الله، وجعل له المأمون ما بين الرقة ومصر وأمره بحرب نصر بن شبث، أما شرطة بغداد فقد استخلف عبد الله بن طاهر عليها اسحق بن

(١) ابن خلدون، العبر، ج ٣، ص ٣١٥.

(٢) ابن خلدون، العبر، ج ٣، ص ٣١٨.

إبراهيم بن مصعب وهو ابن عمه. وسار عبد الله بن طاهر لقتال نصر بن شيبث وبعث الجيوش لحصاره (بكيسوم)، ثم سار بنفسه سنة (٢٠٩ هـ) وحاصره بها حتى أجده الحصار فطلب من عبد الله الأمان فأمنه وبعث به إلى المأمون. وبعد الانتهاء من أمره سار من الشام إلى مصر وكانت تغلى بالفتن والاضطرابات وسلطة الخلافة العباسية تضعف تدريجيا، لتمرد السرى بن عبد الحكم بها، واستيلاء طائفة البحرين الأندلسيين على الإسكندرية، وأدرك عبد الله بن طاهر أنه للقضاء على هذه الفتن جميعا لابد من استخدام الجيش والأسطول معا، فأرسل جيشا من الخراسانيين إلى مصر، وأقبل عبد الله بن طاهر بنفسه إلى مصر في عام ٢١٠ هـ، وانهزم (السرى بن الحكم) أمامه حتى نزل على الأمان، ثم بعث إلى الطائفة الأندلسية في الإسكندرية بالحرب وحاصرهم بها أسبوعين، فسألوا الأمان على أن يرتحلوا إلى بعض الجزائر في البحر المتوسط من غير البلاد التابعة للعباسيين، فنزلوا إقريطش. وظل عبد الله بن طاهر في مصر حتى قلده المأمون ولاية خراسان^(١).

أعطى موت طلحة بن طاهر وغياب أخيه عبد الله عن خراسان لقتال بابك الخرمي، فرصة هامة للخوارج في سجستان فاستغلوها للهجوم على خراسان، وكان علي بن طاهر نائب عبد الله في حكم خراسان قد ولي (محمد بن حميد) على نيسابور بينما ظل هو في بغداد، فكثرت عيث الخوارج بخراسان، فأمر المأمون عليا بن طاهر بالمسير إلى خراسان، فسار ونزل نيسابور وسأل أهلها عن سيرة محمد بن حميد فسكتوا فعزله لسكوتهم. وبعد أن فرغ عبد الله بن طاهر من أمر مصر والإسكندرية،

(١) ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٣١٥ - ٣١٧.

سيره الخليفة المأمون إلى خراسان وأعطاه خمسمائة ألف درهم^(١). فبدأ عبد الله في دفع فتنة الخوارج.

وفي عهد الخليفة المعتصم خرج محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي زين العابدين بن الحسين الملقب بالصوفي على طاعة العباسيين، وكان محمداً هذا ملازماً للمسجد النبوي بالمدينة حتى لزمه أحد الخراسانيين وزين له أحقيته بالإمامة، وصار يأتيه بحجاج خراسان يُبايعونه، ثم خرج به إلى (الجوزجان)^(٢)، وأخفاه وأقبل على الدعاء له، ثم أظهر الدعوة للرضا من آل محمد على عادة العلويين، وكان يذهب إلى القول بالتوحيد والعدل وانضم إليه كثير من أهلها وحارب جيوش عبد الله ابن طاهر في مواقع كثيرة فهزموه هو وأصحابه، ففر بنفسه إلى ناحية (نسا) القريبة من نيسابور^(٣)، فوشى به بعض أهلها إلى العامل فقبض عليه وبعثه إلى عبد الله بن طاهر، فأرسله بدوره إلى الخليفة المعتصم في

(١) ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٣١٨.

(٢) الجوزجان هي الناحية الغربية من ربع بلخ أحد أرباع خراسان، وكانت من أعمر النواحي وأكثرها سكاناً، وبها مدناً كثيرة، وكانت هذه النواحي عظيمة الخصب كثيرة التجارات، وأكثر ما كان يصدر منها الجنود المدبوغة التي كانت تحمل إلى خراسان (ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٦١، المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٩٨، لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٦٥).

(٣) نسا هي الوادي العريض المعروف اليوم بوادي المن، وقد وصف ابن حوقل مدينة نسا بأنها في الكبر نحو مدينة سرخس، وأن مياهها جارية من الجبال المجاورة، أما المقدسي فقد امتدح جامعها وسوقها العامرة وقال "أقل دار، إلا وبها بستان وماء جار". وبها قرى كبيرة تنتشر حولها في الوادي. ويذكر القزويني أن نسا كان يطلق عليها أيضاً (شهر فيروز)، نسبة إلى الملك الفارسي فيروز الذي بناها على ما يقال، ويرجح مترجماً كتاب بلدان الخلافة الشرقية أن نسا تطابق مدينة (محمد آباد) الحالية أكبر مدن دره كز (ابن حوقل، نفسه، ص ٣٦١، ٣٧٨، المقدسي، نفسه، ص ٤٦٥-٤٦٦، القزويني، آثار البلاد، ص ٤٦٥-٤٦٦، لسترنج، المرجع السابق، ص ٤٣٥ - ٤٣٦ هامش ٢٠).

منتصف ربيع الأول من سنة ٢١٩ هـ، فحبسه بالعراق ووكل به مسرور الكبير فحبسه في سرداب شبيه بالبئر فكاد يموت فيه. وقد اختلف الناس في نهايته، فمنهم من يقول إنه مات مسموما، ومنهم من يقول إن بعض شيعته أخرجه من سجنه بقبة بستان موسى التي أمر المعتصم بسجنه فيها وذهبوا به إلى مكان سرى، وهناك من يقول إنه حي لم يمت وأنه المهدي المنتظر، وأكثرهم من شيعته بالكوفة وبلاد طبرستان وإقليم الديلم^(١).

كذلك تعاون عبد الله بن طاهر مع الخلافة العباسية تعاوناً صادقاً في قمع الثوار الخارجين عليها. وكان (مازيار بن قارن) صاحب طبرستان منافراً لعبد الله بن طاهر، فكان لا يرسل إليه الخراج، وإنما يرسله إلى الخليفة المعتصم، فكان الأخير يرسل من يقبض الخراج ويدفعه إلى وكيل عبد الله بن طاهر يرده إلى خراسان، مما يدل على استقلال خراسان في عهد عبد الله بن طاهر استقلالاً بمعنى الكلمة كما يذكر (بارتولد)^(٢)، فاشتدت هوة الخلاف بين صاحب خراسان عبد الله بن طاهر ومازيار بن قارن، وعظمت سعاية ابن طاهر في مازيار عند المعتصم حتى استوحش منه. ولما طمع (الأفشين) قائد المعتصم في ولاية خراسان، استخدم مازيار لتحقيق هدفه هذا، فأخذ يحرضه على عداوة ابن طاهر والدولة العباسية، ليضطر المأمون إلى إرساله لمساندة ابن طاهر في حربه فيكون ذلك وسيلة له إلى الاستيلاء على خراسان ظناً بأن ابن طاهر لا ينهض لمحاربتة. فانتفض مازيار وأجبر الناس على بيعته كرها وأخذ

(١) أبو الفرج الأصفهاني، مقاتل الطالبين، بيروت ١٩٦١، ص ٤١٨، المسعودي، مروج الذهب، ح ٣، ص ٤٦٥، ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٣٢١، سالم، العصر العباسي الأول، ص ١٢٥ - ١٢٦.
(٢) بارتولد، تركستان، ص ٣٣١.

رهانهم، وعجل جباية الخراج فاستكثر منه، وخرّب أسوار مدينتي (أمل وسارية)^(١)، فأنفذ عبد الله بن طاهر عمه الحسن بن الحسين في جيش كثيف لقتاله، كما أرسل المعتصم الجيوش من بغداد لقتاله فأحاطوا به من كل ناحية، وفي النهاية نجحت قوات ابن طاهر في القبض على مازيار وحرق قصره ونهب أمواله، فلما مثل بين يديه طلب منه كتب الأفشين إليه فأحضرها، وأمر بإرسالها معه إلى الخليفة المعتصم، فلما وصل إلى المعتصم بسامرا شهر بالثائر الطبرستاني الذي أدخل العاصمة على بغل بعد أن امتنع عن ركوب الفيل مثل بابك، وأمام المعتصم ضرب بالسياط (٤٥٠ سوطا) حتى مات، ثم صلب إلى جانب شبيهه الثائر الأذربيجاني (بابك)، وكان ذلك في عام ٢٢٤هـ / ٨٣٩م^(٢).

ولقد لعب عبد الله بن طاهر دورا هاما في تغير المعتصم على قائده التركي الأفشين، مما تسبب في نكبته ومقتله في نهاية الأمر، وكان عبد الله بن طاهر عينا للخليفة على تحركات الأفشين، ولقد بلغ العداء مبلغه بين الرجلين لدرجة أن عبد الله بن طاهر عثر على بعض أموال الأفشين التي كان يرسلها إلى أشروسنه مسقط رأسه، وصرفها في العطاء ومرتبات الجند ليوجههم إلى قتال الترك عصابة الأفشين، فاستشاط

(١) أمل قاعدة طبرستان كما سنذكر، ولكن الظاهريون أقاموا في مدينة سارية واتخذوها قاعدة لطبرستان، وهي في شرق أمل، ويقال لها اليوم (ساري)، وكانت عامرة بالأسواق، ومشهورة بالثياب الفاخرة، وهي حصينة حولها خندق، وبها الحرير لكثرة ما يربى فيها من نود القز (ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣١٨، ٣٢١، ٣٧٦، المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٣٥٤، ٣٥٩، لسترنج، نفسه، ص ٤١٠ - ٤١١).

(٢) ابن الأثير، الكامل، ح ٦، ص ٤٩٦ - ٤٩٨، ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٣٣١ - ٣٣٤، ٣٣٦، نبيلة حسن محمد، محاضرات في تاريخ الدولة العباسية، ص ١٣١ - ١٣٢.

الأفشين غضبا من تصرفه هذا ولكنه كظ غيظه منه، واستحكمت الوحشة بينهما، حتى ما كان من نكبته ومقتله في شعبان من سنة ٢٢٦هـ / ٨٤٠ م^(١).

وكان عبد الله بن طاهر شاعرا وأديبا وفاضلا وعادلا، أثر نيسابور عاصمة له، وقام فيها بتعمير كبير، واهتم اهتماما خاصا بالزراعة وحفر القنوات وإصلاح الري وتقسيم المياه. ورغم توطد العلاقة بين عبد الله بن طاهر والخليفة المعتصم، إلا أنه على ما يبدو قد حدث ما عكس صفو هذه العلاقة وجعلها متوترة بين الطرفين، فإن (بارتولد) استنادا على رواية (الكرديزي) يذكر أن الخليفة المعتصم كان يبغض صاحب خراسان، ولكنه لم يستطع أن يعزله عن منصبه ولم يتخذ ضده إجراءات سافرة، غير أنه حرص على اغتياله سرا، بأن أهدى إليه جارية وأعطاهها فوطة مسمومة، ولكن الجارية وقعت في غرام سيدها الجديد عند وصولها إلى نيسابور وكشفت له سر المؤامرة^(٢).

ولقد تمكنت الدولة الطاهرية في فترة قوتها (٢٠٥ - ٢٣٠هـ / ٨٢٠ - ٨٤٤ م) أن تقوم بواجباتها في المشرف الإسلامي، فاستطاع حكامها وأبرزهم طاهر بن الحسين وأولاده طلحة وعبد الله بمساعدة الخلافة العباسية على تحقيق الاستقرار السياسي، بالقضاء على الحركات العصيانية التي دعت للخروج على طاعة العباسيين وخاصة في إقليمى أذربيجان وطبرستان كما رأينا كما، استطاعت حراسة الثغور الإسلامية المشرقية سواء على الحدود الهندية أو في صد الغارات التي كانت تقوم

(١) ابن ظافر الأزدي، أخبار الدول المنقطعة، ص ١٧٢ - ١٧٣، ابن خلدون، العبر،

ح ٣، ص ٣٣٤ - ٣٣٧.

(٢) بارتولد، تركستان، ص ٣٣١ - ٣٣٢.

بها القبائل الصينية أو قبائل الترك ببلاد ما وراء النهر^(١)، وقامت الدولة الطاهرية بهذه المسئوليات الإدارية والحربية اعتمادا على الموارد الطبيعية والبشرية لإقليم خراسان من ناحية، وعلى مساعدات الخلافة العباسية وتأييدها لها من ناحية أخرى.

ضعف الدولة الطاهرية في عهد حكامها الأواخر

(٢٣٠ - ٢٥٩ هـ / ٨٤٥ - ٨٧٤ م) :

وسرعان ما انتاب الدولة الطاهرية الضعف لثقل مسئولياتها الإدارية والحربية في المشرق خاصة بعد وفاة آخر حكامها الأقوياء عبد الله بن طاهر وولاية كل من طاهر بن عبد الله (٢٣٠ - ٢٤٨ هـ)، ومحمد بن طاهر (٢٤٨ - ٢٥٩ هـ). فالأول كان يحكم طبرستان في حياة أبيه عبد الله بن طاهر، ولما مات قلده الخليفة الواثق ولاية خراسان خلفا لأبيه، فحكمها ثمانية عشر عاما بعدالة وتقوى، أما محمد بن طاهر آخر الأمراء الطاهريين، فكان رجلا غافلا ضعيف النفس ماجنا، ولذلك فقد كان عماله يعاملون الرعية في ولاياتهم معاملة قياسية واستبدوا بهم كما سنذكر عند حديثنا عن الدولتين الزيدية ثم طبرستان والزيارية في إقليم الديلم، وكذلك عند الحديث عن الدولة الصفارية في سجستان. تلك الدولة التي أزلت الدولة الطاهرية من الوجود بعد حكم دام ثلاث وخمسين سنة.

وفي الواقع أن سقوط الدولة الطاهرية لم يكن مفاجئا، بل كان متوقعا لعدة أسباب أبرزها : اعتماد الطاهريين على مساعدات الخلافة

(١) النرشخي، تاريخ بخارى، عربه عن الفارسية وحققه أمين عبد المجيد ونصر الله

الطرازي، دار المعارف، مصر ١٩٦٥، ص ١٠٦، فتحى أبو سيف، خراسان،

العباسية السياسية والعسكرية كإحدى الأسس الهامة للإبقاء على فعالية دورهم والحفاظ على قوتهم في المشرق، وقد اتضح هذا فعلا في التنسيق السياسي والعسكري بين العباسيين ونوابهم الطاهريين مع بداية حكمهم لخراسان، فتحقق لهم بفضل هذه المساعدات التأييد السياسي والمعنوي في آن واحد. فلما تغيرت ظروف الخلافة العباسية وأصابها الضعف وأصبح حكامها ألعوبة في يد الأتراك، وطحنتها الفتن واعتورتها الثورات من كل جانب، لم تستطع الوفاء بالتزاماتها تجاه الطاهريين، وقد أدى ذلك إلى اعتماد الدولة الطاهرية على إمكانياتها الذاتية - وهي غير كافية وحدها - في إدارة الشؤون السياسية والعسكرية لولايات المشرق، مما أدى إلى ضعفها ثم سقوطها في النهاية.

كذلك كان فساد النظام الإداري في الولايات التابعة للطاهريين سببا في ضعف هذه الدولة، فقد أصيب الاستقرار الإداري بخلل كبير عندما ترك عمال الطاهريين من أبناء البيت الطاهري ولاياتهم، وفضلوا البقاء في نيسابور العاصمة تاركين إدارة الولايات لاتباعهم وأعوانهم الذين وصفوا بعدم الخبرة الإدارية وعدم الإخلاص، كما اتسم بعضهم بالتعسف مع الأهالي في جباية الضرائب، بل إمعانهم في فرض ضرائب باهظة على الرعية، فأدى ذلك إلى تدميرهم وسخطهم على حكم الطاهريين، وسعيهم لإسقاطه عن طريق الزعامات المحلية والرموز الدينية^(١).

(١) ابن اسفنديار، تاريخ طبرستان، تصحيح عباس إقبال، طهران ١٣٢٠ ش، ص ٢٢٣ - ٢٢٤، مجهول، تاريخ سيستان، تصحيح ملك الشعراء بهار، جاب دوم إيران ١٣٥٢، ص ١٨٠، فتحي أبو سيف، خراسان، ص ٧ - ٨.

ومن عوامل ضعف الدولة الطاهرية أيضا انقسام البيت الطاهري على نفسه، فقد دبرت المؤامرات والذسائس للأمير الطاهري في نيسابور من قبل أهل بيته أو عماله على الولايات التابعة له، مما ساعد على ضعف الدولة وانهارها^(١). وأخيرا فقد طمح القادة المحليون في الولايات التابعة للدولة الطاهرية، في أن يصيبهم ما أصاب الطاهريين من حكم ذاتي شبه مستقل تحت السيادة العباسية، فسنعوا إلى عصيان الطاهريين لإجبارهم على ترك هذه الولايات ليحكمها أبناؤها بأنفسهم، مما أدى إلى ضعف الدولة الطاهرية وزوالها على أيدي الصفاريين الذين لم يكتفوا بطرد الطاهريين من سجستان فحسب، بل أسقطوا دولتهم في خراسان نفسها واستولوا عليها على ما نذكر فيما بعد.

وأدت هذه العوامل التي أحاطت بالدولة الطاهرية إلى خلق تيار المعارضة في الولايات الشرقية، وأصبح لكل ولاية طابعها الخاص في التعبير عن مطالبها السياسية أو المذهبية، أو غيرها من مطالب اقتصادية واجتماعية، وتحمل الطاهريون في خراسان مسئولية التصدي لحركات المعارضة في هذه الولايات، حتى ذهبت ضحية ضعفها^(٢).

وتجدر الإشارة إلى أن خراسان قد تمتعت في عهد الدولة الطاهرية بالأمن والرخاء والازدهار، فقد تعهد الطاهريون أهل العلم والمعرفة بعنايتهم، وأصبحت نيسابور في عهدهم مركزا من مراكز الثقافة الإسلامية. وقد كان من بين الطاهريين أنفسهم جملة من أهل الفضل والأدب والشعر والحكمة، وأشهرهم الأمير أبو أحمد عبيد الله بن عبد الله

(١) البيهقي، المصدر السابق، ص ٢٧٠، بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة

نبيه أمين ومخير البعلبكي، بيروت ١٩٦١، ج ٢، ص ٥٩.

(٢) فتحى أبو سيف، خراسان، ص ٨.

بن عبد الله بن طاهر الذي كان يسمى بسبب أديبه وفضله (حكيم آل طاهر). وإن كانت الدولة الطاهرية قد سقطت على أيدي الصغاريين في عام ٢٥٩هـ، فإن أفرادها ظلوا يشغلون منصب صاحب الشرطة في بغداد حتى عام ٣٠٠هـ، وكان الأمير أبو أحمد عبيد الله الطاهري (حكيم آل طاهر) آخر من تولى هذا المنصب من البيت الطاهري^(١).

(١) عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ١٧ - ١٨.

أسماء الأُمراء الظاهريين وزمن إماراة كل منهم

- ١ - ظاهر بن الحسين بن مصعب (٢٠٥ - ٢٠٧هـ)
- ٢ - طلحة بن ظاهر (٢٠٧ - ٢١٣هـ)
- ٣ - عبد الله بن ظاهر (٢١٣ - ٢٣٠هـ)
- ٤ - ظاهر بن عبد الله (٢٣٠ - ٢٤٨هـ)
- ٥ - محمد بن ظاهر (٢٤٨ - ٢٥٩هـ)

الفصل الثاني

الدولة الزيدية في طبرستان

(٢٥٠-٣١٦هـ / ٨٦٤-٩٢٨م)

- تقديم (عرض جغرافي لإقليم طبرستان).
- نشأة الفرقة الزيدية.
- فرق الزيدية.
- شروط الإمامة عند الزيدية.
- ظهور الزيدية في إقليم الديلم.
- ثورة يحيى بن عبدالله على الخلافة العباسية في بلاد الديلم.
- قيام الدولة الزيدية في طبرستان.
- الحسن بن زيد الداعي الكبير مؤسس الدولة الزيدية.
(٢٥٠-٢٧٠هـ).
- توسع الدولة الزيدية وموقف العباسيين من ذلك.
- ولاية محمد بن زيد الداعي (٢٧٠-٢٨٧هـ).
- ولاية الحسن بن علي الناصر الكبير " الأظروش".
(٣٠١-٣٠٤هـ)
- ولاية الحسن بن قاسم الداعي الصغير (٣٠٤-٣١٦هـ).

الفصل الثاني

الدولة الزيدية في طبرستان^(١)

(٢٥٠ - ٢١٦ هـ / ٨٦٤ - ٩٢٨ م)

تقديم (عرض جغرافي لاقليم طبرستان):

طبرستان احدى مناطق إيران الجغرافية وتقع جنوب بحر قزوين، واعتبرها "المقدسى" إحدى كور إقليم الديلم الخمس^(٢). وقد وصفها الجغرافيون بأنها كورة سهلية بحرية ولها أيضا جبال، وهي ذات مدن وقرى كثيرة، ومن أشهر بلدانها دهستان، وجرجان، واستراباذ، وأمل وهي قاعدة الإقليم، وسارية، وشالوس. ومن قلاعها، كوزا وهي من عجائب الدنيا حيث تناطح النجوم إرتفاعا وتحكيها إمتناعا حتى لا تعلوها الطير في تحليقها، ولا السحب في إرتفاعها كما يذكر القزويني، وحصن الطاق وكان في قديم الزمان خزانة ملوك الفرس، ولما ملك العرب طبرستان، حاولوا الصعود عليه فتعذر عليهم ذلك إلى أن ولي المازيار طبرستان، فقصد هذا الموضع وتملكه، واستولى على ما فيه من الأموال والسلاح والكنوز. وطبرستان مجاورة لجيلان وديلمان، وهي بين الرى وقومس وبحر الخرز وبلاد الديلم. والعجم يسمونها مازندران وأرضها كثيرة الأشجار والمياه، إلا أن هوائها وخم جدا، وسخة مبرغثة، وعامة خبزهم الأرز، وهي كثيرة الأسماك والثوم وطير الماء، وبها مزارع الكتان

(١) بسميها ابن خلدون (العبر، ح ٣، ص ٣٥٧)، الدولة العلوية بطبرستان، بينما يطلق

الإمام السيوطي (تاريخ الخلفاء، ص ٦٨) عليها اسم الدولة الطبرستانية.

(٢) المقدسى، أحسن التقاسيم، ص ٣٥٢.

والقنب^(١). ومدينة أملُ قصبَة طبرستان، وهي بلدة لها ذكر وشأن، بها ثياب عجيبة حسان، ومرافق وخصائص وبیمارستان (مستشفى) وبها جامعان، أحاط بكل جامع راقق، ونهر يدير أرحية لطحن الغلال. وأهلها ذو وجوه حسان، رشاق القوام، وهم تجار عظام وحاكة حذاق. وبها علوم كثيرة، ولا تخلو من إمام فقيه. ويوجد بمدينة سالوس قلعة من حجارة الجامع، ومدينة سارية عامرة السكان، مليئة بالأسواق والتجارات، حصينة بخندق وجسور، والعلوم بها مزدهرة، وأخلاق أهلها طاهرة^(٢). وجرجان مدينة عظيمة مشهورة بقرب طبرستان، بناها يزيد بن المهلب بن أبي صفرة، وقاعدتها مدينة شهرستان، وهي كثيرة الفواكة والزيتون والرمان، وقص السكر وأسواقها ضخمة ومساجدها كثيرة. وهي أقل مطرا من طبرستان، يجرى بينهما نهر تجرى فيه السفن، وجرجان تقع بين السهل والجبل والبر والبحر، وبها علوم كثيرة. ويصدر منها الخشب الخنج الذي يصنع منه النشاب والظروف والأطباق ويحمل إلى سائر البلاد^(٣).

وإستراياد أطيّب هواء وأصح ماء من جرجان، وعامة إستراياد من أمهر حاكة القز، وبها جامع في سوقها، وكان يحميها حصنا قويا. أما مدينة دهستان فتقع على يمين الطريق إلى الرباط الموجود بجرجان، وبها منارة تشاهد من بعيد في وسط القرى. وبدهستان قرى كثيرة بلغ عددها كما يذكر المقدسي أربع وعشرون قرية، وهي من أجل أعمال جرجان.

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٣٥٤، باقوت الحموي، معجم البلدان، م ٣، ص ٥٠٢، القزويني، آثار البلاد، ص ٢١٧، ٢٥٠، ٢٨٦، ٣٤٨، ٣٥٦، لسترنج، نفسه، ص ٤٠٩-٤١٠.

(٢) المقدسي، نفس المصدر، ص ٣٥٩.

(٣) المقدسي، نفسه، ص ٣٥٨، القزويني، آثار البلاد، ص ٣٤٨ - ٣٤٩، لسترنج، بلدان الخلافة، ص ٤١٧-٤١٩.

ورباطها عامر بالمساجد مُحصن بثلاثة أبواب، وبالرباط أسواق مزدهرة،
ومنازل عظيمة، وسائر المساجد بدهستان لأصحاب أبي حنيفة النعمان^(١).

وعن سبب تسمية هذه البلاد باسم طبرستان يذكر القزويني أن
أحد أكاسرة فارس (إيران) اجتمع في حبسه عدد كبير من الجناة، فأشار
عليه وزيره بأن ينقيهم عن عاصمة ملكه إلى بعض البلاد ليعمروها،
وذكر له السبب وراء ذلك، بأنهم إن عمروا هذه البلاد فسوف ينسب ذلك
إليه (كسرى)، وإن ماتوا إرتاح منهم. فاختر كسرى أرض طبرستان،
وهي يومئذ جبال وأشجار فأراد هؤلاء المساجين أن يقطعوا الأشجار،
فطلبوا فؤوسا، والفأس بالعجمية يقال لها تبر، فكثرت بها الفؤوس،
فقالوا طبرستان، وطبر تعريب تبر.

وقد بدأ اتصال المسلمين ببلاد طبرستان منذ خلافة عثمان بن
عفان وذلك في سنة ٢٩ هـ، ودخل أهلها في الإسلام منذ عام ١٧٠ هـ
تقريبا على مذهب الزيدية على يد يحيى بن عبد الله الحسنى، عند فراره
بعد موقعة فخ، ثم صارت ملجأ للفارين من الشيعة من بعده، ولكنها فتحها
لم يتم إلا في عهد الخليفة المأمون العباسى فى عام ٢٠١ هـ، وكان أول
ولاتها من قبل الخليفة المأمون هو المازيار بن قارون، ثم آلت إلى بنى
طاهر حكام خراسان. ويجدر بنا قبل أن نتحدث عن قيام الدولة الزيدية فى
بلاد طبرستان أن نلقى الضوء على فرقة الزيدية التى قامت الدولة على
مبادئها وعقائدها.

(١) المقدسى، نفسه، ص ٣٥٨ - ٣٥٩.

نشأة الفرقة الزيدية:

كان السلف الصالح من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، قبل استقرار المذاهب الدينية، مجتهدين مستقلين، ويرجع بعضهم إلى بعض، وإلى غيرهم من الصحابة والتابعين في زمانهم، وظلوا كذلك فترة طويلة وهم في الأصول الدينية على قول واحد، كما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم.

وأما في الفروع الفقهية فاختلّفوا بحسب اجتهاد أئمتهم المجتهدين كزيد بن علي وجعفر الصادق ومحمد الباقر. ومع قيام الإمام زيد بن علي بثورته ضد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، طلبا للخلافة في سنة ١٢٢ هـ / ٧٤٠ م^(١)، ظهرت الفرقة الزيدية من الشيعة، وهي الفرقة السياسية الوحيدة بينهم، وعرفوا "زيدية" نسبة إلى الإمام أبو الحسن زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب (٨٠ - ١٢٢ هـ / ٦٩٨ - ٧٤١ م)، لقولهم بإمامته وخروجهم معه بعد امتناع الرافضة^(٢)، وإن لم يكونوا على مذهبه في مسائل الفروع، أي أنهم أتباعه من الناحية السياسية لا من الناحية المذهبية، وهم مخالفون في ذلك للحنفية والشافعية لأنهم نسبوا إلى أبي حنيفة و الشافعي لمتابعتهم إياهم في الفروع.

- (١) عن ثورة زيد بن علي ضد الأمويين راجع: الطبري، تاريخ الأمم، ح ٧، ص ١٦٠ - ١٨٦، أبو الفرج الأصفهاني، مقاتل الطالبين، ص ١٣٣ - ١٤١.
- (٢) عن ترجمة زيد بن علي أنظر: ابن سعد، الطبقات ح ٥، ص ٣٢٥ - ٣٢٦، ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٥٦ المسعودي، مروج الذهب، ح ٤ ص ٤١ - ٤٥ وغيرهم. وعن تسمية الزيدية راجع: ابن النديم، الفهرست ص ٢٥٣، الشهرستاني، الملل والنحل، طبعة القاهرة، ص ١١٥، البغدادي، الفرق بين الفرق، طبعة محمد عثمان، الخشت، ص ٣٦، ٤٤ - ٤٥، المسعودي، مروج الذهب، ح ٤، ص ٤٥، أيمن فؤاد سيد، تاريخ المذاهب الدينية في اليمن، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٩٨٨، ص ٢١٧ - ٢١٨.

ويرى الزيدية أن تكون الإمامة فى أولاد فاطمة بعد أن تتوفر لهم شروط الإمامة، وقد سار بعض علماء الحديث على هذا المذهب. وكذلك قوم من الفقهاء المحدثين مثل سفيان بن عيينة وسفيان الثوري^(١). لذلك اعتبر المذهب الزيدى مذهباً خامساً إلى جانب المذاهب الفقهية الأربعة، والزيدية لا يتبرأون من إمامة الشيخين أبى بكر، وعمر بن الخطاب، مع قولهم بأن علياً بن أبى طالب أفضل منهما. أى أنهم يجيزون إمامة المفضول مع وجود الأفضل، على عكس الفرق الشيعية الأخرى كالإسماعيلية، والإثنى عشرية، فهم رافضة يرفضون إمامة الشيخين كما سنرى. وعلى هذا الأساس تعتبر الزيدية أقرب الفرق الشيعية إلى السنة. والفرقة الزيدية من الفرق الشيعية التى تمتاز بطابع خاص هو طابع الجهاد الذى أوجبه على نفسها وألزمت به أفرادها^(٢). وقد شاركت الزيدية فى فتن وثورات كثيرة إلى جانب العلويين، كما بايعوا مع المعتزلة فى الإمام محمد بن عبدالله النفس الزكية وقاموا معه فى ثورته ضد العباسيين فى عام ١٤٥ هـ / ٧٦٤م، ولكنهم لم يؤلفوا جماعة متحدة إلا بعد أن تولى زعامتهم رجال من العلويين ممن كانوا يدعون الإمامة^(٣).

وتكاد معظم الثورات التى قامت، عدا الفاطميين وحركة الحسن الصباح الذى أسس جماعة الحشاشية، ترجع إلى فرقة الزيدية، فالزيدية هم الذين تحملوا عبء الاضطهاد فى مركز الخلافة، فهاجروا إلى أطرافها، وكانت إحدى هجراتهم إلى بلاد الديلم، وكان من نتيجة هذه الهجرة غرس بذور الإسلام فى تلك البلاد، وظلت هذه البذرة تنمو حتى استكملت نموها، وحتى دخل الديلم جميعاً فى الإسلام واعتنقوه على مبدأ

(١) ابن النديم، الفهرست، ص ٢٥٣، الشهر ستانى، الملل والنحل ص ١١٥.

(٢) الشهر ستانى، الملل والنحل، ص ١٥٦.

(٣) أيمن فواد سيد، تاريخ المذاهب الدينية، ص ٢١٨.

الزيدية، وصاروا شيعة يدافعون عن المبادئ الشيعية بعامة وعن الزيدية بخاصة^(١).

فرق الزيدية:

يجمع مذهب الزيدية تفضيلهم للإمام علياً على سائر الصحابة وأولويته بالإمامة، وأن الإمامة بعد الإمام الحسين في ذرية السبطين، وأن استحقاقها إنما يثبت بالفضل والطلب لا بالوراثة، وأن الخروج على الجائرين من أهل الأمر واجب، كذلك يرون القول بالتوحيد والعدل مثل المعتزلة. فهم لا يختلفون في هذه الأمور. أما خلافهم ففي فروع المسائل.

واختلفت الزيدية بعد ذلك، فافترقوا إلى فرق اختلف المؤرخون وأصحاب كتب الملل والنحل في عددها. فمنهم من جعلهم أربع فرق^(٢)، ومنهم من جعلهم ثمانى^(٣)، ومنهم من جعلهم ست فرق. ويذكر النوبختي أن فرق الزيدية مختلفة فيما بينها في القرآن، والسنن والفرائض والشرائع والأحكام^(٤).

ولقد افتردت الزيدية الأولى فرقا ثلاثاً: الجارودية والبترية (الصالحية) والجريرية (السليمانية)، وافترق متأخرو زيدية اليمن إلى حُسَيْنِيَّة ومُخْتَرَعَة ومُطَرَّفِيَّة^(٥). بينما صار زيدية بلاد الجبل والديلم في القرن الرابع الهجري فرقتان الأولى قاسمية، نسبة إلى الإمام القاسم بن

(١) حسن أحمد محمود وأحمد إبراهيم الشريف، العالم الإسلامي، ص ٤٨٢ - ٤٨٣.

(٢) الشهر ستاني، الملل والنحل ١١٨، البغدادي، الفرق بين الفرق ص ٣٦، وجعلهم ابن شاکر الكتبي (فوات الوفيات ٢ ص ٣٨) ثلاث فرق.

(٣) المسعودي، مروج الذهب، ح ٤، ص ٤٥.

(٤) النوبختي، فرق الشيعة، طبعة محمد صادق الأبرج، النجف ١٩٣٦، ص ٥٨.

(٥) وهم ابن المجاور (صفة بلاد اليمن ١٨٨) حين ظن أن المخترعة والمطرفية هم الصالحية والجارودية، وأنظر أيضاً: أيمن فؤاد سيد، نفسه، ص ٢١٩.

إبراهيم الرسى المتوفى سنة ٢٤٦ هـ (٨٦٠ م)، وهو ينحو فيما يتعلق بالقول في ذات الله منحى الاعتزال. وهو المذهب الزيدى الذى وسَّعة وقضَّله من جاؤا بعده، والذى استمر إلى يومنا هذا^(١). والفرقة الثانية هي الناصرية نسبة إلى الإمام الناصر الأطروش (الحسن بن على بن الحسن بن على بن عمر بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب) المتوفى سنة ٣٤٠ هـ / ٩١٦ م. وكان بعض هذه الفرق بعد القرن الثانى وبعضها الآخر قبل ذلك. فالذى كان من قبل هم البترية والجريية، وهو الذى كان عليه مذهب زيد بن على ويقرب منه، فأما سائر الفرق فإنما حدثت بعد ذلك وخالفت زيد بن على فى أصوله وفروعه، ولم يوافقوه إلا فى النذر اليسير. وصار زيدية الجبل والديلم فى القرن الرابع الهجرى قاسميه وناصرية نسبة إلى الإمامين القاسم الرسى، والناصر الأطروش.

وغلِب على زيدية اليمن بعد ظهور الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين المتوفى سنة ٢٩٨ هـ / ٩١٠ م مذهبهُ الذى اصنطعهُ لنفسه فى الأصول والفروع ثم فرع الزيدية بعد ذلك على مذهبه ونصوصه التى فى كتابيه "الأحكام فى الحلال والحرام" و "المنتخب فى الفقه" واستقر عليه مذهب الزيدية المتأخرين، ولم يبق لمذهب زيد الأول فى الأصول والفروع متابع أصلاً.

أ - الجارودية:

نسبة إلى أبى الجارود زياد بن المنذر العبدي^(٢). زعم أن النبى ﷺ، نصَّ على إمامة على بالإشارة والوصف دون التسمية والتعيين، وأنه

(١) ابن النديم، الفهرست، ص ٢٧٤.

(٢) ابن النديم، الفهرست، ص ٢٥٣، البغدادي، نفس المصدر، ص ٤١.

أشار إليه ووَصَفَه بالصفات التي لم توجد إلا فيه. وأن الأمة ضلت وكفرت بصرفها الأمر إلى غيره، فهو الإمام بعد رسول الله ﷺ، والإمام بعده الحسن ثم الحسين بنص رسول الله ﷺ، ثم الإمام بعد هؤلاء الثلاثة ليس بمنصوص عليه، ولكن فيمن يخرج من هذين البطنين شاهراً سيفه داعياً إلى سبيل ربه، وكان عالماً فاضلاً.

وافترقت الجارودية فرقتين: فرقة زعمت أن النبي ﷺ، نصّ على الحسن والحسين بعد علي ليقوم واحد بعد الآخر. وفرقة زعمت أن النبي ﷺ، نصّ على عليّ، وأن علياً نصّ على الحسن وأن الحسن نصّ على الحسين^(١).

ب - البترية (الصّالحيّة)

أصحاب الحسن بن صالح بن حيّ، وأصحاب كثير النّوآء. سمّوا بذلك لأن كثيراً كان يُلقَّب بالأبتر. وذكر أبو الحسين الخياط أنهم سمّوا بذلك لأنهم لم يجهروا ببسم الله بين السور وجهروا بها في الفاتحة، فقيل بتروا الجهر، فسموا البترية. وفي قول آخر أنهم سمّوا بذلك لأنهم تبرأوا من عثمان في الست سنين الأولى من خلافته وبتروا.

يقول البترية إن علياً كان أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ، وأولاهم بالإمامة، وإن بيعة أبي بكر وعمر ليست بخطأ لأن علياً سلم لهما ذلك، وهذا بمنزلة رجل كان له حق على رجل فتركه له. ويتوقفون في أمر عثمان، ويرون تكفير من حارب علياً^(٢).

(١) المسعودي، مروج الذهب ح ٤، ص ٤٥، الشهرستاني: الملل والنحل ص ١١٨،

البغدادي، الفرق بين الفرق ص ٤١ - ٤٢، .

(٢) ابن النديم، الفهرست، ٢٥٣، النوبختي: فرق الشيعة ص ١٨، الشهرستاني، الملل

والنحل ص ١٢٠، البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٤٤.

ويعرفون أيضا بالصالحية نسبة إلى الحسن بن صالح بن حي^(١)، ويتفقون مع الجريرية السليمانية في القول في الإمامة. واعتبرهم الحاكم الجسمي فرقة واحدة.

ويُكفّر البترية الجارودية لقولهم بتكفير أبي بكر وعمر.^(٢)

ج- الجريرية (السليمانية):

أصحاب سليمان بن جرير الرقي، أحد شيوخ الزيدية ومتكلميها وممن عاصر الإمام إدريس بن عبد الله بن الحسن الداعي في بلاد المغرب. ويرى الجريرية أن الله تعالى ورسوله لم ينصا على رجل بعينه واسمه فيجعلوه إمامًا للناس، وأن الإمامة شورى بين خيار الأمة وفضلائها يعقدونها لأصلحهم لهم، وأنها قد تصح بعقد رجلين من خيار المسلمين وأنها قد تصح في المفضول مع وجود الأفضل^(٣). ويُنبت سليمان بن جرير إمامة الشيخين ويحكم على عثمان بالتكفير.

هذه أشهر فرق الزيدية الأوائل. واعتبر بعض المؤرخين "معتزلة بغداد" من الزيدية لأنهم كانوا مع أئمة الزيدية، وبايعوهم، ولقولهم بجواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل، مثلما وكى رسول الله ﷺ، عمرو بن العاص على فضلاء المهاجرين والأنصار في غزوة ذات السلاسل. ولقولهم إن أفضل الأمة بعد نبيها الإمام على بتقديمه لنظرانه في خصال الفضل والدين. فقد قال القاضي عبد الجبار إن هذا القول يقول به أكثر شيوخنا البغداديين، وبعض البصريين^(٤).

(١) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ١٢٠ - ١٢١.

(٢) البغدادي، الفرق بين الفرق ص ٤٣ - ٤٤.

(٣) الشهرستاني، الملل والنحل ١١٩ - ١٢٠، البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٤٢

- ٤٣ -

(٤) أيمن فؤاد سيد، نفسه، ص ٢٢٣.

شروط الإمامة عند الزيدية:

كان الإمام زيد يرى جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل^(١). وذهب إلى ذلك أيضاً طائفة من الخوارج والمعتزلة والمرجئة وجميع أهل السنة^(٢)، كذلك اشترط الإمام زيد الخروج شرطاً في كون الإمام إماماً، ويرى الخوارج أيضاً هذا الشرط. وجوزَ الزيدية خروج إمامين في قطرين يستجمعان هذه الخصال، ويكون كل واحد منهما واجب الطاعة^(٣)

وذكر الإمام زيد في "مجموعه" أن الإمامة في جميع قريش، ويتفق معه في هذا الرأي الفرقة "الصالحية" من الزيدية. وذهب إلى ذلك أيضاً المعتزلة بأسرها، وجميع الخوارج من الإباضية إلا النجدات، وذهب أبو حنيفة وأكثر المرجئة والزيدية من الجارودية إلى أن الإمامة لا تجوز إلا في قريش فقط^(٤). أما سائر الزيدية فقالوا إنها تختص بولد الحسنين. واشترطت الزيدية توفر مجموعة خصال في الإمام تنحصر في:

- ١- أن يكون من أهل البيت دون التمييز بين أبناء الحسن وأبناء الحسين، وبالتالي فلا يخلف إمام إماماً بالوارثة.
- ٢- أن يكون قادراً على الخروج للقتال بنفسه، بحيث لا يلي الإمامة صبي ولا مهدي غائب.
- ٣- أن يكون زاهداً، وزاد بعضهم أن يكون صبوح الوجه وليس به آفه.

(١) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ١١٦ .
(٢) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل (مصر ١٣١٢) ٤: ١٦٣ .
(٣) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ١١٥ .
(٤) المسعودي، مروج الذهب، ح ٤، ص ٦٠-٦١، يحيى بن الحسين، الطبقات، ص ٦٨ .

٤- أن يكون على ما يقتضيه مذهب الإمامة من العلم. وقد أخذ الزيدية ذلك مأخذ الجد بدليل الكثرة الهائلة من الكتب التي ألفها أئمة الزيدية في جميع الفروع.

ويرى الزيدية أنه لا يمكن أن يكون "زمان بلا إمام" وإلى جواز وجود أئمة كثيرين في زمان واحد يعارض بعضهم الآخر. وعدم توفر كل شروط الإمامة يمنع من الاعتراف للإمام بالإمامة الكاملة. وفي هذه الحالة استحدثت الزيدية اصطلاح "إمام في الحرب" أو "إمام في العلم" أما الرؤساء الذين لا تتعدى مقدرتهم المحافظة على حياة الدعوة الزيدية فقد سمي الواحد منهم: داعياً أو مُحْتَسِباً أو مُقْتَصِداً.

ويُنَّصَل المذهب الزيدي اتصالاً وثيقاً بمذهبين شهيرين، ففي الأصول (العقائد) يُعد مذهب المعتزلة أكثر المذاهب اتصالاً بمذهب الزيدية، وفي الفروع (الفقه) كان الزيدية على مذهب أبي حنيفة إلا في مسائل قليلة وافقوا فيها الشافعي. فقد كان زيد بن علي تلميذاً لواصل بن عطاء رأس المعتزلة، وأخذ عنه مذهبه وصار جميع أصحابه معتزلة في الأصول. ولم يخالف زيد المعتزلة إلا في مسألة المنزلة بين المنزلتين^(١) وكان كثير من معتزلة بغداد ينتسبون إلى زيد في كتبهم ويقولون: نحن زيدية. ويمكن أن نلاحظ أن كتب العقائد الزيدية كأنها من مؤلفات المعتزلة، لأنها تنقسم إلى قسمين كبيرين يندرج تحت أحدهما أبواب الوحدانية، ويندرج تحت القسم الآخر أبواب العدل. كذلك فقد شرح القاضي عبد الجبار بن أحمد المتوفى سنة ٤١٥ هـ / ١٠٢٥ م وأحد شيوخ

المعتزلة البغداديين، كتاب "الأصول الخمسة" للإمام القاسم الرسى المتوفى سنة ٢٤٦هـ / ٨٦٠م - وهو أقدم كتاب فى عقائد الزيدية.

وأقرب المذاهب الفقهية إلى مذهب زيد، هو مذهب الإمام أبى حنيفة، فكان الزيدية فى مسائل الفروع على مذهب أبى حنيفة، إلا فى مسائل قليلة وافقوا فيها الشافعى^(١). فقد كان الإمام أبو حنيفة من الفقهاء الذين اختلفوا إلى زيد بن على وأخذوا عنه، كما أعانه بمال كثير. وعدّ مؤرخو الزيدية الإمام أبا حنيفة من رجالهم، كما صرح أئمتهم أن نصوص أبى حنيفة من نصوصهم. وكان جماعة من فقهاء أصحاب أبى حنيفة وغيرهم يقولون إن محمد بن الحسن الشيبانى نقل أكثر مسائل "السير" عن كتاب "السير" للإمام محمد بن عبد الله النفس الزكية.

وتسّر كثير من رجال الزيدية المنتشرين فى أمصار السنة بمذهب أبى حنيفة، فكان عمر بن إبراهيم الزيدى، مقتى الكوفة، يقول: "أفتى بمذهب أبى حنيفة ظاهراً، وبمذهب زيد تديناً". وقد ذكر أصحاب كتب التراجم الزيدية بعض رجال الحنفية فى كتبهم لأنهم رووا عن زيد بن على. وفى الوقت نفسه كان كثير من رجال المعتزلة حنفية فى الفروع، فكان المحسن بن كرامة المعروف بالحاكم الجشمى حنفى المذهب عدلى الاعتقاد ثم رجع إلى مذهب الزيدية^(٢).

ظهور الزيدية فى إقليم الديلم:

عمد الخليفة العباسى محمد المهدى (١٥٨ - ١٦٩هـ / ٧٧٥ - ٧٨٥م) إلى التقرب من العلويين، ومحاولة استرضائهم^(٣) فأطلق سراح

(١) الشهر ستانى، الملل والنحل، ص ١٢١.
 (٢) أيمن فؤاد سيد، نفس المرجع، ص ٢٢٧.
 (٣) أبو الفرج الأصفهاني، نفس المصدر، ص ١٦٩، ابن الأثير، الكامل، ح ٥، ص ٥٢٧.

المسجونين منهم، ورد إليهم الأموال التي صودرت منهم، ولكنه في الوقت نفسه إهتم بتتبع أخبارهم، فاستوزر يعقوب بن داود لأنه كان من أنصار الشيعة الزيدية^(١). وترتب على ذلك عدم قيام العلويين بالثورة في عهده. غير أنه خليفته وولده موسى الهادي (١٦٩ - ١٧٠ هـ) اتبع معهم سياسة شديدة قاسية، وألح في طلبهم وأخافهم خوفا شديداً وقطع ما كان المهدي يجريه لهم من الأرزاق والأعطية، وكتب إلى الآفاق في طلبهم وحملهم^(٢) فلما اشتد خوفهم، وكثر من يطلبهم ويضيق عليهم، لأنوا بالحسين بن علي بن الحسن بن الحسن وبإيعوه بالإمامة فخرج علي الخليفة الهادي، التي كانت أخلاقه التي تتسم بالقوة والشراسة^(٣)، من العوامل الهامة وراء قيام العلويين بثورتهم ضده في عام ١٦٩ هـ، أما السبب المباشر للثورة، فهو أن والي المدينة عمر بن عبد العزيز بن عبد الله حفيد عمر بن الخطاب أمر بضرب الحسن بن محمد النفس الزكية مع بعض أصحابه لأنهم شربوا نبيذاً، ثم جرسهم، فأثار هذا الحارث غضب رئيس العلويين الحسين بن علي، فقام بثورته واستولى على المدينة ثم اتجه إلى مكة في موسم الحج، فاتضم إليه بعض الحجاج والعبيد، وفي موضع يسمى فخ بين مكة والمدينة، تقابل العلويون مع الجيوش العباسية في معركة دامية سنة ١٦٩ هـ، فقتل الحسين بن علي الذي سمي (بقتيل فخ) ومعظم من كان معه، وكان عدد القتلى يزيد على مائة قطعت رؤوسهم من بينهم الحسن بن محمد بن عبد الله، وتركت جثث القتلى

(١) ابن طباطبا، الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، القاهرة، ١٣١٧ هـ، ص ١٦٦، ابن الأثير، الكامل، ح ٦، ص ٣٨.

(٢) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، طبعة النجف، ١٣٥٨ هـ، ح ٣، ص ٤٠٤، السيد عبد العزيز سالم، العصر العباسي الأول، ص ١١٩.

(٣) وصفه السيوطي نقلاً عن الذهبي بقوله "تعلوه هيبه، وله سطوة وشهامة. وقال غيره: كان جباراً" (تاريخ الخلفاء، ص ٢٦٠).

ثلاثة أيام في العراق لم توار، حتى أكلتها السباع والطير، وأسر العباسيون نفرا من بنى الحسن، ثم ضربت رقابهم في مكة^(١).

هذه الثورة لم تخرج عن كونها ثورة علوية ككل الثورات العلوية التي قامت من قبل ومن بعد، غير أن المصادر قد أفاضت في الحديث عنها بسبب النتائج الهامة التي ترتبت عليها^(٢). حيث أفلت من المنهزمين اثنان من كبار العلويين أحدهما إدريس بن عبد الله الذي فر إلى المغرب الأقصى، ونزل بوليلي حيث تمكن بفضل قبيلة أوربه من تأسيس دولة علوية مستقلة عرفت بدولة الأدارسة، كما أسس فيها عاصمته مدينة فاس سنة ١٧٢ هـ. أما العلوي الثاني فهو أخوه يحيى بن عبد الله الذي فر إلى بلاد الديلم بالمشرق وظل مختفيا هناك^(٣).

وبلاد الديلم التي فر إليها يحيى بن عبد الله تقع بأرض الجبال بقرب بحر قزوين وهي في جنوب وغرب إقليم كيلان، وهي بلاد كلها جبال ووهاد، وفيها خلق كثير من الديلم، وهم أشد الناس حمقا وجهلا، بينهم قتال فإذا قتل واحد منهم قتلوا من تلك القبيلة أي واحد كان. وكان هؤلاء الديلم ملوك بلاد الجبال قديما، وذكر أن أصلهم من عرب بنى تميم، ولذلك ترى أكثرهم يميلون إلى الأدب والعربية. منهم ملوك آل بويه المتغلبين على العباسيين، وكانوا كلهم فضلاء أدباء، وبين مدينة قزوين وبين بلاد الديلم جبل، كان ملوك الفرس يجعلون عليه رابطة إذا لم يكن بينهم

(١) عن هذه الأحداث راجع: الطبري، تاريخ، ح ٨ ص ١٩٨، المسعودي، مروج الذهب،

ح ٣، ص ٣٢٦ - ٣٢٧، ابن طباطبا، نفسه، ص ١٧٢، الأصفهاني، مقاتل الطالبين، ص ٣٢٠، ابن ظافر الأزدي، أخبار الدول المنقطعة، ص ١٢٣ - ١٢٤ ابن الأثير، الكامل ح ٦، ص ٩٠. سالم، العصر العباسي الأول، ص ٧٥ - ٢٦.

(٢) أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، ص ٧٦.

(٣) ابن ظافر الأزدي، أخبار الدول المنقطعة، ص ١٢٤.

هدنة^(١). ولقد وصف المقدسى هذا الإقليم بقوله "هذا إقليم القز والصوف به صناع حذاق، وفواكه تحمل إلى الآفاق، وبزه معروف بمصر والعراق، كثير الأمطار، مستقيم الأسعار، مصر ظريف، ولهم عمل لطيف، يجلون الشريف، ويرحمون الضعيف، كبراء في الفقه وأجلة في الحديث، رجال في القتال، وكلٌ عفيف"^(٢). وسبق أن ذكرنا أن هذا الإقليم يضم خمس كور هي قومس، وجرجان، وطبرستان، والديلمان، ثم الخزر والبحيرة.

ثورة يحيى بن عبد الله على الخلافة العباسية في بلاد الديلم:

ذكرنا أن الديالمة اعتنقوا الإسلام على مبدأ الزيدية، ولقد أدى مبدأ التسوية الذي نادى به الثورة العباسية، إلى تهينة الظروف أمام الشعوب البربرية النازلة وراء الثغور الإسلامية، أن تندمج في عداد الأمة الإسلامية وأن تقوم بالدور الذي تؤهلها لها ملكاتها، ومعنى هذا أن الدخول في الإسلام في ذلك الوقت أصبح كالتجنس تماما، فإذا دخل فرد أو اعتنقت أمة الإسلام، صار ذلك الفرد أو هذه الأمة من عداد الرعية الإسلامية. وتحت ظل هذا المبدأ دخل الديلم في عداد الأمة الإسلامية، وتهيأ لهم بذلك أن يقوموا بدور هام في التاريخ الإسلامي، بعد أن انفتح خط الثغور لكي تدخل في قلب الخلافة أمم حديثة عهد بالإسلام وحديثة عهد كذلك بالحضارة. لكننا من ناحية أخرى يجب أن نعرف أن الشعب الديلمي كان شعب فارسيا، وأن الفرس المتحضرين لم يعتبروه أجنبيا إلى

(١) القزويني، آثار البلاد، ص ٣٣٠، ٤٣٥، لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٣٠٦

(٢) المقدسى، أحسن التقاسيم، ص ٣٥٣.

حد كبير، ولهذا وجد تعاون بين الفرس المتحضرين وبين الديلم المتبربرين^(١).

وفى سنة ١٧٥ هـ، ثار يحيى بن عبد الله بالديلم على الخليفة هارون الرشيد، (١٧٠ - ١٩٣ هـ / ٧٨٦ - ٨٠٩ م) حيث كثرت جموعة، وقويت شوكته، وتوافد عليه الناس من الأمصار وصاروا أنصاره فسير الرشيد إليه القائد الفضل بن بن يحيى على رأس جيش جرار من خمسين ألف مقاتل، وولاه جرجان وطبرستان والري، وما إليها، ووصل معه الأموال، فسار ونزل بالطالقان، فكتب الفضل يحيى بن عبد الله، ولطف به وحذره، كما اتصل بصاحب الديلم وبذل له الأموال، وأخيرا استجاب يحيى بن عبد الله للصلح، ولكنه اشترط أن يكتب إليه الرشيد أمانا بخطه، وأن يشهد على هذا الأمان الفقهاء والقضاة وأجلة بنى هاشم ومشايخهم، فأجاب الرشيد إلى ذلك وأرسل الأمان مع تحف وهدايا، وقدم الفضل ومعه يحيى بن عبد الله إلى بغداد، فأحسن الرشيد استقباله ورحب به ومنحه مائتي ألف دينار. ولم يلبث الرشيد أن انقلب عليه فسجنه بعد أن استفتى الفقهاء فى نقض الأمان، فمنهم من أفتى بصحته فحاجه، ومنه من أفتى ببطلانه ومنهم عبد الله بن مصعب، فأبطل الرشيد الأمان وأخرقه، ثم سجن يحيى بن عبد الله حتى وافاه الأجل حتف أنفه فى رأى، ومقتولا فى رأى آخر^(٢)

(١) حسن محمود، وأحمد الشريف، العالم الإسلامى، ص ٤٨٢ .
(٢) الأصفهاني، مقاتل الطالبين، ص ٣٤٤، ٣٤٩، ابن طباطبا، المصدر السابق، ص ١٥٦، ابن الأثير، الكامل ح ٦، ص ١٢٥، ابن ظافر الأزدي، أخبار الدول المنقطعة، ص ١٢٤، ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٢٧٤، سالم، نفس المرجع، ص ١٢١ - ١٢٢، نبيلة حسن محمد، محاضرات فى تاريخ الدولة العباسية، ص ٩٢.

ولقد كان سبب قيام الرشيد بالقضاء على تمرد يحيى بن عبد الله فى إقليم الديلم هو حرص الخلافة العباسية منذ قيامها على مقاومة أى تطع علوى فى الحكم، كذلك اعتبار الخلفاء العباسيين ظهور أى نفوذ شيعى فى المشرق الإسلامى بمثابة خطر يهدد وجود الخلافة العباسية نفسها، لما تقدمه أقاليم المشرق من موارد اقتصادية وبشرية فى خدمة الخلافة، ومن ناحية أخرى كان الخلفاء يخشون إنتشار المذهب الشيعى فى الولايات الشرقية، بما يعنيه ذلك من ضعف نفوذ الخلافة العباسية السياسى والروحى.

قيام الدولة الزيدية فى طبرستان:

كان العالم الإسلامى فى أوائل القرن الثالث الهجرى وحتى منتصفه محتفظا بكثير من تماسكه القديم، وكان من الصعب على جماعة كالديلم - النازلين وراء ثغور قزوین - أن ينفذوا إلى داخل العالم الإسلامى، وكان هذا النفوذ إلى الداخل أمراً صعباً، إذ كانت حدود الثغور الإسلامية محروسة حراسة قوية، وكان لابد أن يسلم أهل هذه الناحية على يد أهل طبرستان الذين كانوا قد دخلوه، من قبل على يد الدعاة من الشيعة الزيدية، فطبرستان بذلك هى البينة الأم بالنسبة لمن أسلم وراءهم، وقد ظلت طبرستان منذ فتحها إذلاً خاضعا للخلافة العباسية، بحكمه آل طاهر الذين مدوا نفوذهم على المشرق كله باسم العباسيين كما رأينا.

وكانت ظروف طبرستان الداخلية مسنولة عن ظهور أحد العلويين وهو الحسن بن زيد، الذى تمكن من إرساء قواعد أول دولة شيعية فى المشرق هى الدولة الزيدية فى عام ٢٥٠ هـ / ٨٦٤م فى طبرستان، ولعل

ضعف عمال الطاهريين على هذه الولاية كان من أهم العوامل التي مهدت الطريق أمام أعداء الخلافة العباسية من العلويين للوصول إلى الحكم في هذه المناطق الشرقية^(١) ويبدو أن عمال الطاهريين على طبرستان تأثروا بما كان يدور من صراعات داخلية بين أبناء البيت الطاهري في نيسابور عاصمة دولتهم، وخاصة مع بداية حكم محمد بن طاهر (٢٤٨ هـ / ٨٦٢م)^(٢)، الذي قسم حكم طبرستان عند قدومه إلى بغداد في صفر من عام ٢٣٧ هـ إلى قسمين يتولى أحدهما أخوه سليمان وقسما آخر لأحد المسيحيين ويدعى جابر بن هارون، فاستولى جابر على بعض أراضي الرعية ظلما، وأضافها على أراضي سيده.

ولما كان سليمان بن عبد الله بن طاهر، مشغولا بأموره الخاصة كغيره من عمال الولايات الطاهرية، فضلا عن تطلعه إلى حكم إمارة خراسان نفسها، لذلك فوض أمور ولاية طبرستان لأحد نوابه ويدعى محمد بن أوس البلخي، فأساء السيرة في الرعية، وحصل من أهالي رويان وجالوس الخراج ثلاث مرات كل سنة، مرة له، وثانية لأحمد ابنه، وثالثة لمساعديه المجوس. مما أثار أهالي طبرستان ضدهم.

ولم يقف محمد بن أوس في تصرفاته عند هذا الحد، بل أنه أساء للعلاقة التي كانت تربط طبرستان بالديلم، فرغم ما كانت تعانيه الدولة الطاهرية من ضعف، أقدم مجمد بن أوس على غزو أرض الديلم

(١) فتحى أبو سيف، خراسان تاريخها السياسى والحضارى، ص ١٠.
(٢) تجدر الإشارة إلى أن ولاية طبرستان قبل ذلك كانوا يتحلون بالعدل وحسن السيرة فلم يتظلم أهالي طبرستان منهم. مثال ذلك الحسن بن الحسين من آل طاهر والى طبرستان من قبل المعتصم العباسى (٢٢٨ هـ)، وطاهر بن عبد الله بن طاهر (عباس إقبال، تاريخ ايران بعد الإسلام، ص ١٨).

واستباحها لجنوده، مما أثارهم على سلطة الطاهريين في طبرستان، وجعلهم ينضمون إلى صفوف الحسن بن زيد بعد ذلك^(١).

ولقد كان القضاء على ثورة يحيى بن عمر الزيدى فى الكوفة على أيام الخليفة العباسى المستعين بالله (٢٤٨ - ٢٥٢ هـ / ٨٦٢ - ٨٦٦ م) فى عام ٢٥٠ هـ، أحد الأسباب المباشرة لقيام الدولة الزيدية فى طبرستان، وتفصيل ذلك؛ أن يحيى بن عمر بن يحيى بن زيد الشهيد كان قد تعرض لضائقة مالية فاستدان بسببها، ولما قدم عمر بن فرج المسنول عن شئون العلويين من قبل الخلافة العباسيين من خراسان، ذهب إليه يحيى بن عمر يطلب منه صلة مالية لسداد ديونه، فنهزه عمر بن فرج وأساء إليه، ثم أمر بحبسه، ولكن أهل يحيى كفلوه، وسار إلى بغداد، ثم جاء سامراء فأساء عاملها إليه، فعاد إلى الكوفة وأعلن الثورة بها والتف حوله جمع من الأعراب وأهل الكوفة، ودعا للرضى من آل محمد، وفتق السجون، وطرد عمال العباسيين، وأخذ من بيت المال ألفى دينار وسبعين ألف درهم، فلما نمت خبره إلى الخليفة المستعين عهد إلى محمد بن عبد الله بن طاهر بقمع هذه الثورة، فأرسل القوات من السواد لقتاله، فنجح يحيى بن عمر فى الإيقاع بها، واتبعه خلق من الزيدية، وساروا إلى واسط وكثرت جموعه، ونجح فى هزيمة قوات أخرى سيرها إليه محمد ابن الله بن طاهر بقيادة عبد الرحمن بن الخطاب، وترتب على ذلك زيادة أنصار يحيى بن عمر والتف حوله أهل الكوفة وأمداد الزيدية من بغداد، فشعر ابن طاهر بخطورته، فأرسل إليه قواتا كثيرة نجحت فى الإيقاع بالثائر العلوى فأسروا الكثير من أتباعه، وقتلوا معظم أصحابه، وانجلت

(١) المرعى، تاريخ طبرستان ورويان، ص ٩٥، ابن خلدون العبر، ح ٣، ص ٣٥٧، عبد الفتاح السرنجاوى، الدولة العباسية، ص ٢٥.

الحرب بقتل يحيى بن عمر، فبعث قادة الطاهريين برأسه إلى محمد بن عبد الله بن طاهر، فبعث به إلى المستعين في صندوق في بيت السلاح. وسجن الأسرى الزيدية، وكان ذلك في منتصف رجب من سنة ٢٥٠ هـ^(١).

أراد الخليفة المستعين بالله أن يكافأ محمد بن عبد الله بن طاهر صاحب الشرطة في بغداد على نجاحه في القضاء على ثورة يحيى بن عمرو قتله، فمنحه بعض القطائع من صوافى السلطان بطبرستان، تقع إحداهما على الحدود بين طبرستان السهل وطبرستان الجبل بالقرب من ثغرى كلارو وشالوس^(٢)، اللتين كانت تتجمع فيهما الحاميات والفرق العسكرية الإسلامية للهجوم على القسم الجبلى عند حدوث أى عصيان، وكانت هذه الأراضي تجاور أراضى أخرى يستخدمها الأهالى كمراقب ومراعى لماشيتهم، وقبض ابن طاهر اقطاعه ووضع يده عليه إلا أن عامله تجاوز الحدود المرسومة للإقطاع، أو وقع خطأ أصلى في تحديد الاقطاع، حتى أدخلت فيه أرض كانت تستخدم مرفقا للأهالى. فاشتد النزاع بين كبار ملاك هذه الناحية وبين نواب الطاهرى، وغضب أهل ثغر طبرستان الزيديين لعاملين:

أولهما: لأن بعض أرضهم أعطى لمحمد بن عبد الله بن طاهر الذى غلب إخوانهم فى المذهب (زيدية الكوفة) وقتل زعيمهم يحيى بن عمر.

(١) عن هذه الأحداث راجع: ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص ١٢٨ - ١٢٩، ابن خلدون،

العبر، ج٣، ص ٣٥٦ - ٣٥٧.

(٢) كلار وشالوس مدينتان على الحد الغربى لطبرستان، وتقعان فى الجنوب الشرقى من

بلاد الديلم (أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٤٣١، لسترنج، بلدان الخلافة، ص ٤١٤ .

وثانيهما: لأن هذا الأمير جار على المنافع العامة، فحرمهم من أرض كانوا يرتفقون منها، لذلك نهضوا يرفضون أن ينفذ هذا الاقطاع وعصوا واليهم، وأصبح الأمر ثورة وخلع للسلطان^(١).

لم يجد أهالي طبرستان الذين ضجوا من مظالم هؤلاء العمال خاصة محمد بن أوس وأولاده، بدا من أن يتحالفوا مع الديلم، فأرسل محمد وجعفر إبن رستم الناظران على أراضي المرافق المنهوبة إلى جيرانهم الديلم يذكرونهم العهد الذي بينهم، فاتفقوا على حرب سليمان الطاهري ونائبه محمد بن أوس، وكان هذا التحالف ممكنا لأن الثغر كان هادنا فلم يكن بين الديلم وأهل طبرستان عداة ولا حرب، ثم كان الطرف موافقا لهذا التحالف بسبب إغارة محمد بن أوس على الديلم كما ذكرنا، فوقع التحالف، وأصبح أهل طبرستان أقوياء يستطيعون الاعتماد على معين لا ينضب من الجند الديلمى المعروف بالخشونة والطبع المتبربر، وبالقدرة الفائقة على الحرب.

ولم يبق أمامهم إلا أن يختاروا أحد العلويين الزيدية ليكون إماما لهم ورئيسا لحركتهم، ولهذا طلبوا مبايعة أحد السادة المقيمين بروجان من ولد زيد بن الحسن واسمه محمد بن إبراهيم حفيد على بن أبى طالب، وحثوه على الدعوة له، لكنه رفض ذلك لنفسه، لأنه لم يأنس فى نفسه الكفاءة لهذا الأمر الخطير، ودلهم على رجل من الزيدية يتوسم فيه كفاءة ومقدرة عالية لتحمل هذه المسئولية هو الحسن بن زيد العلوى، وكان مقيما فى ذلك الحين فى الري، ولعل محمد بن إبراهيم قد تخوف من اجابتهم بالدعوى لنفسه، تحرزا من اكتشاف أمره على يد نواب

(١) ابن الأثير، الكامل، ح ٧، ص ١٣٠، ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٣٥٧، حسن محمود، أحمد الشريف، العالم الإسلامى، ص ٤٨٤.

الطاهريين، ولذلك دلهم على الحسن بن زيد، ووصلت الرسائل إلى الحسن بن زيد بالقدوم إلى طبرستان لمبايعته^(١).

ويبدو أن الحسن بن زيد كان قد بدأ دعوته لصالح البيت العلوي وحقه في الإمامة قبل مراسلة أهل طبرستان له، ولكن هذه الدعوة اتسمت بالسرية الكاملة، ويبدو أيضا أن دعاة الزيدية من أتباعه كانوا قد كسبوا بعض الأنصار في طبرستان قبل مراسلات أهلها له. يدل على ذلك التأييد الكبير الذي لقيه الحسن من أهالي طبرستان عند ظهوره بها. فسارع كبار أهالي طبرستان وزعماء الديلم بمراسلته وحثه على سرعة القدوم إلى طبرستان، في الوقت الذي كانوا يخططون فيه لاشعال الثورة، وتسربت بعض الأخبار إلى محمد بن أوس عامل الطاهريين، فسعى لاختفاء هذا التمرد، وتتبع زعماء الخلايا السرية للدعاة العلويين، إلا أن الظروف لم تعد مواتية لفعل شيء، حيث وصلت رسالة من الإمام الحسن بن زيد إلى زعماء الديلم ودعاة الزيدية، أبلغهم بموعد قدومه، وطالبهم باشعال الثورة جهراً^(٢).

وامتثل دعاة الزيدية لأوامر إمامهم الحسن بن زيد، وعمت مدن طبرستان الدعوة له. فلما اطمأن الحسن بن زيد من مناصرة أهالي طبرستان له، ظهر لأول مرة يوم عيد الفطر من عام ٢٥٠ هـ / ٨٦٤م، في مدينة كاجو بطبرستان، وألقى خطبة فصيحة أعلن فيها خروجه على سلطان الطاهريين والعباسيين، وطلب من أهالي طبرستان الإنضمام له. ثم

(١) الطبري، تاريخ الأمم، ح ١١، ص ٩٠، ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٣٥٧، عباس

إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ١٩.

(٢) فتحى أبو سيف، خراسان، ص ١٢ - ١٣.

بدأ يرسل دعواته بنفسه إلى بقية مدن طبرستان، فسارع أغلبها في الانضمام إليه وإعلان التبعية له^(١).

الحسن بن زيد الداعي الكبير مؤسس الدولة الزيدية

(٢٥٠ - ٢٧٠ هـ) :

أنفذ الثوار برئاسة (عبد الله بن وندا أميد) رسالة إلى الحسن بن زيد العلوي الذي كان يعرف (بحالب الحجارة) من ولد الحسن بن علي ابن أبي طالب وكان يقيم بالري ودعوه إلى رويان.

فأتى الحسن بن زيد في ٢٥ رمضان من عام (٢٥٠ هـ) إلى قصبته (كلار) من البلاد التي تقع على الحدود بين جيلان وطبرستان، وبايعه الناس ولقب نفسه (داعي الخلق إلى الحق) أو (الداعي الكبير) رمزا لانتصار دعوته، وتقديرا له، ومدحه الشعراء من الفرس والعرب بأشعارهم وأشادوا بانتصاراته. وصار بذلك مؤسس أسرة العلويين بطبرستان.

وبعد أن سيطر الحسن بن زيد على رويان وجالوس والري، أرسل في طلب جماعة من الدعاة العلويين يدعوهم للإقامة في أطراف طبرستان والديلم، وانضم إليه الناس زرافات ووحدانا ومن بينهم عدد من كبار الديلم التحقوا بخدمته، وارتفع أمر الحسن وأرسل محمد بن أوس أحد قواد جيشه لدفع الحسن، لكن الداعي هزمه بسهولة ودخل (آمل) في ٢٣ شوال من عام (٢٥٠ هـ) ثم أرسل من هناك حكاما من قبله لـ (كلار) و (رويان) و (جالوس)^(٢).

(١) ابن اسفنديار، تاريخ طبرستان، ص ٢٢٨، فتحى أبو سيف، خراسان، ص ١٣.

(٢) ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٣٥٧.

وكان الغريم الكبير لحكم الحسن بن زيد أميراً في مازندران من (آل قارن) من أسرة (السبهيدات) وكان اسمه (قارن بن شهريار) وقد اعتنق الإسلام حوالي عام (٢٤٠ هـ) وكان يحكم في الجزء الشرقي لمازندران الحالية من طرف الطاهريين ويؤدى لهم الخراج. أراد قارن في البداية أن يقبض على الحسن بالحيلة ودعا له لمقابلته لكي يبايعه، لكن الحسن وقف على خطته فلم يهتم بدعوته. فاجتمع قارن على سليمان بن عبد الله الطاهري وجمع من كبار خراسان وقدموا جميعاً لحرب الداعي في أمل. وكان النصر هذه المرة أيضاً من نصيب الداعي خاصة وأن رجلاً من أسره السبهيدات اسمه (فادوسبان) انحاز إلى الداعي فقتل كثيراً من جند سليمان وقارن. وهرب قارن إلى رويان وسليمان إلى جرجان وأجبر أمير خراسان محمد بن طاهر أن يمد عمه بجيش آخر، وكانت الغلبة أيضاً للداعي فتقهقر الطاهريون إلى خراسان منهزمين وأتى قارن إلى الداعي ملتجئاً^(١).

ويرى كل من ابن الأثير وابن خلدون، أن قوات الطاهريين قد انهزمت أمام الحسن بن زيد بمحض اختيارها، وذكرنا أن السبب وراء ذلك هو أن الطاهريين كانوا يتشيعون^(٢). غير أن الأدلة التاريخية تذهب عكس هذا الرأي الذي تبناه المؤرخان الكبيران، فالطاهريين وإن كانوا متشيعين، إلا أنهم لم يتعصبوا للمذهب الشيعي. فمحمد بن عبد الله بن طاهر هو الذي قام بتصفية ثورة يحيى بن عمر الزيدى بالكوفة، وأمر قواده بقتله، وعندما وصلته رأسه بعد المعركة جلس يتقبل التهاني في مقتله، فلما دخل عليه داود بن الهيثم قال له "أيها الأمير إنك لتهنأ بقتل

(١) ابن الأثير، الكامل، ح ٧، ص ١٣٢.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ح ٧، ص ١٣٢، ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٣٥٧-٣٥٨.

رجل لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حيا لعزى به^(١)، كما أن محمدا بن طاهر نفسه قد أرسل إلى الخليفة المستعين بالله العباسي في عام (٢٥١ هـ / ٨٦٦ م)، يخبره بانتصاره على قوات العلويين بقيادة الحسن بن زيد، وقتله لقرابة ثلاثمائة وأربعين رجلا علويا كانوا بين المقاتلين^(٢).

والخلاصة أن الحسن بن زيد استخلص في مدة ثلاثة أعوام (من رمضان ٢٥٠ حتى ذى الحجة ٢٥٣ هـ) جميع طبرستان وقسما هاما من الديلم والري وطرده عمال بني العباس وأتباعهم، وأخذ العلويون يتقاطرون عليه من الحجاز والشام والعراق بعد أن علا صيت شوكته وقدرته، وأقاموا في ولايته. وبدأت بذلك الدولة الزيدية الشيعية تاريخها السياسي، وإظهارا لسيادته على طبرستان وأرض الديلم أمر الحسن بن زيد بسك عملة باسمه تعبيرا عن الاستقلال والسيادة، وذلك في عام ٢٥١ هـ / ٨٦٥ م^(٣).

توسع الدولة الزيدية وموقف العباسيين من ذلك:

كانت الدولة الزيدية تهدف إلى التوسع على حساب الدولة الطاهرية ممثلة خلافة العباسيين السنة في شرق العالم الإسلامي، ورجلها المريض الذي تتقاسم القوى السياسية في المشرق أملاكه في هذه الأونة، وتذكر الروايات التاريخية أن الزيديين أعدوا برنامجا دعائيا لتهيئة النفوس في مدن المشرق الإسلامي لدعوتهم، فقد كانوا على اتصال وثيق

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص ١٢٩.

(٢) الطبري، تاريخ الأمم، ج ١١، ص ١١٤، ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص ١٦٤.

(٣) لين بول، طبقات سلاطين الإسلام، تحقيق علي البصري، ١٩٨٦، ص ١٢٤،

فتحي أبو سيف، خراسان، ص ١٥.

بدعاة العلويين في مدن المشرق الإسلامي خاصة مدينة (قم)، وطالبوهم بجمع الكلمة والتآلف فيما بينهم، وناقشهم الحسن بن زيد في رسائله إليهم في بعض القضايا العقائدية، وبعض المشاكل التي يواجهها في طبرستان، مما يؤكد تطلعه لمد أملاكه وسلطانه السياسي والمذهبي إلى أقاليم أخرى^(١). ولذلك فبعد أن طرد أصحاب الحسن بن زيد عمال الطاهريين من الري، وتوجهوا إلى همذان، نجد أن الخليفة المستعين بالله يرسل جماعة من رجاله ويأمرهم بالمقام بهمذان، وضبطها لكي لا تصلها قوات الحسن بن زيد العلوي^(٢).

وأظهر قارن العصيان مرة أخرى وقام الحسن ليدفعه وأصر في عام (٢٥٤ هـ) أن يستولى على جرجان وخراسان أيضا، لكن المعتز الخليفة العباسي أرسل (موسى بن بغا الكبير) و (مفلح) بن كيار قواده الأتراك بجيش إلى طبرستان. فاستولوا على الري وقزوین وسارى وآمل، وانهزم الداعي إلى جالوس لقلّة عدد جيشه. ولما عاد جند الخليفة، عاد الحسن في ٢٢ رمضان من عام (٢٥٥ هـ) أي بعد ثورته الأولى بخمسة أعوام إلى آمل وجمع أتباعه مرة أخرى بعد أن انفرط عقدهم، ثم سار بهم إلى جرجان واستولى عليها وضمها إلى ولاياته الأخرى.^(٣)

وكان تدخل الخلافة العباسية لمواجهة طموح الزيديين بسبب عدم اعطاء هذه الدولة الناشئة فرصة التوسع والتوغل في أقاليم الخلافة، ومد نفوذها، مما يترتب عليه انتشار الفكر الشيعي وقيام دولة شيعية مستقلة عن الخلافة في هذه المناطق، كما أن عدم وقوف العباسيين في وجه تزايد

(١) فتحى أبو سيف، خراسان، ص ١٥.

(٢) الطبرى، تاريخ الأمم، ص ١١، ص ٩٣.

(٣) الطبرى، نفسه، ح ١١، ص ٩٣، ١٥٥، ٢١٤، ابن الأثير، الكامل، ح ٧، ص ٢٦٣.

المد الزيدى، سيدفعهم إلى غزو باقى مدن طبرستان، بل وغيرها من البلاد الواقعة تحت سيطرة الطاهريين، مما سيؤدى إلى اسقاط الدولة الطاهرية، أكبر حليف للعباسيين فى المشرق.

ومع ذلك ورغم تدخل العباسيين لكبح طموح الزيديين فى الاستيلاء على أملاك الطاهريين فى منطقتى طبرستان، فإن الخلافة العباسية لم يكن فى امكانها أن ترسل قواتا قوية لمساعدة الطاهريين أو للقضاء على الحركة الزيدية. وذلك بسبب انشغال العباسيين أنفسهم بمقاومة ثورة الزنج فى إقليم العراق والأهواز^(١).

وفى عام (٢٥٩ هـ) بعد أن أزال يعقوب الصفارى الطاهريين واستولى على خراسان، تجاوزت ممتلكاته وولايات الحسن بن زيد العلوى، وكان معلوما أن هذين الرجلين القويين، وكلاهما قام بثورته فى تاريخ واحد تقريبا، ومؤسسا لأسرة على رغم الخلفاء العباسيين وولاتهم أو آل طاهر، سوف يصطدمان إن عاجلا أو آجلا خاصة وأن كلا منهما كان يرنو ببصره إلى بلاد الآخر، فكان يعقوب يدعى خلافة الطاهريين ويريد جرجان وطبرستان، وكان الداعى هو أيضا يتوق إلى السيطرة على خراسان لذلك كان الخلاف المذهبى بين يعقوب والحسن بن زيد من العوامل التى ساعدت على خلق العداء بينهما، فأراد يعقوب استرضاء الخلافة العباسية التى لم تكن متحمسة لحكمه فى خراسان بعد الطاهريين لعلاقتها الوثيقة بهم.

واتفق أن هرب فى نفس عام (٢٥٩ هـ) أحد معارضى يعقوب إلى جرجان طالبا حماية الحسن بن زيد فأمنه الحسن. فقدم يعقوب إلى جرجان

(١) ابن الأثير، الكامل ج٧، ص ٢٦٤، حسن محمود وأحمد الشريف، العالم الإسلامى، ص ٤٨٦.

فى ربيع (٢٦٠ هـ) وفر أمامه الداعى إذ لم يستطع مقاومته وسار إلى بلاد الديلم. أما يعقوب فقد يم شطر خراسان بعد أن أناب عنه عمالا فى طبرستان، لكن قبل عودته إليها ثار أهل جالوس على عامله، فاضطر يعقوب إلى أن يتحول لتأديبهم. ولكن هذه المرة بفعل رطوبة الجو وأحوال الطرق وهجمات أشداء طبرستان أصيب جيشه بإصابات بالغة، فلم يجد بدا من العودة من (سارى) إلى (الدامغان) ، وأمر بأن يطلق سراح جميع العلويين الذين اقتادهم معه أسرى. وتمكن الداعى بعون الديالمة أن يعود إلى طبرستان، ثم أخضع فى (٢٦٣ هـ) جرجان مرة ثانية. واشتدت هيبتة هذه المرة فى القلوب عن ذى قبل وازدت دولته استحكاما وقوة^(١).

وفى عام (٢٦٦ هـ) اجتمع ابن وخليفة الاسبهد قارن، وكان اسمه (رستم) وحاكم نيسابور (أحمد بن عبد الله الخجستانى) الذى استولى عليها بعد موت يعقوب بن الليث، على أن يطردا الداعى من جرجان وطبرستان. وتمكن الداعى بعون من أخيه الأرشد (محمد بن زيد) من أن يهزم (رستم)، ومنحه أمانة بعد أن فرض عليه الخراج. أما الخجستانى فقد انتهى به الأمر بعد إغارته على بعض بلاد جرجان إلى العودة إلى نيسابور.

ولاية محمد بن زيد الداعى (٢٧٠ - ٢٨٧ هـ):

مرض الحسن بن زيد فى عام (٢٦٩ هـ)، ومكث مريضا عام بعده حتى وافته منيته فى الثالث من رجب عام (٢٧٠ هـ)، بعد أن حكم تسعة عشر عاما وثمانية شهور، وخلفه أخوه محمد بن زيد.

(١) الطبرى، نفسه، ح ١١، ص ٢٢٣، ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٣٨٧، عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٢٢، فتى أبو سيف، خراسان، ص ٩١.

كان أحمد بن عبد الله الخجستاني الذي سبق ذكره في بداية أمره من قواد جيش علي أخى يعقوب وعمرو الصفاريين، لكنه بعد موت يعقوب عام (٢٦٥ هـ)، تمرد على أخيه عمرو وسيطر على نيسابور وأخذ يدعى ملكيتها حتى ارتفع أمره بها وضرب عملتها باسمه. وفي السنة التالية تمكن من جرجان وتغلب على عمرو في نفس السنة، وأخذ يستعد لضم هراة وسجستان لكن غلامين من غلمانه أقدموا في عام (٢٦٨ هـ) على قتله لسوء سيرته وطمعه في نيسابور. والتف أتباع الخجستاني بعد قتله حول (رافع ابن هرثمة)، وكان رافع هذا يعيش في خدمة محمد الطاهري، ثم اتجه إلى يعقوب. لكن يعقوب طرده عنه لقبح هيئته وشكله، فالتحق بالخجستاني وظل في خدمته حتى مقتله.

ادعى رافع حكم عمرو بن الليث في خراسان عام (٢٧١ هـ)، لكنه هزم أمام عمرو في نفس العام وظل يعيش متواريا حتى سمع في العام التالي أن محمدا بن زيد لحقته هزيمة من حاكم (الري) وكان تركيا من أتباع بني العباس، فانتهاز هذه الفرصة وهاجم جرجان بتحريض من الأسبهد رستم بن قارن الذي كان هاربا من الداعي. ولم يثبت الداعي طويلا فركن إلى الفرار أمامهم بعد فترة من المقاومة (٢٧٤ هـ) والتجأ إلى الديالمة وظل في بلادهم حتى (٢٧٧ هـ) إذا استمد الديالمة وطرد بمدد رافعا من طبرستان. لكنه لم يستطع أيضا مجابهته بسبب كثرة أعدائه الذين انضموا إلى رافع^(١).

واستمر حاله على هذا النحو أن أصابت رافعا هزائم متكررة من جند الخليفة المعتضد في الري وجيش عمرو بن الليث، فلم يجد مندوحة

(١) ابن الأثير، الكامل، ح ٧، ص ٤٣٤، ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٤١٥.

من أن يلتجئ - على رغم الخليفة - بمحمد بن زيد ويخطب له. وقبل الداعي بيعته في الظاهر ولكنه لم يكن سعيدا بقدرته في الباطل، وظل يحاذره حتى ألحق عمرو بن الليث به هزيمة فادحة (٢٨٣ هـ)، وهرب رافع إلى خوارزم حيث قتله عامل عمرو. وهكذا تخلص الداعي من هذا الخصم القوي المثير للفتنة، ومن ثم خضعت له ثانية ما بين جيلان وجرجان.

وفي عام (٢٨٧ هـ) حينما هزم الأمير إسماعيل الساماني عمرو بن الليث واستأسره إسماعيل، بدت المتاعب للداعي مرة أخرى. فقد استخلص السامانيون خراسان كلها، وكان الداعي يعلم أن السامانيين ولاة مخلصون للخلفاء العباسيين، ولا بد أن يفكروا إن عاجلا أو آجلا في السيطرة - بأمر الخليفة - على جرجان وطبرستان، فسبق الداعي وبادر بجمع جيشه في جرجان للحيلولة دون مقاصد الأمير إسماعيل. فجرد إسماعيل جيشه بدوره بقيادة (محمد بن هارون السرخسي) وأرسلها لمواجهة الداعي. وأصيب الداعي من أول القتال بسهم فخر صريعا. وأرسل هارون في شوال (٢٨٧ هـ) رأسه وابنه إلى بخارى. ودخلت جرجان وطبرستان في طاعة إسماعيل الساماني. ولكن محمدا بن هارون بعد فترة سلك سبيل العصيان فقد إسماعيل بنفسه في (٢٨٨ هـ) إلى طبرستان وطرده منها^(١).

وبهذا تكون الخلافة العباسية قد استراحت بعض الوقت من شرور أعدائها خلال سنوات متقاربة، لا سيما وأن السامانيين قد ضموا إلى أنفسهم بموافقة الخليفة العباسي حكم المشرق كله. وتلقوا بذلك تراث

(١) ابن الأثير الكامل، ح ٧، ص ٤٤٤، ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٤٣٩، حسن محمود، أحمد الشريف، العالم الإسلامي، ص ٤٨٦.

الطاهريين، ولكي تضمن الدولة السامانية جند الديلم وبقاء حلفهم، اتفقت مع رؤسائهم أن تصرف لهم مرتبات سنوية، ورضى الديلم بهذا ولزموا أرضهم، وبذلك حرم العلويون من هذا السند والنصير القوى الذي كان عماد جيوشهم، فلم يستطيعوا القيام في وجه السامانيين طوال هذه الفترة^(١).

ولاية الحسن بن علي الناصر الكبير لله الأطروش لله :

(٣٠١ - ٣٠٤ هـ)

بعد قتل محمد بن زيد واستيلاء الأمير إسماعيل الساماني على طبرستان، ظلت هذه الولاية تحت الإدارة المباشرة للعمال السامانيين، ولجأ السادات العلويون إلى الديالمة وإلى جيلان، ومكثت طبرستان من عام (٢٨٧ هـ) إلى (٣٠١ هـ) - ثلاثة عشر عاما تقريبا - تحت طاعة السامانيين إذ كانوا يرسلون لإدراتها من بخارى حاكما خاصا.

وعند رحيل الأمير إسماعيل عن طبرستان أتاه عمه (أبا العباس عبد الله بن محمد بن نوح) وقصد الري ليجلي محمدا بن هارون عنها - وكان قد استولى عليها - بدعوة من الخليفة. وهرب محمد بن هارون أمام إسماعيل والتجأ إلى الديالمة (٢٨٨ هـ) لكنه بعد فترة قصد الري باستدعاء أهلها هذه المرة، ثم استخلصها من أيدي عمال الخليفة العباسي بعد أن قتل واليها التركي. فأرسل الخليفة إلى إسماعيل بولاية الري أيضا وأنها أصبحت جزءا من حوزة حكمه وأمره أن يستصفيها من ابن هارون. فعجل إليها إسماعيل، ولكن قبل وصوله إليها تركها محمد بن هارون إلى قزوين ومنها إلى زنجان وجيلان، فاستولى إسماعيل عليها بلا منازع،

(١) حسن محمود، أحمد الشريف، العالم الإسلامي، ص ٤٨٦.

وترك عما آخر له هو (أبو صالح منصور بن إسحاق). وابن منصور هذا ،
الذي حكم الري بين عامي (٢٩٠-٢٩٦ م) وهو الذي ألف باسمه الحكيم
والطبيب المعروف (أبو بكر محمد بن زكريا الرازي) كتابه المعروف
(المنصوري).

توجه محمد بن هارون - بعد لجونه إلى جيلان- إلى الدعوة
العلويين للانتقام من الأمير الساماني. وكان كبير علويي جيلان في هذه
الآونة رجلا فصيحاً ديناً من أبناء الإمام زين العابدين اسمه الحسن بن
علي ولقبه الناصر الكبير، ولقب أيضاً بالأطروش لثقل سمعه، ولقد
أصابه الصمم من ضربة في رأسه بالسيف في الحرب، وقد مكث ثلاث
عشر سنة يدعو الناس في جيلان وبلاد الديلم للإسلام فاعتنقه أكثر أهلها.
وكان يفكر في الانتقام لدم محمد بن زيد ولذلك أقدم على مهاجمة (أمل)
في عام (٢٨٩ هـ) لكنه لقي هزيمة من الجيش الساماني فالتجأ إلى
الديالمة. فلما قدم إليه محمد بن هارون بسط له يد المبايعة وحثه على
استرداد طبرستان وطرده العمال السامانيين من هذه النواحي.

وهاجم الناصر الكبير ومحمد بن هارون وبضعة رجال من كبار
جيلان - ممن بايعوا الناصر- طبرستان. وفي شتاء (٢٩٠ هـ) وعلى
مقربة من (أمل) وبعد قتال ضروس دام أربعين ليلة أنزل جندهم بأبي
العباس الساماني حاكم طبرستان وخلفائه وهم (اسبهد شهریار)
(بن فادوسبان) و (اسبهد شروين ابن رستم بن قارن) هزيمة قتل فيها
ما يقرب من سبعة آلاف جندي ساماني، ونجا أبو العباس بهروبه إلى
الري والسبب الأساسي لهزيمة أبي العباس هو أنه لما طلب المدد من
الأمير إسماعيل أرسل إسماعيل إليه ابنه أحمد، لكن أحمد هذا بسبب
خصومته لأبي العباس عطل نفسه في الطريق ولم يصل إلا بعد أن انهزم

أبو العباس. وأرسل أبو العباس أحد قواده إلى الري فاحتال هذا حتى قبض على محمد بن هارون وأرسله إلى بخارى وزالت فتنته، وعاد الناصر الكبير إلى الديالمة ودخلت طبرستان مرة أخرى تحت حكم أبي العباس الساماني^(١).

ولما مات الأمير إسماعيل وخلفه ابنه أحمد أخذ حكم طبرستان من أبي العباس بسبب الخصومة التي كانت بينهما وأتاب فيه أحد غلماته الأتراك، لكن هذا الغلام سلك مسلك الظلم وسوء السيرة فلم يدم حكمه لثورة الناس عليه. وأجبر أحمد على أن يسير أبا العباس إلى طبرستان عام (٢٩٧ هـ) وظل أبو العباس يحكمها حتى يوم موته (في صفر ٢٩٨ هـ). وبعد موت أبي العباس أتاب الأمير أحمد والي الري (محمد بن صلوك) في حكم طبرستان، وأرسل وزيره المشهور (أبا الفضل محمدا بن عبيد الله البلعمي) ممدوح الرودكي، من بخارى إلى طبرستان حتى يمكن محمدا بن صلوك من الاستقرار في منصبه.

ولما عاد البلعمي إلى بخارى قدم الناصر الكبير -الذي كان ينتظر الفرصة المناسبة للثورة- من جيلان إلى كلارستاق وأنفذ ابنه (أبا الحسن أحمد) للاستيلاء على (رويان). فخفف محمد بن صلوك لمنعهما لكنه أصيب بالهزيمة في (جالوس) في جمادى الثانية (٣٠١ هـ) واستصفي الناصر جميع طبرستان له. وبعد أن وصل خير غلبة الناصر الكبير إلى بخارى أرسل الأمير أحمد وزيره (محمدا بن عبد الله بن عزيز) بجيش إلى طبرستان لكنه هزم هو الآخر، وقتل الأمير أحمد نفسه في بخارى قبل أن يتحرك للعصف بطبرستان.

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص ٢٩٢، ابن خلدون، العبر، ج ٣، ص ٤٥٧ - ٤٥٨، عباس أقبال، تاريخ إيران، ص ٢٥، حسن محمود، أحمد الشريف، نفسه، ص ٤٨٧.

وبعد مدة حرض الخليفة المقتدر نصرا بن أحمد الساماني للاستيلاء على طبرستان، فأمر نصرا قواده للاتجاه إليها، لكنه لم يفعل شيئا أمام شجاعة ابن الناصر (أبي القاسم جعفر)، فتصالح السامانيون مع الناصر الكبير وبقيت طبرستان تحت إدارة الداعي تماما. واستقر الناصر مع ابنه أبي الحسن أحمد وأبي القاسم جعفر في طبرستان، وترك جيلان لأحد السادات الحسينيين واسمه (الحسن بن قاسم).

وأعلن الحسن بن قاسم العصيان للناصر الذي كان يحبه ويؤثره على أولاده والتف حوله بعض الناس، فوفق إلى القبض على الناصر وارساله إلى قلعة (لاريجان). لكن هذا الحال لم يدم لأن أهل (أمل) وجماعة من كبار الديلم أشهرهم (ليلى بن النعمان)^(١). قبضوا على الحسن وأنزلوا الناصر من القلعة المذكورة وأعادوه معززا مكرما إلى مقامه. وعفا الناصر عن الحسن بن قاسم وزوجه بحفيدته بنت أبي الحسين وولاه جرجان.

ولاية الحسن بن قاسم الداعي الصغير (٣٠٤ - ٣١٦ هـ):

اعتزل الناصر الكبير في أواخر عمره وتفرغ للتدريس والعبادة ونصب الحسن بن قاسم زوج حفيدته في خلافته، ثم وافته منيته بعد ذلك في شعبان (٣٠٤ هـ)، ويذكر ابن خلدون أن عساكر السعيد نصر بن سامان صاحب خراسان زحفت إلى الأطروش في عام ٣٠٤ هـ، وقتلوه^(٢). ويشتهر الحسن بن قاسم بلقب الداعي الصغير، وهو مثل

(١) اختلف الدارسون حول اسم هذا القائد الديلمي المعروف ويبدو أن اسم (ليلى) تحريف لأحد الأسماء الجيلية، وقد أتى بصورته هذه بسبب جهل الناسخين، ولكن ابن خلدون يسميه هكذا "ليلى بن النعمان" (العبر، ح ٣، ص ٤٧٥).

(٢) ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٤٥٨.

الحسن بن زيد وأخيه محمد من السادات الحسينيين خلفا للناصر الكبير الذي كان من السادات الخسينيين.

ولم تمض فترة طويلة حتى ثار أبو القاسم جعفر بن الناصر الكبير على الداعي الصغير - خلفا لأخيه، وتحالف مع محمد بن صعوك بالري ضده. وفي (٣٠٦ هـ) هاجم أمل لكن أهلها طردوه عنها لظلمه ولحسن سيرة الداعي الصغير فيها وكفائه وسياسته الطيبة. ودخل الداعي أمل (٣٠٧ هـ) وأرسل قائده (ليلي بن نعمان) في السنة التالية إلى خراسان، فاستولى ليلي على نيسابور وهاجم طوس لكنه هزم من السامانيين بها في عام (٣٠٩ هـ) وقتله قائد جيش نصر الساماني^(١).

كان نصر بن أحمد الساماني في قلق دائم لسيطرة الداعي وأصحابه على جرجان وخراسان، فجرد جيشا قوامه ثلاثون ألفا يقودهم أحد قائديه الترك، (قراتكين) في عام (٣١٠ هـ) وأنفذه إلى جرجان. وقد تحالف في هذه الحرب أبو القاسم جعفر مع أعداء الداعي مرة أخرى، ثم ما لبث أن انضم إليه أبو الحسين أحمد زوج ابنة الداعي. ومع أن الداعي هزم أبا الحسين وضمه إليه، لكنه لم يستطع مقاومة جيش قراتكين وأبي القاسم جعفر، فالتجأ إلى الاسبهد محمد بن شهريار بن فادوسبان. لكن الاسبهد قبض عليه بنذالة وأرسل به إلى عامل الخليفة العباسي بالري. وبعد فترة من الزمن تمكن الداعي بعون أحد الأمراء الجيليين من الهرب من السجن وأتى جيلان، وبعد أن لم شعث جنده المتفرقين ضبط

(١) ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٤٧٥، محمد السعيد، دولة الإسماعيلية في إيران، القاهرة ١٩٧٥، ص ٥١.

أمل وسارى وهزم ابني الناصر الكبير فسي جرجان، ثم تصالح مع أبى الحسين أحمد أبى زوجته^(١).

وسير نصر بن أحمد السامانى لدفع الداعى هذه المرة (سيمجور) قائده المعروف إلى جرجان التى كانت محل النزاع الدائم بين السامانيين والسادات العلويين. وكان الأمير سيمجور لا يميل إلى مقاتلة الشيعة العلويين بسبب ميله إلى الشيعة الاسماعيليين، لهذا دعى الداعى إلى الصلح وطلب منه أن يترك له جرجان، لكن الداعى لم يقبل فاشتعلت الحرب بينهما فى عام (٣١٠ هـ). وهزم الداعى وأبو الحسن صهره الجيش السامانى. لكن المنهزمين انقلبوا بغتة وهاجموا جيش الداعى وألحقوا به هزيمة ثقيلة فر على أثرها الداعى إلى أمل وأبو الحسين إلى جرجان، وقد رافق الداعى فى فراره هذا قائدان من قواده كانا من رؤساء الديلم أولهما (ما كان بن كاكى)، والثانى (على بن بويه)، وعلى هذا هو من تلقب بعد بعماد الدولة وأسس مع أخين آخرين له أسرة ديالمة آل بويه التى ذاع صيتها فيما بعد.

وسرعان ما جهز الداعى وأبو الحسين وما كان وعلى بن بويه جيشا أخرجوا به سيمجور من جرجان فى آخر ذى الحجة من سنة (٣١٠ هـ) وعادت هذه البلدة مرة أخرى إلى سيطرته وأتاب الداعى أبا الحسين فى حكم جرجان. وفى السنة التالية تأمر أبو الحسين مع أخيه أبى القاسم وما كان بن كاكى ورئيس آخر من رؤساء الديلم ومن أصحاب ماكان اسمه (أسفار بن شيرويه) على أن يستأسروا الداعى، ففقر الداعى خفية وأطبق المتحالفون على طبرستان. ولم تمر فترة طويلة حتى مات

(١) ابن خلدون، نفس المصدر، ح ٣، ص ٤٧٥.

أبو الحسين في رجب من سنة (٣١١ هـ) ، واستقل أبو القاسم بطبرستان لكن حكمه لم يدم أيضا إذا رحل بعد أخيه بعام عن الدار الدنيا^(١).

وبعد موت أبي القاسم بايع ابنه (ما كان) وابن عم له اسمه (حسن ابن فيروزان) أحد رؤساء الديلم، لكن سرعان ما اشتعل النزاع بين ابنه هذا وما كان، وانهزم ما كان وتورأى. ولكن فكرة استيلائه على جرجان وطبرستان لم تبرح مخيلته، فكتب رسائل عدة إلى الداعي الصغير المختص بأحد الجبال ليخرج ويستوليا على طبرستان من (السيد أبي جعفر) وهو ابن آخر لأبي الحسين كان قد خلف أخاه. فلم يقبل الداعي هذه الدعوة. فقدم ما كان لحرب السيد أبي جعفر منفردا، لكنه لقي منه ومن أسفار بن شيرويه الذي تحول عنه وانضم إلى أبي جعفر الهزيمة. وبعد مدة جمع مرة أخرى جيشا وانضم إليه هذه المرة الداعي الصغير وهرب أمامهما السيد أبو جعفر وأسفار.

وفي عام (٣١٤ هـ) قدم نصر بن أحمد الساماني بنفسه إلى طبرستان ليزيل شر الداعي الصغير كلية، لكن عمال الداعي قطعوا عليه الطرق وخرّبوا كل جادة وجسر، فانحصر الأمير نصر ولم يستطيع الخلاص إلا بعد أداء ثلاثين ألف دينار إلى الداعي. وسلك بهذا طريقه إلى الري. وفي عام (٣١٥ هـ) هزم ما كان أسفارا مرة أخرى، فاستوحش منه الداعي الصغير ولجأ إلى جيلان، فأعاد ما كان الداعي باصرار تام، ثم حمل الاثنان على الري واستوليا عليها من محمد بن صلوك.

وفي أثناء غيبة الداعي وما كان، قدم أسفار من خراسان إلى جرجان مع جيش ساماني واستولى على جرجان باسم الأمير نصر

الساماني وذلك في عام (٣١٥ هـ). وبعد ذلك استدعى قائدا من الديلم سمي (مرداويج بن زيار) وجعله قائدا جيشه، وتمكن القائدان من استخلاص طبرستان. وعجل الداعي مخالفا لرأى ما كان إلى أمل من الرى لكى يهزم أسفارا، لكنه هزم وقتله أتباع أسفارا بالقرب من سارى في سنة (٣١٦ هـ)^(١).

وبعد مقتل الداعي زحف أسفار بجيشه إلى الرى، وفي سنة (٣١٦ هـ) أو (٣١٧ هـ) استصفاها من ماكان الذى فر إلى الديلم. وبدأ من هذا الوقت صراع بين أسفار ومرداويج وأخيه (وشمكير) وما كان وحسن فيروزان - كما سيلي في تاريخ الديالمة - حتى قتل أسفار بيد مرداويج فى سنة (٣١٦ هـ) وماكان بيد (أبى على الجفانى) فى عام (٣٢٩ هـ)، وخلا الميدان لوشمكير وأولاد بويه الصياد وسلمت لهم جيلان وطبرستان.

ومنذ عام (٣١٦ هـ) سنة قتل الداعي الصغير حتى عهد تسلط الديالمة الكامل على طبرستان، كان عدد من العلويين بطبرستان وجيلان مجرد آلات بيد الأعداء السابقين لكن لم يك لأحدهم السيادة الفعلية، ولهذا السبب تعتبر سنة (٣١٦ هـ) - التى قتل فيها الداعي الصغير - نهاية إمارة العلويين بطبرستان. وإن كان الإمام السيوطى يرى أن الدولة الزيدية الطبرستانية قد تداولها ستة رجال: ثلاثة من بنى الحسن، ثم ثلاثة من بنى الحسين: هشام الداعي إلى الحق الحسن بن زيد بالرى والديلم، ثم قام أخوه القائم بالحق محمد، وقتل سنة ٢٨٨ هـ، فقام حفيده المهدي الحسن بن زيد بن القائم بالحق، وقام بعده الناصر الأطروش، ثم قام بعده بالأمر ابنه الإمام محمد الهادى، ثم اعتزل الأمر، فقام به أخوه الناصر أحمد، ثم قام من بعده الثائر لدين الله جعفر بن محمد بن الحسن بن عمر الأشرف،

(١) ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٤٧٦.

وهو الذي ملك طبرستان بأسرها، ومات بها سنة ٣٤٥ هـ، وانقرضت دولته^(١).

وخلاصة القول، أن الدولة الزيدية كانت في مجرد أمرها حركة تمرد ورفض لأوضاع سياسية واقتصادية جائرة، لم يعتد أصحابها عليها في هذه المناطق، ثم تطورت إلى حركة استقلالية ذات صبغة سياسية وعقائدية تهدف إلى التوسع ونشر المذهب الشيعي بين سكان المشرق^(٢).

أسماء السادات العلويين بطبرستان وزمن إمارة كل منهم^(٣).

١ - الحسن بن زيد الداعي الصغير (٢٥٠ - ٢٧٠ هـ)

٢ - محمد بن زيد أخوه، الداعي (٢٧٠ - ٢٨٧ هـ)

(الحكام السامانيون)

٣ - الحسن بن علي الحسيني، الناصر الكبير (الأطروش)

(٣٠١ - ٣٠٤ هـ)

٤ - الحسن بن قاسم الحسنی، الداعي أو الصغير (٣٠٤ - ٣١٦ هـ).

(١) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٤٦٨.

(٢) ابن اسفنديار، تاريخ طبرستان، ص ٢٢٤، فتحى أبو سيف، المشرق الاسلامى بين التبعية والاستقلال، ص ١٧٨.

(٣) عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ٣١.

الفصل الثالث

الدولة الصفارية

(٢٥٤ - ٢٩٠ هـ / ٨٦٧ - ٨٩٠ م)

- تمهيد (التعريف بسجستان).
- أحوال سجستان قبل ظهور الصفاريين.
- ظهور الصفاريين:
- الدولة الصفارية:
- ولاية يعقوب بن الليث الصفار (٢٤٧-٢٦٥ هـ).
 - (أ) سياسة يعقوب بن الليث الداخلية.
 - (ب) سياسة يعقوب بن الليث الخارجية (امتداد دولته وتوسعها).
 - (ج) الاستيلاء على خراسان والقضاء على دولة الطاهريين (٢٥٩ هـ).
 - (د) الاستيلاء على طبرستان وفارس.
 - (هـ) تآزم العلاقات بين يعقوب الصفار والخلافة العباسية.
- وفاة يعقوب مؤسس الدولة الصفارية (٢٦٥ هـ / ٨٧٨ م).
- ولاية عمرو بن الليث الصفار (٢٦٥-٢٨٧ هـ).
 - (أ) غزو عمرو بن الليث الصفار فارس في عام (٢٦٨ هـ).
 - (ب) صراع عمرو بن الليث مع رافع بن هرثمة.
 - (ج) قتال عمرو الصفار لاسماعيل الساماني وأسرته (٢٨٧ هـ).
 - (د) نهاية عمرو بن الليث في بغداد (٢٨٩ هـ).
- ولاية أبي الحسن طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث (٢٧٨-٢٩٦ هـ).
- ولاية أبي علي محمد بن علي بن الليث.
- (المحرم من ٢٩٨ حتى ذي الحجة من نفس السنة).
- بقية الأمراء الصفاريون.

الفصل الثالث

الدولة الصفارية

(٢٥٤ - ٢٩٠ هـ / ٨٦٧ - ٩٠٣)

تمهيد (التعريف بسجستان):

تمثل هذه الدولة امتداد الحركة الاستقلالية إلى أحد أقسام خراسان الجغرافية، وهو القسم الجنوبي الشرقي، حيث توجد ولاية سجستان. وسجستان، أو (سيستان) ناحية كبيرة واسعة تنسب إلى سجستان بين فارس. وهي من الإقليم الثالث من أقاليم الأرض الذي يبتدئ من المشرق، فيمر على شمال بلاد الصين ثم الهند ثم السند، ثم كابل، وكرمان، وسجستان، وفارس والأهواز. والعراقين والشام ومصر والإسكندرية وبرقة وإفريقية، وينتهي إلى حد البحر المتوسط^(١). وسجستان يقال لها بالفارسية نيمروز، ومعناها نصف يوم أو الأرض الجنوبية. ويقال إن هذا الإقليم إنما سمي بذلك، لوقوعه في جنوب خراسان. وسجستان كورة متصلة العمارة، قليلة المدن، كثيرة القصور، وقاعدتها مدينة زرنج، وكانت مدينة (زرنج) محكمة الحصن، عجيبه البنيان، وأهلها يتحلون بالشهامة، وهم أصحاب همة وعقل وفطنة، وفقه وحفظ، ودهاء وبهاء وأدب، وخطب، وهم كذلك حذاق في صناعتهم، ومتاجرهم عامرة، وزنج رخيصة المعاش والفواكه، ويسمونها (المقدسى) بصرة خراسان،^(٢) وأهلها مهرة في البناء وتزينه. غير أن حياتها كثيرة، ولا يصاد في أرضها قنفذ ولا سلحفاة، لأنها تقتل الأفاعي، ولذلك قال (ابن الفقيه) "لا

(١) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٤٧، القزويني، آثار البلاد، ص ١٣٨، ٢٠١،

لسترنج، بلدان الخلافة، ص ٣٧٢ وما بعدها.

(٢) المقدسى، أحسن التقاسيم، ص ٢٩٧، ص ٣٠٥.

يرى بسجستان بيت إلا وتحتَه فنقد^(١). ومن مدن سجستان، بلدة قشفة، وهي مدينة حسنة، عليها حصن وخذق، وبها جامع، يقابله الحبس الذي بنى بناء عجيبا، وله منارتان احداها من صفر (نحاس) بناها يعقوب بن الليث الصفار. وهناك أيضا كوين، وهي مدينة عظيمة ذات حصن كبير، وليس بها منبر، لأن أهلها من الخوارج. ومن مدن سجستان أيضا، زنبوك وهي مدينة ذات قسمين، جانب منهما للخوارج، والجانب الآخر يسكنه أهل الجماعة. ودرهند مدينة كبيرة، قريبة من الجبل. ومن أشهر مدن سجستان (بلدة قرنين)، وهي بلدة صغيرة وتعود شهرتها كما سنعرف أنها كانت مسقط رأس بنى الليث الصفار التي تنسب إليهم الدولة الصفارية، ويوجد بهذه المدينة جامع، ولها ريبض، ونهر، أما بلدة بارنواذ، فليس بها خوارج، ولذلك يوجد بها جامع بمنبر، وعليها حصن عظيم، وتشتهر بزراعة الحبوب. ومن نواحي سجستان بلدة (باب الطعام)، وهي ناحية واسعة ذات قرى جليئة. (وكروادكن) وهي أقرب مدن سجستان إلى فارس، وبها منبر، ومنازلها من طين، وهي غير محصنة، وجامعها وسط البلد، ولكورة سجستان رباط في وجه الغور، يسمى (وررنك) يربط به كثير من المرابطين والحراس المجاهدين بخيلهم المسبلة، وبها عدد وآلات كثيرة، ويقصدها أهل سجستان من كل جانب^(٢). والرياح لا تهدأ أبدا بسجستان، ولذلك شيدوا عليها الأرحاء لطحن الغلال، وكانت شدة الرياح تنقل الرمل من مكان إلى آخر، ولولا أن أهلها كانوا يحتالون لنقل هذه الرمال لطمست على المدن والقرى. وأهلها من خيار الناس، ووصفهم (محمد بن بحر الذهبي) بقوله "لم تزل سجستان مفردة بمحاسن

(١) القزويني، نفس المصدر، ص ٢٠٢.

(٢) ابن حوقل، نفسه، ص ٣٥٣، المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٩، ٣٠٥.

لم تعرف لغيرها من البلدان، وما في الدنيا سوقة أصح معاملة ولا أكثر مجاملة منهم، ثم مسارعتهم إلى إغاثة اللهياف ومؤاساة الضعيف، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ولو كان فيه جدع الأنوف، وأجل من هذا كله أنهم امتنعوا على بنى أمية أن يلعنوا على بن أبي طالب على منبرهم^(١). ومعظم أهل سجستان من الخوارج، ويذكر الإمام عبد القادر البغدادي أن رجلاً من الخوارج الذين خرجوا على الخليفة على بن أبي طالب فرأى بعد هزيمتهم أمامه في معركة النهروان (٣٧هـ)، وساروا إلى سجستان، فنشروا بها مذهبهم. ولذلك فهم يثلبون الإمام على بن أبي طالب^(٢)، مما يدل على رسوخ المذهب الخارجي هناك منذ بداية ظهوره كحزب معارض للحكومة الإسلامية، ورغم تعدد فرق الخوارج التي وصلت إلى عشرين فرقة كما يذكر البغدادي، إلا أن ما عرف منها في سجستان قليل، مثل فرقة النجدات أتباع نجدة بن عامر الحنفي (٣٦ - ٦٩هـ) وخاصة فرع (العطوية) الذين صاروا مع عطية بن الأسود الحنفي وهو من علماء الخوارج^(٣)، إلى سجستان، وتبعهم خوارج سجستان، ولهذا عرف خوارج سجستان في ذلك الوقت (بالعطوية)، وفرقة الصُّفريّة أتباع زياد بن الأصفر، وفرقة العجاردة أتباع عبد الكريم بن عجرد أحد أصحاب عطية بن الأسود الحنفي، وعرف - من العجاردة بسجستان فرقة الحازمية، أتباع حازم بن على، وهم أكثر عجاردة سجستان؛ وفرقة الحمزية أتباع (حمزة بن أكر) الذي عاش في سجستان، وكان في الأصل من العجاردة الحازمية، ثم خالفهم في باب القدر والاستطاعة، فأكفرته

(١) القزويني، نفس المصدر، ص ٢٠٢.

(٢) عبد القادر البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٧٧.

(٣) الشهرستاني، الملل والنحل، ج ١، ص ١٧٩ - ١٩٤.

الحازمية في ذلك. وكان ظهوره في أيام هارون الرشيد في سنة (١٧٩هـ)^(١).

وتجدر الإشارة إلى أن أفكار الصغرية قد غلبت على خوارج سجستان، وأصبحت هذه الولاية كما يقول المؤرخ المجهول (صاحب تاريخ سيستان) من أهم معاقل الخوارج الذين كانوا يفرون إليها هرباً من عقاب الحكومة العباسية. ولقد ظل هؤلاء الخوارج في سجستان خطراً يهدد سلطة الدولة العباسية ونوابها الطاهريين أصحاب خراسان^(٢).

أحوال سجستان قبل ظهور الصفاريين:

كانت سجستان كما ذكرنا إحدى مقاطعات إقليم خراسان، وكانت تتبعه سياسياً، ومن أهم أحداثها في عهد العباسيين، فتنة حمزة بن أكرج الخارجي الذي عاش في سجستان، وخراسان، ومكران، وقهستان، وكرمان. وكان هذا الثائر قد خرج على الخليفة هارون الرشيد في سنة ١٧٩هـ، واستمرت فتنته فترة طويلة من حكم الخليفة المأمون. ويذكر ابن خلدون أن الثائر حمزة بن أكرج انتهاز فرصة خروج طاهر بن الحسين وإلى خراسان لقتال رافع بن الليث الثائر على خلافة الرشيد في سمرقند من بلاد ما وراء النهر، وأعلن عصيانه، وعاث في نواحي خراسان لخلائها، الجند، وامتدت طاعته إلى هراة، وسجستان، فحمل عماله إليه الأموال^(٣).

ولما استولى حمزة بن أكرج على بعض البلدان، اتخذ له حاشية، وكون فرقة من الجند لحراسته، جعل على قيادتها عمرو بن صاعد،

(١) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٨١ - ٩٣.

(٢) مجهول، تاريخ سيستان، ص ١١١، فتحى أبو سيف، خراسان، ص ٣٠.

(٣) ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٢٨٧.

واتخذ ابا يحيى يوسف بن بشار قاضيا، ومدحته شعراء الخوارج مثل طلحة بن فهد، بعد انتصاره على بعض فرق الخوارج كالبیهسية، والحازمية، وقتله الكثير منهم، فسموه أمير المؤمنين^(١).

ولما خشى العباسيون من تزايد قوة هذا الثائر الخارجي، زحف إليه أحد قوادهم ويدعى عبد الرحمن النيسابوري في عشرين ألفا، وذلك في عام ١٩٤ هـ، فهزمه الثائر الخارجي وقتل من أصحابه خلقا كثيرا، وأتبعه إلى هراة، حتى كتب المأمون - وكان يتولى القسم الشرقي من الخلافة العباسية إليه ورده عن ذلك^(٢). ولكن الثائر الخارجي قصد بعد ذلك هراة ليستولى حينئذ عليها، فمنعه أهلها من دخولها، واستمرت الحرب بين قوات الثائر وجيش عمرو بن يزيد الأزدي والى هراة عدة شهور، ولكنها أسفرت في النهاية عن مقتل ابن يزيد والى هراة. فتجرد على بن عيس بن ماديان والى خراسان لحرب حمزة الخارجي، ففر الثائر الخارجي بعد هزيمته إلى أرض سجستان، بعدما قتل من قادة العباسيين ستين رجلا، غير الجند، فلما وصل إلى سجستان منعه أهل زرنج العاصمة عن دخولها، ورغم استعراض قواته بالسيف في صحراء زرنج، لإرهاب أهلها، إلا أنهم دافعوا ببسالة عن بلدهم ومنعوه من دخولها رغم تحايله على ذلك، فقطع نخلهم الذي يوجد بخارج أرضهم، وقتل بعض أهلها الذين كانوا على أبوابها. ثم عاد إلى كرمان^(٣).

ويذكر صاحب تاريخ سيستان أن الثائر الخارجي، في محاولة منه لجذب كثير من الأتباع والأنصار، ادعى نسبا فارسيا، فألحق نسبة (بزو

(١) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٩١.
(٢) ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٢٨٧ - ٢٨٨.
(٣) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٩١ - ٩٢.

بن ظمهاسب) البطل الأسطوري الفارسي، فزادت شعبيته وقوى جانبه حتى أنه استطاع الحاق بعض الهزائم بجيش ولاية سجستان^(١). فلما تمكن المأمون من الخلافة بعد التخلص من أخيه الأمين، كتب إلى الثائر حمزة الخارجي كتابا يدعو فيه إلى طاعته، فما زاده ذلك إلا عتوا في أمره وزيادة في خارجيته، وعندما فوض الخليفة المأمون طاهر بن الحسين حكم خراسان، وسمح له بتأسيس الدولة الطاهرية، عهد إليه بالقضاء على فتنة الثائر الخارجي، فزحف طاهر بن الحسين لقتاله، ودارت بينهما معارك حامية الوطيس، قتل فيها من الفريقين حوالي ثلاثين ألفا أكثرهم من أتباع الخوارج، وفر حمزة إلى كرمان. غير أن هذه الهزيمة لم تفت في عضد الثائر الخارجي، فعاود الثورة وطمع في الاستيلاء على خراسان نفسها، لاسيما بعد أن استدعى الخليفة المأمون قائده طاهر بن عبد الله ابن الحسين، وأرسله إلى الإسكندرية. فأقبل الخوارج من كرمان نحو نيسابور، فخرج إليهم عبد الرحمن النيسابوري في عشرين ألف رجل، ونجح في الحاق هزيمة قاسية بحمزة وقتل الألوف من أنصاره، وفر حمزة من المعركة جريحا، ثم لقي حتفه متأثرا بجراحة هذه^(٢). ويعلق (عباس برويز) صاحب كتاب "تاريخ دو هزار و بانصد سالة إيران"، على ذلك بقوله أنه رغم أن معارضة فرقة الخوارج. بسلطة الطاهريين وعمالهم في سجستان تأثرت بموت حمزة الخارجي في عام ١٣ هـ / ٨٢٨م، إلا أن قوة الدولة الطاهرية حينئذ قد ساعدت على اضعاف نشاطهم كقوة معارضة، فمالط إلى التوقيع حتى تتاح لهم فرصة أخرى^(٣).

(١) مجهول، تاريخ سجستان، ص ١٥٩، فتحى أبو سيف، خراسان، ص ٣١.

(٢) ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٢٨٧ - ٢٨٨.

(٣) فتحى أبو سيف، خراسان، ص ٣١.

كما كانت سجستان ولاية خاضعة للطاهريين الذين كانوا يحكمون خراسان بتفويض من الخلافة العباسية، وكان أهلها شديدي الشكيمة يتطلعون إلى الاستغلال، ولقد توافرت عدة عوامل لظهور حركات المعارضة في سجستان ضد نواب الطاهريين، فقد كانت ظروف سجستان الاقتصادية تدفع بأهلها إلى إعلان تمردهم ضد السلطة الحاكمة، وخاصة في سنوات القحط الاقتصادي الذي كثيراً ما تعرضت له مدن وقرى سجستان، نتيجة جفاف التربة من شدة الحرارة في أغلب أنحاء الإقليم، وشدة الرياح التي كانت تقتلع أمامها كل شيء، بالإضافة إلى قلة المياه الصالحة للزراعة وضعف مواردها الاقتصادية، فقد عانت مدن هذا الإقليم ونواحيه من القحط الاقتصادي الذي بدت مظاهره في عام ٢٢٠ هـ / ٨٣٥ م، عندما جف ماء (هيرمند) أعظم أنهار سجستان، فلم تصل المياه إلى الإقليم، فاحترقت النباتات وتسبب ذلك في ظهور المجاعات وللتدليل على أهمية نهر هيرمند للحياة في إقليم سجستان قيل إن "سجستان هبة هيرمند" (١).

ورغم اهتمام الطاهريين بالقضاء على الاضطرابات في إقليم سجستان، إلا أن الإجراءات التي اتخذوها لم تكن بالنجاح، فقد فشل إبراهيم القوسي الذي قلده الأمير عبد الله بن طاهر أمير خراسان ولاية سجستان في عام ٢٢٥ هـ / ٨٣٩ م، في القضاء على الفتن والقتال بها، بل زادت حدة هذه الاضطرابات بعدما تعرضت سجستان لمجاعة شديدة في عام ٢٢٧ هـ / ٨٤١ م. وظلت أحوال سجستان مضطربة واشتدت بها حركات المعارضة ضد حكم الطاهريين وخاصة في مدينة (بست) القريبة

(١) مجهول، تاريخ سيستان، ص ١٨٦، وهيرمند أو هليمند، أو هندمند، كلها أسماء لهذا النهر، ومنبعه في الجبال بين غزنة وباميان. راجع: لسترنج، بلدان الخلافة، ص ٣٣٧، فتحى أبو سيف، خراسان، ص ٢٩.

كابل، فقد تزعم لواء المعارضة في هذه المدينة أحد أعيانها ويدعى (صالح بن النضر الكناني)، الذي أعلن تمرده على الطاهريين بسبب مقتل أخيه على يد عاملهم على سجستان، وزادت حركته اشتعالا بانضمام أهل بست له، ثم انتقل صالح بن النضر إلى مدينة زرنج عاصمة وقاعدة مركز قوى المعارضة الشعبية حيث العيلارين، وانضم بقوته إلى قوتهم لإسقاط الحكم الطاهري بها. فترتب على ذلك ازدياد قوة العيلارين الذين شملت سطوتهم ولاية سجستان بأثرها، بعد انسحاب عمال الطاهريين منها وتركهم هذه الولاية^(١).

وتجدر الإشارة إلى أن بعض المؤرخين الإيرانيين المعاصرين، يربطون بين ظهور جماعة (العيلارين) في سجستان، وبين ظهور الحركات الوطنية المناهضة لسلطان الخلافة أو نوابها من الطاهريين، على أساس أن جماعة العيلارين ضمت الشباب الفارسي المرتبط بموطنه في سجستان وغيرها من الولايات الفارسية. ويرى الدكتور فتحى أبو سيف أن هذه النظرة مبالغ فيها، حيث ارتبط ظهور العيلارين بالقحط الاقتصادي الذي عانت منه سجستان، بسبب نقص مواردها الاقتصادية. لذلك فإن أغلب العيلارين، في سجستان كانوا من العاطلين الذين اضطرتهم الحاجة إلى الانضواء في كنف رؤساء العيلارين لكسب قوتهم اليومي، ومن خلال نظرة متأنية لتطورات الأحداث بسجستان، نرى أن ظهور العيلارين قد ارتبط بالفعل بتدهور الأوضاع الاقتصادية، ولكنهم مثل غيرهم من عوام المدن الكبرى كانوا ينخرطون ضمن جماعات المطوعة للدفاع عن بلدهم عند تعرضها لخطر داهم، يؤكد ذلك ما اشتهر بها علما سجستان من النجدة والاسراع إلى إغاثة الملهوف، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن

(١) ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ١٨٠.

المنكر كما رأينا، ولذلك فقد انضموا إلى صفوف المجاهدين والمطوعين (الفتيان) لمجاهدة الخوارج، وحماية سكان سجستان من عبثهم.

واستنادا إلى رأى (بارتولد) الذى يقول بأنه لم يبق أمام الساخطين على الأوضاع الاقتصادية فى خراسان وما وراء النهر فى ظل حكم الطاهريين، إلا أن ينخرطوا فى سلك المجاهدين والمطوعين، ويرتحلوا إلى الشغور لقتال الكفار والملاحدة (الخوارج)، لاسيما وأن هذا الأمر كان لا يخلوا من الحصول على الغنائم والأسلاب، التى تعوضهم الآثار السيئة المترتبة على القحط الاقتصادى فى بلادهم. نستطيع تفسير الرأى القائل بتزامن ظهور جماعات العيارين، وظهور الحركات الوطنية المناهضة لسلطان بنى طاهر.

وتجدر الإشارة إلى أن (كرديزى) قد أطلق لفظ (العيارين) على هؤلاء المطوعة والمجاهدين، نظرا لما شاب بعض تصرفاتهم من سقطات أظهرتهم وكأنهم مرتزقة يعرضون خدماتهم حيثما يكون الجهاد وتوقع الغنائم، وتعريض حياة الحكام الذين استعانوا بهم وبخدماتهم للخطر على أيديهم. ولم تلبث جماعة المجاهدين هذه، أن أصبح لها تنظيم نقابى كغيرها من أهل الحرف فى المشرق^(١).

كذلك فإن موقع سجستان الجغرافى المتطرف ناحية الشرق، وابتعادها عن مركز الخلافة العباسية، أغرى زعماء المعارضة السياسية والمذهبية الذين اعتنقوا فكر الخوارج (الذين تمسكوا بمبدأ الخلافة الجمهورية، بخلاف فكر السنة وحصرهم الخلافة فى قريش) بإعلان العصيان ضد حكم الطاهريين بحكم تبعيتهم للخلافة. كذلك ساعد على

(١) بارتولد، تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى، ص ٣٣٩، ٤٤٠.

ظهور المعارضة السجستانية، لحكم الطاهريين سوء معاملة عمال الطاهريين للأهالي، وتعسفهم معهم في جمع الخراج بشكل لا يتناسب مع امكانيات وموارد هذه الولاية، كما يذكر الكرديزي (ت ٤٤٠ هـ) صاحب (زين الأخبار) (١).

ظهور الصفاريين:

كانت أسرة الصفاريين خير دليل على ما ذكرناه بخصوص تطور نمط المعارضة في إقليم سجستان تلك المعارضة التي بدأت مع قيام المطوعة بجهاد الخوارج وعصيان الطاهريين، ثم انضمام العيارين للمطوعة وانخراطهم في صفوفهم لقتال الخوارج، وفي نفس الوقت للخروج من أزمته الاقتصادية الطاحنة، فقد انبعثت بين صفوف هؤلاء المطوعة (دولة الصفاريين) القوية التي وضعت حدا لحكم الطاهريين، وآل إليها زمام الأمور بفارس. ولم يقف الصفاريون عند هذا الحد بل حاولوا - كما سنرى - أن يمدوا سلطانهم على بلاد ما وراء النهر.

وينتمي مؤسس هذه الدولة يعقوب بن الليث بن معدل هو وإخوته الثلاثة عمرو وظاهر وعلي إلى مدينة قرنين بسجستان، وهي تقع على مرحلة من عاصمة الولاية زرنج، وذلك على يسار الذهاب إلى (بست). وكان يعقوب وإخوته يتعيشون جميعا على شغل أبيهم، وكان والدهم يعمل صفارا، وهي مهنة طلاء النحاس، مما جعله يعيش في ظل الحياة البائسة التي كان يحياها أهالي القرى السجستانية. وبعد مدة انتقل يعقوب إلى زرنج، وعمل أجيرا عند رجل صفار، وكان يتقاضى خمسة عشر درهما في اليوم لقاء عمله، (وفي رواية أخرى خمسون درهما)، (٢) أما أخوه

(١) فتحى أبو سيف، خراسان، ص ٣٤.

(٢) بارتولد نقلا عن الكرديزي، تركستان، ص ٣٦٨.

عمرو فقد عمل (مكاريا) يعمل باكراء الحمير، بينما تجعله رواية أخرى نجارا^(١). لكن يعقوب كان ذا فتوة، ولم تسمح له همته العالية أن يظل صفارا ويقضى عمره في هذه الحرفة الحقيرة، فدخل في زمرة العيارين، وانضم هو وإخوته إلى خالهم (كثير بن رفاق) وكوتوا عصابة لقطع الطريق، ولقد تدرج يعقوب بن الليث في سلك العيارية حتى وصل إلى رئيس جماعة، وعرفا بشجاعته وحكمته بينهم، ومن ناحية أخرى فقد اشتهر يعقوب بكرمه في بذل الأموال على أصحابه من هذه الجماعة وهي صفة لاشك تجعلهم يميلون إليه، ويستجيبون لأوامره، ومع ذلك لم يتجاوز جادة الانصاف، ولم يتخل عن رعاية جانب الفتوة وبعد النظر في سرقة وقطعه الطرق. ويحدثنا (الكرديزي) أن يعقوب كان يقوم بتوزيع الأموال التي كان يتم جمعها من حراسة القوافل التجارية، أو التي كان يحصلها من كبار الأثرياء، على أصحابه من العيارين دون الاستئثار بها، كما كان يفعل غيره من قادة العيارين. فترتب على ذلك زيادة أعداد المنضمين إليه رغبة في الحصول على المكاسب المادية^(٢).

وفي تلك الأثناء، وفي خلافة الواثق العباسي (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ)، وإمارة طاهر بن عبد الله على خراسان وسجستان (٢٣٠ - ٢٤٨ هـ)، ثار في مدينة (بست) رجل يدعى غسان بن النضر من كبار رجال سجستان، على حاكمها وهو ابن والي سجستان إبراهيم القوسي، فقبض عليه حاكم (بست) وقطع رأسه وصلب جسده. فأتار هذا العمل أكثر الناس

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٣٠٦، مجهول تاريخ سيستان، ص ٢٠٠، القزويني، آثار البلاد، ص ٤٢٨، ابن الأثير، الكامل، ح ٧، ص ١٨٤، بارتولد، تركستان، ص ٣٤٠.

(٢) مجهول، تاريخ سيستان، ص ١٩٨، بارتولد، تركستان، ص ٣٤٠، فتحي أبو سيف، خراسان، ص ٣٥.

الذين كانوا يذكرون غسان بالخير، وبعد ذلك بقليل التفوا حول أخي غسان صالح بن النضر الذي تابع الثورة، ولقيت ثورته وثورة أصحابه اهتماما كبيرا، ولما جرد إليهم حاكم بست جيشا لقتاله، انتقل صالح بن النضر بقواته إلى زرنج، وأخذ في قتال الخوارج بها، وسمى أصحابه المتطوعة، وقيل له صالح المطوعي، وانضم إليه في زرنج جماعة العياريين ومنهم يعقوب بن الليث الصفار، على الرغم من أنه كان في بداية أمره خارجيا، ودرهم بن الحسن، وبفضل مساعدتهم استطاع الثائر الاستيلاء على مدينة بست، وعهد صالح إلى يعقوب في هذا الوقت بقيادة جيشه، فكان هذا أول طريق المجد لهذا العيار السجستاني. ومن عام (٢٣٢ هـ - ٢٣٨ هـ) تسلط صالح بن النضر بعون يعقوب وعصبته على بست تسلطا كاملا، وفي العام الأخير (٢٣٨ هـ) بايع أهالي بست صالحا بن النضر أميرا عليهم وتركوا إليه خراجهم^(١).

وكان يتولى رئاسة خوارج سجستان في هذا الوقت شخص يدعى (عمار)، فأنفذ صالح بن النضر قائده يعقوب بن الليث يعاونه ودرهم بن الحسن لقتاله، فانهزم عمار برجاله الخوارج، غير أنه لم يستسلم وعقد تحالفا مع إبراهيم بن الحسين حاكم سجستان لقتال المتطوعة في عام ٢٣٩ هـ، ورغم أن الهزيمة قد لحقت بصالح بن النضر في بداية المعركة، إلا أن كفته رجحت بعون يعقوب الصفار وأخيه عمرو، ف وقعت الهزيمة بعمار الخارجي وحليفه إبراهيم بن الحسين، الذي اضطر إلى مغادرة ولايته وتركها في أيدي المتطوعة، فاعتلى صالح بن النضر كرسيها.

(١) مجهول، تاريخ سيستان، ص ١٩٨، ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٣٦٧، عباس إقبال، تاريخ إيران، ص ١٠٠ - ١٠٢.

غير أن الخلافات ما لبثت أن دبّت بين الحلفاء، عندما رفض يعقوب الصفار ورفاقه أن يمثلوا أوامر قائدهم صالح بن النضر بالإغارة على قصر والى سجستان، واعتذروا عن ذلك بحجة أن صالحاً قد أغار على أموال باهظة من مال أهل سجستان، وأن التفكير في إغارة جديدة أمر يخالف أخلاق الفتوة، والعسكرية الرفيعة التي كان يتحلى بها يعقوب الصفار. فلما اطّلع صالح على ذلك عمد إلى الفرار، فتعقبه يعقوب وأخواه وجماعته، ووقعت بين الطرفين حرب شديدة انهزم فيها صالح، وقتل طاهر أخو يعقوب، وكان ذلك في عام ٢٤٤ هـ. ويذكر ابن خلدون أن طاهر بن عبد الله بن طاهر صاحب خراسان (٢٣٠ - ٢٤٨ هـ) استطاع أن يتصدى لهؤلاء المتطوعة والعيارين وأخرجهم عن سجستان، وبإيعاز الجند (درهما بن الحسين) على ولاية سجستان وذلك بعد فرار صالح بن النضر وظل يعقوب قائداً لجيشه، وحاكماً لمدينة (بست)، وأظهر في خدمته في حروبه مع الخوارج والمخالفين لحكمه شجاعة وكفاءة عظيمتين، حتى استلب ألباب الجند وأرواحهم^(١). وتذكر الروايات أن درهما بن الحسين اضطر أمام ارتفاع أسهم يعقوب بن الليث إلى الاعتراف بقدره، فمنحه بعض الألقاب التي تؤكد دوره القيادي داخل جماعة العيارين مثل لقب (سالار) أي قائد، فاستطاع يعقوب بحكمته ومهادنته لخصومه الحفاظ على تماسك جماعة العيارين، فآزداد تقديرهم له^(٢).

(١) ابن خلدون، العبر، ج ٣، ص ٣٦٧، عباس إقبال، تاريخ إيران، ص ١٠٣.
(٢) مجهول، تاريخ سيستان، ص ١٩٩، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٤٤٤، فتحي أبو سيف، خراسان، ص ٣٧.

فلما أتحت له الفرصة بعد ذلك، تخلص من منافسة درهم أثناء غياب الأخير لقضاء فريضة الحج، والتي قبض عليه أثناء أدائها بتدبير من صاحب خراسان، وسجن في بغداد فاجتمعت المتطوعة على يعقوب بن الليث، فقام بقتال السراة فظفر بهم، وأثنى فيهم وخرب قراهم، واشتدت شوكته فغلب على سجستان، وأظهر التمسك بطاعة الخليفة العباسي وكاتبه وأظهر أنه يعمل بأمره. ولذلك قاتل السراة وملك سجستان فأحسن الغناء فيه، وتجاوزه إلى سائر أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(١).

ولما أطلق درهم بن الحسين من حبسه ببغداد، وعاد إلى سجستان، وجد أن يعقوب قد أصبح سيد الموقف هناك، وقد علا شأنه بعد غياب درهم. ويذكر (بارتولد) أن يعقوب بن الليث قد كشف بأعماله العسكرية الجريئة التي قام بها ضعف شخصية الزعيم السابق للمتطوعة، فازداد تمسكهم به واجتمعوا على زعامته، والتفوا حوله لما رأوه من حسن تدبيره وسياسته وقيامه بأمورهم، بعد عودة درهم بن الحسين، الذي اضطر مرغما أمام هذا الموقف أن يساير اتجاه الجماعة، وأن يتنازل عن الزعامة ليعقوب وينخرط في زمرة أصحابه، وذلك في يوم الأحد السادس من المحرم من عام ٢٤٧هـ / ٢٢ من مارس ٨٦١ م.

ومن هذا يتبين أن يعقوب بن الليث على غير ما يرويه اليعقوبي في (تاريخه) قد بذغ نجمه منذ عهد الأمير طاهر بن عبد الله^(٢). وبهذه الطريقة استطاع هؤلاء المتطوعة أن يقيموا نوعا من الديمقراطية في

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص ١٨٤، ابن خلدون، العبر، ج ٣، ص ٣٦٧، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٤٤٥، حسن محمود، أحمد الشريف، العالم الإسلامي، ص ٤٥٨.

(٢) بارتولد، تركستان، ص ٣٤١.

اختيارهم رئيسا من بينهم، هو أكثرهم كفاءة، وهذا النظام أتاح الفرصة لذوى المواهب لتولى المنصب القيادية^(١). غير أن درهما بن الحسين لم يركن إلى هذا الوضع الجديد، وعز عليه أن يفقد ملكه وجاهه ومقامه بين صفوف جماعته، فتأمر على قتله، ولكن يعقوب بن الليث علم بهذه المؤامرة، فسارع بكشفها أمام قادة العيارين، وصرع أعداءه، وألقى بدرهم فى السجن ثم قتله بعد ذلك، ليصبح قائدا وأميرا لشعب سجستان^(٢).

(١) محمد على حيدر، الدويلات الإسلامية، ص ٥٨.
(٢) عباس إقبال، تاريخ إيران، ص ١٠٣، فتحى أبو سيف، نقلا عن الجوزجاني، خراسان، ص ٣٧.

الدولة الصفارية

ولاية يعقوب بن الليث الصفار (٢٤٧ - ٢٦٥هـ):

لم تكن مبايعة المتطوعة لزعيمهم يعقوب بن الليث الصفار أميرا على سجستان، أنه أصبح بذلك سيد الولاية بلا منازع، فقد كانت هناك قوى محلية تناصبه العداء والخلاف. k إن ذا ١
ولذلك شغل نفسه منذ البداية بتصفية جيوب المعارضة لحكمه، وتقوية سلطته بسجستان، وكسب مودة وثقة أهلها حتى إذ نجح في توطيد أركان دولته، يسعى بعد ذلك في مد نفوذه والتوسع على حساب الأقاليم المجاورة له.

(أ) سياسة يعقوب بن الليث الداخلية:

بعد أن فرغ يعقوب من مشاكله الداخلية الخاصة بجماعته العيارية في زرنج، بدأ ينظر إلى ولاية سجستان والقوى السياسية والعسكرية بها، لعله يستعين بها لصالح أهدافه التوسعية، ففي عام ٢٤٨ هـ ، أناب أخاه عمرا على سجستان ليتفرغ لقتال صالح بن النضر في مدينة (بست). فلما علم صالحا بذلك أخلى بست، وخرج منها وهاجم مدينة زرنج عاصمة سجستان من طريق آخر، وأوقع عمرو بن الليث في أسره ، فتحرك يعقوب بسرعة عائدا إلى سجستان لإنقاذها واستخلاص أخاه من قبضة صالح بن النضر، فاشتبك معه في معركة وهزمه، فاتجه صالح بعد هذه الهزيمة إلى حدود (كابل)، ولجأ إلى ملك القسم الشرقي من أفغانستان، وكان مشركا وكان يلقب بلقب (رتبيل) أو (زنبيل) وتعنى (راكب الأفيال)، دلالة على السلطان، وتحالف معه على حرب يعقوب بن الليث، وجرت

الحرب بين يعقوب وصالح وحليفه رتبيل فى عام ٢٤٩ هـ، على مقربة من بست. وفى البداية انهزم يعقوب وساء موقفه، لكنه أعاد ترتيب قواته من جديد، وحمل حملة صادقة على قوات منافسيه، فدارت الدائرة على قوات ملك شرق أفغانستان وقتل من رجاله مقتلة عظيمة، فولى أعداؤه فارين، وقد أسر يعقوب فى هذه المعركة حوالى ثلاثين ألفاً من الجنود، وغنم غنائم كثيرة، منها أربعة آلاف فرس. وترتب على ذلك أن انضم إليه كثير من أصحاب صالح وزنبيل، فاستغل يعقوب هذا التخبط فى صفوف صالح بن النضر وفراره، فأرسل من يتعقبه، فأسره وصدفه، وظل بحبس يعقوب إلى أن مات فى عام ٢٥١ هـ^(١).

أما بخصوص الخوارج، فقد أجرى يعقوب اتصالات ودية مع زعماء الخوارج كافة فى أنحاء سجستان، فاستجاب له أغلبهم واعترفوا بزعامته^(٢). حتى أن أحد ثوارهم أصبح من كبار معاونيه، فقلده الصفار أمر جماعته نيابة عنه. ويذكر المؤلف المجهول صاحب (تاريخ سجستان) أن يعقوب أرسل رسالة ودية إلى عمر الخارجي زعيم خوارج سجستان لكسب وده، طالبا منه أن يتحالف معه ضد الطاهريين والخلافة العباسية. ويرى الدكتور فتحى أبو سيف أن الصفار أراد أن يضم قوة الخوارج إلى قوته على أساس إقليمى، هو التعصب بسجستان كولاية يعيش على أرضها الخوارج مع العيارين، وتمثل كل منهما قوة عسكرية لا يستهان بها^(٣).

(١) عباس إقبال، تاريخ إيران، ص ١٠٢ - ١٠٤.

(٢) بارتولد نقلا عن نظام الملك، تركستان، ص ٣٤١ (هامش ٢٥٤).

(٣) مجهول، تاريخ سيستان، ص ٢٠٣، فتحى أبو سيف، خراسان، ص .

وإن رغم ما تدل عليه هذه الرسالة من تفاهم بين قوتى العيارين بقيادة يعقوب، والخوارج بقيادة عمار الخارجي، إلا أنه فيما يبدو أن كلا الطرفين قد علم بنوايا الآخر السيئة، التي سرعان ما عبرت عن نفسها بهجوم على العيارين المباغت على قوى الخوارج المتحصنة في بلدة (نیشك) إحدى مدن سجستان^(١). فأرغم يعقوب الخوارج على التقهقر وألحق بهم هزيمة ساحقة، حتى أن عماراً قد أقدم على الانتحار كما يذكر ابن خلكان^(٢). غير أن الروايات الفارسية تذكر أنه قتل في حربه مع يعقوب الصفار، في عام ٢٥١ هـ، فنصب يعقوب رأسه على إحدى بوابات مدينة سجستان، أما الجسد فعلق على بوابة أخرى^(٣). وزالت بموته شوكة الخوارج، ودخل أكثريتهم في طاعة يعقوب وخمدت فتنتهم، فخلت بذلك سجستان من قوة الخوارج كقوة مؤثرة، وتمكن يعقوب من بسط سيطرته على ولاية سجستان، فعين من قبله عمالاً على مدنها ونواحيها.

وهكذا حسم يعقوب بن الليث الصفار الصراع بين القوى المحلية المتصارعة في سجستان لصالح أهدافه، حيث إعتد على جماعة العيارين، بعد ما استكمل لها تنظيماتها وقياداتها، مما مكنه من السيطرة على ولاية سجستان بأكملها^(٤).

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ح ٥، ص ٤٤٥، ونيشك ناحية عامرة وتقع شرق زرنج، وبها سمي الباب الشرقي لزرنج، حيث أطلق عليه "باب نيشك" (لسترنج، بلدان الخلافة، ص ٣٨١).

(٢) عباس إقبال، تاريخ إيران، ص ١٠٤.

(٣) مجهول، تاريخ سيستان، ص ٢٠٣.

(٤) فتحى أبو سيف، خراسان، ص ٤٠.

(ب) سياسة يعقوب بن الليث الخارجية (امتداد دولته وتوسعها):

لم تقتصر أهداف يعقوب الصفار التوسعية على ولاية سجستان فحسب، وإنما دفعته أطماعه إلى توسيع رقعة بلاده وتأمينها من الأعداء المتربصين بها. ففي عام ٢٥١هـ، وبعدما قضى على قوة صالح بن النضر، نراه يوجه قواته شرقا نحو كابل التي كان حكامها يرتبطون بمعاهدات مع الخلافة العباسية، يدفعون بمقتضاها مبالغ مالية مقابل اقرار العباسيين لولائهم الذين كانوا يتلقبون بلقب (زنبييل) على ولايتهم. والسبب وراء اقدام يعقوب على غزو كابل هو مساعدة حاكمها زنبييل لمنافسة صالح بن النضر الكناني كما رأينا. ولقد ألحقت قوات يعقوب بزنبيل هزيمة قاسية في نفس العام (٢٥١ هـ / ٨٦٥ م) ودخلت كابل، لتعلن تبعيتها منذ ذلك الحين لأملاك الصفاريين في سجستان، كما يذكر (عبد الحى حبيبي) صاحب "تاريخ مختصر أفغانستان".

غير أن انشغال يعقوب بن الليث بحروبه في الجبهة الغربية (كرمان، فارس)، كما سنرى، قد أتاح الفرصة لإثارة القلاقل والاضطرابات في كابل من جديد، فقد استغل أحد كبار رجال الدولة السابقين بكابل والذي كان سجيناً بالقرب منها، هذه الظروف وفر من حبسه في عام ٢٥٦هـ / ٨٦٩م، وقاد بعض أنصاره من معارضي الحكم الصفاري لتحرير بلاده منه. فلما علم يعقوب بأمر هذه الثورة، زحف بقواته نحو (الرخج) (الرخد) شرق مدينة بست على طريق كابل حيث تمركزت فيها قوات (ابن رتبيل)، فاستطاع وأد هذه الحركة في مهدها، واستعاد سيطرته من جديد على كابل. وكانت هذه المدينة إلى هذا الوقت في يد البوذيين، خارجة عن طاعة المسلمين، وخرّب كثيرا من معابد أصنامها بصفته مجاهدا غازيا، وحمل منها غنائم ضخمة من بينها عدد

من الأصنام الذهبية والفضية البوذية، وأرسل خمسين منها هدية للخليفة المعتمد ليظهر له خدمته للإسلام. ثم زحف منها إلى بعض المدن المجاورة لها التي تقع على حدود سجستان الشرقية مثل غزته وكرديز في بلاد الهند للسيطرة عليها، فتم له ذلك في عام ٢٥٦هـ / ٨٦٩ م، فأكد بذلك أمن وسلامة جبهته الشرقية^(١).

وعلى هذا فإن يعقوب بن الليث الصفار كان أول مجاهد مسلم يعمل على نشر الإسلام في شرق أفغانستان، ومد من اتساع انتشار هذا الدين حتى حدود القسم الأعلى لوادي السند قبل الغزنويين والغوريين^(٢).

ولقد كان يعقوب بن الليث يهدف إلى السيطرة على خراسان أهم الولايات الشرقية سياسيا واقتصاديا ومركز حكم الطاهريين، ذلك لأنه لم يكن أمنا على حكمه في سجستان لعدم اعتراف الخلافة العباسية بشرعية حكمه حتى ذلك الحين (٢٥١هـ / ٨٦٥ م)، كما كان متخوفا من محاولة الطاهريين استعادة سلطاتهم على ولاية سجستان من جديد. ولذلك توجه إلى فتح (هراة) في عام ٢٥٣هـ / ٨٦٧ م، بعد أن سلمت له شرق أفغانستان، وتتمثل أهمية هراة في أنها كانت بوابة خراسان الشرقية^(٣).

وكان يحكم هذه المدينة للطاهريين أمير يدعى (محمد بن أوس الأتباري)، فلما أغار يعقوب على هراة، أغلق واليها المدينة أمام المهاجمين، فاضطر يعقوب إلى حصارها، وبعد فترة من القتال استولى العيارون على هراة

(١) بارتولد، تركستان، ص ٣٤٢، فتحى أبو سيف، خراسان، ص ٤٦.

(٢) عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ١٠٧.

(٣) هراة من أعظم مدن خراسان، ولم يكن بخراسان مدينة أجل ولا أعمر منها، ولا أحصن، ولا أكثر خيرا منها. وهي من بناء الإسكندر الأكبر، وتشتهر بصناعة الأواني الصفرية المظمعة بالفضة، وتصدر منه إلى سائر البلاد (الغزويني)، آثار البلاد، ص ٤٨١، لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٣٢٣-٣٢٤، ٤٥٠-٤٥١).

بعد هزيمة محمد بن أوس، فأرسل الأمير محمد بن طاهر حاكم خراسان (٢٤٨ - ٢٥٩ هـ / ٨٦٢ - ٨٧٢ م) قائده إبراهيم بن إلياس بن أسد الساماني بجيش إلى (بوشنج) لدفع يعقوب وقواته، فترك الأخير أخاه عليا على هراة، وأسرع لمقابلة إبراهيم بن إلياس فهزمه واستخلص بوشنج منه أيضا. فعظم قدره وخافه أمير خراسان وغيره من أمراء الأطراف. وكان استيلاء يعقوب على هراة أول احتكاك مباشر بينه وبين الخلافة في عهد المعتز^(١).

وكانت سيطرة يعقوب على هذه المدن الخراسانية من أهم العوامل التي شجعتة على الدخول في مغامرات سياسية أخرى، لكي يمد رقعة بلاده ويوسع مساحة نفوذه، وهذا ما أعلنه بالفعل وجعله منهاج حياته، فقد كان يردد دائما أنه عليه هو وجماعته أن يحفظ سجستان من شر الأجناب (يقصد الطاهريين)، وفوق ذلك يزيد على اتساعها بضم الولايات التي تقع على أطرافها. ولهذا فقد اتجه فكرة إلى الإستيلاء على كرمان وفارس. وكانت (كرمان) جزءا من أملاك الطاهريين^(٢)، ولكن بسبب ضعف الأمير محمد بن طاهر، فلم يك لهذه الأسرة فيها أدنى نفوذ. وطمع والي فارس (علي بن الحسين) من قبل المعتز العباسي في ولاية كرمان

(١) ابن الأثير، الكامل، ح ٧، ص ١٨٥، ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٣٦٧، عباس إقبال، تاريخ إيران، ص ١٠٥. وتقع بوشنج أو فوشنج على مسيرة يوم من غرب هراة، وكانت تشتهر بأخشاب العرعر الذي يصدر إلى سائر النواحي، ولبوشنج أو بوشنك كما يذكر ياقوت الحموي سور وخندي وثلاثة أبواب (لسترنج، نفسه، ص ٤٥٣).

(٢) كرمان، ناحية مشهورة، يحدها شرقا مكران، وغربا فارس، وشمالا خراسان، وجنوبا بحر فارس، وهي تنسب إلى كرمان بن فارس، وهي بلاد واسعة الخيرات، وافرة الغلات، وجعل المقدسي إقليم كرمان خمس كور، وكان لاقليم كرمان في العصور الوسطى قصبين، هما السيرجان وبردسير، والأخيرة هي التي توافق مدينة كرمان الحالية (القزويني، نفس المصدر، ص ٢٤٧، لسترنج، نفسه، ص ٣٢٧-٣٤١).

وكتب إلى الخليفة يطلبها لنفسه، وحجته في ذلك ضعف آل طاهر وقلة ضبطهم لما آل إليهم من البلاد، وأن يعقوب بن الليث قد غلبهم على سجستان. ولما كان الخليفة المعتر يخشى من سطوة علي بن الحسين هذا بسبب عصيانه واستيلائه على خوزستان والعراق، فقد فوض إليه حكم كرمان. وفي الوقت نفسه تطلع يعقوب بن الليث إلى كرمان، فطلب من الخليفة العباسي أن يوليه عليها. ولما كانت سياسة الخلافة ترمى إلى اضعاف كل من يعقوب بن الليث الذي يتحداها في أملاكها الشرقية، وعلى بن الحسين الذي تباطأ في حمل خراج فارس إلى حكومة بغداد، فكلاهما إذن كان يشكل خطراً على الدولة العباسية، لذلك كتب المعتر إلى كل منهما بولاية كرمان، هادفاً من وراء ذلك أن يتولد العداء والقتال بينهما، فإذا هزم أحدهما الآخر سقطت مؤنة الهالك منهما، وانفرد بالآخر، فيستريح من شرهما^(١).

أسرع علي بن الحسين بإرسال خمسة آلاف مقاتل بقيادة طوق بن المغلس إلى كرمان، فاستولوا عليها قبل وصول يعقوب إليها. فلما علم يعقوب بهذا الخبر وهو في طريقه إلى كرمان، اضطر إلى النزول قبليها، ومكث بمنزله قرابة شهرين لم يبادر بالهجوم ولا تحرك لدفع قائد صاحب فارس، وفي النهاية لجأ يعقوب إلى الحيلة للاستيلاء على كرمان، فأظهر الاستعداد للعودة إلى سجستان، وابتعد عن كرمان بمرحلتين، فاعتقد طوق بن المغلس انصراف منافسه عن كرمان، فترك أمور الحرب وانشغل باللهو واللعب، فكر يعقوب عانداً وبلغ كرمان، وقامت الحرب بين الفريقين، وانتهت بانتصار يعقوب، وأسر طوق بن المغلس والاستيلاء

(١) الطبري، تاريخ الأمم، ح ١١، ص ١٥٧، ابن الأثير، الكامل، ح ٧، ص ١٨٥، ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٣٦٨، حيدر، الدويلات، الإسلامية، ص ٥٩.

على كرمان. وقد احتفظ المؤرخ المجهول صاحب تاريخ سيستان بطرف من حيل العيارين وخدعهم في الحروب الخاطفة، أفادت في أسر طوق بن المغلس، فقد لجأ أحد قادة يعقوب إلى حبل كان يستخدم في الإلقاء به على بعض الأشخاص ثم جرهم من على صهوة الخيول ففعل قائد يعقوب هذا يطوق بن المغلس فوق من على فرسه، وتمكن من أسره^(١). فلم علم على بن الحسين صاحب فارس بهزيمة قائده وأسرته، تيقن أن خطوة يعقوب التالية هي الزحف نحو فارس للاستيلاء عليها، فحشد قواته أو كمن بها في مضيق في طريق يعقوب إلى (شيراز) عاصمة فارس، لكنه لم يستطع إلحاق الهزيمة بالصفاريين، بل هزم هو وأسر في المواجهة معهم. وتقدم يعقوب بقواته ودخل شيراز في ١٤ جمادى الأولى من سنة ٢٥٥هـ، فصلى بها داعياً للخليفة المعتز العباسي، وقد غنم يعقوب في فتحه هذا غنائم كثيرة، وفي طريق عودته مظفراً إلى سجستان، أرسل يعقوب الهدايا من شيراز إلى الخليفة العباسي في بغداد^(٢).

وترجع الإنتصارات التي حققها يعقوب كما يذكر (القرماني) صاحب (أخبار الدول) إلى التنظيم الدقيق الذي كون به يعقوب جيشه، فقد كان جنده يطيعونه طاعة تامة، كما كان لحصولهم على مكاسب مادية كبيرة من وراء هذه الإنتصارات، السبب في ارتفاع روحهم المعنوية.

وبعد رحيل يعقوب بن الليث عن فارس عانداً إلى سجستان، عادت فارس إلى حظيرة الدولة العباسية، وأرسل الخليفة المعتز عماله

(١) مجهول ، تاريخ سيستان، ص ٢١٣.
(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ح ١١، ص ١٥، ووصف ابن خلدون (العبر، ح ٣، ص ٣٦٨)، هذه الهدايا بقوله " واهدي هدية جلية يقال منها عشر بازات بيض، وياز ألق صيني، ومائة نافجة من المسك، وغير ذلك من الطرف"، عباس إقبال، تاريخ إيران، ص ١٠٦، وقارن مع: فتحى أبو سيف، خراسان، ص ٤١-٤٥، والمصادر المذكورة هناك.

إليها، فوليتها الحرث بن سيماء، وكان بها من رجال العراق محمد بن واصل، فاتفق مع أحمد بن الليث من الأكراد، للوثوب على واليتها الحرث بن سيماء، فنجحوا في ذلك وقتلوه، وتقدم (ابن واصل) واستولى على فارس في عام ٢٥٦هـ^(١). فلما انتهى يعقوب بن الليث من فتح كابل، عاد إلى بست كرمان عن طريق هراة، وتحرك قاصدا استعادة فارس ناحية شيراز في عام ٢٥٧ هـ، وبلغ ذلك الخليفة المعتمد، فكتب إليه ينكر عليه ذلك، وأرسل أخاه وولي عهده طلحة الملقب (بالموفق) إليه، وأظهر سخطة عليه لتحركه إلى شيراز خلاف رغبته، وأعطاه عوضا عنها إمارة (بلخ وطخارستان) التي تمثل القسم الشمالي من أفغانستان الحالية فملكهما ثم عاد إلى سجستان وتغلب مرة أخرى في عام ٢٥٨ هـ على ابن رتبيل في كابل وبعث إلى الخليفة المعتمد برسله وهدايا تأكيداً على طاعته له، وفتح بلخ، ثم هاجم هراة وبوشنج وكان أهلها قد أعلنوا طاعتهم للطاهريين مرة أخرى، وقبض على الحسين بن طاهر عم الأمير محمد الطاهري وحمله معه إلى سجستان فبعث الأمير محمد بن طاهر إلى يعقوب يسأله إطلاق سراحه فلم يجب طلبه، لأنه كان يفكر في دفع الطاهريين تماما عن خراسان، وكان يتصيد ذريعة لطردهم جميعا من هذا الإقليم^(٢).

(ج) الإستيلاء على خراسان والقضاء على دولة الطاهريين (٢٥٩هـ):

هكذا تمكن الصفاريون بانتصاراتهم من مد أملكهم في المشرق، ومع ذلك حافظوا إلى حد كبير على إرضاء الخلافة العباسية التي لم تتردد

(١) ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٣٨٥.

(٢) الطبري، تاريخ الأمم، ح ١١، ص ٢١٥، ابن كثير، البداية والنهاية، ح ١١، ص ٢٨،

ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٣٨٥ - ٢٨٦، محمد علي حيدر، المرجع السابق،

فى منح يعقوب ولاية كل المدن الواقعة تحت سيطرته. لذلك شعر الصفار بقوته ومرونة الخلافة معه، فأراد استغلال ذلك بضم المشرق كله تحت نفوذه، وهو يدرك تماما حالة الضعف التى تمر بها الدولة الطاهرية لكنه غاب عن باله أن الخلافة العباسية لن تسمح له بإزالة حكم الصفاريين من خراسان، وأنها سوف تعارض ذلك، إما لتخوفها من طموحه المطرد أو بتحريض من الطاهريين فى بغداد. ومما أغرى الصفار على الإقدام على فتح خراسان أنه ثبت سلطانه على الجبهات الشرقية فى كابل شرقا وكرمان وفارس غربا، ولعله أراد أن يستغل إمكانيات وموارد هذه الولايات الجديدة لتزويد جيشه بالمون فى الهجوم على خراسان.

ولقد تم فتح خراسان على مرحلتين، إتسمت الأولى منهما بطابع التهديد واستعراض القوة منذ عام ٢٥١هـ، عن طريق بعض الغارات الخاطفة داخل حدود خراسان والإستيلاء على بعض مدنها منذ عام ٢٥١هـ مثل هراة وبوشنج، ثم انسحابه منها بعد حصوله على تنازل الأمير الطاهري محمد بن طاهر على حقوقه فى حكم سجستان وكرمان وفارس، كما رأينا^(١). أما المرحلة الثانية، فهى التى نجح فيها يعقوب بن الليث الصفار فيها من غزو خراسان والإستيلاء عليها وإسقاط حكم الطاهريين بها. فقد تقدم يعقوب بقواته نحو بلخ، وهى مدينة عظيمة من أمهات بلاد خراسان وتقع فى الجهة الشمالية الشرقية منها، وكانت تعرف بأم البلاد أو ببلخ البهية^(٢). فى عام ٢٥٨هـ / ٨٧١ م، وذلك بعد حصوله على تقليد الخلافة بولايته عليها هى ومدينة طخارستان (طخبرستان) التى

(١) راجع: مجهول، تاريخ سيستان، ص ٢١٦، فتحى أبو سيف، خراسان، ص ٤٧ - ٤٩.
(٢) الإصطخرى، المسالك، ص ٢٧٥-٢٧٨، ابن حوقل، نفسه، ص ٣٧٣-٣٧٤، القزوينى، آثار البلاد، ص ٣٣١-٣٣٣، لسترنج، نفسه، ص ٤٦٢-٤٦٥.

تقع إلى الشرق منها^(١). وقد استطاع يعقوب الإستيلاء على بلخ بعد هجوم شديد عليها، فاضطر عاملها من قبل الطاهريين ويدعى داود بن عباس إلى الفرار منها، مما يدل على مدى ما وصلت إليه الدولة الطاهرية من ضعف وتدهور. ثم سار يعقوب نحو (هراة)، فاستولى عليها بعد فرار واليها الطاهري عبد الله بن محمد، فعين يعقوب عمالا من قبله على هذه المدن الخراسانية^(٢).

وقد تهيأت الظروف لمهاجمة نيسابور عاصمة الطاهريين في خراسان، فحينما كان يعقوب منشغلا بفتح طخارستان، ثار رجل من سجستان يدعى (عبد الله بن محمد بن صالح السجزي) مدعيا الإمارة، وقام هو وإخوته بقتال الصفاريين لكن يعقوب هزمهم، ففر عبد الله وأخواه بقواتهم من سجستان نحو خراسان، وحاصروا أميرها محمد بن طاهر في نيسابور، فتدخل الفقهاء للإصلاح بينهم، فولاه الأمير الطاهري ولايتي الطبسين وقهستان، وصار بذلك حليفا له ولاجنا إلى سلطانه بنيسابور. ولعل الطاهري أراد بهذا التحالف أن يدعم قواته لمواجهة الصفاريين. فلما علم يعقوب بذلك، أرسل إلى الأمير الطاهري يطلب منه تسليم هذا الثائر، فاستنكف الأمير الطاهري عن طاعة أمره، وهيا له بذلك ذريعة قوية ليهاجم نيسابور. وكان يعقوب يعلم جيدا أن آل طاهر هم نواب الخلافة العباسية في هذه البلاد، فلم يرد أن يعلن حربه عليهم حتى لا يظهر الخليفة حركته أمام الناس بصورة العصيان والتمرد، فتحرك لهذا

(١) من نواحي خراسان بحذاء الضفة الجنوبية لنهر جيحون، ومن نواحيها سمنجان، وخلم، وطلقان، وبدخشان. وكانت طخارستان العظيمة تنقسم إلى قسمين، طخارستان العليا وهي في شرق بلخ، وطخارستان السفلى وتقع في جنوبها الشرقي على حدود بدخشان، (ياقوت الحموي، معجم البلدان، م ٦، ص ٣١، القزويني، نفسه، ص ٣٠٦، لسترنج، نفسه، ص ٤٦٩).

(٢) تاريخ سيستان، ص ٢١٦ - ٢١٧، فتحى أبو سيف، خراسان، ص ٤٩ - ٥٠.

السبب إلى نيسابور، بحجة حرب علوى طبرستان الذين قاموا ضد العباسيين واستولوا على طبرستان من يد الطاهريين والعمال العباسيين، وكذلك لاستدعاء أهل خراسان أنفسهم له لتفريط ابن طاهر في أمره^(١).

زحف يعقوب بجيشه نحو نيسابور، وكانت لهذه المدينة أهميتها السياسية حتى أنه أطلق عليها (إيرانشهر)، أي مدينة إيران لكثرة عمراتها، وما أصبحت عليه من مكانة سامية في عهد الطاهريين (كما يذكر ياقوت الحموي) فطلب عبد الله السجزي من الأمير محمد بن طاهر أن يمنع يعقوب، لكن محمدا رفض طلبه لشدة ضعف نفسه قائلا " لا طاقة لنا اليوم بيعقوب وجنوده" فاضطر عبد الله السجزي وأخواه إلى الهروب إلى الدامغان وجرجان، واعتصموا (بالحسن بن زيد الداعى الكبير) صاحب طبرستان، ومع اقتراب يعقوب إلى نيسابور مال جمع كبير من أتباع الأمير محمد الطاهري وحاشيته إلى يعقوب، وأطلعوه سرا على سوء وضع الطاهريين وسهولة الإستيلاء على نيسابور، فكتب يعقوب إلى محمد بن طاهر أن سبب مجيئه إليه أنه يقصد طبرستان، وأن الخليفة المعتمد هو الذى أمره بذلك، وطمأنه أنه لن يتعرض لأعمال خراسان. وينقل بارتولد عن كرديزى رواية طريفة عن المحادثة التى جرت بين سفراء محمد بن طاهر ويعقوب الصفار، فقد أمرهم محمد بأن يقولوا لغريمه "إن كنت أتيت بأمر أمير المؤمنين، فأرني عهدك ومنشورك حتى أسلمك المدينة، وإلا عد من حيث أتيت"، فكان رد يعقوب أن سحب السيف، وقال: "هذا عهدى ولوائى"، وفى الوقت نفسه بعث بعض قواده عينا عليه ليمنعه من مغادرة نيسابور، وقدم أخاه عمرا بن الليث إلى محمد بن طاهر فقبض عليه هو وأسرته وحبسهم، فلما وصل يعقوب إلى

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص ٢٦٢، ابن خلدون، العبر، ج ٢، ص ٢٨٦.

نيسابور في الرابع من شوال من عام ٢٥٩ هـ ، مثل الأمير الطاهري بين يديه ، فتعرض إلى شماتة وتوبيخ الأمير المنتصر الذي كبله بالأغلال وأرسله ومعه نحو مائة وستين من حاشيته إلى سجستان وحبس الجميع بها ، ووثب عماله على سائر أعمالها وسقطت بذلك الدولة الطاهرية على يد الصفاريين^(١).

وقبل أن نطوى الحديث عن سقوط الدولة الطاهرية على أيدي الصفاريين ، نقف أمام طبيعة استسلام مدينة نيسابور لهم ، ونتساءل هل تم ذلك دون أدنى مقاومة ، أم أن ثمة مقاومة قد واجهت الصفاريين عند دخولها؟! فيذهب بعض المؤرخين أن نيسابور استسلمت لجيوش الصفاريين دون مقاومة ، بينما يذكر (بروكلمان) أن أشرف المدينة وأعيانها هم الذين سلموا المدينة إلى يعقوب بخيانة منهم للطاهريين^(٢). ويرى الدكتور فتحى أبو سيف أن هناك من الدلائل التاريخية ما يؤكد على وجود مقاومة عنيفة من جانب أهالي نيسابور لقوات الصفاريين ؛ فالمؤرخ (الحاكم النيسابوري) يذكر أن بعض أجزاء المدينة قد خربت بأيدي جند يعقوب نتيجة لمقاومة أهل المدينة للغزو الصفاري لها ، كما يذكر المسعودي نقلا عن (البيهقي) نوعا آخر من المقاومة السلبية التي احتجت على اجتياح يعقوب لنيسابور ، فقد رفض الأهالي الرضوح لسلطاته بحجة أنه لم يحصل على منشور الخلافة بولاية خراسان^(٣).

(١) الطبري ، تاريخ الأمم ، ح ١١ ، ص ٢٢٢ ، ابن الأثير ، الكامل ، ح ٧ ، ص ٢٦٢ ، ابن خلدون ، العبر ، ح ٢ ، ص ٢٨٦ ، عباس إقبال ، تاريخ إيران ، ص ١٠٨ - ١٠٩ ، بارتولد ، تركستان ، ص ٣٤٢ - ٣٤٣ .

(٢) بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ح ٢ ، ص ٥٦ .

(٣) فتحى أبو سيف ، خراسان ، ص ٥١ - ٥٢ .

(د) الإستيلاء على طبرستان وفارس:

وبعد أن دخل يعقوب الصفار نيسابور وقضى على إمارة الطاهريين بها في عام ٢٥٩ هـ / ٨٧٢ م، ووطد أركان دولته، اتجه شمالا إلى طبرستان يحدوه الأمل في الإستيلاء عليها هي وجرجان اللتين كانتا في السابق من أملاك بني طاهر، وأخفى يعقوب أطماعه التوسعية وتظاهر بأنه يريد عبد الله السجزي الذي كان ينازعه على الرياسة في سجستان، ثم هرب من نيسابور لاجنا إلى الحسن بن زيد صاحب طبرستان، لاسيما وأن هذا الثائر كان مشغولا في تلك المناطق بجمع القوات لمعاونة الداعي الكبير، وعندما أشرف يعقوب على طبرستان أرسل إلى الداعي الكبير يطلب منه أن يسلمه عبد الله السجزي فرفض، فاتخذ من ذلك ذريعة لتحقيق هدفه، وعبر الطريق إلى طبرستان في سنة ٢٦٠ هـ / ٨٧٣ م، والتقى الجيشان ف وقعت الهزيمة بصاحب طبرستان، فانهزم إلى أرض الديلم وعسكر في (سارية)، فسار يعقوب من جرجان إلى (طحيس) فافتتحها ثم سار إلى سارية، فقام الحسن بن زيد بعرقلة زحفه إليها، عندما خرب القناطر ورفع المعابر وعور الطريق، وعسكر - أي الحسن - على باب سارية متحصنا بأودية عظام، وقد ماله صاحب الديلم، فزحف فيمن جمع إليه من الطبرية والديالمة والقمية والجبلية، فقويت شوكة الحسن بن زيد، غير أن الهزيمة قد رحلت به عند مواجهته لجيوش يعقوب كما هلك من جنده الكثير، ووقع في الأسر سبعين من الزيدية، وذلك في رجب من عام ٢٦٠ هـ، ففر إلى (الشرر) ومعه الديلم. فتقدم يعقوب إلى (سارية وأمل) منتصرا وجبى من أهلها الخراج.

ثم تعقب الصفار عدوه الحسن بن زيد في أربعين ألف مقاتل وجَد في طلبه حتى وصل إلى جبال الديلم بطبرستان، وتتابعت عليه الأمطار الغزيرة ونزل الثلج والبرد عليه، فشل ذلك من حركته ولم يتخلص إلا بمشقة شديدة، فأيقن صعوبة الوصول إلى الحسن بن زيد، فرجع إلى سجستان وقد هلك من جنده وخيله عدد كبير، ثم كتب إلى الخليفة المعتمد بأنباء النصر على الحسن بن زيد^(١).

أما عبد الله السجزي فقد هرب بعد هزيمة الحسن بن زيد في طبرستان إلى (الري)، وهي بلدة واسطة بين خراسان وجرجان والعراق وطبرستان، فسار يعقوب في طلبه وكتب إلى عامل الري يهدده بالحرب إن لم يسلمه إليه، فخشى عامل الري من سطوة يعقوب، وقبض على عبد الله السجزي وقتله وأسر أخويه وأرسلهما إلى يعقوب، فأرسلهما بدوره إلى نيسابور فدق أطرافهما أحياء بمسامير من الحديد في حائط، وبذلك فرغ باله من هؤلاء الأخوة الثلاثة^(٢).

وبعد الإستيلاء على طبرستان، تجددت آمال يعقوب بن الليث الصفار في الإستيلاء على (فارس)، وأخذها من يد محمد بن واصل بن إبراهيم التميمي. وكان ابن واصل قد وثب على الحارث بن سيما عامل فارس من قبل العباسيين وتغلب عليها في سنة ٢٥٦ هـ، كما هزم جيشا عباسيا كان قد أرسله الخليفة المعتمد لقتاله، وقتل قائده عبد الرحمن بن مفلح بعد أسره في عام ٢٦١ هـ، وغنم عسكره. فلم يجد الخليفة بدا سوى

(١) الطبري، تاريخ الأمم، ح ١١، ص ٢٦٠، ابن الأثير، الكامل، ح ٧، ص ٢٦٣، الذهبي، دول الإسلام ح ١، ص ١٥٧، محمد الخضري، تاريخ الأمم الإسلامية، ح ٣، ص ٣٠٧، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ح ٣، ص ٦٦.
(٢) ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٣٨٦ - ٣٨٧، عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ١٠٩.

تكليف إبراهيم بن سيما صاحب الأهواز لقتال ابن واصل الذي استفحل أمره، فطمع الصفار حينئذ في الإستيلاء على فارس، ووجد في انشغال ابن واصل في قتال صاحب الأهواز الفرصة المناسبة لتحقيق أماله. فسار مجدأ لا يلوى على شيء قاصدا بلاد فارس، فلم علم ابن واصل بزحفه، رجع من الأهواز وترك محاربة ابن سيما واستعد لقتال الصفار، ولما اقترب الصفار من فارس أرسل إلى ابن واصل رسلاً يطلبون منه تسليم فارس، فاعتقل ابن واصل الرسل، وجد في طلب يعقوب والرسل عنده، كما أرسل خاله أبا بلال مرداس إلى الصفار في طلب الصلح، وكان يريد بذلك خداع الصفار وإخفاء خبر مسيره، وأن يصل إليه بغتة فينال غرضه ويوقع به، غير أن الصفار قد شعر بغدر ابن واصل وبما يخططه له فقال لخاله مرداس: "إن صاحبك قد غدر بنا"، وسار إليهم وقد أعيوا وتعبوا من شدة السير ومات أكثرهم عطشا. فلما تراءى الجمعان ضعفت نفس ابن واصل عن مقاومته ومقاتلته، ولم يتقدم وانهزم بغير قتال، وغنم الصفار ما في عسكره وما كان لابن مفلح قائد جيش المعتمد، ووقع في أسره الكثير من أصحابه، واستولى على بلاد فارس وأصلح أحوالها ورتب بها عماله. ثم مضى يعقوب إلى بلدة (زم) لتأديب أهلها لمعاونتهم ابن واصل ضده، فأوقع بهم، وطمع في الإستيلاء على (الأهواز) وغيرها^(١).

(١) ابن الأثير، الكامل، ح ٧، ص ٢٧٥ - ٢٧٦، ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٣٨٨، عباس إقبال، نفسه، ص ١١٠، محمد علي حيدر، الدويلات الإسلامية، ص ٦٣ - ٦٤. وتقع مدينة زم على نحو من مائة ميل من شرق مدينة أمل عند معبر نهر جيحون، وهي مدينة كرخى الحديثة، وكان بها جامع وسط سوقها وكان لها شأن في القرن الرابع الهجري (ابن حوقل، نفسه، ص ٣٧٦، المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٩١-٢٩٢، لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٤٦).

(هـ) تآزم العلاقات بين يعقوب الصفار والخلافة العباسية:

باستيلاء يعقوب بن الليث على فارس أصبحت حدود دولته تتاخم المناطق التي تخضع خضوعاً مباشراً لسلطان الخلافة العباسية وقد تطورت علاقة يعقوب بالخلافة العباسية من الود القائم على احترامه لمكانة بنى العباس، إلى العداء السافر بين الطرفين، ففي الفترة الممتدة بين عامي (٢٤٠ - ٢٥١ هـ / ٨٥٤ - ٨٦٥ م) نظر العباسيون لقوة الصفاريين باعتبارها قوة محلية في سجستان محدودة الأطماع، ولذلك اتسمت العلاقة بين الطرفين بالهدوء وعدم الإكتراث من جانب الخلافة، ثم تغير الوضع بعد عام ٢٥١ هـ / ٨٥٤ م، الذي ظهرت فيه أطماع الصفاريين في خراسان والولايات التابعة للدولة الطاهرية، فاضطربت العلاقات وتحولت إلى عداء سافر بين الخلافة والصفاريين، ورغم أن الخلافة العباسية استنكرت سياسة يعقوب التوسعية في المشرق، إلا أنها لم تتخذ خطوات جادة للتصدي له، حتى تمكن من السيطرة على بعض الولايات المجاورة لسجستان مثل كرمان وفارس مستغلاً عجز الدولة الطاهرية.

ولكن مع بداية حكم الخليفة المعتمد على الله (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ / ٨٦٩ - ٨٩٢ م) وولى عهده الموفق، أعلنت الخلافة رسمياً عدم اعترافها بشرعية حكم يعقوب على ولايتي فارس وكرمان، وأسندت إدارتها إلى محمد بن واصل التميمي. ووصل موقف الخلافة في تشدده إلى إعلان عدم شرعية حكم يعقوب لسجستان نفسها مقر حكمه، وإعادتها إلى سلطان الطاهريين، وذلك في عام ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م. ويرى الدكتور بعض الباحثين أن هذا التشدد في موقف الخلافة ضد حكم الصفاريين يرجع إلى رغبة الخليفة المعتمد بتأثير من أخيه الموفق - الحاكم الفعلي للدولة - في

إثبات وجود الخلافة كسلطة سياسية عليا، ولم يقتصر هذا في سياستهم مع الصفاريين فحسب، وإنما مع القوى السياسية الأخرى كالتولونيين في مصر والشام، مما يؤكد أنها سياسة عامة انتهجتها الخلافة منذ بداية عهد المعتمد، وربما لعب الطاهريون وقادة الترك في بغداد، دورا فعالا في تحريض الخلافة على اتخاذ موقف معارض للحكم الصفاري، خوفا من سلطتهم وتوسعهم التي وصلت إلى حدود الأملاك العباسية^(١).

ومن دلائل تآزم العلاقات بين الصفاريين والخلافة العباسية، موقف الخليفة المعتمد وحاشيته المستنكر والمستهجن لإستيلاء يعقوب الصفار على خراسان وإسقاط الطاهريين، فعندما بعث يعقوب رساله إلى بغداد ليوضح للخليفة أسباب زحفه إلى خراسان والإستيلاء عليها، قائلا له أن أهل خراسان هم الذين سألوه المسير إليهم، لتفريط ابن طاهر في أمره، وغلبة العلويين على طبرستان، استنكر المعتمد ذلك وطالبه بترك هذه الولاية والعودة إلى مقر حكمه في سجستان، وهدده إن لم يمثل لأمره اعتبرته الخلافة خارجا على الشرعية وعاملته معاملة المتمردين^(٢).

ثم ازدادت حدة الخلافات بين الخلافة وبين الصفار، عندما ادعى الأخير أحقيته في حكم (الري)، وأرسل إلى عاملها العباسي في عام ٢٦٠هـ / ٨٧٣م، يخبره بأن صار سيدا لهذه الولاية بعدما وافق المعتمد على ذلك. فاعتبر الخليفة المعتمد هذا التصرف خروجا على طاعة الخلافة وسلبا لحقوقها وسيادتها على أراضيها، فأمر بالقبض على مبعوثي يعقوب في بغداد، وهم الذين قد أرسلهم يعقوب إلى حاضرة الخلافة

(١) فتحى أبو سيف، خراسان، ص ٥٣.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ح ٧، ص ٢٦٢، ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٣٨٦.

لإجراء التفاهم مع بلاد بغداد بشأن ولايته لخراسان بعد أن سيطر عليها^(١).

كذلك لم تستطع حكومة بغداد إلترام الصمت حيال تصرفات يعقوب، خاصة وأن نفوذ الطاهريين أصحاب الشرطة ببغداد كان من شأنه تحريض الخليفة على أخذ جانب محمد بن طاهر، ففي عام ٢٦١ هـ / ٨٧٤ م جمع الخليفة المعتمد الحجاج القادمين من الأقطار الشرقية (خراسان، طبرستان، جرجان، والري) بمنزل عبيد الله بن عبد الله بن طاهر، وقرئ عليهم كتاب الخلافة الذي يدين فيه يعقوب، ويعزله عن حكم سجستان، ومما جاء في المنشور "لقد كنا منحنا يعقوب بن الليث ولاية سجستان، والآن قد ظهرت على وجناته علامات الطغيان، فإننا نحكم بلعنة"^(٢) وسارع عبيد الله الطاهري بإرسال نسخ من هذا البيان إلى كافة الولايات الشرقية وخاصة خراسان، ويتضح من هذا البيان عدم قبول الخلافة رسميا لإستيلاء يعقوب على خراسان، كما أنها أرادت أن تثير القلاقل أمام يعقوب، ليس فقط باسقاط شرعية ولايته، وإنما بتحريض أهالي الولايات التابعة له بالخروج عليه، كما يتضح من هذا المنشور أيضا مدى حرص الخلافة على ولايته خراسان. مما دفع يعقوب إلى السير في تحدى الخلافة العباسية إلى أبعد مدى^(٣).

ولم تكف الخلافة بهذه الإجراءات فقط، لأنها كانت تعلم مدى رسوخ واستقرار حكم الصفاريين في سجستان، ولذلك رأت الخلافة اتخاذ

-
- (١) ابن خلكان، وفيات، ح ٥، ص ٤٥٤.
(٢) الطبري، تايخ الأمم، ح ١١، ص ٢٣٤، ابن الأثير، الكامل، ح ٧، ص ٢٨٨، ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٣٩٠، بارتولد، تركستان، ص ٣٤٣، حسن إبراهيم حسن، نفسه، ح ٣، ص ٦٦.
(٣) فتحي أبو سيف، خراسان، ص ٥٦.

خراسان ميدانا صالحا لحربهم وإثارة القلاقل ضدهم. فسوغ الخليفة المعتمد لعمال المدن الخراسانية وأهلها شق عصا الطاعة ومعارضة يعقوب وعدم الخضوع لسلطانه، فأعطى لعمال المدن الخراسانية الحق فى الاحتفاظ بحكمهم على مدنهم كعمال للخليفة العباسى، كذلك سعى الخليفة لإثارة النعرات المذهبية كأحد الأسلحة الفتاكة لمواجهة الصفار، فأعلن فى أهل خراسان السنة تشككه فى تحول يعقوب إلى المذهب الشيعى على مبادئ فرقة الإسماعيلية وذلك لإثارتهم ضده. وقد أتت هذه الشائعات أكلها، فاضطربت أحوال خراسان التى استنكر أهلها تحدى يعقوب للخلافة والخروج على مذهبها، كذلك أثيرت القلاقل ضده فى سجستان نفسها، فقد أعلن عمالها خروجهم على طاعته لنبذ المذهبى السنى، وتمسكوا بطاعة الخلافة العباسية، فحاول يعقوب إرضاء الخليفة المعتمد والوصول معه إلى حل سلمى، فأرسل وفداً محملاً بالهدايا، وأرفق مع هذا الوفد رأس أحد زعماء الخوارج ويدعى (عبد الرحيم الخارجى) الذى كان قد استغل غياب الصفار عن سجستان، وجمع من حوله بقايا الخوارج وأعلن تحديه للخلافة العباسية، وادعى الخلافة واتخذ لقب الخليفة (المتوكل على الله)، فآثار ذلك غضب الخلافة، لاسيما وأن هذا الخارجى كان يؤوى المعارضين للخليفة المعتمد. ولقد قابل الخليفة المعتمد صنيع يعقوب بروح ودية، خاصة بعد أن ترك خراسان محور النزاع وعاد إلى سجستان، فلم يجد الخليفة مانعاً لديه من الإتصال به ومراسلته وقبول هداياه، بل أشاد بأعماله فى خدمة الخلافة وأعاد رسله عوداً حسناً، وعمل على استمالة الأمير الصفارى، وأمر أن يطاف برأس الخارجى فى بغداد قبل أن يعلق على أسوارها^(١).

(١) نظام الملك، سياست نامه، ص ٤١، مجهول، تاريخ سيستان، ص ٢١٣، عباس اقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ١٠٩، فتحى أبو سيف، ص ٥٩ - ٦١.

وعلى ما يبدو أن الصفار قد استعاد نفوذه على أملاكه، وقضى على الشائعات التي روجها رجال الخلافة ضده، بعدما تبادلت الرسل والهدايا بينه وبين الخليفة المعتمد. غير أن يعقوب قد أدرك بثاقب نظره الصلة بين ما يحدث من اضطرابات في خراسان، وبين ما يحاك في بغداد من مؤامرت ضد الحكم الصفارى بتأثير من بقايا الطاهريين والقادة الترك أصحاب النفوذ في حاضرة الخلافة. لذلك قرر الصفار أن يزحف نحو بغداد نفسها لإرغام الخلافة على الاعتراف بحكمه لخراسان، وتصفية قوى المعارضة للحكم الصفارى من طاهريين أو ترك. ولذلك عزم بعدما استولى على فارس من يد ابن واصل على الزحف نحو العراق، فوصل إلى الأهواز واستولى عليها، وكان قد أرسل إلى الخليفة العباسى يخبره بأنه سيسير بنفسه إلى باب السلطان، فلما بلغ المعتمد ذلك لجأ إلى السياسة أولا وبعث إليه (إسماعيل بن إسحاق)، وأطلق من كان في حبسه من أصحاب الصفار، وعاد إسماعيل ومعه درهم مبعوث الصفار برسالة من يعقوب إلى المعتمد يطلب فيها تقليده ولاية الشرق.

أدرك الموفق ولى العهد أن الظروف التي تمر بها الخلافة لا تسمح بالحرب، خاصة وأن معظم جيوشها تتصدى لثورة الزنج في الجنوب، لذلك جمع الأعيان والتجار وحجاج خراسان استجابة لطلب يعقوب، وأخبرهم بتولية يعقوب على خراسان وطبرستان وجرجان والرى، وفارس وشرطة بغداد التي كانت تمثل آخر معاقل الطاهريين، فضلا عما كان تحت يده من سلطان في سجستان وكرمان، وكان ذلك بحضور (درهم) حاجب يعقوب. ولعل الخلافة فكرت في الإستعانة بحكم الصفاريين وقوتهم الناهضة باعتبارهم من الفرس كالتاهريين في مقابل سيطرة الترك ولا مانع أن تكون الخلافة منحهم ولاية شرطة بغداد،

لتصبح هذه المدينة، كما كانت على عهد الطاهريين حصنا فارسيا قويا مقابل (سامراء) التي سيطر عليها قادة الترك منذ عصر الخليفة المعتصم^(١).

ويبدو أن يعقوب الصفار لم يطمئن إلى نوايا العباسيين، وأعاد الرسل إلى الخليفة بكتاب ذكر فيه أنه لا يرضيه ذلك دون أن يسير إلى باب المعتمد، وارتحل يعقوب إلى واسط بعد أن سار إليه أبو الساج من الأهواز ودخل تحت ولايته فأكرمه، وسار إلى بغداد ففرع الخليفة وولى عهده وأهل بغداد لاقترب يعقوب، وأرسل الموفق رسولا إليه يستفسر منه عن سبب قدومه بعد أن عهد إليه المعتمد بإدارة خراسان وبلخ وطخارستان وجرجان وطبرستان والرى وفارس وشرطة بغداد وأمره بجهاد الكفار، فلا يحق له بعد هذا أن يأتي العراق، فرد يعقوب (أحب أن أؤدى بنفسى واجبات الطاعة للخليفة).

ويتضح من هذه الرسالة حرص الخلافة على منع يعقوب من الوصول إلى بغداد، وموافقتها على منحه ولاية خراسان من جديد، كما يتضح أنها بدأت تغير من حدة لهجتها مع الصفار بعدما شعرت بقوته وخطورته. وصادف وصول رسالة الخليفة إلى الصفار، الوقت الذي كان يستقبل فيها رسل البلاد المجاورة كالهند و"صين لتهنئته على انتصاراته فى الولايات الشرقية، وما أصبح عليه سلطانه من قوة. ووصلت للخلافة أنباء هذه الاستقبالات حيث ظهر الصفار أمام الوفود المهنئة بترفع الأمراء وشموخهم، وأطلق عليه قاداته لقب "ملك الدنيا"، فأثار ذلك

(١) ابن الأثير، الكامل، ح ٧، ص ٢٨٩، ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٣٩٠، مجهول، تاريخ سيستان، ص ٢٢٨، بارتولد، تركستان، ص ٣٤٣، فتحى أبو سيف، خراسان، ص ٦٤.

غضب الخليفة وحقها عليه^(١). وكان يعقوب يزداد اصرارا في تقدمه إلى بغداد كلما زاد المعتمد والموفق في طلبهما عونتَه بهذه الوعود، إلى أن أمر المعتمد بجمع الجيش وقصد دفعه. ففعل يعقوب تشكك في نوايا الخليفة، أو ربما أراد القضاء على بقايا الطاهريين في بغداد، فتابع سيره إلى العراق، بينما خرج المعتمد من سامراء في عسكره وسار إلى بغداد ثم إلى الزعفرانية، فأقام بها وأحضر أخاه الموفق لمحاربة يعقوب^(٢).

فلما وصل يعقوب بجيشه إلى مدينة عسكر مكرم بالأهواز واقتراب من حدود العراق، أرسل إلى الخليفة برسالة استنقازية، حيث طلب منه إصدار منشور جديد لتفي ما جاء في المراسيم السابقة بما تضمنت من لساءة ليعقوب، خاصة شائعة اعتقائه المذهب الشيعي، وطلبه أيضا بالاعتراف بشرعية حكمه على خراسان وكرمان وفارس، فلم تستجب للخليفة لهذه المطالب، بل علقت من جديد إلى إثارة المشاعر ضده عندما أعلن الخليفة على حجاج خراسان عصيان يعقوب وعزله عما يتولاه من ولايت^(٣).

ثم وقعت الحرب بين جيش الصفار وجيش الخليفة في موضع يعرف (بدير العقول) بالقرب من طوان شرق نهر بجلة بين بغداد والمدائن^(٤)، وذلك في منتصف رجب سنة ٢٦٢هـ / أبريل ٨٧٦م، وأظهر يعقوب تحديه للخليفة عندما طلبه بترك بغداد وإخلائها ليدخلها بجيشه. كما ينكر (نظام الملك). وكان الموفق ولي العهد يقود جيوش

(١) مجهول، تاريخ سيستان، ص ٢٣١، فتحى أبو سيف، خراسان، ص ٦٧.

(٢) ابن خلّون، العبر، ح ٣، ص ٣٩٠ - ٣٩١، الذهبي، دول الإسلام، ص ٢٦٨.

(٣) ابن خلّون، وفيت الأعيان، ح ٥، ص ٤٥٥.

(٤) دير العقول أي عقلة النهر وعوجته، يقع على عشرة فراسخ أسفل المدائن، وكان ديرا للتصاري، وحوله مدينة كبيرة كانت من أجل مدن طسوج النهروان الأوسط وكان بها مسجدا جمعا، وهي ذات هواء رطب لتوسطها بسنتين التخيل (استرنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٥٤-٥٥ والمصادر المذكورة هناك).

الخلافة بنفسه من القلب، وجعل على ميمنته موسى بن بغا وعلى ميسرته مسرور البلخي، وقد أحرز يعقوب نصرا مبدئيا في المعركة، إذ حملت ميسرة يعقوب على ميمنة الموفق فالتقت بها الهزيمة، وقتل كثيرا من قواد جيش الخلافة، ولكن لم يلبث هذا النصر أن تحول إلى هزيمة ساحقة عندما ظهر للخليفة بنفسه بين الجند واستقطابه جمعا من جند الصفار إليه، عندما نادى لهم مناد وأعلن عصيان يعقوب، ومن ناحية أخرى عندما أجرى جند للخليفة أنهارا من الماء بين جيش يعقوب، تبع ذلك هجوم الموفق ومعه سائر جيشه بعد وصول الامدادات من بغداد، هجوما شرسا على جيش يعقوب الذي ثبت في أول الأمر، ولم تزل الحرب قائمة إلى أن تهزم جيش الصفار الذي ثبت في أول الأمر، ولم تزل الحرب قائمة إلى أن تهزم جيشه، وثبت هو في خاصة أصحابه رغم إصابته بثلاثة جروح في عنقه وبيديه، إلى أن فارقوا موضع الحرب، وتبعهم أصحاب الموفق، وغنموا ما في عسكره، وخلصوا (محمد بن طاهر) من الأسر، فخلع عليه الموفق وولاه الشرطة في بغداد نكابة في يعقوب، وراح لشعراء يمدحون للخليفة المعتمد وولى عهده الموفق بما حققه جيشه من انتصارات على جيش للصفار، أفقنت الخلافة من مصير مظلم^(١).

وبعد الهزيمة في يوم دير العاقول أو (يوم الشعطين)، انسحب يعقوب إلى خوزستان ونزل جند نيسابور، دون أن يفتر عزمه ليجمع جيشا آخر للإنتقام لهزيمته التي كانت أول هزيمة له في مجالداته وقبوحته. وهنا أراد صاحب الزنج أن يعقد محالفة مع يعقوب ضد الخلافة ووجد الفرصة سانحة لذلك، وحثه على الرجوع إلى بغداد ووعده

(١) الطبري، تاريخ الأمم، ج ١١، ص ٢٤٦، نظام الملك، سياست نامه، ص ٤٢،

بين خلون، العبر، ج ٢، ص ٣٩١، محمد علي حيدر، النويات الإسلامية، ص ٦٥.

بالمساعدة. ولكن يعقوب رفض هذا التحالف تماما وكتب إليه "قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون" وأراد الخليفة المعتمد أن يكيّد ليعقوب الصفار فكتب إلى (ابن واصل) بولاية فارس التي كان قد ملكها أثناء انشغال الصفار بحروبه، وعاد المعتمد إلى سامراء وعهد إلى ولي عهده الموفق بتعقب الصفار في خوزستان، فتقدم الموفق حتى واسط لكنه مرض بها وعاد إلى بغداد، فأمن يعقوب جانبه وتفرغ لأمر فارس، فجرد إليها جيشا بقيادة (عمر بن السري) فقاتل به ابن واصل فهزمه وأسرّه، وقام بالسيطرة على فارس من جديد وكان ذلك في عام ٢٦٣ هـ، ووقعت في يد يعقوب بهذا الانتصار خزائن محمد بن واصل التي كانت محفوظة في إحدى قلاع اصطخر، وحصل منها على أموال قدرت بأربعين ألف ألف درهم^(١).

ويذكر (الكرديزي) في زين الأخبار، أن أحوال يعقوب قد ساءت بعد هزيمته في دير العاقول، لاسيما بعد أن ظهرت بعض الاضطرابات في الولايات الشرقية ضد الصفاريين، وفي خراسان على وجه الخصوص. مما جعل يعقوب يفكر في ضرورة مصالحة الخلافة وترضيته، فباتصل بالخليفة المعتمد وأعلن خضوعه وطاعته لأوامر الخلافة، إلا أن هذه الإتصالات الودية لم تلق قبول الخليفة وأخيه الموفق بعد ما حققاه من نصر، وأرادا تعقبه واستئصال شأفته كما رأينا^(٢). غير أن الخلافة عادة وغيرت موقعها منه بعدما شعرت بقوته الناهضة من جديد، لاسيما بعد الإستيلاء على فارس، فبعثت إليه تستميله وتجدد ولايته على فارس، ولكنه لم يقنع بذلك، ونزل نيسابور وأجلى من كان بها من جند الخليفة في

(١) ابن الأثير، الكامل، ح ٧، ص ٣٠٨، ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٣٩١، عباس

إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ١١٠-١١١.

(٢) فتحى أبو سيف، خراسان، ص ٧٣.

عام ٢٦٣ هـ، ثم وجه جيشا بقيادة (الخصر بن العنبر) إلى الأهواز، فلما قاربها خرج منها (على بن أبان) ومن معه من الزنج، ودخل الخصر بن العنبر الأهواز، وقامت اعتداءات متكررة بين جيش الصفار وصاحب الزنج، انتهت في البداية بانتصار الزنج، فأنفذ يعقوب إمدادات إلى قائده وأمره بالكف عن قتال الزنج، فكف بعضهم عن بعض، كما يذكر (النويرى في نهاية الأب)، لأنه كان يستعد لقتال الموفق فلم يرد أن يوزع جهود جيشه ويدخر كل قواه لملاقاة جيش الخلافة^(١).

وفاة يعقوب بن الليث مؤسس الدولة الصفارية (٢٦٥ هـ / ٨٧٨ م):

وفي عام (٢٦٤ هـ) كان يعقوب منصرفا إلى جمع جيش للهجوم على بغداد أثناء مكثه بجنديسابور في خوزستان حين أصيب بمرض القولنج. وأرسل المعتمد إليه في هذا الوقت رسولا يزجى إليه رسالة يتملقه فيها بقوله "إنه علم أن يعقوب كان رجلا سادجا ينخدع بقول كل قائل فقصد الخلافة بالسوء، ولما أن الله قد نصره عليه فإنه قد عفا عنه، ولكي يجدد عفوه له فقد أوكل إليه إمارة خراسان وفارس كما كان الحال في الماضي". فأمر يعقوب ببعض الخبز الجاف والسمك والفجل والبصل على طبق خشبي وقال لرسول الخليفة: "قل لسيدك أننى ابن صفار تعلمت الصفر من والدى وطعامى كان خبز الشعير والسمك والفجل، وهذه الدولة والشوكة التى تراها حزت عليها بشجاعتى وجرأتى لا عن ميراث من أبى أو أنعام منك، فلن أستسلم إلا حين أستأصل أسرتك، فإن مت فسوف تستريح من جانبى، وإن عشت فهذا السيف لك وإن غلبت أرجع إلى سجستان وأقضى بقية عمرى بهذا الخبز الجاف والبصل"، وعاد

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٣٠٨، النويرى، نهاية الأرب، ج٢٢، ص١٩٩، محمد

رسول الخليفة إلى بغداد ليزجي رسالة يعقوب، لكن خبر موت الأمير السجستاني الشجاع وصل قبل وصوله، إليها وأستراح خاطر الخليفة من ناحية هذا الند الداهية^(١). ويذكر (نظام الملك) رواية بعيدة عن الحقيقة التاريخية، فيقول إن يعقوب هدد المعتمد بإرسال رأسه إلى المهدي حاضرة الفاطميين^(٢). وهذا خطأ ظاهر، فقد جانب نظام الملك الصواب، لأن يعقوب مات في عام ٢٦٥ هـ، أي قبل قيام الدولة الفاطمية بأحدى وثلاثين سنة، وكان تأسيس المهدي التي اتخذها عبيد الله المهدي الفاطمي حاضرة لدولته بعد ذلك التاريخ بمدة^(٣).

وقد وافق يعقوب منيته متأثراً بعلّة القولنج في يوم الإثنين العشرين من شوال سنة ٢٦٥ هـ / يونيو ٨٧٨ م، في جنديسابور بخوزستان ودفن في نفس المدينة، وطويت صفحة هذا المغامر الجريء، وقد بلغت مدة إمارته من المحرم من (٢٤٧ هـ) حتى العشرين من شوال (٢٦٥ هـ) نحو سبعة عشر عاماً وعشرة شهور^(٤). وكان يعقوب رجلاً عالي الهمة بعيد النظر حسن الخلق ذا فتوة واحسان ورافة، روى عنه حكايات كثيرة في شأن هذه الخصال والفضائل، وقل أن يوجد بين معاصريه من يصل إليه في تحمله للمصائب ومتاعب الأسفار وقوة الإرادة. وكان يبدي في قيادة جيشه وتدبيره الحربي الدرجة القصوى من الفهم والذكاء. كما كان يعقوب رجلاً عاقلاً بعيد الفكر قلما روى وهو يضحك، وكان جنده تابعين مخلصين لسياسته لم يجروا أحدهم على الإقدام على أمر بدون اجازة منه، ولم يكن لأحدهم أدنى اجترأ على أن يهاجم

(١) ابن الأثير، الكامل، ح ٧، ص ٣٢٦.

(٢) نظام الملك، سياست نامه، ص ٤٢-٤٣.

(٣) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ح ٣، ص ٦٧.

(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ح ٥، ص ٤٥٥، ابن العماد، شذرات الذهب، ح ٣،

بغير أمره أو يتصرف فى مغنم دون اشارته. وكان يدقق فى اصلاح أمر جيشه قبل أى شىء، وكان يؤثر جيشه على كل شخص. وحين كان يأتيه أحدهم فكان أول سؤاله يوجهه إليه هل تعرف القتال والرمى والنزال وتتقن هذه الفنون؟ فإذا سمع منه إجابة مقنعة سأله: "الدى من خدمت قبل مجيئك إلينا وفى أى ميدان حاربت وأية فنون أظهرت؟"، ثم يأمر له براتب سنوى ويقبله فى خدمته، وإذا سأل جندى مالا أو راتبا قبل انقضاء العام كان يأمر بأن يؤخذ منه ما معه من مال.

وكان يعقوب أثناء تحرك الجيش يجلس على عرش خشبى يشرف على كل جنده، حتى ينظر جيدا فى أحوال الجند، فإذا ما رأى نقصا فى أمر من أمورهم قام باصلاحه على الفور. وكان له غلمان يلزمون منزله أو خيمته وعرشه، ليأمرهم بتنفيذ أوامره، ولم يحاول يعقوب أن يشغل نفسه بتبرير شرعية أعماله بل اعتمد على سيفه وحده. ولذا فقد اهتم بخلق جيش يحمل له الولاء التام، وبالحصول على الأموال اللازمة لمتابعة حروبه، مما دفعه إلى مصادرة أملاك الأغنياء. وبالرغم من الفشل الذى منيت به أعماله العسكرية فى أواخر سنى حياته، إلا أن خزانته قد امتلأت بالأموال، حتى قيل إنه ترك خمسين ألف درهم وثمانين ألف دينار. وينقل بارتولد عن صاحب كتاب "تاريخ خيرات" أن يعقوب كان يمتلك خمسة آلاف جمل وعشرة آلاف حمار، وكان جنده باستثناء الكبار والقادة يتسلمون الخيل والعلف من خزانته. هذا وقد ظل يعقوب فى حياته الخاصة جنديا بسيطا، فكان يلبس القطن ويجلس على الأرض ويتوسط ذارعه عند النوم، ولكنه فى المناسبات الرسمية، خاصة عند استقباله للسفراء كان يحيط به حرسه الذى انتقاه من خيرة جنده، وكان يتكون من كتيبتين تضم كل واحدة منهما ألف رجل، وكان جنود الكتيبة الأولى

يحملون أعمدة من الذهب، وجنود الأخرى يحملون أعمدة من الفضة. وكان يعقوب يقضى بنفسه فى جميع أمور دولته ولا يشرك معه أحدا فى شئون الحكم^(١).

وكانت عاصمة يعقوب مدينة (زرنج) من بلاد سجستان القديمة. وكانت حوزة ملكه خراسان وسجستان وطخارستان وكرمان وفارس وكابل وجزءا من وادى السند ثم خوزستان أيضا لفترة من الزمان. وخطب ليعقوب فى مكة والمدينة بأمر من الخليفة لسبع سنوات، وبلغت شهرته فى أيامه فى البلاد المحيطة به إلى حد أنه كان يطلق عليه (ملك الدينا) وكنيته هى أبو سيف.

وقد اختلفت الآراء حول تقييم حركة يعقوب الصفار، فالمسعودى يذكر أن يعقوب قام بحركته العنيفة لأنه كان يرغب فى اعزاز دين الله والقضاء على مساوئ الخلافة وما أصابها من عبث، وأورد لنا أبيانا شعرية على لسان يعقوب زعم فيها أنه إنما خرج منكرا على المعتمد والقواد الأتراك اضاعتهم للدين واهمالهم أمر صاحب الزنج^(٢). فى حين يذكر (الأستاذ السرنجاوى) أنه ليس بين أيدينا من القرانن ما يثبت أن يعقوب كان يطمع فى إقامة امبراطورية موحدة من البلاد التى فتحها، أو على الأقل كان ينوى إقامة نظام إدارى ثابت، ويدلل على رأيه هذا بأن يعقوب على العكس كان يجبى جباية باهظة من رعاياه^(٣).

وخلاصة القول: أن حركة الصفار كانت حركة تمرد ضد الخلافة العباسية من ناحية، وحركة متعصبة ضد السيادة العربية من ناحية

(١) بارتولد، تركستان، ص ٣٤٤.

(٢) المسعودى، مروج الذهب، ح ٢، ص ١٥٠.

(٣) عبد الفتاح السرنجاوى، النزعات الإستقلالية فى الخلافة العباسية، ص ٦١.

أخرى. وفي هذا الصدد يذكر (بزاون) إن استقلال بلاد الفرس يمكن أن يقال إنه بعث عن طريق هذه الأعمال الباهرة التي قام بها يعقوب الصفار، فإنه على الرغم من أنه لم يكن من سلالة بيت عريق، إلا أنه نجح في تأسيس دولة استطاعت مع قصر عهدها أن تنشر نفوذها، ليس في سجستان وحدها حيث قامت دولتها في أول الأمر، بل في معظم أرجاء فارس والى أسوار بغداد تقريبا^(١).

ولاية عمرو بن الليث الصفار (٢٦٥ - ٢٨٧ هـ):

حينما كان يعقوب بن الليث مريضا في جند يسابور قدم إليه عمرو معتذرا، إذ كان مغاضبا لأخيه في ذلك السفر ورحل إلى سجستان مستاء، وسر يعقوب لعودة أخيه لأنه كان كسيف اليبال محزونا لغضبه، فأبدى له صنوف الإكرام. أما عمرو فقد بقي على إخلاصه التام في خدمته ليعقوب إلى أن وافاه أجله. وقد انتخبه يعقوب لخلافته وأوصى أتباعه باطاعة أمر عمرو. ومع أن يعقوب اختار عمرا خلفا له، إلا أن أخاهم الأصغر عليا لم يرض بخلافته، وقد أخذ أكثر الجند جانب علي لأن عمرا كان حديث الوصول من سجستان وفارق الجيش مرارا، إلا أن عمرا سرعان ما استخلص قلوب الجند له بتدبيره وكفايته فبايعوه جميعا.

وعلم عمرو وقد كان رجلا بصيرا موزون الفكر أن صلاحه ليس عداء الخليفة العباسي في بداية حاله، لاسيما وأن الخليفة قد هزم أخاه من قبل، ولذلك اضطر إلى الإلتجاء إلى أسلوب آخر لنضاله مع خصومه، فاتبع سياسة اللين والمهادنة واضعا كل اعتبار لتغير الظروف، لهذا فقد

(١) حسن إبراهيم حسن، نفس المرجع، ج ٣، ص ٦٧، محمد علي حيدر، الدويلات

أرسل إلى الخليفة المعتمد رسالة أظهر فيها طاعته وانقياده، فسر لذلك الخليفة وأصدر أمرا له بحكم فارس وكرمان وأصفهان وطبرستان وسجستان وعراق العجم وشرطة بغداد مكافأة له، وتعهد عمرو بإرسال عشرين ألف درهم إلى دار الخلافة خراجا سنويا، وأن يذكر اسم الخليفة في الخطبة، مما سهل على رجال الدين قبوله حاكما شرعيا على تلك المناطق.

وقفل الأمير الصفارى راجعا من خوزستان إلى فارس بعد أن ترك شرطة بغداد إلى عبيد الله بن عبد الله بن طاهر الطاهري وأزجى هداياه إلى بغداد مثل عمودى الذهب اللذان أهداهما إلى الموفق ولي العهد^(١). وسمع هناك أن أخاه عليا قد أطلق لسانه بتقبيح أخيه مخالفة له والتقليل من شأنه في أنظار الناس فأمر بقيده، لكنه خلى سبيله بوصوله إلى سجستان في رجب (٢٦٦ هـ)، ثم وهبه مالا عظيما كما اعتذر له عما فعل. ولم يكن على حريا بهذا الاكرام على وجه النصفة لأنه لم يتخل عن عداة عمرو مع كل احترامه له وعفوه عنه وكان دائم إثارة أعدائه عليه ويمدهم عليه، ويعلق (ابن خلكان) على حسن تدبيره للأمر بقوله: "إن عمرو بن الليث لما تولى ولايته أحسن التدبير والسياسة، حتى قيل: ما أدرك في حسن السياسة للجنود والهداية إلى قوانين المملكة منذ زمن طويل مثل عمرو بن الليث".

وفى أثناء إقامة يعقوب بفارس وخوزستان، وخلال المدة بين موته ورجوع عمرو إلى سجستان، أبدى قوم كانوا طائعين قبل ذلك خوفا من يعقوب، العصيان لعمرو وجاوزوا إلى جادة الطغيان وطلب المجد

(١) الطبرى، تاريخ الأمم، ح ١١، ص ٢٥٥، ابن كثير البداية والنهاية، ح ١١، ص ٣٩، ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٤١٦.

ظانين أن عمرا عاجز عن تأديبهم وأن الغلبة عليه أمر يسير. وأول من رفع راية العصيان كان أحمد بن عبد الله الخجستاني من أهل خجستان من أعمال باذغيس بهراة^(١). وقد ارتفع شأن هذا الرجل بقوة عزمه وعلو إرادته من رتبته الوضيعة في بداية الأمر وهي (المكارية) تدريجيا إذ دخل في خدمة الأمير محمد الطاهري وطمع أن يكون له شأن كما حدث ليعقوب الصفار، ولما تمكن يعقوب من نيسابور دخل أحمد الخجستاني كأغلب أصحاب الأمير الطاهري في خدمة الصفارين وصار من ملازمي علي بن الليث أخي يعقوب وعمرو، فعينه علي قائدا لشرطة إقطاعياته في خراسان، حيث حصل على هذه الإقطاعات بعد استيلاء الصفاريين عليها، فراح الخجستاني يجمع من حوله الأنصار والأتباع المعارضين لحكم الصفاريين.

وفي عام (٢٦١هـ) وقبل أن يتحرك يعقوب إلى فارس أمر أحمد الخجستاني أن يتفحص أعمال علي بن الليث في خراسان. ولكن أحمد هذا أعلن عصيانه ليعقوب بمجرد حركته إلى فارس، فقام أولا بإخراج عماله من نيسابور وقومس وبسطام، ثم دعا الناس في نيسابور إلى مبايعة آل طاهر في عام (٢٦٢هـ)، وأثار بمدد من بعض المتمردين الخراسانيين فتنة عظيمة في كل خراسان في الفترة التي كان يعقوب رهن نزاعه مع الخليفة العباسي، كما تفاقمت الأوضاع في فارس وخوزستان كذلك، وكانت مدينة بلخ هي الأخرى قد أعلنت المعارضة لحكم الصفاريين

(١) كورة باذغيس من إقليم خراسان، وكانت تقع على مقربة من هراة، وذكر ياقوت الحموي أن أصلها بالفارسية باذخيز، معناه قيام الريح أو هبوب الريح لكثرة الرياح فيها، وكانت باذغيس مشهورة بغابات الفستق، وكان يحمل منها إلى سائر البلدان المجاورة، وبكورة باذغيس عدة مدن كبيرة، منها: ببن، وكيف، وبغشور، ودهستان قسبة القسم الجنوبي من الكورة (لسترنج، نفسه ص ٤٥٥ - ٤٥٧ والمصادر المذكورة هناك).

بزعامه أحد أخوة الخجستاني ويدعى أبا حفص يعمر، مما أدى إلى تفش حركات المعارضة في المدن الخراسانية، وخاصة عندما أصدرت الخلافة منشورها بعزل يعقوب عن خراسان، وتثبيت حكام المدن الخراسانية على مدنها.

واعتبر الخجستاني نفسه نائبا عن حكم الطاهريين في بغداد، فزادت شعبيته في نظر الخراسانيين، الذين أصبحوا يتذكرون ما كان لولاية خراسان من أهمية سياسية على عهد الطاهريين^(١). وقد تصارع يعقوب عدة مرات أيضا مع الحسن بن زيد الداعي الكبير للسيطرة على جرجان، وظل على حاله هذا إلى أن عاد عمرو إلى سجستان وأخذ ما بين هراة إلى بلخ واشتغل بالسلب والنهب والإغارة، وتحالف في حركاته هذه مع أحد أتباع الأمير محمد الطاهري القدامى والذي لحق بيعقوب أولا ثم طرده يعقوب عنه وهو (رافع بن هرثمة).

ولما قدم عمرو في سنة (٢٦٦هـ / ٨٧٦ م)، من خورستان إلى سجستان وأطلق أخاه عليا من قيوده، أرسل إلى الخجستاني رسولا خفية وطلب عونه وقيامه على عمرو، فتحرك الخجستاني من جرجان إلى نيسابور وحاصرها وهي مركز خراسان، فخف عمرو بن الليث ومعه أخوه علي وإبنة محمد بن عمرو من سجستان إلى نيسابور عن طريق هراة، ودخل في قتال مع الخجستاني يعاونه أخوه وإبنة وقد قاد كل منهما طرفا من الجيش الصفاري. وفي تلك الأثناء خان علي أخاه وأبدى الوهن في قتاله مما ألحق بأخيه الهزيمة من الخجستاني، ففر إلى هراة وقيد عليا مرة أخرى وتوطدت قوة الخجستاني في نيسابور بعد هزيمته لعمرو، وحصل على تأييد الخلافة، فأقدم على سك عملة باسمه، مما يؤيد سيطرته

(١) فتحى أبو سيف، خراسان، ص ٨٤.

على نيسابور عاصمة خراسان^(١). وتقدم الخجستاني، متعقبا عمرا إلى هراة وسجستان، ولكنه لم يستطع أن يستولى على واحدة منها مما جعله يأخذ في القتل والغارة، فسخط الناس لظلمه وظلم جنده ومالوا إلى عمرو بن الليث وأخذوا يقتلون جند الخجستاني حيث وجدوهم. وفي النهاية عاد الخجستاني في عام (٢٦٧هـ) من سجستان إلى نيسابور. وفي هذه الأثناء قدم إلى عمرو في هراة اثنان من معارضي حكم الصفارين سابقا وكانا لفترات طويلة باعث تعبهم، هما محمد بن زيدويه حاكم قهستان السابق الذي مر ذكره في ثورات فارس في عهد يعقوب، والآخر هو (أبو طلحة منصور) من متمردي نيسابور وممن عصى في أواخر عهد يعقوب وصار عوا الصفارية والخجستاني. وقد قبل هذان طاعة عمرو، وفرح لهذا الأمر وخلص عليهما وأعطى أبا طلحة منصب القيادة العامة لجيش خراسان، ثم قدم عمرو من هراة إلى سجستان.

وظل الخجستاني عاما آخر ينهب ويسلب في طخارستان وخراسان وينازع مدعين آخرين ويقتلهم وتغلب على أبي طلحة قائد عمرو، لكنه في النهاية قتل في شوال من سنة (٢٦٨هـ) وهو مخمور بيد غلامين من غلمانه فأراحا العالم من شروره. واجتمع أصحاب الخجستاني بعد مفتنه حول (رافع بن هرثمة) وهكذا ارتهن عمرو بفتنة رافع وتمرده بعد أن استراح من الخجستاني، وصرف أوقاته فترة في تعقب هذا المدعى.

(أ) غزو عمرو بن الليث الصفار لفارس في عام (٢٦٨هـ):

قصد عمرو بن الليث في المحرم من سنة (٢٦٨هـ) فارس قبل أن تنتهي فتنة الخجستاني، وكان سبب ذلك أنه سمع أن (محمد بن الليث)

(١) الطبري، نفس المصدر، ح ١١، ص ، ابن الأثير، الكامل، ح ٧، ص ٤٢٥-٤٢٦.

والى فارس لم يرسل خلافا لأمره الخراج الذى يتوجب ارساله سنويا إلى بغداد، مما تسبب فى غضب الخليفة على عمرو، خاصة أن عمرا قد كان خائفا من اتحاد محمد بن الليث مع الخجستانى. وسرعان ما أمن عمرو بن الليث فارس، وتغلب على اثنين أو أكثر من أصحاب يعقوب القدامى الذين سلكوا سبيل العصيان وأرسل الخراج المتأخر إلى دار الخلافة.

ويبدو أن الخلافة العباسية لم تظمن إلى نوايا عمرو الصفار، أو أن الموفق ولى العهد أراد أن يستعيد أملاك الطاهريين السابقة إلى حوزة الخلافة من جديد، خوفا أن يسلك عمرو طريق أخيه يعقوب ويفكر فى غزو بغداد. ومما دفع الخلافة إلى هذا المسلك مع عمرو هو تخلصها من ثورة صاحب الزنج وأنها أصبحت حرة اليد تستطيع أن توجه اهتماما للصفاريين، فأصدر الخليفة المعتمد قراراً بعزل عمرو بن الليث عن البلاد التى ولاه إياها، وأعلن هذا الخلع على ملا من حجاج خراسان فى بغداد، ولعنه بحضرتهم وأخبرهم أنه قلد خراسان محمدا بن طاهرى. كما أمر بلعن عمرو على المنابر فلعن. ثم سير جيشا إلى قتاله بفارس، فانتصر هذا الجيش على جيوش الصفار. أما محمد بن طاهر فقد بقى فى بغداد، واستخلف على خراسان رافع بن هرثمة. أما الموفق فقد خرج بنفسه لقتال عمرو الذى هرب إلى كرمان ومنها إلى سجستان، تاركا فارس لأحد أتباعه وهو نصر بن أحمد^(١).

(ب) صراع عمرو بن الليث مع رافع بن هرثمة:

استفاد رافع بن هرثمة خليفة الخجستانى من فرصة غياب عمرو، فهاجم أبا طلحة قائد خراسان، ثم هاجم بعد أن تغلب عليه عاد إلى هراة

(١) الطبرى، نفسه، ح ١١، ص ٣٢٩، ابن الأثير، الكامل، ح ٧، ص ٤٢٦، بارتولد، تركستان، ص ٣٤٥، حسن محمود، أحمد الشريف، العالم الإسلامى، ص ٤٦٤.

لما أدرك أنه لن يستطيع أن يتمكن فيها، وظل بها إلى أن عاد عمرو من فارس إلى سجستان. وحاصر عمرو هراة في عام (٢٧٠هـ) وانهزم رافع إلى (مرو) وطلب عفور عمرو، لكنه صادف في الطريق (أبا طلحة) الذي كان فارا إلى طخارستان، فقرر هذان الأميران أن يتعاونوا في قتال عمرو. ولكن قبل أن يضعوا تفكيرهما موضع التنفيذ داهم أبو طلحة رافعا في جناح الظلام وأهلك أغلب جيشه واستقر في مرو وخطب لمحمد بن طاهر الطاهري، وبحملة واحدة طرد عمرو أبا طلحة من مرو، وبحملة أخرى في سنة (٢٧١هـ) أخذ نيسابور من رافع، وعاد إلى سجستان بعد تأمين خراسان وتهدة ثائرتها.

وبلغ عمرو الصفار في البداية كرمان، ووصله رسول من نصر بن أحمد عامله على فارس (وهو غير نصر بن أحمد الساماني الذي ولاه محمد بن طاهر بلاد ما وراء النهر) وأوقفه على مجريات أمورها، فقد كتب الخليفة المعتمد إلى (أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف) يأمره بقتال نائب عمرو في فارس، فتقدم في خمسة عشر ألف مقاتل فانهزم نائب عمرو، وقتل مائة من أعيان جيشه، وأسر ثلاثة آلاف، فاستأمن نائب عمرو منهم وغنموا من عسكره ما لا يحصى وكان عمرو بصدد ارسال مدد إلى عامله حين جاءه الخبر بأن أحمد بن عبد العزيز طرد نصرا ابن أحمد من فارس وأخرجها من سلطة الصفاريين^(١).

وابتلى عمرو بن الليث في هذا الوقت ببلاء عجيب، فمن ناحية حنق عليه الموفق فقصره عن كل ناحية، ومن ناحية أخرى انحسر عنه الحلفاء والمساعدون، لكنه لم ييأس ولم يسمح للوهن أن يتسرب إلى عزيمته في تفكيره للخلاص مما هو فيه. وقد ساعده الحظ قضاء إذا أن

(١) ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٤١٧، عباس إقبال، تاريخ إيران، ص١١٩.

أبا طلحة منصوراً الذي كان في نزاع مع عمرو حتى ذلك الوقت، أتاه طائعا بعد أن نصب محمد الطاهري رافعا بن هرثمة في حكومة خراسان، فاحتفى به عمرو كثيرا وقلده مركزا مهما في جيشه حيث سيسمع عنه في الحرب التي دارت بين عمرو والمعتد في عام ٢٧٤ هـ، على أنه مقدم جيش عمرو^(١). ثم سيره إلى خراسان وعجل هو وابنه محمد من كرمان إلى فارس.

وتقدم جند عمال الخليفة إلى عمرو وكانوا نحو ألفي جندي يترأسهم (خلف بن الليث) حفيد عم عمرو بن الليث الذي سبق أن غضب من ابن عمه ولحق بالموفق. ولم يكن خلف يود أن يلحق هزيمة في هذه الحرب لبنى قرابته الساسانيين فلحق بجيشه بعمرو بن الليث، فحمد عمرو ربه تعالى وحمل على قائد جيش الخليفة حملة صادقة وترتب عليها هزيمته لهم، وعودة فارس إلى طاعته مرة أخرى.

وعند الموفق إلى المواردية من جديد فكتب إلى عمرو في عام ٢٧٤ هـ / ٨٨٧ م أنه إذا سير الخراج المتأخر إلى بغداد وأرسل محمدا ابنه كرهينة إلى دار الخلافة فليجندن منشور امرته، فسير عمرو ابنه محمدا ومعه أبو طلحة قائد جيش خراسان وجيش كبير متظاهرا بطاعة الخليفة ومبطنا هدفه إلى القضاء عليه في الوقت زحف فيه الموفق إلى فارس لحرب عمرو، ولما سمع محمد أثناء طريقه أن الموفق على أهبة لدفعه بجند كثيف، آثر العودة وأقبل على أبيه بكرمان في الوقت الذي استأمن فيه أبو طلحة قائد جيش عمرو الصفار إلى الموفق، ففت ذلك في عضد عمرو، غير أن الموفق استراب بأبي طلحة، فقبض عليه قريبا من شيراز وجعل ماله لابنه أبي العباس المعتضد، وسار في طلب عمرو

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١١، ص ٥٢.

واستولى على فارس. ومات محمد في هذا السفر على بعد من سجستان بستة منازل في جمادى الأولى (٢٧٤ هـ) وتآلم عمرو تألماً شديداً لموته المباغت، وانسحب إلى سجستان^(١).

وبعد وصول عمرو إلى سجستان، وصل رسول الموفق إليه برسالة منه يطرق فيها باب الصلح، فقد تشعث أمر حدود الشام ومصر بسبب خروج أحمد بن طولون، وكانت فتنة صاحب الزنج ما تزال على حالها، فأمر عمرو بمال كثير لرسول الخليفة، وجعل للخليفة من فارس وكرمان وخراسان عشرة آلاف درهم سنوياً، وأرسل أحد غلمان أخيه وهو (السبكري) مبعوثاً له إلى بغداد. وأمر الموفق أن يكتب اسم عمرو بن الليث في دار الخلافة على المنابر والدكاكين والمنازل والألوية، وأن يقترن اسمه باسم الخليفة في الخطبة، ولم ينل هذا الشرف أحداً قبل عمرو.

وبقى الأمير الصفاري مدة عامين من (٢٧٤) حتى (٢٧٦ هـ) في سجستان، وانشغل في ترتيب أمورها حتى تركها في ربيع الأول من العام الأخير إلى فارس. ولما بلغها وصلت إلى مسامعه أنباء هروب أخيه على من محبسه في قلعة (بم) بكرمان^(٢)، حيث كان يعيش سجيناً من بعد هزيمة عمرو من الخجستاني نتيجة خيانه. ولحق برافع بن هرثمة الذي كان على عصيانه لأخيه في خراسان. ولم يهتم عمرو بهذا الأمير كبيراً اهتمام، لأنه سمع أن الموفق أسقط اسمه من المنابر والألوية والخطبة

(١) ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٤١٧، ٤٣٠.

(٢) وتقع كورة بم عند الحد الشرقي لكرمان. وقد وصفها ابن حوقل بأنها كورة كبيرة،

ولها قلعة منيعة مشهورة، واشتهرت بطيب الهواء، والثياب القطنية الفاخرة

والعمائم والمناديل والطبائس، التي تحمل إلى الجهات البعيدة، وما تزال القلعة

موجودة إلى اليوم (ابن حوقل، نفسه، ص ٢٧١، لسترنج، نفسه، ص ٣٥٠).

وقصد بنفسه أصفهان ليحرض أحمد بن عبد العزيز السابق الذكر على قتال عمرو، وفي ذلك يقول (الطبري) أنه عزل مرة أخرى وطرحته "المطارد والأعلام والترسة التي كانت في مجالس الشرطة التي عليها اسم عمرو بن الليث"، فجعله هذا أن يعود إلى كرمان من فارس ثم عاد إليها بعد أن أخذ أهيبته، وعلى مقربة من أصطخر أنزل بقائد الموفق هزيمة نكراء، ودخل شيراز في المحرم من (٢٧٧هـ) مظفرا منصورا، وأمر بإسقاط اسم الخليفة من الخطبة وأن يخطب باسمه وحده. ثم تغلب على أحمد بن عبد العزيز وأعلن ثورته على الخليفة وسلك طريق الأهواز وبغداد. إلا أن وزير الخليفة أعاده بشتى صنوف المداينة والوعود من الأهواز. ولما أن المعتمد قد وافته المنية في هذا الوقت وصار (المعتضد) خليفة في عام (٢٧٩هـ / ٨٩٢ م)، خمد النزاع بين دار الخلافة وعمرو بن الليث مؤقتا، خاصة أن المعتضد صالح عمرا، وعهد إليه بإمارة فارس وكرمان وخراسان وسجستان وكابل وشرطة بغداد، وأمر بأن يعاد اسمه إلى الخطب والألوية وأن يخطب له أيضا في الحرمين، وكان عمرو بن الليث قد أرسل إليه الرسل تحمل الهدايا الكثيرة معلنا الولاء له، وسائلا إياه أن يوليه إمارة خراسان التي كانت تحت إمرة رافع بن هرثمة في ذلك الوقت. ورجع عمرو إلى سجستان تحفه الغبطة والمنة وأصر هذه المرة أن يستأصل شأفة فتنة رافع تماما الذي تحالف مع أخيه علي بن الليث. ويذكر (الطبري) أن اللواء الذي أرسله الخليفة المعتضد من بغداد بتقليد عمرا بن الليث الولايات، قد نصب في نيسابور لمدة ثلاثة أيام كبرهان ملموس على رضاء الخليفة عليه^(١).

(١) الطبري، تاريخ الأمم، ح ١١، ص ٢٦٥، بارتولد، تركستان، ص ٣٤٥.

كان رافع بن هرثمة مشتغلا بمهاجمة طبرستان وخراسان والرى وجرجان منذ أن نصبه الموفق ومحمد الطاهري على حكومة خراسان حتى سنة (٢٧٩ هـ)، حين عاد عمرو من فارس إلى سجستان. ومن بين ذلك هزيمته لمحمد بن زيد الداعي في (٢٧٤ هـ)، واستيلاؤه على جرجان وطبرستان، وفي نفس الأيام لحق على بن الليث وابناه الاثنان برافع، وأخرج محمد بن زيد عامل رافع من طبرستان في وقت عودة عمرو بن الليث من كرمان، لكن محمدا بن زيد لم يكن الند القوي لرافع.

ولما أدرك رافع في النهاية أن أعداء أقوىاء يقصدونه من هنا وهناك، وأنه لا يحتمل قتال عمرو بن الليث ومحمد بن زيد العلوي وأحمد بن عبد العزيز والي أصفهان والرى من قبل الخليفة وهو بمفرده، رأى أنه من الأصوب أن يصلح أحمد بن عبد العزيز ومحمدا بن زيد ثم يتجه مجتمع الجأش إلى أقوى أنداده عمرو بن الليث. ولهذا فقد صالح أحمد ابن عبد العزيز في (٢٨٠ هـ)، وانعطف أيضا إلى محمد بن زيد وترك له طبرستان وجرجان وخطب له في هذه المناطق، ووعد الداعي أن يمدّه بأربعة آلاف من شجعان الديلم. فأرسل عمرو بن الليث إلى الداعي لما علمه من هذا الصلح وحذره من خيانة رافع وغدره فتحاشى الداعي من معاضدة رافع.

وأتى رافع بعد أن اطمأن خاطره من جانب محمد بن زيد وأحمد ابن عبد العزيز إلى نيسابور في عام (٢٨٣ هـ)، لكي يطرد عنها عمرا بن الليث الذي وصلها بعد فتح هراة لكنه لقي هزيمة فادحة منه، ووقع كثير من أتباعه أسرى للأمير الصفاري، كان من بينهم ابنا علي بن الليث اللذان كان يعيشان بعد موت أبيهما في سنة (٢٨٠ هـ) عند رافع. فتلطف عمرو بهما وخف يتعقب رافعا الهارب إلى (أبيورد). وفر منها إلى

(سرخس) ثم عاد إلى نيسابور في غياب عمرو. إلا أن عمرا هزمه مرة أخرى فأرسل رافع أخاه يستمد محمدا بن زيد فلم يلتفت الداعي إلى دعوته. وفي آخر الأمر نالته هزيمة ثالثة من عمرو في سبزوار^(١) وقتل نحو خمسة آلاف من جنده ولحق بقيتهم إلى عمرو وركنوا إلى الفرار فاضطر إلى أن ينهزم إلى خوارزم. وكان أن قبض عليه واليها وقتله في شوال من سنة (٢٨٣هـ) وأرسل برأسه إلى عمرو. وسير عمرو هذا الرأس بهدايا إلى بغداد. وأمر المعتضد بأن يعلق من الصباح حتى الظهر في جانب بغداد الشرقي، ومن الظهر إلى المساء في جانبها الغربي ليعتبر الناظرون، وأرسل إلى عمرو بن الليث الخلع واللواء دليلا على رضاه عنه. وبهذا زالت فتنة هذا الرجل العاصي وخلص الخليفة والداعي وعمرو بن الليث من شر هذا الند المنتهز^(٢).

(ج) قتال عمرو الصفار لإسماعيل الساماني وأسرته (٢٨٧هـ):

بعد مقتل رافع أرسل عمرو بن الليث بقاتله وقائد آخر إلى خوارزم ليستوليا عليها له، وقيل أن يبلغاها وصلتهما أنباء أن الأمير اسماعيل بن أحمد الساماني والي بخارى قد أنفذ عامله إلى خوارزم فاستولى عليها له، فأرسل عمرو رسالة للخليفة المعتضد وهو شديد الغضب وطلب منه أمرا بحكومة ما وراء النهر، وهدده أنه إذا لم يقبل هذا الأمر فلسوف يهاجم بلاد ما وراء النهر ويطرده إسماعيل منها. ومع أن

(١) هذا وتقع سبزوار غرب نيسابور، وكانت تسمى بيهق، ويذكر ياقوت أن سبزوار أصبح تسمية للمدينة، وإن قالت العامة سبزوار. وكان معظم أهلها من الشيعة، واشتهرت أسواقها بأسقفها الخشبية التي كانت تقوم على طبقان متينة البناء (لسترنج، نفسه، ص ٤٣٢-٤٣٣ والمصادر المذكورة هناك). وتجدر الإشارة إلى وجود مدينة أخرى تسمى سبزوار بالقرب من هراة.

(٢) الذهبي، دول الإسلام، ج ١، ص ١٧٠، ابن العماد، شذرات الذهب، ج ٢، ص ١٨٢، عباس إقبال، نفس المرجع، ص ١٢٢.

الخليفة لم يكن يميل إلى إصدار أمر له وكان كامل الرضاء عن إسماعيل، إلا أنه أجبر على أن يرسل إليه أمراً بولاية إمارة ما وراء النهر وهدايا أيضاً بعد مدة.

ويذكر كل من الطبري وابن خلكان أن الخليفة العباسي المعتضد نزولاً على رغبة عمرو بن الليث استدعى حجاج خراسان، وقرئ عليهم قراره بعزل إسماعيل الساماني وتولية عمرو الصفاري على بلاد ماوراء النهر، وتلا ذلك أن وجه إلى عمرو بنيسابور بالخلع وبعهد ولايته على ماوراء النهر. ولم يسع عمراً إلا أن يُعرب عن تهكمه وهو يتقبل خلع الخليفة، فعندما وضع رسول الخليفة الخلع بين يديه، أخذ عمرو يرتديها الواحد تلو الآخر وهو يعبر عن امتنانه حتى وضع الرسول أمامه عهد الخليفة بولاية ما وراء النهر، فقال له عمرو: "ما أصنع به؟ فإن إسماعيل بن أحمد لا يسلم إلى إلا بمائة ألف سيف"، فكان رد الرسول "أنت سألته، فشمّر الآن لتتولى العمل في ناحيته" فأخذ عمرو عهد الخليفة وقبله، ثم وضعه بين يديه ثم أمر للرسول ومن معه بسبعمائة ألف درهم. ومع ذلك كان الخليفة العباسي يقوى إسماعيل خفية ويفهمه أنه لم يعزله من إمارته وأنه مشمول بتأييد وعنايته.

ويذكر (فامبري) أن عمراً بعد أن هزم رافع بن هرثمة، فقد رأى في السامانيين وقوتهم الصاعدة، مع محبة الناس لهم، منافسا له لا بد من القضاء عليه بأي ثمن. كما أدرك أن قيام صلوات المودة بين رافع وإسماعيل ما يدل على فتور إسماعيل نحوه، فأخذ يتحين الفرصة للاشتباك معه. حتى إذا ما بلغه ترحيب إسماعيل بأحد أتباعه حين فر من عنده إلى بخارى، وعمد أول الأمر إلى حرب الرسائل معه، وحين رد إسماعيل عليه رداً عنيفاً اصطنع المسالمة وناشده أن يعدل عن قيام

النزاع بينهما وطلب منه قيام صداقة بينهما على أسس من المحبة والإخلاص، كما اعتذر إليه بأن لا يجعل للوشاة سبيلا إلى افساد ما بينهما من ألفة، كذلك سأله أن يتناسى ذلك كله، وتعهد له بعدم التعرض له مستقبلا، فله أن يمارس سلطانه هادئ البال^(١).

وبعد أن بلغ عمرا بن الليث أمر الخليفة، ورأى أن أمر إسماعيل قد بلغ قوة بسبب تعاطف الخليفة معه وأنه على أهبة تامة للحرب، تردد قليلا في أقدامه على مهاجمة ما وراء النهر، لكنه في النهاية أراد أم أبي تحرك إليها. وفي أثناء مسيره إليها وصلت إلى مسامعه أنباء هزيمة مشركي شرق أفغانستان الحالية لجيشه في غزوة واستيلائهم على أملاكه هناك. وقد فتت هذه الحادثة في عضده كثيرا.

وكان إسماعيل قد سبق فأرسل جنده إلى فراسان من بخارى لأنه كان يعرف عزم عمرو من قبل، ونادى في أهل ما وراء النهر أن عمرا وجنده آتون لنهب البلاد وقتل نساءهم وأطفالهم فعليهم مواجهته ودفعه. ولبي أهالي ما وراء النهر نداء إسماعيل لما لمسوه فيه من دين وحسن خلق، وتجمع حوله جمع غفير وأقسموا أنهم ماضون في ركابه مقاتلين ولو أدى بهم الأمر إلى أن يقتلوا أو يؤسروا، وكان عمرو بن الليث قد أرسل قواته بقيادة علي بن شروان ومحمد بن بشر القائد إلى بخارى،

(١) أرمينيوس فامبرى، تاريخ بخارى، ترجمة أحمد محمود الساداتى، القاهرة، ١٩٦٥، ص ١٠٠، وجدير بالذكر أن بعض المصادر الأخرى تذكر أن إسماعيل السامانى هو الذى سعى أول الأمر للصلح، وكتب إلى عمرو "إنك قد وليت دنيا عريضة، وأنا فى يدى ما وراء النهر، وأنا فى ثغر فافتح بما فى يدك واتركنى مقيما بهذا الثغر، فأبى اجابته إلى ذلك، وذكر له من أمر نهر بلخ وشدة عبوره، فقال عمرو: "لو شئت أن أسكره ببدد الأموال وأعبره لفعلت". راجع الطبرى، تاريخ الأمم، ح ١١، ص ٢٧٥، فامبرى، المرجع نفسه، ص ١٠٠، ١٠٥، حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ص ٦٨.

وأمره ألا يتعرض لأهلها بسوء ما وسعه ذلك، وأن يجتهد في كسبهم إلى صفه بالموودة دون قتال. وما أن سمع إسماعيل بذلك حتى عبر نهر جيحون لساعته، وبدأ على ابن شروان الهجوم بمجانيقه القوية، واستمات الفريقان في قتال عنيف انتهى بانتصار إسماعيل الساماني انتصارا حاسما، ووقع في الأسر قائدا الجيش الصفارى (بشر وعلى بن محمد بن شروان) وهناك تبدو شهامة إسماعيل بإزاء أعدائه على ما هو مألوف عنده، فلم يواصل السير لأسر جيش عدوه كله، وإنما حمل هؤلاء الرجال بالهدايا وأطلق سراحهم ليعودوا بعد ذلك إلى ديارهم، وحين أعرب رجاله عن دهشتهم بإزاء صنيعه هذا، كان جوابه: "أما نصنع بهؤلاء المساكين، فلندعهم يعودون إلى بلادهم، وهم بعد ذلك لن يخرجوا الحرينا أبدا" (١).

وحين وصلت عمرو بن الليث أخبار هذه الهزيمة وكان بنيسابور، بلغ به الحنق والغیظ مداه، وملا عليه الإنتقام من عدوه كل تفكير. وحين طلب إلى إسماعيل أن يفك أسار قائديه فرفض، سار في جيش جديد إلى بخارى. ولما تواجه الجيشان نادى إسماعيل في جيش عمرو أنه وجنده مجاهدون لا يطلبون غير وجه الله، وأن عمرا رجل لا يطلب غير الدنيا وزينتها ولم يتحرك بهم إلا لهذا الغرض. وأثمر هذا الخطاب فيهم فانضم إليه فريق من أتباع عمرو. ومع هذا كله فقد حارب عمرو بشجاعة طوال يومه جند إسماعيل، ولكن لسوء حظه ثارت في وجوه جنده ریح عاصفة، فضلا على كثرة جند إسماعيل، وصار نور النهار ظلما حالكا، فانفرط عقد جيش عمرو فلم ير بدا من الهروب إلى (دغل)، لكن أقدام جواده غاصت في وحله وطينه، فاستأسره بعض جند إسماعيل في يوم الثلاثاء

(١) فامبرى، تاريخ بخارى، ص ١٠٠ - ١٠١.

آخر ربيع الآخر سنة سبع وثمانين ومائتين، وفي رأى آخر فى جمادى
الآخر عام ٢٨٨هـ / ٩٠٠م^(١). وينقل (فامبرى) عن كتاب (زينة
التواريخ) ما أصاب عمرا بن الليث فى مساء اليوم الأول من أسره قبل أن
يمثل بين يدي إسماعيل السامانى، فيذكر أنه جلس على الأرض يراقب
أحد حراسه وهو يعد له وجبة بسيطة فى صفحة ما يستخدم لسقى الخيل،
ولم يكن عنده غيرها، وما أن وضعها على النار، حتى أتى كلب فأدخل
رأسه فيه فاتحشر، فلم يستطع فكأا فأنطلق هاربا. ولم يملك عمرو مع
هذا المنظر إلا أن يمعن فى الضحك. وحين أنكر عليه حارسه ذلك، أوضح
له أن تابعه كان قد شكاه فى الصباح بأن ثلاثمائة بعير لا تكفى لحمل
أدوات مطبخه، وها هو كلب واحد ينطلق بصفحته وبطعامه. ولقد بلغ
بإسماعيل التأثير حين رأى خصمه الأسير على هذا الحال، فأكرمه غاية
الاحرام، وأنزله قصرا له وقام بزيارته بعد عدة أيام، وبذل ما فى وسعه
ليخفف عنه ما نزل به. فلما علم الخليفة العباسى بأخبار هزيمة الصفار،
سر سرورا بالغا وخلق على إسماعيل، وقوض إليه جميع الولايات التى
كانت بيد عمرو، وطلب منه أن يرسله إلى بغداد، محتجا بأنه بوصفه أميرا
للمؤمنين هو وحده الذى له الحق أن يعاقب هذا المذنب^(٢).

(د) نهاية عمرو بن الليث فى بغداد (٢٨٩ هـ):

وبعث الأمير إسماعيل السامانى بعمرو معلولا للمعتضد ببغداد،
وأمر عددا من جنده أن يبقوا وسيوفهم مسلولة حارسين له حتى يأتوا به
إلى بغداد وهو فى هذه الحالة من الهوان. وسمح له فى دار الخلافة أن

(١) الطبرى، تاريخ الأمم، ح ١١، ص ٢٦٧، بارتولد، تركستان، ص ٣٥١، فامبرى،

تاريخ بخارى، ص ١٠٠ - ١٠١.

(٢) ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٤٣٨، فامبرى، تاريخ بخارى، ص ١٠١ - ١٠٢.

يلبس ثيابه الخاصة به وهو مطلق السراح. وأركب أتباع المعتضد عمرا جملا أعرج أحذب مرتفع القامة وطافوا به مدة من الوقت في شوارع بغداد وهو في حالة من الذلة الشديدة ثم ألقى به المعتضد في الحبس.

وظل عمرو بن الليث في سجن المعتضد طوال حياته، وطلب هذا الخليفة الحاقده وهو في حال الاحتضار أحد خدمه وأفهمه بالإشارة، إذا لم يكن يستطيع الحديث في حالته تلك، بوضع يده على حلقه وإحدى عينيه، أن يقتل الأعور، فقد كان عمرو محروما من إحدى عينيه. ولم يرض الخادم أن يأثم بقتل عمرو خاصة أن المعتضد كان في حال النزاع الأخير، فامتنع عن تنفيذ أمره. ولما خلف المكتفى المعتضد في الخلافة سأل وزيره عن حال عمرو، فقال الوزير أنه ما يزال حيا، ففرح المكتفى لهذا كثيرا لأنه لقي من عمرو الصفار أيام إقامته بالرى خيرا كثيرا، لكن الوزير القاسى القلب أرسل خفية من يقتل عمرا في السجن وأفهم المكتفى أن عمرا قتل قبل وصوله خليفة إلى بغداد^(١). وإن كان ابن خلكان يذكر أنه مات أو قتل عقب وصوله إلى بغداد في عهد المعتضد^(٢).

كان عمرو بن الليث مثل أخيه في علو همته وبذله ويقظة عقله وسياسته وعمق فهمه وتدبيره. لكنه كما يبدو لم يكن في مثل هيبته وشجاعته وجراته، لذلك فقد كان الجنود يهابون يعقوب كثيرا ويحبون عمرا أكثر. وكان في تحمله المصائب وفي صبره كأخيه شديد الصبر صلب العود، ويبدل كي يعقوب السعى الكامل والاهتمام البليغ في أمر جيشه، وكان يأمر لجنده كل ثلاثة شهور بالمؤن والرواتب، وكان ترتيبه في هذا الشأن أن يجمع الجنود في الميعاد بقرع الطبل، ثم يتلو مأمور دفع الأجور أسماء

(١) ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٤٣٨ عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ح ٢، ص ١١٦.

الجند من دفتره بالترتيب. وكان عمرو بن الليث هو نفسه الجندى الأول الذى يظهر أولا فيعين (عارض الجيش) أو زير الحربية باصطلاح اليوم جواده وسلاحه وعدته ولوازمه. (١)

ولا علم لنا بما كانت عليه (الإدارة) فى عهد عمرو، وكل ما يذكره كرديزى هو أنه كان لعمرو جواسيس فى كل مكان وأنه كان على علم بكل ما يجرى فى أراضيه. أما صاحب "تاريخ خيرات". فيروى أن عمرا اشترى غلمانا أحداثا ورباهم فى خدمته ثم أهداهم إلى كبار رجال دولته وأن هؤلاء الغلما كانوا ينهون إليه كل أعمال أسيادهم. ولم يكونوا يخشون أسيادهم لأن أحدا لم يكن ليجرؤ فى عهد عمرو على معاقبة غلامه إلا بإذن منه. (٢)

وقد قام سلطان عمرو فى واقع الأمر على السيف كسلطان أخيه، ولذا فقد كان ضروريا له أيضا أن يحصل على الأموال اللازمة لمتابعة حروبه، وقد تمكن من تحقيق ما أراد معتمدا على نظام اقتصادى محكم، هذا إلى جانب ما جمعه عن طريق النهب ومصادرة أموال الغير. ولا علم لنا بمقدار ما كان يعود على عمرو من مملكته، إلا أننا نستطيع أن نكون فكرة تقديرية عن ذلك اعتمادا على ما وصلنا من حقائق عن مقدار الخراج الذى كان يجبى فى عهد الطاهريين والسامانيين. ووفقا لقول الطبرى (٣) فإن مجموع خراج الولايات التابعة لعبد الله بن طاهر بلغ عام

(١) راجع تفاصيل ذلك، ص ١٤٧ من هذا الفصل.

(٢) ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٤٣٩.

(٣) الطبرى، تاريخ الأمم، ح ١١، ص ١٦٨، راجع أيضا رواية المسعودى (مروج الذهب، ح ٢، ص ١٢٥ وما يليها بصدد الهدايا التى أرسل بها عمرو إلى الخليفة عام ٢٨٣ هـ / ٨٩٦م، وكان من بينها "صنم من صفر.. كان عمرو بن الليث قد حمل هذا الصنم من مدن افتتحها من بلاد الهند ومن جبالها"، وكان الخليفة المعتمد قد أقطع بلاد السند للصقاريين قبل ذلك ليخفف من شدة ضغطهم على العراق.

وفاته ثمانية وأربعين مليوناً من الدراهم. أما ابن خرداذبه^(١). فيذكر أن مقدار الخراج الذي كان يدفعه عبد الله للخليفة قد بلغ أربعة وأربعين مليوناً وثمانمائة وستة وأربعين ألفاً من الدراهم، هذا زيادة على ثلاثة عشر من جياذ الخيل وألفي رأس من الغنم وألفي رقيق من الغز قيمتها ستمائة ألف درهم وألف ومائة وسبعة وثمانين ثوب وألف وثلثمائة قطعة من الحديد. هذه المعطيات تتصل بعام ٢١١ و عام ٢١٢ للهجرة (٨٢٦ و ٨٢٨)، أما في عام ٢٢١ هـ / ٨٣٦ م، إذا ما أخذنا بقول قدامة^(٢). فإن عبد الله قد التزم بدفع ثمانية و ثلاثين مليوناً تشمل ثمن ما أرسل من الرقيق والغنم والثياب القطنية؛ ومن الجلى أن ما تبقى من العائد كان يتصرف فيه الطاهريون. ويجعل اليعقوبي خراج خراسان أربعين ألفاً يضم إليها خمس الغنائم (أى المأخوذة فى الحرب ضد الكفار) وهذا كله كان يتمتع به الطاهريون وحدهم، وإلى جانب هذا كان الطاهريون يتسلمون ثلاثة عشر مليوناً من العراق عدا ما كان يصل إلى أيديهم من الهدايا والتحف. أما ابن حوقل^(٣) والمقدسى^(٤). فيجعلان خراج خراسان قريباً من هذا المقدار على عهد السامانيين. وأما ما كان يجبيه عمرو من ضرائب من أملاكه، فيما عدا بلاد ما وراء النهر التى لم تخضع له، كان أقل من ذلك بخير، غير أنه بأجمعه كان تحت تصرف عمرو على النقيض مما كان عليه الحال من الطاهريين. وليس لدينا ما يفيد بأنه أرسل أية أموال إلى بغداد سوى الهدايا التى كان يبعث بها من وقت لآخر. ويذكر ابن معين. أن عمراً هو أول سلطان مسلم يأمر بذكر اسمه فى خطبة الجمعة التى كانت

(١) ابن خرداذبه، المسالك والممالك، طبعة خير الدين محمود قبلوى، ص ٦٩.

(٢) قدامة بن جعفر، نبد من كتاب الخراج وصناعة الكتابة، ص ١٨٥.

(٣) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٦١.

(٤) المقدسى، أحسن التقاسيم، ص ٣٤٠.

حتى ذلك العهد مقصورة على إيراد اسم الخليفة وحده؛ ويعلق على ذلك قائلا " ولم يكن الدعاء قبل ذلك في الخطبة غلا للخليفة، وكان هو أول من أدخل إسم السلطان في الخطبة"، وحتى إذا لم تثبت صحة هذا الزعم^(١). فإن عمرا كان يتمتع على أية حال بدرجة من الاستقلال فاقت كثيرا ما كان يتمتع به الطاهريون. ويقول ابن خلكان إن خراسان لم تر منذ زمن طويل حاكما في كفاءة عمرو وحسن سياسته. أما فيما يتصل بسياسته المالية فإن كرديزى يقدم المعلومات الآتية التي استقاها فيما يغلب على الظن من (السلامى) كان لعمر ثلاث خزائن الأولى تضم الأموال المجموعة من خراج الأرض وغيرها من الضرائب، وكان يستعمل هذا المال فى القيام بأمر جيشه، أما الخزانة الثانية فكانت تضم الأموال المجموعة من الأملاك الخاصة بالأمير وكانت تصرف على متطلبات بلاطه، وأما الخزانة الثالثة فكانت تضم الأحداث (أى ربح الأرض المزروعة حديثا)، وما صودر من أملاك أتباعه الذين انضموا إلى صفوف عدوه، ومن هذه الخزانات الأخيرة كان يوزع الصلات على خدمه المخلصين وعلى الكبراء والسفراء^(٢). وفيما يتصل بمصادرة أملاك الغير فإن عمرا كان لا يلجأ كما يقول (كرديزى) إلى هذه الوسيلة إلا إذا وجد مبررا كافيا، ويروى لنا كرديزى عقب هذا كيف أن عمرا أتهم واحدا من كبار رجال دولته وهو محم بن بشر بأقسى التهم، ولكن لم يلبث أن أغضى عن اتهاماته هذه عندما فهم ذلك مقصود قوله فسلم جميع ممتلكاته للخزينة.

(١) راجع رواية نرشخى فيما يتعلق بالخطبة باسم يعقوب ثم من بعده باسم نصر ابن أحمد ببخارى. ولعل هذه الروايات ليست أهلا للثقة التامة. ويبدو جليا أن عمرا هو أول حاكم من حكام الشرق يسك النقود باسمه واسم أبيه وكما هو معلوم فإن العلاقة وثيقة بين السكة والخطبة فى الدول الإسلامية (بارتولد، تركستان، ص ٣٤٦، هـ ٢٨٣).

(٢) بارتولد، تركستان، ص ٣٤٦ - ٣٤٧.

وكان (الجيش) موضع عناية خاصة من عمرو، ويتسلم أرزاقه في كل ثلاثة أشهر وسط عرض مهيب، ويحفظ ابن خلكان وكرديزي. رابية لعرض كهذا استعراها من السلامي أيضا. وكان دفع أرزاق الجند يقع تحت إدارة موظف خاص هو (العارض) الذي كان يأخذ مجلسه في المكان المعين للعرض، وعندما يسمع صوت طبلين هائلين يتجمع الجيش بأكمله في ذلك الموضع، وتوضع أكياس الدراهم أمام العارض بينما يمسك معاونه بيده قائمة بأسماء الجند يتأديهم منها. وينادي المنادي أولا اسم عمرو بن الليث فيتفقد العارض دابته وألته بدقة، ثم يعرب عن رضاه ويدفع له ثلاثمائة درهم. فيضع النقود في خفه ويقول: "الحمد لله الذي وفقني لطاعة أمير المؤمنين حتى استوجبت منه الرزق" ثم يرجع عمرو فيأخذ مجلسه على صعيد من الأرض ليرقب فرسانه ورجاله يتقدمون بدورهم أمام العارض ليفحص دوابهم وآلاتهم ويسلمهم أرزاقهم. ولم يتكذب ابن خلكان الصواب عندما لاحظ شدة الشبه بين هذه العادة التي سار عليها عمرو بين وصف عرض الجيوش عند الساسانيين في عهد كسرى أنوشروان^(١)؛ ومن المستبعد أن يكون هذا التشابه من قبيل الإتفاق فحسب.

ولاية أبي الحسن طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث (٢٧٨-٢٩٦هـ):

وبعد أن أسر عمرو بن الليث وهزم جيشه رفع كبار قادة الجيش والدولة حفيده أبا الحسن طاهر بن محمد للإمارة، إلا أن فريقا من الجند انحاز إلى الليث بن علي بن الليث ابن أخ عمرو ويعقوب ولم يكن الأمر قد ثبت بعد للأمير الجديد، وظهر الاختلاف في الجيش نتيجة لذلك، وأمسك السبكري غلام يعقوب الذي مر ذكره قبل بأزمة الأمور بسبب عدم تقدم

(١) الطبري، نفسه، ح ١١، ص ٢٧١، بارتولد، نفسه، ص ٣٤٨.

طاهر وانكبابه على ملذات الشباب واستبد بالأمر. وفي عام (٢٨٩هـ) تقدم طاهر بن محمد برفقة الليث بن علي وعدد من القادة الآخرين من سجستان إلى فارس وترك أخاه يعقوب في نيابته بسجستان، وكان غرضه أن يستعيد فارس إلى الأسرة الصفارية وكانت قد آلت إلى الخليفة المعتضد بعد هزيمته عمرو.

وفي النهاية رضى الخليفة المكتفى فى عام (٢٩٠هـ) أن يفوض إمارة فارس لطاهر نظير خراج سنوى. وبعد أن عين طاهر عمالا من قبله على نواحي إقليم فارس ترك جميع أمورها تحت تصرف السبكرى وانشغل بالصيد واللهو واللعب. ورجع إلى سجستان فى سنة (٢٩١هـ) وجعل من محمد بن خلف بن الليث الذى كان من بنى أعمام أبى يعقوب وعمرو الصفار، رئيسا لكل كبار سجستان، وزوجه من أخته (بانو). وكان هذا الفعل مقدمة لظهور النزاع بين طاهر والسبكرى، لأن الثانى كان ينفس على محمد بن خلف ولم يكن يحب أن يتدخل فى أعمال الملك أحد غيره^(١).

وأتى طاهر بن محمد على رصيد الخزانة التى ظلت عامرة بعد عمرو بن الليث، بعد مدة قصيرة بسبب لهوه واسرافه وامتنع عماله من إرسال الخراج إلى سجستان خاصة السبكرى الذى تحرك وضبط كرمان وفارس، فاختلفت أمور سجستان كلية، ولم يمنع من زوال الدولة التى أقامها يعقوب وعمرو فى هذا الظرف غير كفاءة محمد بن خلف وحنكته.

وفي النهاية قدم طاهر فى عام (٢٩٢هـ) للاستيلاء على خراج فارس وكرمان، فأرسل السبكرى الذى كان غير راض عن قدومه من يعيده بمعسول الكلام، فعاد طاهر إلى سجستان وشغل نفسه مرة أخرى

(١) ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٤٤٠، عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ١٢٦.

بالهوى والصيد واللعب بالحمام، فانقض عنه كثير من كبار رجال الدولة فى عهد كل من يعقوب وعمرو وخلت منهم سجستان.

وفى سنة (٢٩٦ هـ) حينما اتجه طاهر إلى بست تقدم الليث بن على بن الليث والى كرمان ومكران إلى سجستان، وفشل يعقوب أخو طاهر فى أن يجلبه عنها برغم جهوده العديدة، ولما علم طاهر بعد عودته من بست أن أغلب كبار سجستان قد أخذوا جانب الليث وأن التغلب عليه ليس يسيرا، اصطحب أخاه وسلكا طريقهما إلى فارس على أمل استمداد السبكرى لهما فجلس الليث بن على أميرا فى مكانه^(١).

ولاية الليث بن على بن الليث (٢٩٦ - ٢٩٨ هـ):

سار طاهر ويعقوب إلى فارس معتقدين أن السبكرى حافظا لحق نعمتهما ونعمة عمرو ويعقوب قبلهما عليه، ولكن السبكرى كافر النعمة الذى تحالف قبل مع الخليفة المقتدر واستقطع منه فارس لنفسه، قبض على ابنى سيده وأرسلهما مقيدين إلى بغداد واستقل بفارس تماما. وفى عام (٢٩٧ هـ) هاجم الليث بن على السبكرى بفارس وأخرجها عنه، لكن الخليفة المقتدر سير مؤنسا الخادم من ناحية والحسين بن حمدان والى قم من ناحية أخرى لمساعدة السبكرى، وبعد مدة من القتال والجدال تغلب الاثنان على الليث بن على فى غرة المحرم من سنة (٢٩٨ هـ) وإستأثراه وأرسل به مؤنس إلى الخليفة المقتدر ببغداد.

(١) ابن خلدون، العبر، ج ٣، ص ٤٥٥.

ولاية أبي علي محمد بن علي بن الليث

(المحرم من ٢٩٨ حتى ذي الحجة من نفس السنة)

بعد أسر الليث بن علي بايع أهل سجستان أخاه أبا علي محمداً، وتآمر هذا الأمير في هذا الوقت وحسب علي سجستان والجزء الشرقي للبلاد الصفارية أي بست وكابل وغزنين (غزنة)، لأن خراسان كانت مع الأمير إسماعيل الساماني منذ أن هزم عمرا بن الليث، وكانت فارس وكرمان يديرهما السبكري أيضا باسم الخليفة المقتدر.

ولما بلغ المقتدر خبر جلوس أبي علي محمد، كتب إلى أحمد بن إسماعيل الساماني يأمره بمهاجمة سجستان وفتحها وضمها إلى ممتلكاته، فسير أحمد الساماني الحسين بن علي المرورودي قائداً على جيش إليها، وفتح الحسين بن علي بعد حرب شديدة مدينة زرنج فهرب أبو علي محمد منها إلى بست. وبعد فترة قدم الأمير الساماني مع (سيمجور) أحد غلمانه إلى سجستان وقبض على (معدل بن علي) أخى أبي علي محمد الذي كان لا يزال يقاوم في إحدى قلاع سجستان وأسر أحد قواد الأمير أحمد أبا علي أيضا في (بست). وهكذا خرجت سجستان عن أيدي الصفاريين واستقر في حكمها من سيمجور طرف الأمير أحمد الساماني في الثاني من ذي الحجة من (٢٩٨ هـ). ولما لم يستطع أو يرد السبكري أن يبعث بالجزية المقرر إرسالها سنويا إلى بغداد، سير المقتدر جيشا له فهزم السبكري وفر من شيراز إلى كرمان في عام (٢٩٩ هـ) ولما لم يكن يستطيع الظهور بسجستان عرج إلى هراة عن طريق صحراء لوط وسلم نفسه إلى الأمير أحمد. فسير هذا الأمير الذي لم يكن له هدف في

حياته إلا أن يكون خادما للخلفاء العباسيين بالسبكرى وأبى على محمد بن الليث إلى دار الخلافة للمقتدر وألقى الخليفة بهما فى حبسه^(١).

بقية الأمراء الصفاريون

بعد شهرين أسقط الأمير أحمد سيمجور عن ولاية سجستان وفوض ابن عمه أبا صالح منصور بن إسحاق لها. فأوقع أبو صالح وجنده بأهل سجستان اىذاء كثيرا خاصة بالخوارج منهم وكانوا أحرارا محبين للاستقلال، فأعلنوا عصيانهم لهذا الاستخفاف وثاروا فى عام (٣٠٠ هـ) على أبى صالح والسامانيين وقبضوا عليه وحبسوه فى قلعة (أرج) بسجستان وبايعوا ابن يعقوب بن محمد بن عمر بن الليث وكان عمره عشرة أعوام واسمه أبا حفص عمرو، فأمر أحمد السامانى الحسين بن على المرورودى مرة أخرى بفتح سجستان، فسيطر عليها بعد حصار استمر تسعة شهور وقبض على أبى حفص عمرو، فأمر أحمد السامانى الحسين بن على المرورودى مرة أخرى بفتح سجستان فسيطر عليها بعد حصار استمر تسعة شهور وقبض على أبى حفص عمر وأرسل به إلى بخارى.

ثم عين أحمد سيمجور ثانية أميرا على سجستان، وأمر أبا صالح على نيسابور. ومع أن سجستان من عام (٣٠٠ هـ) قد سيطر عليها السامانيون مرة أخرى، وكان ينصب لحكمها من طرفهم أو الخليفة فى بغداد حاكم بين الفينة والأخرى، إلا أن أهل سجستان الذين لم ينسوا ذكرى عهد يعقوب وعمرو أبدا وكانوا يتميزون من الغيظ لاستيلاء الأجانب على بلادهم، كانوا يقومون بالثورات على الولاة الأجانب كلما

(١) ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٤٥٦، عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ١٢٩.

سنت لهم الفرصة، كما حدث في المحرم من (٣١١ هـ) حين طردوا الوالى السامانى لسجستان وأمروا الأمير أبا جعفر أحمد بن محمد بن خلف بن الليث الذى سبق ذكره الذى كان أمه (باتو) ابنة محمد بن عمر بن الليث.

وقد كان الأمير أبو جعفر أحمد بن محمد هذا الذى حكم سجستان بين عامى ٣١١ هـ ، ٣٥٢ هـ، وكانت علاقاته بالأمرء السامانيين خاصة نصر بن أحمد ممدوح الرودى حسنة، وكان رجلا ذو كفاءة محنكا حكيما فاضلا، أمنت فى عهده سجستان وهدأت أمورها وتقاطر إليه الفضلاء والحكماء من الأطراف وألقوا باسمه الكتب.

وفى عام (٣٥٢ هـ) قتل الأمير أبا جعفر فى مجلس شرايه جماعة من غلمانه، فخلفه ابنه الأمير أبو أحمد خلف وأشرك هذا الأمير معه فى الحكم طاهرا بن على التميمى الذى ينتسب من ناحية أمه إلى على بن الليث أخى عمرو ويعقوب. وكان طاهر رجلا شجاعا كافيا عالما. قاتل أعداء خلف والأمرء السامانيين خاصة (ماكان بن كاكى) وانتصر فى غالب معاركه.

وعزم خلف فى عام (٣٥٣ هـ) المسير إلى بيت الله حاجبا، وأتاب طاهرا بن على فى حكمه لسجستان ولما عاد من الحج لم يدعه طاهر يدخل سجستان فلجأ خلف إلى منصور بن نوح السامانى ودخلها بعونه. وأخلى طاهر المدينة فلم يكن يطيق المقاومة واتجه إلى حدود هراة، لكنه هاجم سجستان بعد أن علم بتفرق جند خلف، فاستمد الأمير منصور ثابئة وعاد إلى مدينته. وفى هذا الوقت مات طاهر وترأس ابنه الحسين أتباع والده. وفى عاقبة الأمر استأمن الحسين منصورا السامانى واتجه إلى بخارى واستقر خلف على سجستان فى عام (٣٥٩ هـ).

وبعد مدة سلك خلف سبيل العصيان على منصور الساماني واستنكف أن يرسل المال والهدايا التي كان ملزما بإرسالها، فأرسل منصور جيشا إلى سجستان بقيادة الحسين بن طاهر لتأديب خلف. وحاصر الحسين قلعة (أرج) بسجستان نحو سبعة أعوام ولكنه لم ينجح في الظفر بخلف. وفي النهاية توسل منصور بأبي الحسن بن إبراهيم بن سيمجور القائد السابق لجيش خراسان وأمره بدفع خلف بسجستان، فطلب أبو الحسن السيمجوري وكان حائقا على منصور لعزله عن قيادة جيش خراسان ولصداقته لخلف سلميا من خلف أن يترك قلعة أرج للحسين ويذهب لقلعة أخرى، حتى يستطيع أن يبين للأمير الساماني أنه استولى على قلعة أرج هذا بعد تعب وشدة. ففعل كذلك وقام أبو الحسن السيمجوري بالصلح بينه وبين الحسين طاهرا وأخذ من كبار سجستان ومن الحسين بن طاهر رسائل فيها أنه سيطر على القلعة وتركها للحسين وأرسل بتلك الرسائل إلى بخارى. لكن خلفا بعد مدة قليلة أي في المحرم من عام (٣٧٣ هـ) هاجم الحسين، وبعد ستة شهور من الصراع تصالحا في رجب (٣٧٣ هـ) ولم يطل الوقت حتى توفي الحسين واستقل خلف بإمارة سجستان.

ظل خلف بن أحمد أميرا على سجستان حتى شهر صفر من عام (٣٩٣ هـ) وإن كان سلم في السنوات الثلاث الأخيرة إمارته للسلطان محمود الغزنوي بعد حرب بينهما كما سيلى في تاريخ الغزنويين. وأرسل محمود به إلى جوزجانان لكنه فهم بعد أنه تواضع سرا مع أيلك خان الأفراسيابي فأمر بحبسه ومات خلف في حبسه في عام (٣٩٩ هـ) وهو آخر أمير معروف من أمراء الصفاريين، لأن بعده ظهر بضعة نفر في سجستان بدعوى نسبتهم لهذه الأسرة ووصلوا إلى حكم سجستان

بمساعدة الملوك الآخرين، لكن لم يظهر من بينهم واحد له فى التاريخ اسم وعنوان معتبران ويجدر بالذكر.

كان الأمير خلف بن أحمد رجلا دنيويا محبا للأدب والشعر فاضلا، وقد ألف جماعة من علماء عصره باللغة العربية تفسيرا كبيرا للقرآن الكريم باسمه ومدحه شعراء مشهورون من مثل أبى الفتح على بن البستى^(١) وأبى منصور محمد بن عبد الملك الثعالبي النيسابورى صاحب كتابى يتيمة الدهر، وتتمة اليتيمة فى سير الشعراء الكبار المعاصرين له (ت ٢٩٦ هـ) وأبى الفضل أحمد بن الحسن بديع الزمان الهمدانى صاحب المقامات المشهورة، خاصة بديع الزمان الذى خلد خلفا بذكره خيره بمدائح^(٢).

(١) هو نظام الدين العميد أبو الفتح على بن محمد بن شعراء العهد الغزنوى، وكان صاحباً لديوان ناصر الدين سبكتكين، فلما غضب عليه محمود الغزنوى رحل عنه، وكان يلغى فى شعره ونثره العربى والفارسى، توفى بين عامى ٤٠١، ٤٠٣.
(٢) عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ١٣١-١٣٢.

أسماء الأمراء الصفاريين وزمن إمارة كل منهم

- ١ - أبو يوسف يعقوب بن الليث (٢٤٧ - ٢٦٥ هـ) ١٨ عاما
- ٢ - عمرو بن الليث أخوه (٢٦٥ - ٢٨٧ هـ) ٢٢ عاما
- ٣ - أبو الحسن طاهر بن محمد بن عمر بن الليث (٢٨٧ هـ - ٢٩٦ هـ) ٩ أعوام
- ٤ - الليث بن علي بن الليث (٢٩٦ هـ - المحرم من ٢٩٨ هـ) ٣ أعوام
- ٥ - أبو علي محمد بن علي بن الليث (من المحرم حتى ذى الحجة من ٢٩٨ هـ) ١٢ عاما واحدا
- (الحكام السامانيون من ذى الحجة ٢٩٨ حتى المحرم ٣١١ هـ) ١٢ عاما
- ٦ - أبو جعفر أحمد بن محمد بن خلف (٣١١ - ٣٥٢ هـ) ٤١ عاما
- ٧ - أبو أحمد خلف بن أحمد (٣٥٢ - ٣٩٣ هـ) ٤١ عاما
- ١٤٦ عاما

الفصل الرابع

الدولة السامانية

(٢٦١-٣٨٩هـ / ٨٧٤-٩٩٩م)

- تقديم.
- بلاد ماوراء النهر (عرض جغرافى).
- بلاد ماوراء النهر قبل قيام الدولة السامانية.
- الأسرة السامانية.
- إتصال آل سامان بالدولة الإسلامية.
- قيام الدولة السامانية:
- (ولاية نصر بن أحمد السامانى لبلاد ماوراء النهر).
- تدعيم دولة نصر بن أحمد السامانى.
- الصراع على السلطة (نزاع الأخوين نصر وإسماعيل).
- إتساع الدولة السامانية:
- (ولاية إسماعيل بن أحمد السامانى (٢٧٩-٢٩٥هـ).
- جهاد إسماعيل السامانى وعلاقته بالعباسيين.
- ولاية أحمد بن إسماعيل وإبنة نصر (٢٩٥-٣٣١هـ).
- فتوح الأمير نصر وعلاقاته الخارجية.
- ولاية نوح بن نصر (٣٣١-٣٤٣هـ).
- ولاية عبد الملك ومنصور إبن نوح (٣٤٣-٣٦٦هـ).
- ولاية أبى القاسم نوح بن منصور (٣٦٦-٣٨٧هـ).
- زوال الدولة السامانية.

الفصل الرابع

الدولة السامانية

(٢٦١ - ٣٨٩ هـ / ٨٧٤ - ٩٩٩ م)

تقديم:

كانت هذه الدولة من أقوى الدول الإسلامية المستقلة عن الدولة العباسية في المشرق. فقد استمر حكمها قرابة قرن وربع (١٢٨ عام) بين عامي (٢٦١ - ٣٨٩ هـ / ٨٧٤ - ٩٩٩ م) ولقد قامت هذه الدولة في منطقة تسمى (بلاد ما وراء النهر)، واتخذت من (بخارى) عاصمة لها، ولكنها ما لبثت أن امتدت إلى المنطقة الإيرانية (فارس)؛ فسيطرت سلطانها على بلاد خراسان، كما ضمت إلى حوزتها طبرستان، والري، والجبل، وبلاد سجستان، واستجابت لتيار الحركة الاستقلالية والقومية الفارسية، وربما كان تعبيرها عن الحركة الفارسية القومية أكثر ظهوراً ووضوحاً مما رأيناه عند الدول المستقلة الأخرى. ويجدر بنا قبل أن نتعرض لتاريخ الدولة السامانية، أن نتحدث عند إقليم ما وراء النهر ونقف عند مدنه الكبرى كمدينة سمرقند وبخارى.

بلاد ما وراء النهر:

هي كما يذكر أبو زيد البلخي (ت ٣٢٢ هـ / ٩٣٣ م) إقليما من ثلاثة أقاليم يتكون منها إقليم الشرق. ذلك الإقليم الذي جعله (المقدسي) منطقة واحدة ذات جانبيين، يفصل بينهما (نهر جيحون). واستند في ذلك إلى أن المغرب كان قطعتين، واليمن كان جهتين. ولقد عمر هذا الإقليم (الشرق) أخوان هما (هيطل وخراسان) إبنا علام بن سام بن نوح عليه

السلام^(١). وتعريف (ما وراء النهر) يكتفه الغموض؛ فهذا التعريف العربي يقصد به البلاد الواقعة عبر النهر، أى فيما وراء نهر جيحون (أمودريا Amu - Darya) وعند شاطئه الأيمن^(٢). ولم تكن هذه المنطقة وفقا لمفهوم الجغرافيين المسلمين تدخل ضمن تركستان، لأن هذا الاسم الأخير إنما كان يقصد به بلاد الترك عامة، وهى الأصقاع المترامية الأطراف التى تمتد بين بلاد الإسلام والصين، والتى كان يقطنها البدو الرحل من الترك والمغول. ورغمما من هذا، فإن بلاد ما وراء النهر قد خضعت فى معظم الوقت لسيادة القبائل التركية، حيث لا توجد عوانق طبيعية تمنع من ذلك. ولهذا فإن (عبد العزيز جنكيزخان) يعتبر بلاد ما وراء النهر جزءا هاما من بلاد تركستان^(٣) ولما كانت الحدود عرضة للانتهاك من طرف أو آخر، فعند التحديد كما يذكر (فامبرى) يتغير المدلول السابق، ويستند فى ذلك على أن البلخى - صاحب أقدم مخطوط جغرافى عربى - يدخل عنده تحت هذا التعريف (ما وراء النهر) قسما من الشاطيء الأيسر بحوض النهر الأعلى. وهو وضع سليم لا شبهة فيه من ناحية الحدود السياسية للإقليم، ذلك أنه منذ عهد السامانيين كانت مناطق (الطالقان، وطخارستان، وزم) تعتبر أجزاء مكملة لبخارى، برغم وقوع أقسام منها، أو وقوعها كلها على الشاطيء الأيسر لنهر جيحون. ويؤكد (فامبرى) أن السامانيين وهم أصلا من أبناء هذا الجزء من خراسان - كما سترى - حينما استولوا على بلاد ما وراء النهر، جعلوا من إمارتهم ومن

(١) المقدسى، أحسن التقاسيم، ص ٣١٠، لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٧٦.

(٢) القزوينى، آثار البلاد، ص ٥٥٧.

(٣) عبد العزيز جنكيزخان، تركستان قلب آسيا، الجمعية الخيرية التركستانية، ١٩٤٥،

البلاد التي استولوا عليها ملكا موحدا، وبقي الحال هكذا حتى سقوط دولتهم^(١).

ويذكر (فامبرى) أن الحدود السياسية لبلاد ما وراء النهر، يرسمها خط يمتد في اتجاه جيحون عند خط عرض ٧١ وخط طول ٣٥، أى من (بدخشان) حتى شاطيء مرغاب الأيسر، وهى أرض كانت تضم فى القديم عدة دولايات هى (ختلان، وأوجان، وطخارستان وقصبتها بلخ، وزم، وأمل). غير أن تحديد التخوم الشمالية لبلاد ما وراء النهر كان أمراً صعباً للغاية، مما يجعل الاعتماد على تقويم البلدان فى رسم حدود هذا الإقليم أمر يكتنفه الغموض، ويصعب تحديده بدقة. ولذلك يرى (فامبرى) أنه يمكن أن نعبر عن مفهوم إقليم ما وراء النهر بلفظ واحد هو (بخارى) ويعطى ذلك بأن شواطيء زرفشان وكافة المنطقة الممتدة جنوباً حتى جيحون، وشمالاً حتى صحراء (قزل قم)، إنما تمثل الأجزاء الوحيدة من المنطقة التي كانت على الدوام قسماً من إقليم ما وراء النهر الأصلي الموحد منذ فجر التاريخ^(٢) وهذا ما يؤكد رأى (عبد العزيز جنكيزخان) من أن هذه البلاد تمثل جزءاً من بلاد تركستان، فهو يذكر أنه يوجد بتركستان صحارى واسعة شاسعة، مثل صحراء قزىل قوم، وصحراء آق قوم. ويذكر أن هذه الصحارى رغم أنها غير مأهولة بالسكان، فإنها مستودع لكنوز حافلة بالآثار والتحف القديمة.^(٣)

ويعرف الجانب الأيمن من نهر جيحون (ما وراء النهر) عند المقدسى، بجانب (هَيْطَل)، ويصفه بأنه من "أخصب بلاد الله، وأكثرها

(١) فامبرى، تاريخ بخارى، ص ٢١ - ٢٢، بارتولد، تركستان، ص ١٤٥.

(٢) فامبرى، تاريخ بخارى، ص ٢٢ - ٢٥.

(٣) عبد العزيز جنكيزخان، تركستان قلب آسيا، ص ١٥.

خيراً وفقها وعمارة، ورغبة في العلم، واستقامة في الدين، وأشد بأساً، وأغلظ رقاباً، وأدوم جهاداً، واسلم صدوراً، وأرغب في الجماعات، مع يسار وعفة ومعروف وضيافة وتعظيم لمن يفهم. وعلى الجملة الإسلام به طرى، والسلطان قوى، والعدل ظاهر، والفقير ماهر، والغنى سالم، والمحترف عالم، والفقير غاتم، قل ما يقحطون، منابره أكثر من أن توصف، ونواحيه أوسع من أن تنعت^(١). ولقد قسم المقدسى هذا الجانب إلى ست كور هي من الشرق (فرغانة، ثم إسبجباب، ثم الشاش، ثم أشروسنة، ثم الصغد، ثم بخارى). فأما فرغانة، فإنها كورة تشتمل على بلاد كثيرة بعد ما وراء النهر، وهي متاخمة لبلاد الترك، أهلها من أتم الناس أمانة وديانة، وهم على مذهب أبى حنيفة، وبها أربعين منبراً، وكانت ذات خيرات وغللات وثمرات كثيرة، وقصبتها مدينة (أخسيكت)، وتشتهر بثروتها المعدنية. وأما إسبجباب، فهي على تخوم الإقليم المعتدلة، وقصبتها على اسمها، ومنها الترك الغزية. وأما الشاش، فهي خلفهما، وقصبتها (بنكث)، وهي وراء (نهر سيحون) سيردريا - Sir Darya، متاخمة لبلاد الترك وهي أكبر ثغر في وجههم، وكانت من أنزه بلاد الله وأكثرها خيراً، وكانت معظم دورهم يجرى فيها الماء، وكلها مستترة بالخضرة. وهناك كذلك أشروسنة، وكبرى مدنها وقصبتها هي (بونجكت)، وبلغ عدد سكانها في القرن الرابع الهجرى عشرة آلاف، ومن مدن أشروسنة أيضاً زامين، وديزك (جيزك)، ولقد تعرضت للثقافة العربية بدرجة أقل من باقى المدن فيما وراء النهر، ولذلك كان من

(١) المقدسى، أحسن التقاسيم، ص ٣١١، وانظر أيضاً: القزوينى، نفسه، ص ٥٥٧ -

الطبيعي أن تحتفظ لمدة أطول بسمات المجتمع الأرستقراطي الآري القديم وكان بها ما يقرب من أربعمئة حصن^(١).

وأما إقليم الصغد، فهو صغديانا القديمة Sogdiana وكان يشمل الأراضي الخصبة في ما بين نهري جيحون وسيحون، وقصبته (سمرقند)، والصغد مدينة مشهورة بما وراء النهر، وأول من أسسها كيكائوس بن كيقباز، وليس على وجه الأرض مدينة أطيب ولا أتزه ولا أحسن منها. وقد أطلق عليها الإمام أنس بن مالك اسم (المدينة المحفوظة) استنادا إلى قول النبي محمد صلى الله عليه وسلم التي سماها (المحفوظة) التي لها أبواب، وعلى كل باب خمسة آلاف ملك يحفظونها، ومما قاله الرسول عنها أيضا "وخلف المدينة روضة من رياض الجنة، وخارج المدينة ماء طو عزب من شرب منه شرب من ماء الجنة، ومن اغتسل به خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، ومن تعبد فيها ليلة يقبل منه عبادة ستين سنة، ومن صام فيها يوما فكأنما صام الدهر، ومن أطعم فيها مسكينا لا يدخل الفقر منزله أبدا"^(٢). وكان الصغد، بحسب إحدى جنان الدنيا الأربع، وقد بلغ أوج ازدهاره في النصف الأخير من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) في أيام الأمراء السامانيين ومع ذلك ظل هذا الإقليم في المنية التالية، في خصب ويسار لا نظير لهما^(٣). ولمدينة ما قد ذكر (المقدسي) اثنا عشر رستاقا، ستة جنوبي النهر، وستة في شمالها. ولقد ظلت سمرقند

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٣١٢ - ٣١٦، القزويني، أثار البلاد، ص ٢٣٥ -

٢٣٦، ٥٣٨، ولقد وصف بارتولد هذه المناطق وأسهب في ذلك جدا: راجع: تركستان، صفحات متفرقة، لسترنج، بلدان الخلافة، ص ٥١٧ وما بعدها.

(٢) القزويني، أثار البلاد، ص ٥٣٥، وعن فتح المسلمين لسمرقند على أيدي قتيبة

ابن مسلم أنظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤١٠-٤١١.

(٣) لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٥٠٣-٥٠٤.

من حيث الرقعة وعدد السكان (١٣٤,٣٤٦ نسمة) أولى مدن ما وراء
النهر قاطبة، حتى فى تلك العهود التى كانت فيها بخارى عاصمة للبلاد
كما حدث فى عهد (آل سامان). ويذكر (بارتولد) أن تلك المكانة التى نالتها
سمرقند، إنما ترجع قبل كل شىء إلى موقعها الجغرافى الفريد عند ملتقى
الطرق التجارية الكبرى القادمة من الهند مارّة ببليخ، ومن فارس مارّة
بمرو، ومن أراضى الترك. كما أنها امتازت عن المنطقة المحيطة بها
بالخصوبة، مما جعل من الميسور لعددها من السكان أن يقطنوها. غير أن
سمرقند لم تتل شهرتها ولا امتدادها الواسع إلا فى عهد السامانيين، وأقدم
وصف لسمرقند الإسلامية ندين به (الابن الفقيه الهمداني)، فهو يذكر أن
سمرقند وضواحيها كان يحيط بها سور طوله اثنا عشر فرسخا وبه اثنا
عشر بابا، وكان جامعها والقلعة وقصر الإمارة بقلب المدينة، والقلعة
بابان من الحديد، وهى بذلك تختلف عن مدن كثيرة كبخارى مثلا، حيث
تقع القلعة بداخل المدينة وليس بخارجها، وهى فى ذلك مثل عاصمة
أشروسنة.

ويذكر (الطبرى) أن أبا مسلم هو الذى شيد السور الخارجى
للمدينة، مما مكن الثائر (رافع بن الليث) عندما حصره القائد (هرثمة بن
عينه)، أن يحتمى بداخل المدينة، واعتصم بها عاما كاملا. وكان لقلب
مدينة سمرقند (الشهرستان) مثل سائر الشهرستانان أربعة أبواب، وفى
ناحية الشرق يقوم (باب الصين)، وباب النوبها أو باب الحديد، أما فى
الشمال فيوجد (باب بخارى) أو أشروسنة، وجنوبا يقع باب كش أو الباب
الكبير. ولقد نعمت المدينة بازدهار كبير فى زراعة البساتين، بفضل
التطور الكبير فى الرى الصناعى، وكانت شوارعها فيما عدا القليل
مرصوفة بالحجارة، أما مبانيها فكانت فى معظمها مشيدة من الطين

والخشب. وكان يوجد بالمدينة والربض أكثر من ألفى موضع يمكن أن يستقى منها الناس الماء المثلج وبالمجان مما يصرف عليه أهل الخير. وكان يوجد تماثيل للحيوان منصوبة في الميادين العامة بسمرقند رغم من مخالفة ذلك لتعاليم الإسلام كما يذكر (ابن حوقل). ومن بين المشاهد والمزارات بالمدينة احتل مكان الصدارة قبر (قثم بن العباس) ت ٥٦ هـ / ٦٧٦ م، وقد أصبح قبره مزاراً للتبرك به، حيث أنه من أقارب الرسول صلى الله عليه وسلم^(١).

ومن مدن سمرقند كما يذكر (ابن خرداذبه) الدبوسية، وأربنجن، وكشانية، واشتيخن، إكس، ونسف، وخجندة^(٢). وإن كان بارتولد مستندا على المقدسى يذكر أن مقاطعتا (أشتيخن وكشانية) اللتان كانتا في الشمال الغربي من سمرقند، كانتا تكونان وحدة إدارية قائمة بذاتها، ولذا فلم تحسباً ضمن رسائيق سمرقند. وفي القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري كانت مدينة (أشتيخن) مدينة مرموقة مكونة من شهرستان وقلعة وربض. وبعد دخول الإسلام إلى هذه المناطق، كان خراج أسواقها وقرى أخرى يذهب إلى القائد عجيف بن عنبسه الذي استصفى الخليفة المعتصم العباسي أملاكه، ثم أقطعها الخليفة المعتمد لمحمد بن طاهر حاكم خراسان. أما مقاطعة (كشانية) فكانت أكثر مدن (الصغد) عمراناً بعد سمرقند، لذا فقد أطلق عليها (الإصطخرى) (قلب صغد). أما الطريق التي كانت تصل بين المدينتين الرئيسيتين لبلاد ما وراء النهر وهما سمرقند وبخارى، والتي كانت تعرف باسم (الطريق الملكي) فكانت على الدوام ذات

(١) ابن حوقل، نفسه، ص ٤٠٦، المقدسى، نفسه، ص ٣٦٦، ٣٧٨، ياقوت، معجم البلدان، ج ٣، ص ١٣٤، بارتولد، تركستان، ص ١٧٠ - ١٨٥، لسترنج، نفسه، ص ٥٠٧.

(٢) ابن خرداذبه، المسالك، ص ٥٥، ابن حوقل، نفسه، ص ٤١١-٤١٣.

أهمية كبرى. وكان يعد من سمرقند إلى بخارى سبعة وثلاثون أو ستة وثلاثون فرسخا، وست أو سبع مراحل^(١).

بخارى:

وأما بخارى فإنها كورة عظيمة مشهورة بما وراء النهر، وهي غير واسعة الرقعة، إلا أنها عامرة حسنة وهي على النقيض من سمرقند، شغلت على الدوام موقعها الحالي، بل ويمكن القول بأن خطط المدينة لم تتغير كثيراً خلال ألف عام، على الرغم مما تعرضت له مرات عديدة من نهب وتخريب على أيدي الغزاة من الرُحُل. ولها من المدن: (كرمينية، وطواويس، وبمجت، ووردانة، وبيكند "مدينة التجار" وفربر). ويدور على خمس من مدنها حائط سعته اثنا عشر فرسخا في مثله، ليس فيه أرض بائرة، ولا ضيعة عطلة، وهي كما يذكر (القزويني) أحد متزهات الدنيا، وقصبتها (موجكت). وعلى عهد السامانيين كانت المدينة تنقسم إلى قلعة وشهرستان (القلب) وريض، وكان الشهرستان يقع على مقربة من القلعة، وكلاهما على نشز من الأرض حتى تعذر رفع الماء إليهما كما يذكر (الإصطخري). ولقلعتها بابان، أحدهما باب الريكستان في الغرب، والآخر باب المسجد في الشرق. وكان بداخل القلعة وفقا لرواية (الإصطخري) قلعة أخرى كانت مسكنا للحكام من آل سامان. والمقصود بهذه القلعة الداخلية كما يذكر (النرشخي) هو القصر (كاخ)^(٢).

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٣٦٦ - ٣٧٨، ٣٧٩، القزويني، نفسه، ص ٥١٠، بارتولد، تركستان، ص ١٨٧ - ١٨٨.
(٢) ابن خردادبة، المسالك، ص ٥٤، ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٩٨ - ٣٩٩، المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٣٦٦، ٣٦٧، بارتولد، تركستان، ص ١٩٠ - ٢٠٠، لسترنج، بلدان الخلافة، ص ٥٠٤.

ولقد كانت بخارى عند فتح العرب لها تتكون من الشهرستان فحسب، وكانت حدود المدينة القديمة يمثلها سور آخر كان به أحد عشر بابا، وفيما يتعلق بأحياء المدينة وشوارعها وأبنيتها في العصور الوسطى، فإن (قتيبة بن مسلم) فاتح بلاد ماوراء النهر قد وزع الشهرستان بين العرب فأقطع الناحية الممتدة من باب السوق إلى باب الحديد لقبيلتي مضر وربيعه، أما ما تبقى فأقطعه لليمانية. (١) وقد حولت بيعة النصارى الموجودة بالمدينة إلى مسجد (بنى حنظلة). وفي القرن الثامن الميلادي / الثاني الهجري، موضع آخر من المدينة نال شهرة كبيرة، كان أغنياء التجار الأجانب قد التجأوا إليه، عقب إستيلاء قتيبة على المدينة، وكان يطلق عليه (كشكشان)، وقد ترك هؤلاء التجار بيوتهم للفاتحين العرب، وشيدوا لأنفسهم في موضع آخر سبعمائة قصر أحاطوها بالبساتين، حتى تجاوز عدد سكان هذه المدينة الجديدة سكان المدينة القديمة.

ومن أشهر الأبنية الإسلامية ببخارى المسجد الجامع، وكان أول مسجد هو المسجد الذي شيده قتيبة بن مسلم في عام ٧١٣هـ / ٧١٣م، بالقلعة على أنقاض معبد للبوذيين، ثم شيد مسجدا بين القلعة والشهرستان بناه الفضل بين يحيى البرمكي، وتم توسيعه على يد الأمير إسماعيل الساماني، ويجوار هذا المسجد كان يفوم مصنع النسيج الرئيسي بالمدينة، وبناء آخر شيده الأمير نوح بن نصر الساماني قريبا من قصر أمير خراسان، ويقع في الجزء الجنوبي الغربي من الشهرستان. (٢)

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٠٤، عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية، ج ٢، ص ٢٢٤.
(٢) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٩٩، بارتولد، تركستان، ص ٢٠٠ - ٢٠٣.

ولم يمكن عدد القصور الملكية التي شيّدت ببخارى قليلاً، فقد
إبتنى الأمير اسماعيل الساماني لنفسه قصرًا بمحلة (جوى موليان)
(مجرى الموالى) القريبة من القلعة والريكستان. وقد إبتنى هذا الأمير
دوراً لغلمانه - حرسه - وأوقف عليهم الشطر الأكبر من ريع هذه
الأراضي. وهناك قصر آخر شيّده الأمير نصر الساماني بالريكستان،
وكانت تقوم إلى جواره دواوين الحكومة. كما إبتنى الأمير المنصور
الساماني قصرًا قرب الباب الجديد. وقد اشتهرت بخارى بسعة شوارعها
فإن بخارى كانت منذ القدم شديدة الزحام بالنسبة لكثافة سكانها، التي
كانت مرصوفة بالحجارة، ورغم سعة شوارعها فإن بخارى كانت منذ
القدم شديدة الزحام بالنسبة لكثافة سكانها، وكان هذا العيب كما يذكر
(بارتولد) ملحوظاً في بخارى أكثر من غيرها من مدن السامانيين. لهذا
فقد كثر بها الحريق كما يذكر (المقدسى). ويذكر (النرشخي) أنه قد وقع
بها حريقين هائلين في عهد الأمير نصر الساماني عامي (٣١٧، ٣٢٥هـ/
٩٢٩، ٩٣٧م)، وكان الحريق الثاني عنيفاً بصورة كبيرة إمتد إلى قسم
كبير من المدينة وأتى على عدد من الأسواق، ولعل ضيق المساكن
وإزدحام السكان يفسران بعض الجوانب المذمومة لقصبة بخارى
(نموجكث) التي شابتهت (الفسطاط) في العفن وسواد الطين، وسعة
الأسواق، وشاكلت (دمشق) في البنيان والسواد وضيق البيوت وكثرة
الأجنحة. ومدينتها في غاية العمارة لها سبعة أبواب، وكل مساجدها بهية
وأسواقها نفيسة. ولقد أشاد الرحالة العرب بذكر بساتين بخارى الفسيحة،
وماكان يزينها من أشجار الفاكهة القليلة بعددها الممتازة بثمارها مثل
(البرقوق) الذي تضيع شهرته منذ ألف عام حتى اليوم، فهو أفخر ثمر من
نوعه بآسيا. كما كانت بخارى سوقاً رئيسياً تلتقى فيها تجارة الصين

وآسيا الغربية، فضلا عما كان بها من مصانع كبيرة للحريز والديباج والمنسوجات القطنية وأجود أنواع الأبسطة والمصنوعات الفضية والذهبية. كذلك كانت (بخارى) مركزا مهما للصيرفة يستبدل فيها سكان آسيا سكتهم بواسطة أهلها، حتى لتسمع هناك المثل القديم " أشد يقظة من سمسار بخارى".^(١)

ومن مدن بخارى (طواويس) (توانس) على مسافة سبعة فراسخ إلى الشمال الشرقي من بخارى في طريق سمرقند، وكانت داخل السور الذى يحيط ببخارى وضواحيها وهى أعظم المدن الخمس التى كانت فى داخل السور. وكانت تعرف قبل الفتح الإسلامى باسم (كوت) (بالتركية السعيد، أو الحظ الحسن) وسميت بطواويس فى عام ٧١٠هـ / ٧١٠م، فيها ولأول مرة شاهد العرب الطواويس التى كان يقطنها أغنياء البلد ويحفظونها فى منازلهم، أو كانت مطلوقة فى القرية على حد قول الطبرى. وهى مدينة جليلة وكانت موقعا حصينا، وتشتهر بسوقها السنوى الذى كان يقام لعشرة أيام كل عام، ويتردد عليه عشرة آلاف زائر. وفى هذه السوق كان يجتمع التجار من مختلف نواحي بلاد ماوراء النهر، وكانت هذه السوق مصدر ثروة للسكان الذين لم يحفلوا كثيرا بالزراعة ووجد بطواويس هذه مسجدا جامعا، أما قلعتها فقد حل بها الخراب منذ نهاية القرن العاشر الميلادى / الرابع الهجرى كما يذكر المقدسى. وهناك أيضا مدينة (زندنة) أو زندين، وتعرف اليوم باسم زندانى، وتقع شمال بخارى، وهى كثيرة الضياع وكان يزرع بها القطن، وكانت منسوجاتها

(١) المقدسى، أحسن التقاسيم، ص ٢٨٠-٢٨١، فامبرى، تاريخ بخارى، ص ٢٥،

بارتولد، تركستان، ص ٢٠٣-٢١٠.

القطنية تصدر إلى كل مناطق آسيا الغربية، وسورها يحيط بها، وبداخلها الجامع، وربطها عامر. (١)

وفى الجنوب تقع (بيكند) ثانى مدن بخارى التجارية، وهى على مبعده خمسة فراسخ من بخارى، وهى أيضا أقدم من بخارى وكانت تسمى (مدينة الصفر) أو (مدينة التجار) وكان لها تجارات مع الصين شرقا، ونواحي شاطى بحر قزوين وكان قتيبة بن مسلم قد فتحها عنوة بعد قتال شديد دام نحو شهرين فى عام ٨٧ هـ / ٦٠٦ م (٢)، وكان لكل قرية من قرى بخارى رباطا (منزل للجند أو القوافل) عند باب بيكند، حتى بلغ عددها نحو ألف رباط، وكان ينزل بهذه الرباطات وحدات من العسكر لدفع غارات الترك، وكان يحيط ببيكند سور حصين، وكانت قضبتها داخل الحصن (السور) وكان للمدينة سوقان أحدهما فى القصبة والآخر فى الربض. وإشتهر مسجد بيكند الجامع بمحرابه المذهب والمرصع بالأحجار الكريمة، ففاق بزينته ونقوشه جميع محاريب ماوراء النهر. وقد ازدهرت هذه المدينة فى عهد السامانيين، غير أنها تدهورت شأنها فى هذا شأن كثير غيرها، عقب سقوط هذه الدولة. (٣) ومن النواحي المشهور ببخارى (دبوسية) و (كرمينية) التى فتحها قتيبة بن مسلم فى عام ٨٨ هـ / ٧٠٧ م، وتقع فى الإقليم الأوسط بين بخارى وسمرقند، وبينها وبين بخارى ١٤ (أو ١٨) فرسخا وتشتهر بهذا الإسم منذ أيام الفتح الإسلامى. وهى تقع فى بقعة خصبة، وقد ذاع صيتها فى العصر الإسلامى. ووفقا لرواية (النرشخى) فإن هذه المدينة كانت تسمى فى الأصل (بادبة خردك) أى

(١) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٤٠٣، المقدسى، أحسن التقاسيم، ص ٢٨١،

لسترنج، نفس المرجع، ص ٥٠٥.

(٢) البلاذرى، فتوح البلدان، ص ٤٠٩-٤١٠، ماجد، نفس المرجع، ح ٢، ص ٢٢٤.

(٣) المقدسى، أحسن التقاسيم، ص ٢٨١-٢٨٢، فامبرى، تاريخ بخارى، ص ٢٦،

بارتولد، تركستان، ص ١٩١، ٢١٧-٢١٨، لسترنج، بلدان الخلافة، ص ٥٠٦.

(الجرة الصغيرة) ، ويذكر (السمعاني) أن المدينة أخذت إسمها من العرب الذين وجدوا المنطقة المحيطة بالمدينة (كارمينية) أى أشبه ماتكون بأرمينيا فى خصب تربتها وكثرة مياهها، فسميت (كارمينية). وعلى مبعده فرسخ أو فرسخين كما يذكر (السمعاني) إلى الشرق من كارمينية كانت تقوم قرية (خديمنكن) التى إختصت فى (ق ٦ هـ / ق ١٢ م) "بأهل الحديث" أى الشافعية. وكان بها مسجدا جامعاً. (١)

وهناك أيضا (أفشنة) وهى من ضياع بخارى، وقد بنى بها (قتيبة بن مسلم) مسجدا جامعاً، وبها ولد الطبيب الأشهر ابن سينا، وأفشنة تقع غرب بخارى وهى كثيرة الغزاة، واسعة العمل. (٢) ومن نواحيها أيضا (كش) وهى بلدة كبيرة، وكانت تعرف باسم (شهرسبز) أى المدينة الخضراء، وبها شهرستان وربض، وتتصل بها مدينة أخرى متصلة بالربض الداخلة والخارجة عامرة، ودار الامارة خارج المدينة، والجامع فى المدينة الخربة والأسواق فى الربض. وجعلها القزوينى قريبة من سمرقند، وقال عنها الإصطخرى: أنها ثلاثة فراسخ فى مثلها، وهى خصبة التربة تدرك بها الثمار أسرع من سائر بلاد ماوراء النهر، غير أنها وبينة وعمارته حسنة وبنائهم طين وخشب مثل بخارى، وبها نهران كبيران (نهر القصارين ونهر أسرود) يجريان على باب المدينة. وفى عامة دورها الماء الجارى والبستان. وتشتهر جبالها بالعقاقير الكثيرة. (٣)

(١) البلاذرى ، نفسه، ص ٤١٠ ، (ابن حوقل، نفسه ، ص ٤٠٣ ، بارتولد، تركستان، ص ١٨٩-١٩٠ ، لسترنج، نفسه، ص ٥١١ .
(٢) المقدسى، نفسه ، ص ٢٨٢ ، القزوينى، آثار البلاد، ص ٢٩٩ .
(٣) الإصطخرى، ص ٣٢٤ ، ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٩٤ ، المقدسى، نفسه ، ص ٢٨٢ ، القزوينى، نفسه، ص ٥٥٤ .

وهناك كذلك (الصغانيان) وهي شديدة العمارة كثيرة الخيرات. وقصبتها على اسمها. مشارب أهلها من أنهار فرعية من نهر جيحون، وهي تتصل بنواحي (ترمذ) وبها (ستة عشر ألف قرية)، وتخرج نحو عشرة آلاف مقاتل بنفقاتهم ودوابهم، إذا خرج على السلطان خارجي، وأسواقها مغطاة، وجامعها وسط السوق وأهلها أهل جماعة وسنة، يحبون الغريب والصالحين، إلا أنها قليلة العلماء خالية من الفقهاء، واشتهرت كش بأنها مسقط رأس (تيمورلنك) الذي جددها في أواخر ق ٨/٤م، ويجاور كش الجبال التي يستخرج منها الملح "وبها يسقط المن المسمى الترنجبين والعقاير الكثيرة" وكانت تحمل إلى كثير من آفاق خراسان^(١). وهناك غير ماتقدم من نواحي بخارى الكثير مثل (رياميثن) وهي بخارى القديمة، و(برخشي) و(زرميثن) و(وخسون) و(نسف). وهناك كما يذكر (النرشخي) عدة قرى ذات أهمية لتاريخ بخارى في عهد السامانيين مثل (نور) وهي (نورآتا) الحالية، وتقع شمال شرق بخارى على مقربة من التلال. وكان بها مسجدا جامعاً وعددا كبيرا من الرباطات، واشتهرت بمزاراتها ومشاهدها التي كان يؤمها الناس. ونظرا لوقوعها على الحد الفاصل بين الأرض المزروعة والمفازة، فإن هذه القرية كانت ذات قيمة استراتيجية لاتنكر، وقد ورد ذكرها كقلعة في تاريخ نضال آخر السامانيين ضد أعدائه. و(بركد) وهي قرية قديمة ذات قلعة عتيقة اشتراها الأمير أسماعيل الساماني، وأوقف ريعها على أهل بيت علي، ولمساكين بخارى، ولورثته هو. وأخيرا ووفقا لكلام المقدسي فقد وجد عدد من القرى الكبيرة في نواحي بخارى "لايعوزها من رسوم المدن وآلاتها إلا

(١) الإصطخري، ص ٣٢٤، ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٩٤، المقدسي، نفسه، ص ٢٨٢، لسترنج، نفسه، ص ٥١٢-٥١٣.

الجامع، لأن الأمير ببخارى والمقدم عند السلطان والمتمثل رأية أصحاب
أبى حنيفة. وعندنا لاجمعة ولاتشريف غلا فى مصر جامع يقام فيه
الحدود، وكم تعب أهل بيكند حتى وضعوا المنبر". ولقد أورد (بارتولد)
نقلا عن معجم السمعانى وياقوت الحموى قرى كثيرة، لم يرد ذكرها عند
باقى الجغرافيين. (١)

وصفوة القول عن بخارى وسمرقند قاعدتى بلاد ماوراء النهر
مارواه (حذيفة بن اليمان) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: ستفتح
مدينة خلف نهر يقال له جيحون، يقال لها بخارى، محفوفة بالرحمة
ملفوفة بالملائكة، منصور أهلها، النائم فيها على الفرش كالشاهر سيفه
فى سبيل الله. وخلفها مدينة يقال لها سمرقند، فيها عين من عيون الجنة،
وقبر من قبور الأنبياء، وروضة من رياض الجنة، يحشر موتاهم يوم
القيامة مع الشهداء. وفى الحديث: أن جبريل عليه السلام ذكر مدينة يقال
لها (فاخرة) وهى بخارى، فقال صلى الله عليه وسلم: لم سميت فاخرة؟
فقال: لأنها تفخر يوم القيامة على المدن بكثرة شهدائها. ثم دعا لها قائلا:
اللهم بارك فى فاخرة، وطهر قلوبهم بالتقوى، وإجعلهم رحماء على أمتى،
فلهذا يقال: ليس على وجه الأرض أرحم للغرباء منهم. (٢)

(١) المقدسى، أحسن التقاسيم، ص ٢٨٢، بارتولد، تركستان، ص ٢١٨-٢٣٧.

(٢) القزوينى، آثار البلاد، ص ٥١٠.

بلاد ما وراء النهر قبل قيام الدولة السامانية:

بعد ما استقرت دعائم الإسلام في آسيا الغربية، اندفعت كتائب المجاهدين العرب إلى بلاد ما وراء النهر عبر الطريق الذي سلكها الإسكندر المقدوني. وكانت أولى غزوات العرب إلى هذه البلاد في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان، عندما سير زياد بن أبي سفيان قائده المقدم ربيع بن الحارث من العراق إلى خراسان في عام ٤٦ هـ / ٦٦٦ م، فوصلت جيوشه مظفرة إلى بلخ، ثم غزا بلاد الصغد، ثم خرجت جيوش المسلمين بقيادة عبيد الله بن زياد إلى بخارى في عام ٥٠ هـ / ٦٧٠ م، وفق خطة مرسومة فهاجم الجيش بيكند وأخضعها للمسلمين ثم هاجم بخارى، غير أنه عاد عنها إلى مرو دون الإستيلاء عليها. ولكن القائد سعيد بن عثمان نجح في اقرار الأمور في بخارى إلى حد ما، ثم هاجم الصغد وسمرقند، غير أن أهالي بخارى نجحوا بعد مدة في خلع الحكم العربي بها.

ولقد حاول العرب فتح هذه البلاد مرة أخرى، على يد مسلم ابن زياد فلم يتيسر لهم ذلك، فعاد العرب إلى مرو ليعدوا حملة جديدة بقيادة قائد أدى حذره وشجاعته وقوة جلده إلى اطفاء آخر بصيص لحضارة إيران القديمة، ونجح في غرس تعاليم الإسلام في هذه البلاد المترامية الأطراف. كان هذا القائد هو قتيبة بن مسلم الذي سيره الحجاج بن يوسف الثقفي لفتح بلاد ما وراء النهر في عام ٨٦ هـ / ٧٠٤ م، وكان هذا الفتح العظيم يهدف إلى فتح هذا الإقليم ونشر الإسلام فيه، وقصد قتيبة بن مسلم بعدما استعرض جيوشه في خراسان. ونظم شنونها، فتسامع ملوك تلك الأقطار بهذا الغزو، فمنهم من أدرك أن لا قبل له بقتال المسلمين، فأضمن التسليم، ومنهم من إعتزم المقاومة والاستبسال،

وبذلك بدأت الحرب على أشدها، ونجح المسلمون في هذه الحروب الطاحنة الدامية، في البداية بلخ، ففتحها وقرأ فيها الخطبة باسم الخليفة الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين، ثم قام بجولة عند جيحون، وعاد إلى مرو بطريق جهارجوى، ومن هذا الموضع بدأ قتيبة في عام ٨٧ هـ / ٧٠٥ م، وقاعه في بلاد ما وراء النهر، فغزا بيكند واستولى عليها، ثم هاجم الولايات الصغيرة مثل كسن ونخشب، ليعزل بذلك بخارى عن حلفائها الترك، فتعجز بذلك عن الدفاع عن نفسها. ولقد غزا المسلمون بخارى ثلاث مرات ونشروا دينهم بها، ولكن أهلها كانوا يرتدون إلى عقيدتهم القديمة عقب رحيل العرب عنهم في كل مرة، وهاهى تفتح أبوابها للمرة الرابعة لتستقبل الفاتحين ومعهم تعاليم نبيهم. (١)

ولقد لجأ الفاتحون إلى وسيلة لمراقبة الداخلين حديثا في الإسلام من أهل بخارى، وتفقيهم في أمور دينهم، بأن أمروا بأن يساكن كل واحد من أهل بخارى في داره أحد العرب وشيد قتيبة ببخارى مسجدا في عام ٩٤ هـ / ٧٤٢ م، وفي هذا المسجد وفي غيره من دور الصلاة، كان المصلون يقيمون صلاة الجماعة يؤمهم الأئمة، وكان القرآن يقرأ بالفارسية لا بالعربية تيسيراً على الناس. غير أن نضال أتباع زرادشت بإزاء تعاليم الإسلام التى دخلت عليهم كان فى الغالب عنيفا ومستمرأ. (٢)

فقد كان المسلمون ولمدة سنين طويلة بعد الفتح، لا يجرفون على الظهور بغير أسلحتهم سواء فى المسجد أو الأماكن العامة. ولما تعددت صور المقاومة البخارية للمسلمين، وشعر المسلمون أنهم لم يحققوا أهدافهم، انتزعوا بخارى من أيدي أهلها وقسموها بين العرب، فصار

(١) ابن خلدون، العبر ح ٣، ص ٧٥، عبد العزيز جنكيزخان، تركستان قلب آسيا، ص

(٢) ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٨٠.

للبصريين جزءا منها، وصار لليمنيين قسم آخر، في حين استحوذ آخرون على قسم من ضواحيها وفيه الكنيسة المسيحية التي اتخذوا منها مسجداً لهم. وعوملت سمرقند على هذا المنوال، وألزم كل واحد من أهلها أن يسلم ما بيده من سلاح، وبعدها انطلق قتيبة صوب الشرق، فغزا فرغانة عام ٩٥هـ / ٧١١م، ومنطقة تركستان الشرقية، وظل قتيبة بن مسلم من مرو، ينشر الإسلام في هذه الأصقاع حتى مات في عام ٩٦هـ / ٧١٤م.

وكانت بخارى وتركستان كلها تُعد طوال مدة الفتح العربي مجرد أقسام من ولاية خراسان. فكانت الحاضرة المتشامخة على زرقشان، وبيكند الغنية، وفرغانة بلد الصناعة، هذه جميعا كانت تخضع لما يصدر إليها من (مرو شاهجهان) (مرو ملكة الدنيا). وكان على بخارى أمير وعلى سمرقند أمير. ولكنهما كانا لا يتمتعان بسلطان كبير ويخضعان في كل أمورهما لحكومة خراسان فتاريخ ما وراء النهر منذ ذلك الوقت هو تاريخ حكومة الأمراء العرب الذين كان يندبهم الخلفاء من دمشق أو من بغداد لحكم تلك الولاية الشرقية التي تقوم عند حدود دولتهم. ولم تسترد هذه الولاية استقلالها السياسي حتى أقام السامانيون عرشهم على الجانب الآخر من نهر جيحون، فلم يقرون بولائهم للخلفاء إلا لمجرد اعتبارات دينية. وكانت فترة الحكم العربي التي امتدت قرناً ونصف حتى قيام الدولة السامانية، سلسلة متصلة من الفتن والمنازعات الداخلية والاضطرابات، بسبب سلوك أمير خراسان نفسه، أو بما كان يثيره منها سكان تلك الولاية الذين لم يركنوا إلى الهدوء أبداً^(١).

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٣١، ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٩٥، فامبري، تاريخ بخارى، ص ٥٧ - ٧٣.

ولقد وجد الحكام الثانرون على طاعة الحكومة العربية فى أهل بلاد ما وراء النهر المحاربين بطبعهم، استعداداً لمناصرة كل ثائر بدورهم. ولقد انتهز أهالى فرغانة الصراع بين يزيد بن المهلب خليفة قتيبة بن مسلم والخليفة عمر بن عبد العزيز الذى أرسل قائده مسلمة لعزل يزيد بن المهلب، ونفخت عنها حكم العرب (١)، كذلك قام الترك بثورة فى بلاد ماوراء النهر فى عهد الخليفة هشام بن عبد الملك فى عام ١٠٦ هـ / ٧٢٤م، استولوا فيها على سمرقند، ولكن العرب عادوا من جديد بقيادة (نصر بن سيار) الذى نجح فى اخضاع الترك فى بلاد ما وراء النهر وفرغانة اخضاعاً تاماً. ليس بفضل قوة جيشه فحسب، وإنما لما كان عليه كذلك من لين العريكة وميل إلى العدالة، وهى نفس الصفات التى جعلت هذه البلاد تنضوى تحت راية أبى مسلم الخراسانى والدولة العباسية عند قيامها. (٢)

ولئن سيطر على بلاد ما وراء النهر سيطرة تامة رجال من أمثال نصر بن سيار، وأبى مسلم الخراسانى، إلا أن الإسلام كله قد تعرض لهزات عنيفة بسبب الصراع المذهبى الذى أثاره الشيعة والخوارج من جهة، وبسبب سقوط الخلافة الأموية وقيام الدولة العباسية على أنقاضها، ذلك التمزق الذى قام على أسس دعوة دينية.

ولم يكن من الطبيعى مع هذا كله ان تبقى نفوس أهل تركستان المضطربة بمنأى عن التأثير بتلك الفتنة. ويذكر (فامبرى) إنه وإن كان الشعور القومى المكبوت فى فارس من حماس الشيعة المذهبى ستاراً يتستر به لمحاربة النفوذ العربى، فقد توسل كذلك أهل بلاد ما وراء النهر

(١) البلازى، نفسه، ص ٣٣٣.

(٢) ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ١٢١-١٢٢.

بالدين للتخلص من استبداد العرب، وتجلّى أول مظهر من مظاهر هذا الشعور فى (بخارى)، إذا انطلق أهلها ينادون بالثورة مساندة لمذهب الشيعة، فكانت هناك ثورة (شريك بن الشيخ مهدي)، التى وأدها رجال أبى مسلم الخراسانى^(١)، كذلك تعرض الإسلام فى بلاد تركستان لخطر كان يقتلع جذوره، وتمثل ذلك فى ظهور (المقتع) النبى المزعوم الذى جهر بدعوته فى بلاد ما وراء النهر عام ١٥٩هـ / ٧٦٧م، التى دامت أكثر من خمسة عشر عاما، وأثار فتنة ظلت آثارها تلمس لقرون كثيرة^(٢). وبالقضاء على المقتع انتهى أمر الشكوك الدينية فى تركستان، وانحسرت موجات الفتنة بالتدريج. ومع ذلك لم تستطع الدولة أن تقضى على الاضطرابات السياسية التى كان يثيرها سكان بلاد ما وراء النهر.

وينسب إلى رافع بن الليث حفيد نصر بن سيار أخطر ثورة فى بلاد ما وراء النهر على عهد الخليفة هارون الرشيد. تلك الثورة التى استمرت حتى عهد الخليفة المأمون. فقد نجح هذا الثائر فى استغلال كراهية الناس لعلى بن عيسى والى خراسان. للثورة عليه وعلى هارون الرشيد، وقوى أمره فى سمرقند وكسب كل بلاد ما وراء النهر إلى جانبه ونزل بجنده بخارى، وحينما سار هرثمة بن أعين الذى قلده الخليفة الرشيد قتاله فى عام ١٩١هـ وعبر نهر جيحون، وجد نفسه يقف وحيدا وقد تخلى الناس جميعا عنه، إذ كانوا قد هابهم ما بلغه رافع من القوة،

(١) النرشخى، تاريخ بخارى، ص ٩١-٩٣، ابن الأثير، الكامل، ح ٤، ص ٣٤١-٣٤٢،

نبيلة محمد حسن، محاضرات فى تاريخ الدولة العباسية، ص ٤٥.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ح ٥، ص ٥٢، ٥٣، ٥٨، ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٢٦٠،

أحمد مختار العبادى، فى التاريخ العباسى والفاطمى، ص ٦٩.

وإن كان هرثمة نجح في أسر بشراً أخوا رافع في إحدى المعارك وافتتح بخارى^(١).

وأدت هذه الأحوال إلى أن خطب المأمون وأسرّة السامانيين في سبيل القضاء على ثورة رافع في بلاد ما وراء النهر، فقد فشل قائده (خزيمة بن حازم) في رد الثوار إلى طاعة الخليفة، ونتج عن فشله هذا أن استقر بتركستان تلك الأسيرة التي يدين لها أقاليم جيحون، وتاريخ بخارى المستقل، بأزهي عصوره، وهي الأسيرة السامانية^(٢).

الأسيرة السامانية:

ينتسب السامانيون إلى (سامان) رأس الأسيرة السامانية، وهو نبيل فارسي انحدر من نسل (بهرام جوبين) الذي قاد ثورة عنيفة ضد ملوك آل ساسان الفرس. ولقد ولد جوبين هذا في (الري)، وهو ابن مرزبان آذربيجان، وكان قائدا مشهوراً محبوباً في أوساط جنده، طموحاً يتطلع إلى الصفوف الأولى كسائر ذوي الاقطاع زمن الأكاسرة. وقد سما به طموحه ليكون قائدا عسكرياً للجيش الفارسي الذي خاض الحرب ضد الروم - البيزنطيين - ، فأحرز انتصارات باهرة عليهم، كما أحرز انتصارات أخرى على الترك الذين كانوا يهددون أمن الإمبراطورية الساسانية وسلامتها^(٣). ورغم أن إنقاذ دولة الفارسية من الأخطار المحيطة بها قد تم على يد هذا القائد، فلم يكن جزاؤه إلا الإهانة والجحود،

-
- (١) الطبري، تاريخ الأمم، (حوادث عام ١٩١ هـ)، ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٢٨٧ - ٢٨٨.
- (٢) فاميري، تاريخ بخارى، ص ٩٠ - ٩١.
- (٣) الترشيحي، تاريخ بخارى، ص ٨٧، آرثر كريستنس، إيران في عهد الساسانيين، ص ٤٢٧.

مما دفعه إلى القيام بحركة عصيان ضد ملك الفرس، مما أدى إلى خلع الملك وتولية ولده كسرى الثانى برويز ملكا على فارس فى عام ٥٩٠ م.

غير أن بهرام جوبين لم يبايع العاهل الجديد، لأنه كان يطمع فى العرش لنفسه ولذلك ثار ضده ونجح فى عزله بفضل تأييد جنده له واستولى على العرش فى عام (٥٩٠-٥٩١ م)، غير أن انقلاب بهرام جوبين لم ينل عطف كبار رجال الدولة خاصة رجال الدين، الذين صاروا على رأس المعارضين لحكمه، ونجحوا فى تحزيب عدد كبير من عظماء الدولة ضده، فانفضوا من حوله، وانضموا إلى كسرى الذى حصل على التأييد والعون العسكرى من امبراطور الروم مقابل التنازل عن مدينتى (دارا وميافارقين). وبعد معارك عنيفة هزم بهرام فى أذربيجان، واضطر إلى الفرار إلى بلاد الترك حيث قتل هناك^(١).

ومن نسل هذا القائد الفارسى عريق النسب، انحدر (سامان) الذى تنسب إليه الدولة السامانية. ولقد اختلف المؤرخون والنسابون حول تركيب اسمه اختلافا كبيرا، وهل هو اسما أم لقباً، فذكروا عدة تفسيرات وتخريجات لإزالة الغموض الذى اكتنف هذا الاسم، (فالنرشخى) وهو مؤرخ معاصر للدولة السامانية يروى فى كتابه (تاريخ بخارى) أن سامان سُمى بهذا الاسم لأنه شيد قرية وسماها سامان. وكان اسمه اشتق من اسم هذه القرية والتصق به. ويذهب باحث آخر إلى القول بأن هذا الاسم مركب من لفظين (سامان) وهو اسم البلد الذى كان يقيم فيه سامان، ولفظة (خداة) وتعنى أمير أو حاكم ومن ثم (فسامان خداة) تعنى أمير أو حاكم سامان، وقد استند هذا الباحث فى رأيه هذا على دائرة المعارف

(١) آرثر كريستنس، نفس المرجع، ص ٤٢٨.

الإسلامية. ويرى الدكتور محمد علي حيدر أنه على فرض أن هذه الكلمة مركبة فمعناها الأمير سامان^(١).

وكما اختلف المؤرخون في تفسير اسم سامان فقد ذهبوا مذاهب شتى عند ذكرهم نسب (سامان) وهل هو ينتسب إلى بهرام جوبين، أم إلى ابن بهرام خشنش كما يذكر ابن الأثير. والأرجح أنه ينتسب إلى بهرام جوبين، فهو سامان بن جثمان بن طغات بن نوشرد بن بهرام جوبين بن بهرام جشنش^(٢).

ويبدو أن الاختلاف الذي أصاب تفسير اسم سامان وحقيقة نسبه، قد أصاب موطنه كذلك، فقد اختلف المؤرخون فيه، وهل هو من بلخ أم من سمرقند، أو بعبارة أخرى هل السامانيون ينتمون إلى الجنس الفارسي أم إلى الجنس التركي؟ فيميل أغلبهم إلى انتماء السامانيين إلى الأسرة الساسانية الفارسية، وأن والد سامان كان فارسياً قحاً ابتغى المجد والعظمة، حركت مشاعره بعض أبيات الشعر الفارسية التي تدعو للنضال وطلب الاستقلال، لذلك كافح وجاهد حتى وصل للسلطة في (بلخ). ويؤكد المستشرق (بوزورث) على نسب السامانيين الفارسي، وإن كان لا يجزم بانتماهم إلى الأسرة الساسانية. وتوجد بعض الآراء الحديثة التي تشير إلى نسب السامانيين التركي، فتقرر انتماء السامانيين إلى قبائل الغز، وأن مقر أجدادهم كان في ناحية بعيدة من أطراف سمرقند ويدلل بارتولد على أنهم ليسوا من الترك، بأنهم أي السامانيين قد خاضوا حروباً ضد الأتراك الذين كانوا يغيرون على حدود دولتهم، وفتحوا مدينة طراز التركية في

(١) النرشخي، تاريخ بخارى، ص ٨٦، محمد علي حيدر، الدويلات الإسلامية في المشرق، ص ٧٩.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ح ٧، ص ٢٧٩، أبو الفداء، المختصر، ح ٢، ص ٥٠، البيروني، الآثار الباقية، ص ٣٩.

عام ٢٨٠ هـ ، ثم إنهم قد اتجهوا إلى احياء الشعر الفارسي في عهدهم ، مما يؤكد على أصلهم الفارسي واعتزازهم بقوميتهم وثقافتهم . وهذه الأدلة تقود إلى دحض الرأي القائل بأن (سامان) كان (ياوغر) من قبائل أوغور التركية ومن رهبان معبد نوبهار كما يذكر عبدالعزيز جنكيزخان^(١) وصفوة القول أنهم من بلخ ، وينتمون إلى الجنس الفارسي ، وهذا يلقي ضوءاً على اهتمامهم المتزايد بحركة بعث الشعر الفارسي في عهدهم ، وعدم محاولتهم اخمادها أو القضاء عليها^(٢) .

إتصال آل سامان بالدولة الإسلامية :

اختلفت الروايات التاريخية على تحديد تاريخ إتصال هذه الأسرة بالدولة الإسلامية ثم دخولهم في دين الإسلام . فأغلب هذه الروايات ترى أن إتصال السامانيين بالمسلمين تم في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك الأموي ، عندما استنجد (سامان) أحد أعيان بلخ وهو من بقايا الزرداشتين ، بأمير خراسان وكان يدعى أسد بن عبد الله القسري في مرور ، ليعينه على عدد له كان قد أخرجته من المدينة . فأكرمه الوالي المسلم وحماه ، واهتم بأمره وأعانه على عدوه حتى رده إلى بلده بلخ ، فأعجب به سامان وبتصرفاته وحسن معاملته له ، فاعتنق سامان الإسلام على يديه وصارت أسرته كلها على الإسلام^(٣) . ويعلق (فامبري) عن ذلك بقوله : إن وجود بقايا الزرداشتيين في بلخ لمدة طويلة بعد الفتح الإسلامي لها ، إنما يدل على أمرين أولهما : أن الإسلام كان يتقدم ببطئ بين

(١) عبد العزيز جنكيزخان ، تركستان قلب آسيا ، ص ٤٦ .

(٢) ابن خلدون ، العبر ، ح ٣ ، ص ٣٨٩ ، فامبري ، تاريخ بخارى ، ص ٩٣ ، بارتولد ، تاريخ الحضارة الإسلامية ، ترجمة حمزة طاهر ، ص ١٠٣ ، محمد علي حيدر ، نفس المرجع ، ص ٨٢ .

(٣) النرشخي ، تاريخ بخارى ، ص ٨٦ .

الزرادشتيين، والأمر الثاني: يدل على تسامح المسلمين الذي يتضح في معونة أمير خراسان لسامان، ذلك التسامح الذي نبه إليه (بارتولد) حيث يقول أن الخليفة المستعصم قد عاقب بعض المسلمين عقاباً شديداً لتعرضهم لمعبد من معابد المجوس بالصغد^(١).

وكانت الإضطرابات وهجمات المغيرين المتكررة من الأتراك والدهاقين على خراسان وخصوصاً بلخ، هي التي ألجأت سامان إلى الاحتماء بأسد بن عبد الله القسري، الذي كان يقصده المضطهدون من العرب والفرس على حد سواء، ولذلك أطلق عليه (ناصر المظلومين). وكانت بلخ قد دمرت من جراء هذه الهجمات المتكررة عليها، فأعاد أسد بن عبد الله بناءها، ونقل معسكره من (برقان) في عام ١٠٧ هـ / ٧٢٦م، إلى بلخ وجعلها محل إقامته فيما بعد، ولعله فعل هذا ليتمكن من محاربة هؤلاء المغيرين محاربة جديده. ومنذ أن ارتبط سامان بأسد بن عبد الله الذي قربه إليه، وهو يقدم ولائه وجهوده في خدمة الدولة الإسلامية، ويسهم في الحركات السياسية التي كانت تسود إقليم خراسان، فينضم فيما بعد إلى رجال أبي مسلم الخراساني صاحب الدعوة للعباسيين^(٢).

غير أن (الكرديزي) يذكر أن دخل آل سامان في الإسلام تم بعد ذلك في فترة ولاية المأمون وخلافته في خراسان (١٩١ - ٢٠٣ هـ / ٨٠٦ - ٨١٨ م)، حيث اتصل به أحد السامانيين وأسلم على يديه، ثم دخلت الأسرة بعد ذلك في الإسلام. ولكن الشواهد التاريخية تجعلنا نميل إلى الرأي الأول؛ فعندما بدأ المأمون ولايته لخراسان في ١٩٣ م / ٨٠٨ م،

(١) قامبري، تاريخ بخارى، ص ٩٣، بارتولد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ١٦.

(٢) محمد على حيدر، الدويلات الإسلامية، ص ٨٢ - ٨٣.

كان آل سامان يتولون حكم بعض المدن فيما وراء النهر، وكانوا بالفعل مسلمين، قد انقضى على إسلامهم فترة طويلة. ويبدو أن الكرديزي خلط بين إسلام الأسرة الذي تم في ولاية (القسري)، وبين استقبال المأمون لبعض أفرادها في خراسان، حيث استقبل أبناء أسد بن سامان، وأجرى معهم مناقشات حول كيفية القضاء على فتنة رافع بين الليث ببلاد ما وراء النهر^(١).

ونظرا لوفاء سامان وتقديره لنخوة مولاه السابق، فقد أطلق اسمه (أسد) على مولوده تبركا به. وكان أسد بن سامان هذا في جملة أصحاب علي بن عيسى من ماهان حين قلده الخليفة هارون الرشيد أمر خراسان. ولم يكن كثيرا على أسد بن سامان أن يكون في خدمة الدولة العباسية بعد أن عرفنا أنه من أهل البيوت العريقة. وقد اعتاد العباسيون أن يكرموا أمثال هؤلاء، ويقلدوهم المناصب العليا في الدولة. وقد رزق أسد بن سامان بأربعة أبناء هم: (نوح وأحمد، ويحيى، وإلياس). دخلوا جميعا في خدمة العباسيين وأصبح لهم شأن كبير في تاريخ الخلافة العباسية، وخصوصا في الإقليم الشرقي منها. فعندما خرج رافع بن الليث على هارون الرشيد، كان أبناء أسد بن سامان من أشد المتحمسين للقضاء عليه، وعاونوا بصدق (هرثمة بن أعين القائد العباسي للقضاء على هذه الفتنة، بعد ما طلب منهم المأمون ذلك، واستطاعوا بجهودهم أن يحملوا رافع بن الليث على عقد الصلح مع هرثمة، وبناء على هذا زال خطر استيلاء رافع بن الليث على سمرقند بفضل جهود أبناء أسد بن سامان، فقربهم المأمون أيام ولايته على خراسان واستعملهم^(٢).

(١) فتحى أبو سيف، خراسان، ص ١٠٨ - ١٠٩.

(٢) النرشخي، تاريخ بخارى، ص ١٠٦، ابن خلدون، العبر، ج ٣، ص ٣٨٩.

وعندما آلت الخلافة إلى المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ) وجه عناية شديدة إلى أبناء أسد بن سامان وقربهم إليه، وأراد مكافأتهم على معونتهم السابقة، وبعد عودته إلى بغداد سنة ١٩٨ هـ قلد على خراسان (غسان بن عباد) من قرابة الوزير الفضل بن سهل، وأمره بأن يولى أبناء أسد بن سامان كل منهم على إقليم من أقاليم ما وراء النهر. فولى نوحا بن أسد على سمرقند في عام ٢٠٤ هـ / ٨٢٠ م، وأحمد بن أسد على فرغانة، وأخاهم يحيى على الشاش وأشروسنة، أما إلياس بن أسد فقد تولى حكم هراة^(١).

وبعد أن عزل غسان بن عباد عن ولاية خراسان، وخلفه طاهر بن الحسين في عام ٢٠٥ هـ، أقر بدوره هذا التعيين، وظل أبناء أسد بن سامان في ولاياتهم. وظل السامانيون ولاية يخضعون للطاهريين. واستقرت أحوال بلاد ما وراء النهر في عهدهم. ولم تتوتر العلاقات بين الخلافة العباسية والطاهريين من جهة وبين السامانيين من جهة أخرى، فلم يعلنوا العصيان على الدولة، كما أن العباسيين من جهتهم لم يعزلوهم عن تلك الولايات.

فعندما كان نوح بن أسد حاكما على سمرقند (١٩٨ - ٢٢٨ هـ)، استجاب لأوامر الخليفة المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ) وعاون عبد الله بن طاهر في الكيد للحسن بن الأفشين ابن قائد الترك الذي فقد حظوته عند الخليفة حينئذ. وعند وفاة نوح في عام (٢٢٨ هـ) دون أن ينجب ولدا يخلفه، أقام الخليفة في ولايته الأخوين يحيى وأحمد. وهذا يفسر اخلاص السامانيين للطاهريين والعباسيين على حد سواء، مما جعلهم يتوارثون

(١) النرشخي، نفس، ص ٨٦، ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٣٨٩، فامبرى، تاريخ بخارى، ص ٩٣ - ٩٤.

مناصبهم. كذلك ظل يحيى بن أسد يحكم الشاش حتى وفاته فى عام ٢٥١ هـ، وظل إلياس على حكم هراة إلى حين وفاته فى عام ٢٥٢ هـ، فخلفه ابنه محمد عليها، وكان يتمتع بشخصية قوية مما جعل عبد الله بن ظاهر يعامله بحزم، كما يذكر بن الأثير، بينما بلغ إبراهيم بن إلياس قيادة جيش الطاهريين فى خراسان، كذلك ارتفع شأن أحمد بن أسد وصار إليه حكم فرغانة والشاش، وقسما من الصغد، وكان أحمد بن أسد رجلا فاضلا، يروى الحديث، كما كان حسن السيرة لا يأخذ رشوة من أحد، وظل فى سمرقند حتى مات فى فرغانة فى غرة رمضان من عام ٢٥٠ هـ تاركا سبعة أبناء (نصر، يعقوب، يحيى، أسد، إسماعيل، إسحق وحميد). كما يذكر العيني فى عقد الجمان. وبعد وفاته تولى نصر بن أحمد مكانه من قبل الطاهريين، وأقره الخليفة الواثق على ذلك ببراءة منه. وظل فى منصبه يحكم ولاية ما وراء النهر نيابة عن الطاهريين إلى أن انقرضت هذه الدولة على أيدي الصفاريين فى سنة ٢٥٩ هـ، فأصدر الخليفة المعتمد أمرا بتوليته أميرا على ما وراء النهر فى سنة ٢٦١ هـ^(١).

غير أن (الجوزجاني) يذكر أن الخلافة العباسية كانت قد أقرت للسامانيين حق إدارة بلاد ما وراء النهر بعد أن فصلتها إداريا عن الطاهريين فى خراسان وذلك فى عام ٢٥١ هـ / ٨٦٥ م، مما ساعد على تقوية نفوذهم السياسى فى المنطقة الشرقية، فتمكنوا من الاستيلاء على بخارى التى تقع على حدود خراسان^(٢).

ويبدو رأى الجوزجاني وجيها حيث كانت الدولة الطاهرية تمر بحالة ضعف وتلفظ أنفاسها الأخيرة، بعد استيلاء الصفاريون على إقليم

(١) ابن الأثير، الكامل، ح ٧، ص ٢٧٩ - ٢٨٠، ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٣٨٩،

محمد على حيدر، نفس المرجع، ص ٨٥ - ٨٦.

(٢) فتحى أبوسيف نقلا عن الجوزجاني، خراسان، ص ١٠٩.

خراسان، فقدرت الخلافة العباسية للسامانيين اخلاصهم، فجعلت بلاد ماوراء النهر إقليمًا منفصلاً عن خراسان وأقرتهم عليه. وأدى ما أسبغته العرب على السامانيين من التكريم إلى تقوية جانب هذه الأسرة الناهضة، كما أدى تمكين الصلات بهم إلى ازدهار أحوال بلاد ماوراء النهر. فقد أخذ النظام يسود كافة الأقاليم حول سيحون وجيحون، تلك البلاد التي كانت تعاني معاناة شديدة من الاضطرابات، وبات من الواضح أنه سوف يشرق عليها عهد جديد في ظل السامانيين.

قيام الدولة السامانية:

ولاية نصر بن أحمد الساماني:

ظلت إمارة سمرقند يتوارثها السامانيون إلى أن انقرضت الدولة الطاهرية، فأصبحت هذه المدينة عاصمة لحكم نصر بن أحمد بن سامان الذي أصبح حاكماً على بلاد ماوراء النهر بتقليد من الخلافة العباسية منذ عام ٢٦١ هـ، وبهذا أصبح نصر بن أحمد مستقلاً بأمر نفسه، ويخضع لسلطان الخلافة الروحي، ولا يتبع إلا الحكومة المركزية في بغداد بعد أن كان يتبع ولاية خراسان.

ومنذ ذلك التاريخ أخذت الدولة السامانية في الظهور في بلاد ماوراء النهر، ومع أنها كانت دولة اسمية، لأن الوالي المختص بهذه المقاطعات كان تحت سيادة الخلفاء في بغداد، إلا أن نصراً بن أحمد نجح في وقت قصير أن يوطد حكماً شبه مستقل. وإن كان (حمزة الأصفهاني) ينكر أن يكون نصر بن أحمد أول حاكم للأسرة السامانية، ويعتبر إسماعيل بن أحمد أول حاكم للأسرة السامانية ويقول عن ذلك " فكانت ولاية من تقدم إسماعيل من قبل الطاهرية". ولما كان سقوط الطاهريين قد حدث في عام

٢٥٩ هـ على يد الصغاريين، فإن هذا يدعو للاعتقاد بأن قيام الدولة السامانية كان على يد نصر بن أحمد في عام ٢٦١ هـ، حينما قلده العباسيون ولاية ما وراء النهر التي استقلت عن حكام خراسان، وأخذت تؤكد استقلالها فيما اتخذته من إجراءات ضد أعدائها في الخارج والداخل، وضمنت لنفسها الاستمرار بفضل سياستهم، وحبهم للاستقرار في شنون الحكم^(١).

تدعيم دولة نصر بن أحمد الساماني:

بعد أن قامت الدولة السامانية على يد نصر بن أحمد في سنة ٢٦١ هـ، وبسط نفوذه على بلاد ما وراء النهر بأسرها، أخذ يوجه جهوده لدعم الدولة ورفع لواء حكمه على هذه المنطقة، رغم ما واجهه من صعوبات ومتاعب في بداية أمره، شأنه في ذلك شأن كل مؤسس الحكومات. وكانت بخارى مصدر كثير من القلاقل والاضطرابات ومحور متاعبه، إذ كانت الفوضى متفشية فيها. فالنرشخي يتحدث عن غزوة للخوارزمية في عام ٢٦٠ هـ / ٨٧٤ م، على بخارى، تلك الغزوة التي أنزلوا فيها الدمار والخراب بها بعد الإستيلاء عليها. وكان الخوارزمية يسرقون الأموال وما تقع عليه أيديهم، ويسطون على المنازل ويرتكبون جرائم كثيرة، فقام أهل بخارى بثورة عنيفة ضد هؤلاء الغزاة، وقامت حرب بين الفريقين قتل فيها عدد كبير من الجانبين، وأحرقت المدينة وأشعلت فيها النيران. وأبدى أهل بخارى من القوة والمثابرة، والعزم على القتال دفاعاً عن مدينتهم ما جعل قائد جيش الخوارزمية يضطر إلى إعلان وقف القتال وإصدار بيان بالأمان، فتفرق أهل بخارى وعادوا إلى قراهم. ولكن (حسين بن طاهر) قائد الخوارزميين نكث بأمانة لأهل بخارى

(١) محمد علي حيدر، نفس المرجع، ص ٩٠.

وقاتلهم على غرة، فثار به الناس من جديد وهزموه شر هزيمة، واستردوا الأموال التي كان قد سلبها هو وحاشيته، واضطر القائد المهزوم إلى الفرار^(١).

كذلك منيت بخارى بخطر الصفاريين؛ فقد تطلع إلى بخارى يعقوب بن الليث الصفار الذي اتخذ خراسان وسجستان مركزا له يهدد به أمن الدول المجاورة، وكانت أطماعه التوسعية تجعله يغير على المناطق المجاورة طمعا في الاستيلاء عليها، وأملأ في اتساع رقعة دولته، لذلك "أنقذ نصر بن أحمد جيشا إلى شط جيحون ليأمن عبور يعقوب". ولكن جيش نصر بن أحمد انقسم على نفسه وحدثت فتنة بين رجال الجيش، وقتلوا قائدهم واتجهوا إلى بخارى عاندين حيث أخذ الجند يقيمون الولاية ويعزلونهم كما يشاءون. وإزاء هذا الموقف اضطر كبار رجال بخارى وفقهائها على ما نصح لهم به عبيد الله الفقيه إلى الكتابة إلى نصر بن أحمد رسالة يدعونه فيها إلى توجيه من يثق في كفايته لضبط أمورها، وقمع أصحاب الفساد فيها. فعرض عليهم نصر بن أحمد أن يبعث إليهم بأخيه (إسماعيل بن أحمد) ، وسيره إلى بخارى من فوره في عام ٢٦١ هـ^(٢).

وكان إسماعيل هذا قد ولد بفرغانة في شوال من عام ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م، ومات أبوه وهو في الخامسة عشرة من عمره، فتعلق بأخيه الأكبر في حب خالص وإجلال لم يتطرق إليهما أدنى تغيير حتى حين انقلب عليه نصر يحاربه. وأول ما ذاع صيت إسماعيل كان ببخارى، وكان إذ ذاك في الخامسة والعشرين من عمره. ويذكر النرشخي أن إسماعيل توجه

(١) النرشخي، تاريخ بخارى، ص ١٠٧، فامبرى، تاريخ بخارى، ص ٩٤.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ح ٧، ص ٢٨١، ابن خلدون، العبر، ح ٣، ٣٨٩.

إلى بخارى ووصل (كرمينية) ومكث بها عدة أيام^(١)، ثم أرسل رسولا إلى (حسين بن محمد) مدير أمر بخارى فى ذلك الحين، وتكررت المساعى بينهما، وأخيرا تقرر أن يكون إسماعيل واليا على بخارى، على أن يكون حسين بن محمد نائبه وبايعه جيشها على هذا، وبعث إسماعيل بالعلم والخلعة. وأثناء مقام إسماعيل بكرمينية وفد عليه أبو عبد الله بن أبى حفص على رأس جماعة من أشراف بخارى، فاطمان لذلك لأنه كان قلقا وتساوره الشكوك لحضوره إلى بخارى الثائرة التى لا يعلم حقيقة شعور أهلها، وكان لهذه الزيارة أثرا طيبا فى نفسه، فقد اطمأن إلى أن أهل بخارى سوف يتبعون هؤلاء القوم ولن يخالفوهم فى ولايتهم الصريح للأسرة السامانية، وعندما وصل إسماعيل إلى بخارى قوبل باحترام شديد من أهلها التى زينوها تكريما له، ونثروا الذهب والعطايا الثمينة بين يديه، لاسيما وقد سبقه إليهم ما ذاع عنه من الصفات العالية، ودخلت بخارى بذلك فى عهد جديد بعد ما خطب لنصر بن أحمد بدلا من يعقوب بن الليث، وصارت بخارى فى حوزة السامانيين منذ ذلك الحين. ويعلق (فامبرى) على ذلك بقوله: "وحق لبخارى ما فعلت حين عدت هذا اليوم من أعيادها، فقد تم لبلاد ما وراء النهر بل ولتركستان كلها وحدتها، فى تلك البراءة التى رسم بها الخليفة المعتمد نصرا أميرا على بلاد ما وراء

(١) كرمينية إحدى ثلاث مدن كبيرة كانت تقع بين بخارى وسمرقند فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وهى مدينة كبيرة ولها قرى كثيرة، وأرضها خصبة، وأنهارها وأفرة تأخذ ماءها من نهر السغد كما يذكر ياقوت الحموى، كما اشتهرت بصناعة وتجارة المتاديل (السترنج عن ابن حوقل، والمقدسى وياقوت، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٥١١، ٥١٥).

النهر، وجعل كل البلاد الممتدة من شواطئ جيحون حتى أقصى بلاد المشرق^(١).

وبرغم الظروف الدقيقة التي ظهر فيها إسماعيل بخارى، فإنه سرعان ما قبض على حسين بن محمد نائبه، وانتهت بذلك الفوضى التي كانت سائدة في هذا الإقليم. كما طهر بخارى من اللصوص وقطاع الطرق الذين بلغ عددهم أربعة آلاف، والذين كانوا يقطعون الطريق بين بركد وراميشن ويهددون بخارى على الدوام، بمساعدة من أهل بخارى وأعيانها الذين كانت مصالحهم الشخصية بطبيعة الحال تتطلب قبل كل شيء إستتباب النظام والأمن، ولقد ساعدت الظروف إسماعيل على توطيد مركزه في بخارى، عندما صد هجوم جديد لحسين بن طاهر الخوارزمي الذي قدم على رأس جيشه للاستيلاء على بخارى، فقد هجم عليه إسماعيل بجيشه هجوما عنيفا بعد عبوره نهر جيحون، وأسفرت المعارك بينهما عن هزيمة الخوارزمي بعد قتل معظم جيشه وغرق وأسر البعض الآخر، كذلك أجبر إسماعيل أشراف بخارى المشاغبيين على الطاعة، فعندما بلغه أن كبار الشخصيات البخارية وعلى رأسهم بخارخداة أبو محمد وواحدا من أغنى التجار هو أبو حاتم يسارى بدعوا يشقون عصا الطاعة ولا يحترمون مقامه وقدره بينهم، وشعر بضياح هيئته عليهم قرر التخلص منهم، بأن أرسلهم كوفد إلى أخيه بسمرقند بحجة الإعتذار إليه، في حين أرسل إلى أخيه باعتقالهم حتى يضمن الاستقرار في بخارى فتم له ذلك، وبعد أن أفاد من فترة غيابهم في توطيد مركزه بالمدينة طلب من أخيه أن يطلق سراحهم، فلما رجعوا إلى بخارى أحاطهم بعطفه ورعايته وجهد في

(١) الترشيحي، تاريخ، بخارى، ص ١٠٧، قامبري، تاريخ بخارى، ص ٩٥، بارتولد،

إنجاز حوائجهم. ويعلق (بارتولد) على هذا الصراع بقوله " ومن الجلى أنه - إسماعيل - كما يرمى بذلك إلى تثبيت قدمه، وأن يثير في الوقت نفسه حفيظة الأرسقراطية على أخيه نصر لا على شخصه هو". وبهذه السياسة الحازمة أخذ سلطان السامانيين يتوطد في بلاد ما وراء النهر^(١).

الصراع على السطة (نزاع الأخوين نصر وإسماعيل):

تعرضت الدولة السامانية في بدء ظهورها إلى اختلاف حاد نشب بين الأخوين نصر وإسماعيل، وتطور هذا النزاع إلى حرب دموية أريقت فيها الدماء وزهقت الأرواح، وأنفقت الأموال، ولو اتجهت جهود الأخوين إلى الإصلاح لكان خيرا للدولة والمواطنين من هذه الحرب الأهلية. فبعد أن فرغ إسماعيل بن أحمد من أمر اللصوص، وبعد أن حطم هجمات حسين بن ظاهر أخذ يقوى مركزه، وشك نصر في تصرفاته أخيه لاسيما وقد نجح خصومهما في إثارة العداوة والبغضاء بينهما، وأدى ذلك إلى نزاع طويل بين الأخوين^(٢).

فقد قام إسماعيل مدة من الزمن في بخارى، ثم توجه إلى سمرقند بدون إذن من نصر بن أحمد بعد أن جعل يحيى بن أحمد بن أسد نائبا عنه في بخارى. ولعل هذا التصرف كان أول مراحل النزاع، فقد غضب نصر من هذا التصرف واعتبره إهانة له فساعت العلاقات بينهما منذ الذي الحين. ولما علم نصر بقدوم إسماعيل اكتفى بأمر استقباله، ولم يخرج إليه بنفسه وأنزله بقلعة سمرقند ولم يوليه أية عناية، بل كلف صاحب الشرطة بأمر حراسته^(٣). وحاول إسماعيل جاهدا أن يكسب عطف أخيه

(١) النرشخي، نفسه، ص ١٠٩، بارتولد، تركستان، ص ٣٤٩-٣٥٠، محمد علي

حيدر، نفس المرجع، ص ٩٥ - ٦٩.

(٢) عبد العزيز الدوري، دراسات في العصور العباسية، ص ٨٢١.

(٣) النرشخي، تاريخ بخارى، ص ٧٨.

نصر، فكان يذهب إليه للسلام والتحية، ولكن نصرا ظل غاضبا عليه، وكان يمكث بحضرته طويلا ويعود دون أن يكلمه نصر، مع أن هذه لم تكن عادته من قبل.

ثم أتى إسماعيل بمحمد بن نوح وهو ابن عم لهما، وعبد الجبار بن حمزة ليطلبوا له الشفاعة، فرضى نصر عنه وأعادته إلى بخارى بعد أن مكث على هذه الحالة بسمرقند ثلاثة عشر شهرا، وعين نصر بن أحمد عصمت بن محمد المروزي وزيراً له والفضل بن حمد المروزي مستشاراً له. ولعل تعيين هذين الرجلين كان الهدف منه الحد من سلطان إسماعيل بن أحمد، وليكونا بمثابة عيون عليه ينقلان أخباره لنصر بن أحمد^(١).

ثم طلب نصر عبد الجبار بن حمزة وقال له: أننا نرسل هذا (إسماعيل) ترى ماذا يصنع بنا؟ فأجابه عبد الجبار: أنه عبد لك. وما أن وصل إسماعيل إلى بخارى حتى قام بتحسين العلاقات بينه وبين رافع بن هرثمة لدرجة أن طلب من رافع أن يتنازل له عن خوارزم فأجابه إلى ما أراد. واتخذ إسماعيل سياسة التقريب بينه وبين رافع معه، وأبرم معاهدة بينه وكانت هذه المعاهدة بمثابة التحالف على نصر بن أحمد، فأخبر الوشاة نصرا أن هدف إسماعيل من صداقته مع رافع هي أن يطرداه من بلاد ما وراء النهر.

ولكن هل كان إسماعيل يهدف حقا إلى طرد أخيه نصر بن أحمد من بلاد ما وراء النهر، وأن يجرده من النفوذ والسلطان وأن يكون هو الوريث الوحيد له، أم أن ذلك يعود إلى أسباب أخرى؟؟. فابن الأثير يعزو هذه الحرب إلى الدسائس والمؤامرات بوجه عام فيقول: "ثم سعت السعاة

(١) النرشخي، تاريخ بخارى، ص ٧٩.

بين نصر وإسماعيل فأفسدوا ما بينهما^(١). أما "النرشخي" وهو معاصر للسامانيين فيرجع هذه الحرب إلى أسباب اقتصادية حينما يذكر أن ذلك يعود إلى تباطؤ إسماعيل في دفع الخراج^(٢) فقد كان نصر بن أحمد قد فرض على إسماعيل من أموال بخارى ٥٠٠ ألف درهم سنويا، وعجز إسماعيل عن دفعها لأنه خاض حربا ضد الحسين بن طاهر، فبعث إليه نصر رسولا منه يطلب هذه الأموال دون جدوى^(٣).

وإذا عرف أن إسماعيل بعد أن انتصر في الحرب التي دارت بينه وبين أخيه نصر، عامل أخاه بكل أدب واحترام وخاطبه كأمرير لا كأسير، وكان في إمكانه أن يدعه في السجن ويستولى على شئون الدولة، ولكنه أعاده إلى سمرقند معززا مكرما، فإن هذا يحمل على الاعتقاد بأن الدوافع الحقيقية لهذه الحرب لم تكن الدسائس والمؤمرات - كما يرى ابن الأثير - ولكنها ترجع للأسباب المالية التي ذكرت آنفا بالإضافة إلى تخوف نصر من أخيه إسماعيل بعد معاهدته مع رافع بن هرثمة^(٣).

التأهب للحرب:

رأى نصر بن أحمد أن يجهز جيشه لحرب إسماعيل لأنه لم يؤد ما عليه من الالتزامات المالية، وأرسل إلى أخيه أبي الأشعث أسد طالبا منه أن يكون على أهبة الاستعداد بجنده في فرغانة. كما بعث برسالة أخرى إلى أخيه أبي يوسف يعقوب بالشاش وأمره أن يحضر بجيشه، وحشد نصر جيشا عظيما توجه به إلى بخارى في رجب سنة ٢٧٢هـ/ ٢٨٦م، وكان على إسماعيل بن أحمد أن يواجه هذا الموقف الصعب بشجاعة

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص ٩٢، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج ٣، ص

٧٣، محمد علي حيدر، نفسه، ص ٩٨.

(٢) النرشخي: تاريخ بخارى، ص ٨٠.

(٣) محمد علي حيدر، نفسه، ص ٩٩.

فائقة، فانسحب من بخارى وأخلاها حتى لا تكون مسرحا للحرب الأهلية، ولأنه كان يشعر بتعاطف أهلها مع الأمير نصر، ورحل إلى "فاراب" احتراماً لأخيه وحرصاً على بخارى ودخل نصر بن أحمد بخارى، ولم يجد إسماعيل بها فتوجه إلى "بيكند" مدينة التجار، ونزل بها حيث استقبله أهلها استقبالا دلياً ولأنهم له.

وأثناء ذلك اتصل إسماعيل برافع بن هرثمة المتغلب على خراسان يطلب منه العون والمساعدة، وكانت العلاقة قد توطدت بينهما فحضر رافع بنفسه مع جيشه وعبر نهر "جیحون" متوجهاً صوب بخارى لمساندة إسماعيل بن أحمد. وكان حمويه بن علي رسول إسماعيل إلى رافع في طلب المساعدة ضد نصر بن أحمد. (١)

وكان انسحاب إسماعيل من بخارى وإخلائه لها يهدف إلى خطة حربية تستهدف الهجوم على سمرقند للاستيلاء عليها، ولا سيما وأن بخارى لم تعد مركزاً صالحاً لعمليات حربية، لأن عواطف أهلها كانت مع نصر بن أحمد وليست في صالح إسماعيل، ولأن نصراً عاد إليها من "بيكند" بعد أن علم بحضور رافع ومساندته لإسماعيل. وتحقيقاً لهذا الهدف سار إسماعيل بن أحمد ومع رافع سالكاً طريق الصحراء متجهاً إلى سمرقند، ولم يجد إسماعيل ورفيقه في العام والمون في طريقهم لأن العام كان عام قحط وشدة، بالإضافة إلى أن أهالي هذه النواحي رفضوا أن يمدوا جيشه بالمون، لأنه كان في نظرهم خارجاً على الحكومة الرسمية، ولأن هواهم كان مع نصر بن أحمد، ووجدوا أنفسهم في عناء وشدة ومات عدد كبير من جيش رافع وإسماعيل من أثر الجوع والتعب (٢).

(١) ابن خلدون، العبر، ج ٣، ص ٣٨٩.

(٢) النرشخي، تاريخ بخارى، ص ٨١، بارتولد، تركستان، ص ٣٥٠.

وعندما علم نصر بذلك توجه فورا إلى "طوس" ليقطع الطريق عليهم، ويمنعهم من الوصول إلى هدفهم، وكان نصر قلقا فتحرك إلى "كرمينية" وأخذ جيش إسماعيل يلاحقه، فكتب نصر إلى ابنه بسمرقند يطلب منه جمع الغزاة وتعبئة الجيش. والظاهر أن حمويه بن علي أحد قواد إسماعيل قد حث رافع بن هرثمة على التقريب بين نصر وأخيه إسماعيل بدلا من أن يشنها حربا شعواء، وسرعان ما عقد الصلح بين الأخوين بفضل حيلة حموية، لقد فكر حمويه بن علي في هذا الصراع الذي تعرضت له الدولة السامانية في بدء نشأتها، وكيف أن هذا الانقسام الداخلي يهدد جبهتها الخارجية والداخلية، وخصوصا وأنها بجانب دول تطمع في الاستيلاء عليها كالصفارية، بالإضافة إلى أن إسماعيل بدأ يتعاون مع رافع بن هرثمة الذي استولى على خراسان حديثا ويخشى من أطماعه.

وأبدى حمويه بن علي مخاوفه من رافع بن هرثمة واحتال لذلك حتى عقد الصلح بين الأخوين ويعلق ابن الأثير على موقف حمويه بن علي، متصورا موقفه بقوله. " فكرت في نفسي وقلت إن ظفر إسماعيل بأخيه فما يؤمننى أن يقبض رافع على إسماعيل ويتغلب على ما وراء النهر، وإن لم يفعل ذلك ووفى لإسماعيل فلا يزال إسماعيل معترفا بأنه فقيد رافع وجريحه ويحتاج أن يتصرف على أمره ونهيه" ، ولذلك اجتمع حمويه برافع خلوة، وتظاهر بأنه ناصح أمين، وقال له "نصيحتك واجبة على، وقد ظهر لى من نصر وإسماعيل ما كان خفيا عنى ولست آمنهما عليك، والرأى أن لا تشاهد الحرب وتحملهما على الصلح، فقبل ذلك

فتصالها وانصرف عنهما" (١). وعاد رافع إلى خراسان بعد أن عبر جيحون، وعاد إلى دياره.

وتم الصلح لصالح نصر بن أحمد إذ أن شروطه كانت تقضى بأن يكون أمير بخارى إسحاق بن أحمد، ويكون إسماعيل عاملاً على الخراج، ولا تكون أموال الديوان باسمه، كما لا تكون الخطبة باسمه كذلك، وأن يدفع عن كل سنة ٥٠٠ ألف درهم. وعلى هذه الصورة تم الصلح، وعاد نصر بن أحمد إلى سمرقند (العاصمة) وكان ذلك في عام ٢٧٣ هـ (٢).

وتحسنت العلاقة بين نصر وإسماعيل فترة قليلة، ثم تدخل الوشاة بينهما فأفسدوا العلاقة بينهما، وتجددت الحرب في عام (٢٧٥ / ٧٨٨ م) بعد انقضاء خمسة عشر شهراً من تاريخ الصلح. وترجع أسباب هذه الحرب إلى أن نصراً أرسل في طلب المال الذي اتفق عليه في الصلح ولكن إسماعيل لم يرسل شيئاً، فبعث نصر برسالة إلى "رافع بن هرثمة" لأنه كان ضامناً لإسماعيل، فأرسل رافع إلى إسماعيل يوصيه بأن يرسل المال ويوفى بالالتزامات ولكن إسماعيل لم يلتفت إليه، ولم يعبأ به. وكانت النتيجة الحتمية لذلك أن جمع نصر جيشاً من أهل ما وراء النهر واستعان بالأمير أبي الأشعث وجنده بفرغانة، واتجه صوب "بخارى" مرة ثانية (٣).

وتجهز إسماعيل لملاقاة نصر بن أحمد وقامت الحرب بينهما، وانجلى المعركة بأن انهزم إسحاق بن أحمد أمير بخارى من قبل نصر بن أحمد وفراره إلى "فاراب" فأعطى ذلك الأمير إسماعيل الفرصة

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص ٩٢، ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٣٨٩.
(٢) النرشخي: تاريخ بخارى، ص ٨١، محمد علي حيدر، نفسه، ص ١٠١-١٠٢.
(٣) محمد علي حيدر، الدويلات الإسلامية، ص ١٠٢.

ليطور هجومه، فشن هجوما عنيفا ومركزا على جيش فرغانة وألحق الهزيمة به، وفر أبو الأشعث هاربا إلى سمرقند واضطر إلى الفرار منها إذ أن أهل سمرقند أردوا أن يقبضوا عليه. ومع أن إسماعيل كان في عدد قليل من رجاله، إلا أنه استطاع أن يلقي القبض على أحمد بن موسى ويرسله إلى بخارى، كما أتى باسحاق بن أحمد من "فاراب" بعد أن لجأ إليها. ولم ييأس الأمير نصر بن أحمد من هذه الهزائم المتوالية، وأخذ في تدبير أمورهم. وجعل يستعد للمعركة مرة أخرى بعد هذه الهزائم المتكررة التي لحقت بجيشه، وقابله إسماعيل، ونشبت الحرب في يوم الثلاثاء ١٥ من جمادى الآخرة سنة ٢٧٥ هـ / خريف ٨٨٨ م^(١)، وفي هذه المعركة انتصر إسماعيل على جيش "فرغانة"، وانهزم أبو الأشعث وانهزم الجيش كله، وقد حاول نصر بن أحمد أن يقاوم ومعه عدد قليل من المقاتلين ثم نزل عن حصانه وجلس على الأرض، ولما علم "إسماعيل" بذلك من "سيما الكبير" - وكان عبدا لوالدهما - جاء إلى نصر وترجل عن حصانه وقبل نصر على جبينه ويده وأمر جيشه بالابتعاد عن أخيه، وبهذا انتهت الحرب في صالح إسماعيل الذي قبض على أخيه نصر أول الأمر ولكنه اصطنع اللين والحكمة فأرجعه إلى سمرقند معززا مكرما^(٢).

ويعلق بارتولد عن ذلك بقوله "ولكن إسماعيل كشف عن ذلك الإعتدال والتسامح اللذين عرف بهما واللذين كان تلميها عليه الحكمة والتعقل، فعندما تقابل الأخوان لم يخاطب إسماعيل أخاه كما يخاطب الظافر أسيره، بل وضع نفسه موضع أحد الرعايا من سلطانه، ولاشك أن هذا السلوك

(١) النرشخي: تاريخ بخارى ٨١.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ح ٧، ص ١٥١، ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٣٨٩.

الحميد قد ترك أثره في نفس نصر، كما أنه من ناحية أخرى عمل على ذبوع شهرة إسماعيل".^(١)

وقد بلغ إسماعيل في إكرام نصر وقدم له الولاء والطاعة حتى أن نصرا ظن أن أخاه إنما يفعل ذلك من قبيل السخرية والاستهزاء، ولكن إسماعيل أرسله معززا وقال له في لحظة الوداع "إنني أحكم بالنيابة عنك هذه الديار". وظل نصر يحكم سمرقند إلى أن وافته المنية عام (٢٧٩ هـ - ٨٩٢ م) في حين ظل إسماعيل نائبا عنه في بخارى إلى أن خلفه في حكم الدولة السامانية^(٢).

وتوفي نصر بن أحمد في جمادى الآخر سنة ٢٧٩ هـ، بعد أن أرسى قواعد دولة وأوجد نظاما، وأرسى حجر الأساس لبناء مجد أسرته، وصارت الدولة السامانية بعد أن اجتازت مرحلة المحنة وفترة التأسيس، التي اعترضت طريقها في حاجة ماسة إلى شخصية قوية لتقوم بدور هام، وقد وجدت هذه الشخصية القوية ممثلة في إسماعيل بن أحمد الذي خلف أخاه نصرا في تولى مقاليد الأمور في الدولة السامانية^(٣).

(١) بارتولد، تركستان، ص ٣٥٠.

(٢) ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٣٨٥، فامبرى، تاريخ بخارى، ص ٩٥.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص ١٥١، محمد على حيدر، نفسه، ص ١٠٤.

اتساع الدولة السامانية

ولاية إسماعيل بن أحمد الساماني (٢٧٩-٢٩٥هـ) :

بعد أن اجتازت الدولة السامانية مرحلة التأسيس وما صاحبها من حروب أهلية وفتن داخلية خلال حكم نصر بن أحمد. تطورت هذه الدولة في عهد أخيه وخليفته إسماعيل بن أحمد أعظم حكام آل سامان بلا منازع في المجالات السياسية والحربية والإدارية، حتى اعتبره بعض المؤرخين المؤسس الحقيقي لهذه الدولة. ولقد كان عهد هذا الرجل بحق عهد اتساع الدولة السامانية وازدهارها وتأكيد استقلالها، مما دعا المؤرخون الشرقيون إلى تلقيبه بالأمير إسماعيل باعتبار استقلاله الظاهر عن حكومة بغداد.

وكان إسماعيل قد ولد بفرغانة في شوال ٢٣٤هـ/مايو ٨٤٩م، ومات أبوه وهو في الخامسة من عمره فتعلق بأخيه الأكبر في حب خالص وإجلال لم يتطرق إليهما أدنى تغيير حتى حين انقلب عليه نصر يحاربه كما رأينا، وأول ما ذاع صيت إسماعيل كان ببخارى إذ وليها من قبل أخيه نصر من عام ٢٦١-٢٧٩هـ/٨٧٤-٨٩٢م. وبعد وفاة أخيه نصر في جمادى الأولى سنة ٢٧٩هـ، خلفه إسماعيل على كل خوارزم وبلاد ما وراء النهر، ولكنه ظل مقيماً في بخاري واتخذها قصبته له، وعهد بحكومة سمرقند إلى أحد أبناء نصر، وقد أيدته الخليفة العباسي المعتصم بالله في إمارته وأصدر مرسوماً يقره في منصبه في المحرم سنة ٢٨٠هـ/٨٩٣م، وأرسل إليه ببخاري براءة التقليد والبنود والخلع المعتادة. وأصبحت بلاد ما وراء النهر كلها تابعة له بعد أن كان والياً

على بخاري فقط، وبانتزاع إسماعيل هذا الحق من الخليفة تأكد استقلال السامانيين^(١).

ويعلق (فامبري) على تقليد الخليفة العباسي لإسماعيل الساماني، بأن إسماعيل كان يرى في خضوعه للأمير المؤمنين استجلاباً لرضا الله عليه، وإن كان يعرف تماماً ماكان لبلاط بغداد من سلطان عليه في الواقع. كما كان الخليفة يدرك بدوره تمام الإدراك أن البراءة التي أذن فيها لإسماعيل بإجراء الخطبة وضرب السكة باسمه لم تكن إلا مجرد تقليد محض. فقد كانت الخلافة إذ ذاك تتوء تحت أعباء من كل نوع، فلا تكاد تتماسك نفسها إلا اعتماداً على شبكة من المؤامرات الصغيرة التي كانت تحيكتها. وقد عاش خلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم في رعب وفزع من تلك الدول الجديدة التي كانت تقوم في القسم الشرقي من دولتهم، حتى لوجد الخليفة المعتضد يفوض إلى الأمير إسماعيل شئون بلاد ما وراء النهر ويلقبه بلقب (حامي الملة) والمدافع عن الخليفة من أعدائه. ليكتب في الوقت نفسه في السر إلى عمرو بن الليث الثائر بخراسان، يأمره بحرب إسماعيل وخلعه^(٢).

وقد امتازت الدولة السامانية في عهده بالنشاط الحربي وخفة الحركة، فحاضت معارك حربية في عدة جبهات وهي:

(١) الحرب مع عمرو بن الليث الصفاري واستنساخه عمراقي

٢٨٧هـ.

(١) النرشخي، تاريخ بخاري، ص ٨٣، محمد علي حيدر، الدويلات الإسلامية، ص

١٠٧.

(٢) فامبري، تاريخ بخاري، ص ٩٨-٩٩.

(٢) قتاله محمد بن زيد الداعي، وغزوه جرجان وطبرستان بعون محمد بن هارون السرخسي في نفس عام ٢٨٧هـ الذي انتهى بقتل الداعي وفتح جرجان وطبرستان وضمهما إلى بلاد السامانيين.

(٣) قتاله لمحمد بن هارون الذي عصى إسماعيل بعد عام ونصف من توليته من جانبه حكم طبرستان، وترتب على هذه المعارك دخول الري وقزوین في طاعته.

(٤) الجهاد المقدس ضد الأتراك ودخولهم الإسلام على يديه.

ولما كانت تفاصيل الحرب مع عمرو بن الليث الصفار والقضاء على الدولة الصفارية، قد مرت علينا عند الحديث عن الدولة الصفارية، وكذلك الحديث عن الصراع الزيدي الساماني، وقاتل الأمير إسماعيل لمحمد بن هارون صاحب طبرستان عند دراستنا لتاريخ الدولة الزيدية، فلاداعي لتكرارها هنا، ولذلك سوف نقصر الحديث عن الجهاد المقدس ضد الأتراك، وعن علاقة الدولة السامانية بالخلافة العباسية.

جهاد إسماعيل الساماني وعلاقته بالعباسيين :

وكانت الدولة السامانية تبذل جهوداً كبيرة في سبيل الدعوة إلى الإسلام ونشر رايته في ربوع البلاد التي تخضع لسيطرتهم، فكانوا يغتزمون كل فرصة تتاح لهم لتحقيق هذه الغاية . لذلك كان السامانيون يشنون حروباً كثيرة ضد الأتراك، وقد اتخذت هذه الحروب سمة دينية ولاسيما في عهد إسماعيل بن أحمد الساماني.

ففي عام ٢٨٠هـ/٨٩٢م جرد إسماعيل بن أحمد جيشاً سار به إلى "طراز" للاستيلاء عليها أملاً في اتساع دولته من جهة، ورغبة في نشر الإسلام بها من جهة أخرى. وقد لاقى مشقة شديدة في هذه الحرب التي شنها على أمير "طراز" واستولى عليها إسماعيل وحول كنيستها إلى مسجد. وقرأ الخطبة باسم أمير المؤمنين المعتضد بالله ثم عاد إسماعيل إلى "بخاري" بغنائم كثيرة^(١). ويحاول ابن الأثير أن يقدم لنا وصفا لما غنمه إسماعيل بن أحمد فيقول "غزا إسماعيل بن أحمد الساماني بلاد الترك وافتتح مدينة ملكهم (طراز) وأسر أباه وامرأته خاتون ونحوها من عشرة آلاف وقتل منهم خلقاً كثيراً وغنم من الدواب ما لا يعلم عدداً وأصاب الفارس من الغنيمة ألف درهم"^(٢).

وقد اتسعت تجارة "طراز" بعد أن فتحها "السامانيون" ويؤخذ من أقوال الجغرافيين أن سكان هذه البلاد وإن كانوا مسلمين فإنهم كانوا خاضعين للأتراك الغز الذين لم يقبلوا الإسلام، أي أن هذه المدن لم تكن من تلك التي نشأت في الأقاليم وإنما كانت مستعمرات أنشأها المهاجرون مما وراء النهر برضا الحكام الأتراك المحليين^(٣).

وتأهب الأتراك لشن هجوم على الدولة السامانية وحاولوا الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر سنة ٢٩١هـ/٩٠٣م فأخذ إسماعيل بن أحمد الساماني يحرص المسلمين على الحرب ضد الأتراك، وأرسل إلى الخليفة ببغداد يبين له الخطوات التي هو في سبيل اتخاذها. وقد تمكن

(١) النرشخي، تاريخ بخاري ص ٨٣، حيدر، نفسه، ص ١٢٢.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ح ٧، ص ١٥٤.

(٣) طراز أو الطراز مدينة جليظة في أقصى بلاد الشاش مما يلي تركستان، وهي حصينة كثيرة البساتين مشتبكة العمارة، طيبة التربة عذبة الماء (المقدسي، نفسه، ص ٢٧٤-٢٧٥، القزويني، نفسه، ص ٥٤٤، لسترنج، نفسه، ص ٥٣٠).

إسماعيل من القضاء على الأتراك وصد هجومهم، ويصور "النويري" الهزيمة التي لحقت بالترك، والنصر الذي أحرزه إسماعيل بن أحمد فيقول: "وفي سنة إحدى وتسعين ومائتين خرجت الترك في خلق كثير لا يحصون كثرة، وكان عسكرهم سبعمائة قبة تركية، ولا تكون القبة التركية إلا لرؤوسهم، فوجه إليهم إسماعيل جيشاً عظيماً، وتبعهم خلق كثير من المتطوعة، فوصلوا إلى الترك وهم فارون فكبسهم المسلمون في الصباح فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وانهزم الباقون أشنع هزيمة".^(١)

ولم يكن هذا الموقف الدفاعي الذي وقفته الدولة السامانية برئاسة إسماعيل كافياً لتأمين حدود الدولة من غارة الأتراك الذين كانوا ينتالون انثيالاً على الدولة، فرأى إسماعيل بثاقب فكره أن ينتهج سياسة الهجوم ضد الأتراك حتى شعروا بقوته، وأنه قادر على أن يشن عليهم هجوماً مفاجئاً في عقر دارهم إلى أن افتتح إسماعيل بن أحمد مواضع من بلاد الترك سنة ٢٩٣^(٢).

ولما كان السامانيون بحاجة إلى اعتراف الخليفة لهم بحكم الأراضي الواقعة تحت سلطانهم والتي فتحوها بمجهوداتهم الحربية، حتى تكون كل ممتلكاتهم مبنية على أساس شرعي وتكون كل أنظمتهم طبقاً للقوانين الشرعية. لذلك كانت الضرورة تحتم عليهم أن يطلبوا من الخليفة أن يقرهم على البلاد المفتوحة حتى تكون ممتلكاتهم حقاً ثابتاً لهم، ناتجاً عن أسبقية غزوهم لهذه البلاد.

(١) النويري، نهاية الأرب، ح ٢٣، ص ١٧٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٧ ص ١٨٠.

وكان هذا الطلب من جانب السامانيين بمثابة إعلان عن رضوخهم السياسي للخليفة. وكان يرتبط بهذا نوع من الاعتراف بضرورة تجديده بموت أحد الطرفين. وبهذا أصبح الخليفة في بغداد راعي حقوق السيادة الأكبر، وصار السامانيون يملكون حكم السيادة الخاضعة. وكان طبيعياً أن يصبح إسماعيل بن أحمد - كسائر السامانيين - مطيعاً للخليفة، غير مفرط في أمور الحكم، ولم يعص الخليفة في عمره ساعة، وكان يحترم أوامره إلى أبعد الحدود^(١).

ولقد ظهرت الدولة السامانية بمظهر القوة في عهد إسماعيل بن أحمد الذي قامت الدولة في عهده بدور خطير في إزالة الدولة الصفارية كما تقدم، بعد أن عجزت جيوش الخلافة العباسية في القضاء عليها، وهو بهذا قدم خدمة كبرى للدولة العباسية.

كما تمكن إسماعيل بن أحمد الساماني من فتح بلاد طبرستان من يد محمد بن زيد الذي كان ينازع السامانيين والخلافة العباسية في خراسان. وبهذا وقف السامانيون ضد الحركات السياسية والمذهبية التي كانت تضر بمصالحهم وقت سلطتهم الشرعية في البلاد. ولم تكتف جيوش الدولة السامانية بطرد العلويين، بل جعلت طبرستان تحت السلطة الشرعية للدولة السامانية، وجعلت الخطبة باسم الخليفة العباسي.

ولما كان السامانيون يحيطون هذه الحركات التي كانت تناوئ العباسيين، لذلك كان الخلفاء العباسيون يمنحونهم الامتيازات التي حرمت على غيرهم فيجعلونهم حكاماً على هذه المناطق التي كانت تنبئ بعصيان، أو على وشك الانفجار.

(١) النرشخي: تاريخ بخاري ص ٩٠.

ولم يقد دليل على أن السامانيين كانوا يدفعون ضريبة منتظمة للحكومة المركزية في بغداد. وفي الواقع أنه منذ هزيمة محمد بن طاهر سنة ٢٥٩هـ، لم يدفع حكام خراسان مبالغ محددة من المال لحكومة بغداد، وإزاء تحدي الصفاريين، فقد كان من صالح الخلافة العباسية أن تعطي إقليم خراسان وما وراء النهر لحاكم يعترف لهم بالولاء بنفس الشروط التي كان يحكم بها الصفاريون الذين تحدوا سلطان الخلافة.

وقد صدك السامانيون اسمهم على العملة الذهبية بجانب اسم الخليفة وبهذا تمتع السامانيون بأمر قاتل الصفاريين من أجلها وهي: حفر أسمائهم على العملة، وذكر أسمائهم على المنابر بجانب اسم الخليفة، وتخصيص كل الخراج لهم^(١).

وكان السامانيون يتمتعون باستقلال كبير عن الحكومة المركزية فيما يختص بالإدارة الداخلية، فهم الذين كانوا يولون ولاية أقاليمهم، أو يعزلونهم عن مناصبهم، كما كانوا يقمعون الثورات أو الهجمات التي كانت توجه إليهم، وهكذا كانت العلاقة بين إسماعيل والخلافة العباسية تقوم على أساس المودة حتى أن الخلفاء كانوا يعتمدون على إسماعيل في إقرار سلطانهم على بلاد المشرق، كما اعتمدوا على ابنه أحمد الذي خلفه في الحكم.

ولاية أحمد بن إسماعيل وابنه نصر (٢٩٥-٣٣١هـ):

لما توفي إسماعيل بن أحمد الساماني سنة ٢٩٥هـ، أقر الخليفة المكتفي ابنه أبا نصر أحمد بن إسماعيل على ولاية أبيه وخلع عليه. وقد

(١) محمد على حيدر، الدويلات الإسلامية في المشرق، ص ١٢٥.

هاجم أحمد في أول أمره سمرقند و استخلصها من يد إسحاق بن أحمد بن سامان الذي أنابه فيها أبوه إسماعيل، وحمل إسحاق أسيرا إلى بخاري. وقد تم زوال الدولة الصفارية على يديه فأسر غلامه سيمجور، سبك السيكري غلام عمرو بن الليث الصفار، كما أسر الليث بن علي الصفاري. وفي المحرم من هذه السنة استولى السامانيون على سجستان من يد المعدل بن علي بن الليث الصفاري وأسر أخاه محمد بن الليث، وبعث بسبك ومحمد إلى بغداد، على أن هذه البلاد لم تلبث أن خلت طاعة أحمد ابن إسماعيل، ودعا أهلها لعمرو بن يعقوب بن محمد بن عمرو بن الليث الصفار. فأرسل السامانيون الجيوش لإخضاعها بقيادة القائدين الشهيرين الحسين بن علي المرورودي وسيمجور الدواتي، واستمرت الحرب بين الفريقين نحو من سنة حتى تم النصر للسامانيين، وقبض على الصفاري، وتولى سيمجور سجستان من قبل السامانيين في ذي الحجة (٣٠٠ هـ) (١).

ولم تطل ولاية أحمد بن إسماعيل حيث قتل في سنة ٣٠١ هـ. وقد ذكر ابن الأثير أنه كان مولعا بالصيد، فخرج متصيذا، وأنه أتاه كتاب نائبه بطبرستان يخبره بظهور الحسن بن علي العلوي الأطروش وتغلبه عليها، وأنه أخرجه عنها، فخرج أحمد لذلك وعاد إلى معسكره، وكان قد أحرقه قبل خروجه للصيد، فنزل عليه فتطير الناس من ذلك. وكان له أسد يربطه كل ليلة على بابه، فلا يجسر أحمد أن يقربه، فأغفلوا إحضار الأسد تلك الليلة، فدخل إليه جماعة من غلمانه فذبحوه على سريره وهربوا، وذلك لسبع بقين من شهر جمادى الآخرة سنة ٣٠١ هـ فحمل إلى بخاري فدفن بها ولقب بالأمير الشهيد، وقتل من وجد من أولئك الغلمان، وتلا ذلك أن

(١) ابن خلدون، العبر ح ٤، ص ٤٣٩، فامبري تاريخ بخاري، ص ١١٢.

استولى حزب البلاط على السلطة، ثم اتهموا الكاتب أبا الحسن نصر
ابن إسحق بالتحريض على قتله وأعدموه^(١).

كان (أبو الحسن نصر بن أحمد الساماني) في الثامنة من عمره
حين قتل أبوه، فاستصغر الناس سنه واستضعفوه، واعتقدوا أن أمره لا
ينتظم مع وجود عم أبيه، وهو إسحاق بن أحمد بن أسد صاحب سمرقند
الذي استمال أهالي بلاد ما وراء النهر - عدا بخاري - إليه وإلى أولاده،
وأرسل هو وبعض أمراء البيت الساماني إلى الخليفة العباسي المقتدر
يسأله كل منهم إمرة ناحية من نواحي خراسان. ولكن الخليفة أقر نصرا
على بلاد أبيه، وأقر اللقب الذي تلقب به وهو السعيد، وضبط بلاده
أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني.

وقد ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٣٠١ هـ أن إسحاق بن أحمد
بن أسد الساماني وابنه إلياس بن إسحاق، ثارا على السعيد نصر وسارا
نحو بخاري، ولكن الهزيمة حلت بهم غير ذات مرة، واستولت جيوش
نصر على سمرقند، واختفى إسحاق، ثم أسر، وهرب ابنه إلياس إلى
فرغانة، وخرج ابنه الثاني أبو صالح منصور على نصر في السنة التالية
وانضم إليه بعض قواد نصر وعملوا على الاستيلاء على سجستان على
أن يتولوها نيابة عنه، وأقاموا الخطبة له على منابر نيسابور، واستمرت
الحروب بين جيوش نصر وجيوش ابن عمه منصور زهاء أربع سنين
(٣٠٢-٣٠٦ هـ) وانتهت بعودة نيسابور وغيرها إلى نفوذ نصر^(٢).

(١) ابن خلدون، العبر ح ٤، ص ٤٣٩-٤٤٠، بارتولد، تركستان ص ٣٧١، حيدر، نفس
المرجع، ص ١٣٤-١٣٩.
(٢) ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٤٤١، ٤٤٣، فاميرى، تاريخ بخارى، ص ١١٣-
١٤٤.

أخذ إلياس بن إسحاق بن أحمد بن أسد الساماني الذي كان قد ثار مع أبيه يعد العدة لمحاربة نصر حتى اجتمع حوله ثلاثون ألف فارس، ثم قصد سمرقند متاوناً نفوذ السعيد نصر بن أحمد الذي انتصرت جيوشه بقيادة حمويه بن علي عليه في سنة ٣١٠ هـ، ولقد اختفى إسحاق بن أحمد بعد هذه الهزيمة، وجد حمويه بن علي في طلبه فضايق به مكانه، واستأمن إلى حمويه وحمله إلى بخاري وأقام بها إلى أن مات. ولحق إلياس بفرغانة بقصد الاحتفاظ بها فأقام بها إلى سنة ٣١٦ هـ، وأجمع المسير إلى سمرقند واستظهر بمحمد بن الحسين بن مت من قواد السامانيين، واستمد أهل فرغانة الأتراك فأمدوه، واجتمع إليه ثلاثون ألف فارس وتوجه إلى سمرقند، فأرسل الأمير السعيد أبا عمرو ومحمد بن أسد في ألفين وخمسمائة رجل فهزموه، وقتل ابن مت وأنفذت رأسه إلى بخاري، فلم ييأس إلياس واستمد صاحب الشاش أبو الفضل بن أبي يوسف فأمده بنفسه، فعاود محاربة والي سمرقند فانهزم إلى كاشغر، وأسر أبو الفضل وحمل إلى بخاري فمات بها، وسار إلياس إلى كاشغر وصاهر صاحبها طغاتكين التركي وأقام معه^(١).

وقد زالت هذه الفتن في أغلبها بفضل تدبير وحنكة رجال الأمير السعيد وعلى رأسهم الوزير الجيهاني. ولما مات الجيهاني استوزر الأمير نصر أبا الفضل محمد بن عبيد الله البلعمي الذي كان وزيراً لجده إسماعيل وأبيه أحمد فظل في الوزارة حتى عام ٣٢٦ هـ.

وكانت العلاقة بين السامانيين والخلافة العباسية تقوم على أساس المودة، حتى أن الخلفاء كانوا يعتمدون على أمراء البيت الساماني في

(١) ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٤٤٥-٤٤٦، بارتولد، تركستان، ص ٣٧١-٣٧٣، عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ١٤٢.

إقرار سلطانهم في بلاد الشرق، ولما دعا الخليفة المقتدر يوسف بن أبي الساج إلى واسط لإفناذه لمحاربة القرامطة، كتب إلى السعيد نصر الثاني الساماني بولاية الري، وأمره بقصدها والاستيلاء عليها من فاتك غلام يوسف بن أبي الساج، فاستولى عليها نصر وولي عليها سيمجور وعاد إلى بخاري.

وكانت الفتنة العظمى التي حدثت في عهد وزارة أبي الفضل البلعمي خروج أخوة نصر الثلاثة عليه في (٣١٨هـ). وكان نصر قد ألقى بإخوته هؤلاء حتى لا يدعوا إمارته حبس قلعة بخاري. وفي هذا العام حينما ذهب الأمير نصر إلى نيسابور تمكن إخوته الثلاثة من خداع حراسهم بعون من جماعة من أهل بخاري فلادوا بالفرار وأطلقوا أسر عدد آخر من العلويين والديالمة كانوا نزلاء السجن معهم، ثم اتجهوا إلى خزائن الأمير نصر فنهبوها واستولوا على دوره وقصوره، فرجع الأمير نصر من نيسابور إلى بخاري وتمكن بعون البلعمي وأبي بكر محمد بن مظفر بن محتاج الجفاتي قائد جيش السامانيين في خراسان من إخماد فتنة بخاري، وتفرق أخوة نصر الثلاثة في أطراف البلاد.

وكان من بين أصحاب أخوة نصر جماعة من الشيعة الإسماعيلية والفاطمية وكانت رئاسة بعضهم لابن الحسين بن علي المرورودي. وكان للشيعة الإسماعيلية كما سبقت الإشارة في هذا الوقت نفوذ في البلاد السامانية وقد بلغ نفوذهم بلاط السامانيين نفسه، إذ أنهم أدخلوا جمعا من رجال بلاط الأمير نصر في مذهبهم. ووفق داعي خليفة الحسين بن علي المرورودي أخيرا في أن يدخل الأمير نصر الساماني أيضا في هذا المذهب. وقد دفع نصر مبلغ تسعة عشر ومائة ألف دينار دية موت

المرورودي إلى خليفة الحسين لكي يرسلها إلى القائم الخليفة الفاطمي بمصر إمام الإسماعيلية.

وكان دخول الأمير نصر في المذهب الإسماعيلي باعث تعب لغلمانه الأتراك الذين كانوا حفظة الأمير وبلاطه وذوي نفوذ عليهم، فصمموا أن يزيلوا نصرا من الإمارة وأن يقتلوا الإسماعيلين، وأعلن نصر في هذا الوقت أي حدود (٢٢٠هـ)، وكان عليلا، تبرأه من الإسماعيلين واعتزل الإمارة واستخلافه ابنه نوحا للغلمان الأتراك ومخالفه الآخرين. ولما مات في (٣٣١هـ)، قام نوح بقتل خليفة المرورودي وجميع رجال البلاط ورؤساء الجيش والكبار الذين اعتنقوا هذا المذهب، فتحولت الإسماعيلية مضطرة من هذا الوقت من الدعوة العلنية إلى الدعوة الخفية.

وانتهت وزارة الأمير نصر بعد عزل أبي الفضل البلعمي في (٣٢٦هـ) إلى أبي عبد الله الجيهاني وزيره الأول وهو أبو علي أحمد بن الجيهاني، لكن أبا الطيب محمدا بن حاتم المصعبي من الكتاب المنشئين ذوي النفوذ ومن فضلاء الإسماعيلية في البلاط الساماني ومن ممدوحى الرودكي عارض هذا التعيين، وحدث خلاف بين أتباع المصعبي والجيهاني فصارت أمور إمارة نصر نهب الاختلال، ودام هذا الحال إلى أن هلك أبو علي الجيهاني في (٣٣٠هـ) تحت بيت منهار، فاستوزر نصر وكان قد اعتنق المذهب الإسماعيلي المصعبي. لكن وزارته لم تطل لأنه بعد اعتزال نصر وتولي نوح كان مصير المصعبي القتل ضمن كبار الإسماعيليين.

فتوح الأمير نصر وعلاقاته الخارجية:

كان ذروة انبساط حدود الدولة السامانية في أيام إمارة الأمير نصر التي بلغت الثلاثين عاما، والفضل الأكبر لهذا الاتساع يعود إلى كفاءة وتدبير الوزيرين المشهورين أبي عبد الله الجيهاني، وأبي الفضل البلعمي ورؤساء الجيش مثل حمويه بن علي كوسة وأبي بكر محمد بن مظفر الجغاتي وابنه أبي علي أحمد وقراتكين التركي وأبي عمران سيمجور الدواتي، وإلا ما استطاع الأمير نصر لصغر سنه ولشبابه (كان بلغ نحو الثمانية والثلاثين عاما عند وفاته) أن ينهض باحتواء المشاكل التي أشرنا إليها آنفا وبالسيطرة على البلاد الواسعة التي تم الاستيلاء عليها، لاسيما وأن الأمير نوحا توافر له فوق أعدائه في الداخل الذين ذكرنا أسماء أظهرهم، أعداء وخصوم خارج حدود بلاده التي ورثها عن آبائه من قبيل الدعاة العلويين بطبرستان وما كان بن كاكي وليلى بن النعمان ومرد أويج وغيرهم.

فكما رأينا في تاريخ الزيديين، فقد حاول قادة الأمير نصر في أيام إمارة الناصر الكبير أن يستخلصوا طبرستان وجرجان منه بعد أن استصفاهما من قبضة العمال السامانيين، لكنهم فشلوا في إعادة هاتين الولايتين إلى السامانيين برغم محاولاتهم العديدة ولم يروا غير مصالحته علاجا. أما خليفة الناصر الكبير وهو الحسن بن القاسم الداعي الصغير فقد سير في (٨٠٨ هـ) قائده ليلى بن النعمان صوب خراسان للاستيلاء عليها، واستولى ليلى على نيسابور ثم هاجم منها طوس لكن حموية وأبا الفضل البلعمي وسيمجور الدواتي أطبقوا عليه بطوس وأوردوه مورد الهلكة في (٩٠٩ هـ). وأمر نصر في السنة التالية قراتكين

بالاستيلاء على جرجان بجيش يبلغ الثلاثين الفا، فاستولى عليها، لكن العلويين استردوها بعد عودته. فبعث نصر هذه المرة سيمجور إليها وسير معه البلعمي في عونه، لكنهما لم يحققا شيئا أمام ما كان بن كاكى القائد الآخر للداعي، وهكذا احتفظ العلويان بجرجان، حتى قدم الأمير نصر بشخصه في (٣١٤هـ) إلى طبرستان فلم يلق غير الهزيمة والعار وغرم ثلاثين ألف دينار دفعها إلى الداعي الصغير لكي ينجو من مضايق طبرستان. ومع أن نصرا في هذا السفر أخذ الري من عمال الداعي وأتاب فيها عامله، لكنها عادت إلى العلويين بعد عامين أيضا وتولاها ما كان من قبل الداعي. ولم يستطع نصر إلا أن يقضي على الداعي الصغير بيد أسفار ومرد أويج خصمه الكبير ويأمن بذلك شره.

وبعد قتل اسفار وإمارة مرد أويج قائده للري وطبرستان وجرجان، رأى الأمير الزيارى صلاحه في مماثاة السامانيين فترك جرجان بنصيحة البلعمي للأمير نصر، فأتاب نصر فيها وفي قيادة الجيش وحكم خراسان أبا بكر محمدا بن مظفر الجفاني ولم يتعرض مرد أويج قط إلى ولايات السامانيين ما دام حيا.

وفي خلال هذا الوقت أي في عام (٣٢٢هـ)، ذلك العام الذي استولى فيه على بن بويه البويهى على سيرا، فتح الأمير أبو بكر الجفاني والى خراسان كرمان بيد ما كان بن كاكى قائد مرد أويج الذي كان قد لقى الهزيمة منه ولأذ بالسامانيين، وطرده أبو بكر أبا علي محمد بن إلياس صاحب هذه الولاية منها، وظلت كرمان لفترة تبع حوزة السامانيين. وبعد قتل مرد أويج أمر نصر أبا بكر الجفاني وماكان بالسيطرة على جرجان وطبرستان والري كما مر في تاريخ الزياريين، لكنهما لقا هزيمة مرة من عامل وشمكير أخى مرد أويج وخلفه.

وفي (٣٢٧هـ) عزل الأمير نصر أبا بكر الجعاني الذي كان مريضاً في ذلك الوقت عن حكومة خراسان وولاهها ابنه أبا علي أحمد، وهاجم أبو علي في (٣٢٨هـ) جرجان في تعقبه لما كان الذي لحق مرة أخرى بآل زيار وانصرف عن السامانيين. وبعد أن استولى عليها عهد بها إلى إبراهيم بن سيمجور، وبعد قليل أي في ربيع الأول (٣٢٩هـ) أصاب بعون آل بويه من ماكان مقتلاً على مقربة من الري وهزم وشمكير واستصفي للأمير نصر بلاد أبهر وزنجان وقزوین وقم والكرج وهمدان ودينور وأوصل حدود الدولة السامانية وإن لم يدم هذا الاتساع طويلاً حتى حدود عراق العرب. (١)

كان السعيد نصر بن أحمد على جانب عظيم من حسن الخلق. وقد وصفه ابن الأثير فقال إنه كان حليماً كريماً عاقلاً ذو فتوة. حكى عنه أنه خرج عليه أخوه أبو زكريا ونهب خزائنه وأمواله، فلما عاد السعيد إلى حاضرة ملكه، قيل له إن جماعة انتهبوا ماله، فلم يعرض لهم وأخبروه أن بعض السوقة اشترى منه سكيناً نفيساً بمائتي درهم، فأرسل إليه وأعطاه مائتي درهم وطلب السكين، فأبى أن يبيعه إلا بألف درهم، فقال: ألا تعجبون من هذا؟ أرى عنده مالي فلم أعاقبه وأعطيته حقه فاشتط في الطلب؟ ثم أمر باسترضائه. وطال مرضه فبقي به ثلاثة عشر شهراً، فأقبل على الصلاة والعبادة، وبنى له في قصره بيتاً سماه بيت العبادة. فكان يلبس ثياباً نظافاً ويمشي إليه حافياً ويصلي فيه ويدعو ويتضرع،

(١) ابن خلدون، العبر، ح٤، ص ٤٤٨ وما بعدها، عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ١٤٣-١٤٦.

وكان ذلك في سنة ٣٣١هـ/ ٩٤٣م، بعدما تولى إمارة السامانيين ثلاثين سنة وشهرا وثلاثة أيام، ومات وله من العمر ثمان وثلاثون سنة^(١).

وتزعم بعض الروايات أن نصرا قد اغتاله غلماناه مثل أبيه أحمد، ويأتي على رأس أصحاب هذه الرواية، حمد الله قزويني والنرشخي والجوزجاني، وهذه المصادر تورد لوفاته تاريخا مغايرا لما سبق ذكره وهو عام (٣٣٠هـ/ ٩٤٢م). والأرجح كما يذكر (بارتولد) أن هذا ليس تاريخ وفاته وإنما هو تاريخ تنازله عن العرش وانتقال السلطة الفعلية إلى يد ابنه نوح^(٢).

وقد خالف نظام الملك ما ذكره ابن الأثير عن نهاية السعيد نصر بن أحمد الساماني فقال إنه دان بعقائد الإسماعيلية، وإن القواد دبروا مؤامرة لاغتياله. فلما أدرك نصر الخطر المحقق به، نزل عن الإمارة لابنه نوح الذي عمل على القضاء على المذهب الإسماعيلي وأنصاره في بلاده. وذكر المقرئ أن نصرا بن أحمد الساماني أمير خراسان بعث إلى عبيد الله المهدي بكتاب يعترف فيه بسلطته الروحية ويعد بإمداده بالرجال. والخلاصة أن الوقائع الهامة التي حدثت في مدة إمارة نصر بن أحمد، ومعاصرتة الوزراء والرجال والقادة المشهورين الأكفاء والشعراء مثل الرودي والشهيد البلخي (ت ٣٢٥هـ) قد جعلت من نصر أشهر الأمراء السامانيين. (٣)

(١) ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٤٥٢، حيدر، نفسه، ص ١٦٥-١٦٦.

(٢) بارتولد، تركستان، ص ٣٧٦.

(٣) حسن ابراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج ٣، ص ٧٧.

ولاية نوح بن نصر (٣٣١-٣٤٣هـ):

تعتبر بداية إمارة نوح بن نصر هي بداية عهد ضعف الدولة السامانية، لأن هذا الأمير وكان في خوف من ثورة السنة والأتراك المعتصبين كما فعلوا مع أبيه ويود دائما الاستحواذ على رضاهم. ألقى زمام أمور الدولة بعد بلوغه الإمارة إلى أحد فقهاء زمانه وقضاته بدلا من أن يعهد بها إلى رجل جدير بها محنك بأمورها. ورغم أن هذا الوزير كان عالما ورعا، لكنه لم يكن على حظ بأمور السياسة وتدبير شئون الدولة وهو أبو الفضل محمد بن أحمد السلمي الملقب بالحاكم الجليل أو الحاكم الشهيد، الذي كان يصرف أكثر وقته في العبادة والصلاة وتصنيف الكتب في الفقه، وقل أن اهتم بإدارة البلاد السامانية. هذا بالإضافة إلى تضجر الجنود لعدم قبضهم رواتبهم بسبب فقر الخزانة وسلبها أثناء ثورة إخوة الأمير نصر وعند وفاته، فتقاعصوا - الجند - عن دفع الثورات التي شبت في خوارزم وفرغانة وخراسان مما أدى إلى اختلال الدولة وضعفها.

وتجدر الإشارة إلى أن الأمير نصر بن أحمد كان قد جعل ولاية العهد من بعده لابنه الأصغر. لكن الملك صار بالفعل إلى أخيه الأكبر نوح. ولقد تولى نوح بن نصر الساماني بلاد خراسان وما وراء النهر في شهر شعبان سنة ٣٣١هـ، واستهل إمارته بما يدل على شهامته حين عفا عن بعض الأمراء الذين كان يحقد عليهم في حياة أبيه ليتألف القلوب حوله ويأمن خروجهم عليه، وولاهم بعض الولايات مثل أبي الفضل محمد ابن أحمد أكبر أنصار خصمه السابق وندبه لحكومة سمرقند^(١). وقد بدأ الصراع بين السامانيين وبني بويه في أيام نوح بن نصر الذي عمل على

استرداد الري من يد ركن الدولة ابن بويه وتفاقم النزاع بينهما، وانتهى بهزيمة جيوش نوح بسبب انضمام جنده إلى البويهيين. بيد أن نوحا أعد العدة من جديد لمحاربة ركن الدولة والاستيلاء على الري، وتمكنت جيوشه من الاستيلاء عليها وعلى بلاد الجبل في شهر رمضان سنة ٣٣٣هـ^(١).

وقد تعرضت بلاد نوح بن نصر لخطر جسيم بسبب خروج قائده أبي علي بن محتاج الذي أخلص له ولأبيه من قبل، وكان ابن محتاج عاملاً للأمير نوح الساماني على خراسان، فلما حدث النزاع مع بني بويه أمره الأمير نوح أن يسير بعساكر خراسان إلى الري لينتزعها من يد ركن الدين بن بويه فسار لذلك، ولقى في طريقه وشمكير وأفداً على الأمير نوح فبعثه إليه، وسار أبو علي إلى بسطام فاضطرب جنده، ثم استولى أبو علي بن محتاج على الري وعلى سائر أعمال الجبل، وأنفذ نوابه إلى الأعمال. ثم سار الأمير نوح من مرو إلى نيسابور وأقام بها. ووضع جماعة من الغوغاء والعامّة يستغيثون من أبي علي ويشكون سوء السيرة منه ومن نوابه، فعزله نوح واستعمل بدلاً منه زعيم الحزب التركي إبراهيم بن سيمجور الذي كان "يجمع إلى هيبة الملك سياسة الدين". ويذكر ابن خلدون أن نوحاً "د من ذلك" أن يقيم أبو علي بالري لحسن دفاعه عنها وينقطع طمعه عن خراسان^(٢).

غير أن أبا علي لم يكن على استعداد ليخلي الجو لخلفه طواعية، كما أن الدولة لم تكن في وضع يسمح لها باستعمال القوة معه، لأن العسكر لم يكونوا قد تسلموا أرزاقهم بعد، وأخذوا يعلنون تدميرهم من

(١) ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٤٥٣-٤٥٤.

(٢) ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٤٥٣-٤٥٤.

الأمير ووزيره الجديد إبراهيم بن سيمجور. وقد نتج عن المشاكل المالية زيادة الخراج والضرائب، ويذكر (المقدسي) أنه حدث ذات مرة في إمارة نوح أن استقرضت الحكومة خراج سنة من الناس ولم تستطع دفعه بتاتا، وقد كثر تضرر الشعراء من عمال ديوان الخراج الذين عمدوا إلى جمع بقايا الخراج، في حين لم يكن بوسع الناس أن يدفعوا الخراج المقرر.

وفي خريف عام ٩٤٦ ضحى نوح بزعيم الحزب العسكري أحمد ابن حمويه (والأرجح أنه كان ابنا لحمويه بن علي المشهور) من أجل الوزير، ولكن في خلال الشهرين التاليين لم يستطع أن يحول بين العسكر وبين الفتك بالوزير الذي أخذوا عليه تأخير أرزاقهم بالاتفاق سرا مع أبي علي. ويرى المؤرخون أن الوزير قد قتل بأمر من نوح، وفقا لرواية البيهقي التي حفظها السمعاتي فإن السلطان أرسل جماعة لحمايته ولكن الجند الثائرين أزالوها ووصلوا إلى الوزير فقتلوه.

وفي خلال ذلك كان أبو علي قد أرسل في طلب عم لنوح من أرض الجزيرة هو إبراهيم بن أحمد. ولم يلبث أن انضم إلى الثوار جيش نوح، الذي لم يتسلم أرزاقه فيما يبدو حتى بعد مصرع الوزير. ولم يكذب بمضي شهر على مصرع "الحاكم الشهيد" حتى دخل أبو علي وإبراهيم بخارى وذلك في يناير عام ٩٤٧ وقرنت الخطبة باسم إبراهيم، بينما انسحب نوح إلى سمرقند. ولم يدم حكم أبي علي ببخارى أكثر من شهرين، فقد اضطره موقف العداء الذي اتخذته الأهالي إلى الانسحاب فجعل أنصاره على وظائف الديوان الكبرى وغادر بخارى تاركا إلى جنب إبراهيم عضوا آخر من أسرة السامانيين هو أبو جعفر محمد أخو نوح. وقد غادر أبو علي بخارى بحجة الزحف على سمرقند ولكنه حين بلغ نسف اتجه نحو وطنه صغانيان، عندئذ سارع الأميران بالدخول في مفاوضات مع

نوح الذي وعدهما بالعفو واستطاع الرجوع إلى عاصمته في أبريل. ولم يبد نوح في خصومته مع الثوار ذلك التسامح والاعتدال اللذين عرف بهما أبوه، فرغما من وعوده التي قطعها فقد أمر بسمل أعين عمه وأخويه (أبي جعفر محمد وأبي محمد أحمد) وأعدم أحد كبار النبلاء وهو الحاجب طغان، ثم تم تعيين منصور بن قراتكين كبير بيت أمراء اسفيجاب واليا على خراسان، أما إبراهيم بن سيمجور فقد توفي في ربيع عام ٤٧٨. (١)

غير أن كبير الثوار، أعني أبا علي فإنه لم يكن قد هزم بعد، ولما علم أن نوحا بسبيل جمع جيش للزحف عليه تراجع إلى بلخ (مما يحملنا على الافتراض أن حاكمها كان في جانبه) ومن هنالك زحف مرة أخرى على بخارى ولكنه هزم قرب خرجك، هذا على الرغم من أن نوحا انسحب بقواته الرئيسية من ميدان المعركة، وكان ذلك في آخر عام ٩٤٧. وكان انتصار قوات الحكومة حافزا لعقوبات صارمة وقتل جديد، وكان من بين الضحايا أحد أفراد أسرة العتبي.. وتصرفات أبي علي التالي (من انسحابه إلى بلخ وجوزجان، وتحالفه مع أمير الختل، واجتماعه بعسكره قرب سمنجان، وحلفه مع الكيمجي وأمير راشنت) تقف دليلا على أنه قد نجح في أن يثير ضد الحكومة المركزية أمراء جميع الأقاليم الخاضعة لآل سامان والواقعة على المجرى الأعلى لنهر أمورديا. ونتيجة لهذا فإن جيش بخارى رغما من انتهابه لصغانيان عاصمة أبي علي، لم يلبث أن وجد نفسه في موقف عسير وقطع عليه طريق الاتصال ببخارى. وفي آخر عام ٩٤٨ على وجه التحديد اتفق الطرفان على الصلح وبعث أبو علي بابنه إلى بخارى كرهينة. ولا علم لنا بالشروط التي قبلتها حكومة بخارى من أبي علي وحلفائه، غير أنه مما يقف دليلا على أن

(١) بارتولد، تركستان، ص ٣٨٠.

النصر كان في جانب الثوار ما قوبل به ابن ابي علي من حفاوة وتكريم لدى وصوله إلى بخارى، فقد زينت المدينة من أجله وخلع عليه وأجلس على مائدة الأمير، أما ابو علي فقد ظل بالصغانيين بل أنه استجاب لطلب للحكومة فأخذ ثورة دينية محلية قامت ضد تعاليم الإسلام. وأما في خراسان فقد جهد منصور بن قراكين عبثاً في استعادة النظام بين العسكر، ولم يتوقف في رجائه للأمير ان يعفيه من هذه المهمة الثقيلة، ومن الجلي أن أرزاق الجند لم تكن تدفع بشكل منتظم وذلك على نحو ما كان عليه الحال من قبل. وتوفي منصور عام ٩٥١ وعين خلفاً له أبو علي الذي وصل إلى خراسان في عام ٩٥٢ تاركاً صغانيين وترمز في يد ابنه أبي منصور نصر بن أحمد. وقد استطاع أبو علي أن يعيد النظام إلى خراسان وخوارزم وبدأ الحرب ضد البويهيين، وانتهت الحرب بعقد صلح مما اثار سخط نوح فعزل أبا علي وعين مكانه أبا سعيد بكر بن ملك الفرغاني. ولكن قبل أن يسافر بكر إلى مقر عمله توفي نوح في يوم الإثنين الثامن من أغسطس عام ٩٥٤. (١)

وقد كاتب الجند إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل عم نوح بن نصر الساماني - وكان قد انضم إلى ناصر الدولة بن حمدان - يطلبون إليه الحضور لمبايعته، فلبى دعوتهم، وقامت الحرب بينه بمساعدة أبي علي وبين نوح بن نصر، واستولى على نيسابور ومرو وبخارى في سنة ٣٣٥هـ، وخطب فيها لإبراهيم بن أحمد بن إسماعيل. على أن أبا علي لم يلبث أن خرج على إبراهيم الذي مال إلى خلع نفسه والاتفاق مع نوح على أن يتقلد إمرة جيوشه، وعمل على تولية أبي جعفر محمد بن نصر بن أحمد أخي الأمير نوح بن نصر، وباع له وأقام الخطبة باسمه في كثير من

(١) ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٤٥٤-٤٥٥، بارتولد، تركستان، ص ٣٨١.

نواحي خراسان وبلاد ما وراء النهر. واستمرت الحروب بين أبي علي ونوح بن نصر من سنة ٣٣٤ إلى ٣٣٧ هـ، وانتهت بعقد لصلح بينهما^(١). واستطاع نوح بن نصر أن يسترد الري وبلاد الجبل من ركن الدولة ابن بويه الذي كان له أثر كبير في إثارة أبي علي (٣٣٩ هـ).

ويذكر (النرشخي) أن نوحا أنجب خمسة أبناء هم عبد الملك ومنصور ونصر وأحمد وعبد العزيز. ولقد حمل الأمير نوح - جريا على عادة بعض الخلفاء - الرعية أثناء حياته على مبايعة أولاده الخمسة لولاية الحكم الواحد تلو الآخر كما يذكر (الكرديزي). ويذكر (بارتولد) أن الارستقراطية العسكرية قد بلغت مكانة عالية في عهد الأمير نوح. ويدل على ذلك مستندا على رواية المقدسي أنه عين لكل واحد من الأمراء الثلاثة الكبار من أولاده حاجبا خاصا من بين قادة الحرس؛ عبد الملك إلى نجاح، ومنصورا إلى فائق ونصرا إلى ظريف، فأجلسوا أبو الفوارس عبد الملك العرش بعد وفاة أبيه^(٢). الذي تقلد العرش الساماني لمدة اثني عشر عاما وثلاثة شهور في ربيع الأول من عام ٣٤٣ هـ، وكان قد لقب بالأمير الحميد، لقبه بذلك معاصروه، لطيب سيرته وحسن أخلاقه^(٣).

ولاية عبد الملك ومنصور ابنا نوح (٣٤٣-٣٦٦ هـ) :

لما تولى عبد الملك بن نوح إمرة السامانيين سنة ٣٤٣ هـ، عين أبا منصور محمدا بن عزيز وزيرا له، وقلد بكرا بن مالك قيادة الجيوش في خراسان، وسيره من بخاري لإخراج أبي علي بن محتاج، الذي انضم

(١) ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٤٥٥، حسن إبراهيم حسن، نفسه، ج ٣، ص ٧٧.

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٣٣٧، بارتولد، تركستان، ص ٣٨١ - ٢٨٢.

(٣) ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٤٥٩.

جنده إلى عبد الملك وبقي هو في مانتى رجل من أصحابه، واضطر إلى الهرب ولجأ إلى ركن الدولة في الرى فأحسن وفادته^(١).

ولم تبق الحكومة الجديدة على دست الحكم لوقت طويل فبكر ابن ملك "عامل الحرس باحتقار وأهمل مطالبهم وأثار حفيظتهم عليه" مما أدى إلى مصرعه في ديسمبر عام ٩٥٦ م ، على يد قائد الحرس البتكين عند باب قصر الأمير، ويغلب على الظن أن ذلك قد تم بموافقة الأمير. وأعقب ذلك عزل الوزير من منصبه وتعيين أبي جعفر العتبي مكانه، وخلف بكرا على خراسان أحد أتباعه هناك وهو القائد أبو الحسن محمد بن إبراهيم سيمجوري. وقد حمل إليه عهد الولاية ولواءها ابن البتكين الحاجب في عام ٩٥٧. هذا ولم يلبث كل من العتبي وأبي الحسن سيمجوري أن أثارا السخط العام على إدارتهما مما أدى إلى عزلهما، وتم تعيين أبي منصور يوسف بن إسحاق وزيرا في عام ٩٥٩، كما تم تعيين أبي منصور محمد بن عبد الرزاق والياً على خراسان (ابتداء من عام ٩٦٠)، ويقول عنه (كرديزي) إنه كان حاكماً عادلاً. وتشير قرائن الأحوال إلى أن البتكين نفسه قد عزل بعضاً من الوقت لأن عهد تعيين الاسفهلار الجديد ولواءه حملها إليه أبو نصر منصور بن بايقرا الذي يجعله المقدسي حاجباً للمنصور بن نوح، وقيام عبد الملك ووزيره بمحاولة للتخلص من سيطرة العسكريين تؤكد أيضاً رواية ابن الأثير في أحداث عام ٩٦٠، كذلك بشأن إعدام قائد عسكري احتل منصباً عالياً، وقد أدى هذا بدوره إلى إثارة الاضطرابات بالبلاد. وعلى أية حال فقد باءت محاولتهما بالفشل لأن عبد الملك وجد أن وسيلته الوحيدة للخلاص من البتكين هي أن يعينه والياً على خراسان التي بلغها في فبراير عام ٩٦١.

(١) مسكويه، تجارب الأمم، مصر ١٩١٥، ج ٢ ص ١٠٠-١٠١، ١٠٣-١٠٤.

وتولى منصب الحجابة مملوك سابق لأبتكين، وقبل ذلك كان البتكين قد نجح في إقناع الأمير بخلع وزيره وأن يعين مكانه أبا علي محمدا بن محمد البلعمي الذي لم يرث مقدرة أبيه وكان آلة في يد قائد الجيش القوي.^(١)

ويذكر المقدسي عن عبد الملك أنه "لم يكن في آل سامان مثله" ويرى بارتولد أن هذه العبارة لم تكن ملائمة للواقع الفعلي لعصر عبد الملك، وعارية تماما من الصحة، فقد كانت السلطة في يد قائد الحرس. ولما سقط عبد الملك عن الدابة ومات (٣٥٠هـ/٩٦١م) أطلقوا عليه الرشيد^(٢).

هذا ما كان عليه الوضع عندما قذف موت عبد الملك الفجائي في نوفمبر عام ٩٦١هـ/شوال ٣٥٠هـ، بالبلاد في اضطرابات جديدة، فقد تعرضت دار الإمارة نفسها في غمرة تلك الأحداث للنهب والحريق على أيدي الثوار. وتنفيذاً لرغبة ألبتكين فقد أجلس على العرش ابن صغير للأمير المتوفي اسمه نصر ولكن سلطانه لم يدم إلا يوماً واحداً، ذلك أن أعضاء أسرة السامانيين يؤازرهم قادة الحرس وأخذوا جانب أبي صالح منصور بن نوح الذي استطاع أن يرتقي العرش بمعاونة فايق حاجبه منذ أيام حدائته. ويبدو أن ألبتكين وجد نفسه منعزلاً عن الجميع، وتشير قرائن الأحوال إلى أن البلعمي نفسه قد أخذ جانب الحكومة الجديدة لأنه احتفظ بمنصب الوزارة حتى وفاته^(٣).

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٣٣٨.

(٢) المقدسي، نفسه، ص ٣٣٨، بارتولد، تركستان، ص ٣٨٢.

(٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٣٣٨، بارتولد، تركستان، ص ٣٨٣.

وبخراسان خرج أبو منصور محمد بن عبد الرزاق الذي تركه البتكين حاكما على طوس على عدوه القديم، خاصة وأن الحكومة قد عرضت عليه مركز البتكين الذي اضطر إلى الانسحاب إلى غزنه حيث عزل في عام ٩٦٢ حاكمها المحلي وأسس مملكة مستقلة. ووفقا لألفاظ (كرديزي) فإن أبا منصور أدرك أن نصيبه هو أيضا سيكون العزل لدى أول سانحة، ولذا فقد أطلق العنان لجنوده لانتهاب البلاد وعقد علاقات مع البويهيين. وفي عام ٩٦٢ أرسل ضده أبو الحسن محمد سيمجوري الذي تم تعيينه مرة أخرى واليا على خراسان (وكان من بين رجال جيشه أحمد بن منصور بن قراتكين). وقتل أبو منصور وبقي أبو الحسن واليا على خراسان حتى آخر حكم منصور، وكان موفقا في حروبه ضد البويهيين والزياريين. ويتضح سبب هذه الحروب من رد منصور على طلب من أبي الحسن بأن يرسل إليه أرزاق العسكر، بقوله "عليك بانتزاع أرزاق الجند من بيستون" (أمير آل زيار). هذا وقد تغير ساعتئذ سلوك كل من ابي الحسن وأبي جعفر العتبي، الذي اقتسم منصب الوزارة مع البلعمي، عما كان عليه في عهد عبد الملك وتمتع كل منهما بسمعة طيبة كحاكم عاقل عادل. وبغزنة أيضا استطاع السامانيون استرداد سيادتهم ولو اسما على أقل تقدير، فإسحق بن البتكين الذي كان قد خلف والده عند وفاته عام ٩٦٣ هُزم على يد أمير غزنة السابق في عام ٩٦٤ وهرب إلى بخارى، ولم يستطع التغلب على خصمه إلا بمعاونة الحكومة السامانية في عام ٩٦٥، وتلا هذا ظهور اسم السامانيين إلى جانب اسم الحكام المحليين على السكة المضروبة بغزنة. وعقب وفاة البلعمي في ربيع ٩٧٤ أصبحت الوزارة من جديد من نصيب يوسف بن إسحق الذي لم يعيش بعد سلفه لأكثر من خمسة أشهر. وفي العام الأخير لحكم منصور تولى

منصب الوزارة أبو عبد الله أحمد بن محمد الجيهاني وهو ابن أبي علي محمد وحفيد عبد الله محمد بن أحمد المشهور. هذا وقد انتقل منصور إلى جوار ربه في يونيو عام ٩٧٦. (١)

وفي عهد منصور شق أهل سجستان عصا الطاعة على أميرهم خلف بن أحمد، وولوا مكانه رجلا من أصحابه يدعى طاهر بن الحسين. ولكن منصور بن نوح أمد خلف بجيش استرد به هذه البلاد، لكنه لم يلبث أن طرد منها، ثم استردها بمعونة السامانيين. بيد أن علاقته بالسامانيين لم تلبث أن ساءت "فقطع ما كان يحمله إلى بخارى من الخلع والخدم والأموال التي استقرت القاعدة عليها"، فبعث منصور بن نوح الجيوش لمحاربتة بسجستان، واستمرت هذه الحروب سبع سنين انتهت بعقد الصلح بينهما وإعادة الخطبة لمنصور بن نوح، وإن دل هذا على شيء فإتاما يدل على مبلغ الضعف الذي دب إلى البيت الساماني. وقد أحسن ابن الأثير بقوله: "وكان هذا أول وهن دخل على الدولة السامانية، فطمع أصحاب الأطراف فيهم لسوء طاعة أصحابهم لهم".

وفي سنة ٣٥٦ هـ قامت الحرب في جهات الري بين منصور بن نوح وركن الدولة بن بويه، ولم ينته العداة بين السامانيين والبويهيين إلا في سنة ٣٦١ هـ، حيث تم الصلح بين الأمير منصور بن نوح الساماني وبين عضد الدولة، على أن يحمل كل من ركن الدولة في كل سنة مائة ألف دينار، وحمل إليه ابنه عضد الدولة خمسين ألف دينار. وتزوج نوح

بابنة عضد الدولة، وحمل إليه الهدايا والتحف، وكتب بينهم كتاب الصلح وشهد فيه أعيان خراسان وفارس والعراق^(١).

ولاية أبي القاسم نوح بن منصور (٣٦٦-٣٨٧هـ):

ولما مات منصور بن نوح سنة ٣٦٦هـ، تولى بعده ابنه نوح الثاني وتلقب المنصور وكان في الثالثة عشرة من عمره. وقام بأمر الدولة السامانية في مستهل إمارته وزيره أبو الحسن العتبي، وجعل على حجابته مولاه أبا العباس قاسما، ولكن محمد بن إبراهيم بن سيمجور قائد الجيش في خراسان من قبل السامانيين استبد بالأمر في هذه البلاد، واتخذ من صغر سن الأمير الجديد فرصة لتحقيق مطامعه، فعزل الوزير العتبي، وولى أبا العباس تاش إمرة الجيش في عام ٣٧١هـ، كما قامت الحرب في هذه السنة بين الأمير نوح بن منصور الساماني وبين عضد الدولة بن بويه الذي استولى على جرجان، ولاسيما بعد أن اتصل بهم نبا قتل الوزير أبي الحسن العتبي الذي يرجع إليه الفضل في متابعة هذه الحروب. أضف إلى ذلك ثورة أحد أمراء البيت الساماني على نوح بعد أن حلت الهزيمة بجيوشه.

على أن الوزير الجديد عبد الله بن عزيز الذي كان يضمم العداوة والبغضاء للوزير العتبي، عمل على عزل أبي العباس تاش عن خراسان وإعادة أبي الحسن بن سيمجور إليه، فامتنع أبو العباس عن تنفيذ أوامر الوزير الجديد وطلب العون من فخر الدولة بن بويه الذي أمده بجيش به ابن سيمجور، واستولى على نيسابور، ثم كتب إلى الأمير نوح يستميله

(١) ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٤٦٢، حسن إبراهيم حسن، نفس المرجع، ح ٣، ص

ويستعطفه . ولكن ابن عزيز تشدد في عزله ووافقته على ذلك أم الأمير نوح التي كان لها الأمر والنهي في دولة ولدها، حتى كانوا يصدرون عن رأيها، فقال بعض أهل ذلك العصر كله:

شيمان يعجز ذو الرياضة عنهما رأي النساء وإمرة الصبيان
أما النساء فميلهن إلى الهوى وأخو الصبا يجري بغير عنان^(١)

وفي عهد نوح بن منصور تعرضت الدولة السامانية للزوال، ففي سنة ٣٨٣هـ ثار عليه اثنان من اكبر قواد السامانية هما أبو الحسن بن سيمجور، وفائق الخاصة غلام نوح بن نصر، واتصلا بشهاب الدولة هارون بن سليمان إيلك المعروف ببغراخان التركي، وكانت بلاده تمتد من حدود الدولة السامانية شرقا حتى تتاخم حدود الصين، وأطعاه في الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر، وتمكن إيلك في هذه السنة من الانتصار على جيوش نوح بن منصور والاستيلاء على بخارى. على أن نوحا لم يلبث أن استرد حاضرة إمارته على إثر موت بغراجان وثورة أهالي بخارى عليه^(٢).

وفي سنة ٣٨٤هـ استعان نوح بن منصور بسبكتكين صاحب غزنة لحرب الأمراء الثائرين عليه. واندمرت جيوشهما بالقرب من هراة على الأمراء الذين استعانوا ببني بويه وفروا إلى جرجان. كما استعاد نوح نيسابور، واستعمل عليها وعلى جيوش خراسان محمود بن سبكتكين، ولقبه سيف الدولة، ولقب أباه سبكتكين ناصر الدولة. وعاد

(١) مسكويه، تجارب الأمم، ح ٣، ص ٩٣.
(٢) ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٤٦٥-٤٦٦.

نوح إلى بخارى، وعاد سيكتكين إلى هراة، وأقام محمود بنيسابور. على أن هؤلاء الثائرين لم يلبثوا أن انتصروا على محمود.

ومع أن أيام نوح بن منصور الساماني طالت حتى أربت على إحدى وعشرين سنة، إلا أن عهده كان مليئا بالثورات والحروب الأهلية بسبب صغر سنه، وتدخل النساء والوزراء في الحكم، وطمع أمراء الأطراف واستنثارهم بالسلطة، وطمع بني بويه والأتراك في بلادهم وقيام المنافسة بين أفراد البيت الساماني^(١).

زوال الدولة السامانية :

لما توفي نوح بن منصور الساماني سنة ٣٨٧ هـ، قام بعده ابنه (منصور بن نوح) فعمل على تأليف القلوب حوله، بإغداق الأموال على أنصاره وقواده. على أن إيلك المعروف ببغراخان التركي، الذي كان قد استولى على بخارى سنة ٣٨٣ هـ، اتخذ من موت نوح بن منصور فرصة للاستيلاء على سمرقند. وانضم إليه فائق الخاصة الذي تمكن من الاستيلاء على بخارى، متظاهرا بأنه يسعى لخدمة الأمير منصور، "رعاية لحق أسلافه عليه إذ هو مولاهم، وأرسل إليهم مشايخ بخارى ومقدمهم في العود إلى بلده وملكه، وأعطاه من نفسه ما يطمئن إليه من العهود والمواثيق؛ فعاد إليها ودخلها، وولى فائق أمره وحكم في دولته، وولى بكتوزون إمرة الجيش بخراسان"^(٢). وفي السنة التالية بدأ النزاع بين الأمير منصور بن نوح ومحمود الغزنوي الذي أثار سخطه تولية

(١) حسن إبراهيم حسن، نفسه، ح ٣، ص ٨٠.

(٢) ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٤٦٩، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ح ٣، ص

بكتوزون على خراسان؛ وطلب إعادتها إليه، فلم يجب إلى طلبه وساعت
العلاقة بينهم. وسرعان ما قبض بكتوزون وفائق الخاصة على منصور
بن نوح وسملا عينية ولما يمض عليه في الإمارة غير سنة وسبعة
أشهر، ووليا أخا الصغير (عبد الملك بن نوح). واتخذ محمود الغزنوي من
اضطراب حبل الأمور في الدولة السامانية فرصة للإستيلاء على نيسابور
وبخارى، وإستقر ملكه بخراسان وأزال نفوذ السامانيين عنها وخطب فيها
للخليفة القادر بالله. ووقعت بلاد ما وراء النهر في يد إيلك بغراخان الذي
قصد بخارى وأظهر التودد لعبد الملك بن نوح، ولكنه لم يلبث أن قبض
على قواد السامانيين ثم على عبد الملك نفسه، وحبس معه أخاه منصور
بن نوح الذي ولى إدارة السامانيين من قبله، كما حبس أخويه أبا إبراهيم
إسماعيل وأبا يعقوب ابني نوح، وحبس من أعمامه أبا زكريا
وأبا سليمان، وأفرد كل واحد منهم في حجرة^(١).

وإن من يستقصي تاريخ السامانيين ليرى أن زوال دولتهم يرجع
إلى عوامل عدة، نذكر من بينها وقوع النزاع بين أفراد هذا البيت وخروج
القواد وعمال الأطراف عليهم واستعانتهم ببعض أمراء هذا البيت على
نوح بن نصر (٣٣١-٣٤٣هـ)، كما استعان بعض هؤلاء القواد وعمال
الأطراف ببني بويه، مما أضعف الدولة السامانية وأدى إلى زوالها في
النهاية. أضف إلى ذلك تدخل النساء والوزراء في الحكم بسبب صغر سن
بعض الأمراء^(٢).

وهكذا زالت الدولة السامانية على أيدي الغزنويين وخانات
تركستان، وأصبحت كأن لم تكن بالأمس، كدأب الدولة قبلها، إن في ذلك

(١) راجع الفصل الخاص بالدولة الغزنوية.

(٢) حسن إبراهيم حسن، نفسه، ح ٣، ص ٨١.

لعبرة لأولي الأبصار كما يذكر الأثير. ويعلق ابن خلدون على ذلك بقوله:
"وانقرضت دولتهم بعد أن كانت انتشرت في الآفاق ما بين حلوان وبلاد
الترك، ووراء النهر، وكانت من أعظم الدول وأحسنها سياسة"^(١).

(١) ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٤٧١.

الفصل الخامس

جوانب من حضارة الصفاريين والسامانيين

- تقديم.
- العلوم الدينية.
- الحركة الأدبية.
- إحياء الشعر الفارسي.
- الفلسفة.
- الطب.
- الكيمياء والفلك والرياضيات.
- الجغرافيا .
- الفنون (العمارة ، الخزف ، صناعة الزجاج، صناعة النسيج، الموسيقى).

الفصل الخامس

جوانب من حضارة الصفاريين والسامانيين

تقديم:

شهدت خراسان وبلاد ما وراء النهر (بخارى) في فترة حكم الصفاريين والسامانيين، نهضة حضارية واسعة اتضحت مظاهرها في كافة المجالات، فقد اتصف السامانيون في حكمهم لهذه البلاد الفسيحة الأرجاء بالعدل والصلاح، وتشجيع العلم والعلماء، فازدهرت الثقافة والعلوم والفنون في عهدهم ازدهاراً عظيماً. وأضافوا لمجدهم السياسي والحربي، مجداً حضارياً ونهضة علمية وفكرية. وجدير بالذكر أن هذه النهضة قد بدأت تزدهر مع بزوغ الاستقلال السياسي على عهد الطاهريين. ورغم فقدان بعض أقاليم هاتين الدولتين مجدهما واستقلالهما السياسي اللذان كان لهما في الماضي، حيث كانت تمثل قواعد لدول مستقلة، مثل خراسان عاصمة الطاهريين السابقة، التي تحولت إلى ولاية تابعة لسيادة الصفاريين في سجستان أو السامانيين فيما وراء النهر، إلا أن التيار الثقافي الصاعد لم يتراجع، بل ازداد اندفاعاً وتقدماً، وأصبحت المدن الخراسانية عنواناً للنهضة الثقافية الإسلامية بصفة عامة، كما أن هذه المدن صارت مراكز هامة لعلماء وأدباء قفزوا بالثقافة الإسلامية علماً وأدباً إلى أعلى درجات الرقي والإبداع.

ويخيل إلينا أن الخراسانيين بعد أن فقدوا نفوذهم السياسي في المنطقة والذي كان لهم على عهد الطاهريين، وجدوا في النفوذ الثقافي العوض عن النفوذ السياسي للتعبير عن الذاتية الخراسانية، فاهتموا بالثقافة اهتماماً كبيراً سواء على المستوى الرسمي المتمثل في القيادات

الخراسانية المحلية، أو على المستوى الشعبي المتمثل في كافة طبقات المجتمع الخراساني التي شاركت في تشجيع النهضة الثقافية كل طبقة بدورها وحسب قدراتها، بحيث أصبحت كافة هذه الطبقات تتنافس في تقديم الحوافز المادية والمعنوية لأهل العلم والأدب^(١).

وتوفرت لخراسان وبلاد ما وراء النهر في هذه الفترة مقومات الازدهار الثقافي، وأهمها الانفتاح العلمي الذي كان يسود العالم الإسلامي في تلك الفترة إلى حد كبير، وذلك لأن التراث الفارسي القديم الذي استمدت منه الثقافة الإسلامية إحدى دعائمها، تناوله عقول علماء خراسان ومفكريها، وراحوا يقدحون فكرهم في إخراجِه وبحثه وتلقيح معارفهم به، وانصهر هذا التراث في قالب إسلامي جديد التقت فيه المعرفة الإنسانية في ماضيها بالمعرفة الإسلامية، فكان النتاج خلقاً حضارياً جديداً هو الثقافة الإسلامية أو بمفهوم أوسع الحضارة الإسلامية^(٢) ويدخل في نطاق الانفتاح العلمي، ما تيسر لعلماء خراسان من سهولة انتقالهم إلى أرجاء العالم الإسلامي شرقاً وغرباً لتلقي العلم والحصول على مصادره^(٣).

وتيسر لخراسان في هذه الفترة من تاريخها عوامل أخرى ساعدت على هذا الازدهار الثقافي، منها الرخاء الاقتصادي الذي ميز عامة المدن الخراسانية بحيث وصفت خراسان أنها من أغنى الأقاليم بثرواتها الاقتصادية في الزراعة والصناعة والتجارة، مما أدى إلى توفر الإمكانيات اللازمة لدفع هذا الازدهار الثقافي. وقد تمثلت هذه الإمكانيات في منح

(١) السبكي، طبقات الشافعية، ج ٢، ص ٢٩٧.

(٢) عفت الشرقاوي، في فلسفة الحضارة الإسلامية ص ٥١.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١١، ص ١٠٢، السبكي، طبقات الشافعية، ج ٢، ص

العلماء والأدباء الهبات والهدايا التي توفر لهم الحياة الملائمة، وتحبيبهم في الاستقرار بخراسان. كما تمثلت هذه الإمكانيات في بناء المعاهد العلمية والمساجد والمكتبات اللازمة لنقل العلم وتلقيه، والحفاظ على مصادره، والصرف على طلابه والاعتناء بهم. وبالإضافة إلى العوامل السابقة فقد كان تولي أسر محلية تنتسب أساساً إلى العنصر الفارسي، وتشجيع هذه الأسر وتحمسها للنهضة الثقافية من أهم العوامل التي أدت إلى الازدهار الثقافي في خراسان^(١). وذلك لأن كل من الصفاريين والسامانيين ومن قبلهم الطاهريين عملوا على الارتفاع بدولهم إلى مستوى ثقافي يعبر عن عظمة هذه الدول وقوتها، إما بقصد تدعيم مراكزهم السياسية في العالم الإسلامي وخاصة عند الخلفاء العباسيين، أو استجابة حضارية لمطالب الشعوب الفارسية وأقاليمها للتعبير عن ذاتيتها.

العلوم الدينية:

وكان الفكر العقائدي أهم مظاهر الازدهار الثقافي، وأحد محركاته الدافعة للإنتاج الفكري في خراسان وبلاد ما وراء النهر، فقد ساد خراسان المذهب السني وهو المذهب الرسمي للخلافة حيث تغلب مذهب الشافعي الذي ينتسب إلى صاحبه محمد بن إدريس الشافعي (ت ٢٠٥/٨٢٠م). وساعد على انتشار هذا المذهب في هذه البلاد، ما كان يقوم به علماء الإقليم من رحلات علمية إلى العراق ومصر وغيرها من الولايات التي انتشر بها هذا المذهب^(٢). وربما ساعدت الاتصالات التي حدثت بين مصر وخراسان أبان عهد الطاهريين على انتشار هذا المذهب، لاسيما أن

(١) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج ٤، ص ٣٥٥، فتحي أبو سيف، خراسان، ص ٢٤٣.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١، ص ١٢٤، السبكي، طبقات الشافعية، ج ٢، ص

عبدالله بن طاهر كان قد تولى ولاية مصر (٢١١-٢١٣هـ/٨٢٦-٩٢٩م) ثم تولى بعد ذلك إمارة الدولة الطاهرية في خراسان، وتدل الشواهد التاريخية على وجود اتصالات حضارية قوية بين ولايتي مصر وخراسان في هذه الفترة.

وحمل فقهاء خراسان وبلاد ما وراء النهر على عاتقهم نشر المذهب الشافعي في بلادهم، وحدث بهما العديد من فقهاء هذا المذهب في القرنين الثالث والرابع الهجري (التاسع والعاشر الميلادي) وبلغ هؤلاء العلماء مبلغ الاجتهاد ويأتي على رأسهم أحمد بن نصر بن زياد النيسابوري (ت ٢٤٥هـ/٨٥٩م)، الذي كان يفتي بنيسابور ويفقه أهلها حسب المذهب الشافعي. وعرف أيضاً محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ/٨٦٩م) صاحب كتاب الصحيح الذي عرف باسمه، والفقير مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت ٢٦١هـ/٨٧٤م) الذي ألف هو الآخر كتاباً في الحديث سماه الصحيح^(١).

وتشير الدلائل أنه في الفترة التي تبعت فيها خراسان لسلطان الصفاريين، لم تؤثر الاضطرابات السياسية التي وقعت بين الصفاريين والخلافة على المذهب السني في خراسان، حيث أن فقهاء السنة الخراسانيين عارضوا الحكم الصفاري وظلوا على ولايتهم للخلافة العباسية، واتسعت دائرة إنتاجهم في تأليف كتب الفقه والحديث. ولم يستطع الصفاريون كسب هؤلاء الفقهاء إلى صفوفهم، واكتفوا بمحاولة إرضائهم ومنع استثناء الشانعات التي أشيعت عن ميول يعقوب بن الليث الصفار للشعبة الإسماعيلية، حيث أدت هذه الشانعات إلى اتخاذ الفقهاء موقفاً مضاداً ليعقوب بن الليث.

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٢٨٠.

ويبدو أن علاقة الدولة الصفارية بفقهاء خراسان السنيين تحسنت بعض الشيء في عهد عمرو بن الليث، لاعتدال موقفه من الخلافة العباسية. فقد نبغ بعض فقهاء خراسان في فترة حكمه نذكر منهم محمد ابن إبراهيم البوشنجي (ت ٢٩٠ / أو ٢٩١ هـ / ٩٠٢ أو ٩٠٣ م) وهو من فقهاء نيسابور السنيين، حيث استقر بها بعد رحلاته الطويلة التي طاف فيها مدن العالم الإسلامي طلبا للعلم. وكانت للبوشنجي مجالسه العلمية لتعليم الناس ومناقشتهم في مذهب الإمام الشافعي، حيث شهدت هذه المجالس المناظرات الفقهية بين البوشنجي وغيره من الفقهاء، مما ساعد على ازدهار الفكر العقائدي في نيسابور. وقد لقي البوشنجي العطف من عمرو الصفار، فمنحه الهبات والعطايا التي بلغت ما يوازي سبعمائة ألف درهم^(١). فقل عمر أراد بهذا استرضاء كبار فقهاء نيسابور لتأييد حكمه في خراسان.

ونبغ أيضا من فقهاء خراسان إبان حكم الصفاريين الفقيه إسحاق ابن موسى الأسفراييني (ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م) وينتسب إلى مدينة إسفرايين إحدى مدن خراسان^(٢). وكان من فقهاء المذهب الشافعي، حيث شغل نفسه بنشر هذا المذهب بعد رحلاته الطويلة داخل وخارج خراسان.

وانتشر فقهاء المذهب الشافعي في مدن خراسان نتيجة انتشاره في مدنها الكبرى كنيسابور ومرو الكبرى وغيرهما من مدن خراسان، فنذكر

(١) السبكي، طبقات الشافعية، ج ٢، ص ١٩٠ وما بعدها.

(٢) أسفرايين مدينة عامرة ذات أسواق حسنة. وكانت تسمى قديما بإسم مهرجان كما

يذكر ياقوت الحموي، وأصل إسمها أسيراين أي (حملة التراس)، وكانت تكثر في رستاقها أشجار الجوز، وهواؤها رطب ويكثر فيها الأعناب والقمح (لسترنج، بلدان

الخلافة، ص ٤٣٤-٤٣٥ والمصادر المذكورة هناك).

من هؤلاء الفقهاء أبو العباس السيارى وأبو إسحاق الخالد أبانى - نسبة إلى خالد أبان- إحدى قرى مرو - وغيرهما^(١). ونذكر أيضاً من فقهاء خراسان أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن يحيى، المزكى (ت ٢٩٥ هـ/ ٩٠٧ م) وهو إمام أهل عصره بنيسابور فى معرفة الحديث، ولقد اشتهر المزكى ببساطته وتواضعه، ورغم أنه كان فقيراً لا يملك سوى منزله الذى يسكن به وحانوتاً يتكسب منه قوت يومه، إلا أن مجالسه العلمية قد اتسمت بالهيبة لسعة علمه^(٢)، ومن فقهاء خراسان أيضاً الحسن بن سفيان النسوى أو النسائى (ت ٣٠٣ هـ/ ٩١٥ م) وهو من محدثى خراسان السنيين، واعتبر مصدراً يرجع إليه فى الحديث. ومن الطريف أن بعض العلماء والمحدثين منهم ابن جرير الطبرى (ت ٣١٠ هـ/ ٩٢٢ م) وغيره حاولوا فى بعض المجالس العلمية أن يختبروا موهبة حفظ الأسانيد الخاصة بالأحاديث عند النسوى بقلبها أو بتغييرها، إلا أن النسوى كان يردهم عند كل خطأ، فشهد له الجميع بالعلم الواسع والدقة فى رواية الأحاديث^(٣). كما بزغ فى الفقه فى هذه البلاد أبو بكر محمد بن المنذر النيسابورى وكان إماماً مجتهداً، وقد بلغ القمة فى معرفته بالحديث والأخلاق، وكان مجتهداً لا يقلد أحداً، وتوفى فى سنة ٣١٦ هـ.

هذه أمثلة لفقهاء خراسان ومحدثيها السنيين مع كثرتهم وتعدد مؤلفاتهم فى فترة حكم الصفاريين. وقد جمع الحاكم النيسابورى (ت ٤٠٥ هـ/ ١٠١٤ م) أسماء فقهاء نيسابور وحدها فى العصر الصفارى،

(١) القزوينى، آثار البلاد، ص ٤٥٦-٤٥٨، السبكي، طبقات الشافعية، ج ٢، صفحات

٢٥٨، ٢٩٧، ٢٩٨.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١١، ص ١٠٥-١٠٦.

(٣) ابن كثير، نفس المصدر والجزء والصفحات.

ومن خلال ما ذكره نستطيع أن نوكد ازدهار علمي الفقه والحديث بهذه المدينة وكثرة أعداد الفقهاء من اهل السنة بها، مما يدل على أن عهد الصفاريين كان فترة تدعيم مذهب الإمام الشافعي ونقله ونشره في ربوع خراسان عن طريق فقهاء هذا المذهب ومحدثيه. (١)

ثم تميز عهد السامانيين باستيعاب مذهب الشافعي وانتشاره في المدن الخراسانية، مما يجعلنا نعتبر هذه الفترة من أهم فترات التدوين والتأليف في علمي الفقه والحديث بخراسان، وقد ساعد على هذا الازدهار عدة عوامل أهمها أن الدولة السامانية ربطتها بالخلافة العباسية صاحبة المذهب السني وممثلة زعامته الروحية علاقات طيبة، بل كانت الدولة السامانية نفسها من الدول التي أولت فقهاء المذهب السني رعايتها وعطفها، فهو مذهب الدولة الرسمي (٢). لذلك قدم أمراء السامانيين المنح والعطايا لفقهاء وعلماء هذا المذهب، كما اهتمت الدولة السامانية ببناء المدارس ودور الكتب والمساجد التي تمكن الفقهاء من ممارسة عملهم في نشر وتأليف مؤلفاتهم الفقهية ولدينا من الشواهد ما يدل على تقدير أمراء السامانيين لفقهاء خراسان، ويكفي أن نذكر تقدير الأمير الساماني إسماعيل بن أحمد (٢٧٩-٢٩٥ هـ / ٨٩٢-٩٠٧ م) للفقهاء الخراساني محمد ابن إسحاق الفقيه (٣). وساعد أيضاً على ازدهار علمي الفقه والحديث أن المذهب الشافعي الذي أصبح مذهب الأغلبية في خراسان كانت قد وضعت له حدوده وأصوله، كان الفقهاء قبل الشافعي يجتهدون من غير أن يكون بين أيديهم حدود مرسومة للاستنباط. فجاء الشافعي فوضع هذه الحدود، فاعتبر أول من وضع أصول الفقه، ووسع الشافعي من دائرة حركة الفقيه

(١) فتحي أبو سيف، خراسان، ص ٢٤٧.

(٢) النرشخي، تاريخ بخاري، ص ١٠٧.

(٣) السبكي، طبقات الشافعية، ج ٣، ص ١١٧، فتحي أبو سيف، خراسان، ص ٢٤٧.

فى حكمه أو فتواه بتقريره عن الاجماع كمصدر تشريعى بعد الكتاب والسنة، وقد ساعدت هذه الأسس التى وضعها الشافعى على تشجيع الاجتهاد لدى بعض الفقهاء مما أدى إلى تقدم وازدهار علم الفقه فى خراسان.

وهناك عوامل أخرى ساعدت على ازدهار علم الفقه فى خراسان إبان حكم السامانيين مثل انتشار المدارس والمعاهد المتخصصة لتدريس الفقه السني، حيث أنه كان من المتبع قبل ذلك قصر التعليم الدينى على المساجد، إلا أن الوضع قد تغير على عهد السامانيين، فأصبحت هناك بالإضافة إلى المساجد مدارس ينبت خصيصاً لتلقى العلوم الدينية كالفقه والحديث وغيرها من العلوم^(١). ونعرف أسماء لبعض هذه المدارس التى بنيت فى نيسابور عاصمة خراسان، منها مدرسة ابن فورك، ومدرسة إسماعيل الاستراباذي، وغيرها من المدارس. ويمكننا بهذا أن نسند إلى مدينة نيسابور فضل السبق ببداية ظهور المدارس بها فى فترة حكم السامانيين، أي قبل ظهور حكم السلجقة ووزارة نظام الملك (ت ٤٨٥هـ/١٠٩٢م)، الذى نسب إليه أنه أول من أسس المدارس التى عرفت باسمه "النظامية"^(٢). أما العامل الأخير الذي ساعد على ازدهار علم الفقه فى خراسان إبان حكم السامانيين، أن هذه الفترة شهدت ظهور عدة فرق عقائدية مخالفة للمذهب السني كالإسماعيلية والكرامية، ووجود علماء وفقهاء لكل منها، مما جعل فقهاء السنة يتصدون لهذه الفرق مناظرة وتحقيقا وتأييفا، فأثرى ذلك كله عالم الفقه، وساعد على ازدهاره^(٣).

(١) آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج ١، ص ٣١٨ و ٣١٩.

(٢) آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج ١، ص ٣١٨.

(٣) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ١٨٩-١٩٧.

فإذا تكلمنا عن مميزات هذه الفترة من الناحية المنهجية في صياغة علمي الفقه والحديث، نجد أن المؤلفات في هذين العلمين اهتمت بوضع الفهارس المنظمة للأحاديث المروية مع الاعتناء بذكر المصادر وقوائم الإسناد. وتتضح هذه المظاهر جيدا في كتاب "الغريبين" لأبي عبيد الهروي (ت ٤٠١هـ/١٠١٠م) بل وزاد عليها عنايته بشرح اصطلاحات القرآن والحديث، واعتنى بتنسيق كتاباته والاعتماد على الترتيب الأبجدي تسهيلا على القراء^(١). ولم تكن هذه الخصائص المنهجية متوفرة من قبل، مما أعطى لمؤلفات هذه الفترة أهميتها في تقدم علمي الفقه والحديث.

وليس عجيبا أن زاد عدد الفقهاء والمحدثين في خراسان على عهد السامانيين وفاق عددهم ما كان على عهد الصفاريين، وقد وردت أسماء هؤلاء الأعلام في كتب الطبقات والفرق، ونورد هنا بعض أسماء لهؤلاء الفقهاء والمحدثين الذين كان لهم الفضل في ازدهار هذين العلمين على عهد السامانيين ومنهم محمد بن إسحاق السلمي (ت ٣١١ أو ٣١٢هـ/٩٢٣ أو ٩٢٤م) وأبو العباس السراج (ت ٣١٣هـ/٩٢٥م) وأبو عوانه النيسابوري (ت ٣١٦هـ/٩٢٨م) والثقفى النيسابوري (ت ٣٢٨هـ/٩٣٩م) وأحمد بن عامر المروزي (ت ٣٣٢هـ/٩٤٣م) وعلى بن محشاد (ت ٣٣٨هـ/٩٤٩م)، والصبغي النيسابوري (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م) وأبوسهل الصطوكي (ت ٣٦٩هـ/٩٧٩م)، وأبو زيد المروزي (ت ٣٧١هـ/٩٨١م)، والداركي (ت ٣٧٥هـ/٩٨٥م)، والخضري (ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م)، والماسر جسي (ت ٣٨٩هـ/٩٩٨م)، وأبو عبيد الهروي

(١) انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ٧٩.

(ت ٤٠١ هـ / ١٠١٠ م)، والحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥ هـ / ١٠١٤ م) وغيرهم^(١).

وكان هؤلاء الفقهاء جميعا من فقهاء المذهب الشافعي ووصل علم الفقه على أيديهم إلى أعلى درجات التفوق، ويبدو أن إحساس الخراسانيين من أصحاب المذهب الشافعي بجهود فقهاءهم في التأليف والمناظرة، جعلهم يطلقون على بعض هؤلاء الفقهاء الألقاب الفخرية، حتى أن خراسان أول الأقاليم التي عرف بها لقب "شيخ الإسلام" وأصبح هذا اللقب خاصا بكبار فقهاءها دون غيرهم، كما يطلق على الفقهاء ألقاب أخرى كشمس الإسلام، وإمام الأئمة وغيرها من الألقاب^(٢).

ومن فقهاء الشافعية في بلاد ما وراء النهر خلال العصر الساماني العالم أبو حاتم محمد بن حبان السمرقندي، وكان إماما كبيرا له تصانيف عديدة وطوف في البلاد، وقال عن نفسه: "لعلنا أخذنا عن ألف شيخ بين الشاش والإسكندرية"، وقد ولى هذا الفقيه قضاء سمرقند. ورحل إليه كثير من الناس ليأخذوا العلم عنه، وإليه يرجع كثير من المحدثين في حكمه على رجال الحديث بالجرح والتعديل وقد توفي في عام ٢٥٤ هـ، ومن عظماء فقهاء الشافعية محمد بن علي القفال الشاش، الذي كان يعد إمام عصره في بلاد ما وراء النهر وناشر المذهب الشافعي في هذا الإقليم، وكان يقول بالاعتزال وله كتب في الفقه وأصوله، ومن أبرز فقهاء الشافعية في هذه البلاد أبو بكر أحمد بن الحسن بن الحسين البيهقي

(١) راجع: السبكي، طبقات الشافعية، ج ٣، ص ١٠٨-١٠٩، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٣٦١، ج ٣، ص ٣٥١، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١١، ص ٢٢٢ وما بعدها

(٢) السبكي، طبقات الشافعية، ج ٣، ص ٧١ وما بعدها.

(نسبة إلى بيهق بالقرب من نيسابور) الحافظ الشافعي الذي رحل إلى كثير من البلاد، وهو أول من جمع نصوص الشافعي، وطلب إلى نيسابور لنشر العلم بها، فأجاب وأقام بها إلى أن توفي^(١).

ولا تعني هذه السيادة لمذهب الإمام الشافعي السني في خراسان وبلاد ما وراء النهر، عدم وجود مذاهب سنية أخرى، فمن الثابت نبوغ كثير من فقهاء الحنفية في هذه البلاد، حتى أن المدن الخراسانية أصبحت على عصر السامانيين من المراكز الثقافية الهامة التي يأتي إليها تلامذة الفقه الحنفي لتلقي علومهم على يدي فقهاء خراسان من الحنفية، كما تولى بعض فقهاء الحنفية مناصب إدارية في الدولة كالقضاء وغيره^(٢). ومن أشهر فقهاء الحنفية الإمام أبو منصور الماتريدي نسبة إلى ماتريد من أعمال سمرقند وهو للحنفية في علم الكلام كالأشعري للشافعية، فقد صنف من الكتب كتاب التوحيد، وأوهام المعتزلة، وماخذ الشرائع في الفقه وغيرها، ومات في سنة ٣٣٣هـ.

ويرتبط بازدهار العلوم الدينية ازدهار (علم الكلام)، وهو العلم الذي يبحث في ذات الله وصفاته وتفسير أفعال الإنسان خيرها وشرها حسب شريعة الإسلام، أو بعبارة أخرى يتناول العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية. ويذكر الأب جورج قنواطي أنه يمكننا بالنسبة إلى كل الأغراض العملية أن ننظر إلى علم الكلام على أنه علم لاهوت Theology، ولكن مع التحفظ دائما بأن علم الكلام عند المسلمين لايشمل تماما ماتسميه الفلاسفة المدرسية المسيحية باسم اللاهوت. ويضيف الأب قنواطي أنه من الممكن

(١) أحمد أمين، ظهر الإسلام، ج ١، ص ٢٦٤-٣٦٥.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٤١١، ص ٣٠٥.

أن نقسم تاريخ علم الكلام إلى عدة مراحل: أهمها وأولها ما يمكن أن نطلق عليه مرحلة العقائد Creeds وهي ليست مرحلة تفكير نظري بالمعنى الكامل لهذه الكلمة، وإنما كانت هناك محاولات لتخليص العقائد الواجب الإيمان بها في صيغ موجزة^(١). ووجدت عوامل عامة وأخرى خاصة ساعدت على ازدهار هذا العلم في خراسان. أما العوامل العامة فترتبط بظهور الاجتهاد في الرأي وإمعان الفكر عند بعض المذاهب الإسلامية واستخدامها للقياس والاستدلال، مما أتاح لفقهاء المسلمين مناقشة الأمور الدينية والتناظر فيها باستخدام العقل والتصور بالإضافة إلى استخدام النصوص القرآنية والأحاديث. وأول متكلميهم من الفقهاء وأرباب المذاهب (بعد كبار الصحابة والتابعين) أبو حنيفة النعماني، فإن أبا حنيفة له كتاب في الرد على القدرية سماه (الفقه الأكبر)^(٢)، ويشمل عشر مقالات في العقيدة تلخص موقف أهل السنة المعارض للخوارج والقدرية والشيعة والجهمية، ولأبي حنيفة رسالة أملاها في " نصره قول أهل السنة إن الاستطاعة مع الفعل"، وبظهور كتاب (الوصية) لأبي حنيفة تبدأ المسائل الكبرى في الظهور. وللإمام الشافعي كتابان في الكلام، أحدهما: " في تصحيح النبوة والرد على البراهمة"، والثاني " في الرد على أهل الأهواء"، ثم من بعد الشافعي تلامذته الذين جمعوا بين علم الفقه والكلام، وكان أبو العباس بن سريج أبرع هؤلاء الطلاب في هذه

(١) شاخنت و بوزورث، تراث الإسلام، ط ٢، عالم المعرفة، رقم ١٢، الكويت، ١٩٨٨، ح ٢٢، ص ٧٤-٧٧.

(٢) هناك كتابان بهذا الاسم ينسبان إلى الإمام أبي حنيفة. وقد أثبت (فنسيك) أن كتاب الفقه الأكبر (الأول) هو الوحيد الذي يتضمن أقوالاً لأبي حنيفة، أما (الفقه الأكبر) فلم يصح نسبته إلى الإمام أبي حنيفة. راجع: دائرة المعارف الإسلامية مادة (أبو حنيفة) ط ١، م ١، ص ١٢٤.

العلوم^(١). ولعل ذلك ظهر واضحا في مذهب فرقة المعتزلة وموقفها من قضية خلق القرآن التي وافقهم فيها (المريسي) أحد كبار أصحاب أبي حنيفة، ثم حاول فقهاء السنة بعد ذلك إصلاح ما جاء عند المعتزلة، وأخذ ما هو معقول عندهم، وهو ما ظهر في مذهب الأشاعرة الذين صار أبو الحسن الأشعري مؤسس علم الكلام السلفي Traditional Kalam شجى في حلوقهم^(٢). وكانت هذه المدارس الفكرية المتطورة ضرورة للوقوف والتصدي أمام أعداء الإسلام من الملاحدة أو أصحاب الديانات الأخرى^(٣).

ويجرنا هذا للحديث عن العامل الخاص بخراسان الذي ساعد على ازدهار علم الكلام بها، فقد شهدت خراسان في الفترة الأخيرة من القرنين الثالث الهجري وبداية الرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلادي) ظهور بعض الاتجاهات العقائدية التي ابتعدت عن المذهب السني الرسمي، وبدأت هذه الاتجاهات تكون لنفسها كيانات عقائدية بنظريات محددة وعلماء يدافعون عن هذه النظريات. وكان أشهر هذه الفرق التي ظهرت في خراسان فرقة الكرامية. وتنتسب هذه الفرقة إلى أبي عبد الله محمد بن كرام السجزي (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٩م) الذي ولد في سجستان ثم انتقل إلى

(١) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٣١٤-٣١٥، شاخت و بوزورث، تراث الإسلام، ج ٢، ص ٧٥.

(٢) البغدادي نفس المصدر، ص ٣١٥، السبكي، طبقات الشافعية، ج ٣ ص ٣٧٧. وينتسب الأشاعرة إلى أبي الحسن علي بن إسماعيل إسحاق أبو الحسن من نسل الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري. وهو مؤسس مذهب الأشاعرة، وكان من أئمة المجتهدين. ولد في البصرة وتلقى مذهب المعتزلة وتقدم فيهم، ثم رجع وجاهر بخلافهم، وتوفي في بغداد في عام (٣٢٤هـ / ٩٣٥م)، وله عدة مصنفات منها: إمامة الصديق، الرد على المجسمة، واستحسان الخوض في علم الكلام، ومن تلاميذه المشهورين الذين أخذوا على عاتقهم نشر مذهبه: أبو الحسن الباهلي، وأبو عبد الله بن مجاهد. (البغدادي، نفسه، ص ٣١٥).

(٣) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ص ٨.

نيسابور وقضى معظم حياته هناك. وكان الأمير طاهر بن عبد الله قد حبسه بها، إلى أن خرج منها في عام ٢٥١هـ إلى القدس فمات بها. وكانت الكرامية بخراسان ثلاثة أصناف: حقائقية، وطرانقية، وإسحاقية. وهذه الفرق الثلاث لا يكفر بعضها بعضا، وإن أكفرها سائر الفرق، فلهذا اعتبرها (البغدادي) فرقة واحدة. (١)

وتقوم دعوة الكرامية كفرقة على الاعتقاد في التجسيم أو التشبيه، فيقولون أن الله جسم له حد ونهاية، وهذا شبيه بقول الثنوية في وصف وجودهم. ويتضح من بعض الكتب التي ألفها ابن كرام الأثر المسيحي أيضا، حيث وصف الله في كتاب "عذاب القبر" بأنه جوهر حيث قال "أن الله إحدى الذات إحدى الجوهر" وإن كان أتباع ابن كرام أبطلوا استخدام لفظ الجوهر بعد ذلك، ولكنهم استمروا يعتقدون في التجسيم (٢). فاشتعلت الحرب الكلامية بين فقهاء خراسان وأتباع فرقة الكرامية التي زاد أتباعها وخاصة بين الطبقات الدنيا من الفلاحين أو صغار العمال الكادحين في المدن الخراسانية. وكانت آراء الكرامية ومعتقداتها إيذانا ببداية التصدي والهجوم من قبل فقهاء خراسان السنيين، فعقدت المناظرات الكلامية، وألفت العديد من الكتب للرد على اعتقادات هذه الفرقة. وشهدت خراسان في هذه الفترة نوعا من تكتل فقهاء بها بشتى مذاهبهم للرد على الكرامية وما تنادي به. ويؤكد (البغدادي) أنه ناظر أحد الكرامية في مسألة أن قول الله عندهم حادث فيه، وكلامه قديم. وبين له خطأ ذلك موجهها كلامه له متسانلا "إذا زعمت أن الكلام هو القدرة على القول، والساكت عندك قادر على القول في حال سكوته، لزمك على هذا القول أن يكون الساكت

(١) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ١٨٩.

(٢) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ١٨٩-١٩٠.

متكلما"، فالتزم الكرامى ذلك^(١). كذلك ناظر البغدادي ابراهيم بن مهاجر شيخ الكرامية في مجلس ناصر الدولة ابي الحسن محمد بن ابراهيم ابن سيمجور صاحب جيش الدولة السامانية في سنة ٣٠٧هـ في مسألة أن الزاني عرض في الجسم الذي يضاف إليه الزنى، وألزمه - البغدادي - أن يكون المحدود في الزنى غير الزاني. كما عارضه في بعض المسائل الأخرى، ورد عليه وأفحمه وألزمه بوجهة النظر الإسلامية الصحيحة.^(٢) ويؤكد بوزورث BOSWORTH أن احتدام النقاش والمناظرات الكلامية لفرق الكرامية أصبح منظما في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، حيث وجدت للكرامية أماكن أشبه بالخانقاه أو المدرسة يلتقون فيها وينظرون، ويعلمون أتباعهم، مما زاد من خطورة هذه الفرقة.

ولم تكن الكرامية وحدها مسنولة عن ازدهار علم الكلام في خراسان، وإنما وجدت أيضا فرق شيعية كالزيدية والإسماعيلية وذلك بتأثير الولايات المجاورة لخراسان التي انتشرت فيها عقائد هذه الفرق مثل طبرستان وجرجان وغيرهما. وبدأ يظهر في نيسابور نفسها بعض دعاة الفرق الشيعية مثل الداعية أبو عبدالله الخادم، وأبو سعيد الشعرائي الذي قتل بها في ولاية أبي بن بكر بن حجاج.^(٣) ويذكر (البغدادي) أن ضرر الباطنية على فرق المسلمين كان أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس عليهم، بل أعظم من مضرة الدهرية وسائر أصناف الكفرة عليهم، بل أعظم من ضرر الدجال الذي يظهر في آخر الزمان، لأن الذين

(١) البغدادي، نفسه، ص ١٩٢.

(٢) البغدادي، نفسه، ص ١٩٧.

(٣) عن دعاة الإسماعيلية في خراسان راجع: البغدادي، نفسه، ص ٢٤٨ وما بعدها / المقرئزي، إتعاظ الحنفا، الطبعة الثانية، تحقيق د. الشيال، القاهرة، ١٩٩٦، ح ١، ص ٤٠، ٥٣، محمد السعيد جمال الدين، دولة الإسماعيلية في إيران، ص ٦٨ وما بعدها.

ضلوا عن الدين الإسلامى بدعوة الباطنية من وقت ظهور دعوتهم فى زمان الخليفة المأمون وإنتشارها فى زمان المعتصم ، إلى أيام البغدادى (ت ٢٩٤ هـ / ١٠٣٧ م) أكثر من الذين يضلون بالدجال فى وقت ظهوره. (١) ووصل الأمر أن بعض قادة خراسان أنفسهم انضموا إلى هذه الفرق الشيعية وساعدوا دعواتها لنشر عقائدهم فى مدن خراسان، بل وصل الأمر إلى انتقال الفكر الشيعى من خراسان إلى بلاد ما وراء النهر وإلى شخص الأمير السامانى نفسه نصر بن أحمد (٣٠١-٣٣١ هـ / ٩١٩-٩٤٢ م) وحاشيته، وعلى رأسهم الوزير محمد بن موسى البلخى، وذلك عن طريق الداعية الحسين بن على المرورودى، فكان كلاهما خير معين ومساند لهذه الدعوة، (٢) مما أثار الغضب عليه من رعاياه السنين وأدى إلى عزله فى النهاية عن منصبه. وأشهر دعاة الشيعة فى بلاد ما وراء النهر هو محمد بن أحمد النسفى، وأبو يعقوب السجزى المعروف ببندانسه، ورغم أن دعاة الشيعة ومتكلميها اعتمدوا فى بداية دعوتهم على السرية، إلا أنهم بعد ذلك قوى أمرهم وراحوا يطرحون عقائدهم بتنظير وفطر، بل وألف فقهاء مذهبهم بعض الكتب التى تحمل أفكار مذهبهم العقائدية والدعوة له. ولعل أهم الكتب التى ظهرت للباطنية فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى بخراسان كتاب "البيان" من تأليف شخص يدعى غياث، عرض فيه اصول مذهبهم وشرائعه، وكتاب "المحصول" لمحمد بن أحمد النسفى، وكتابى "أساس الدعوة وتأويل

(١) البغدادى ، للفرق بين الفرق، ص ٢٤٧.

(٢) محمد السعيد جمال الدين عن الكردبازى، دولة الاسماعيلية فى إيران، ص ٧٠.

الشرائع" و"كشف السرار" من تأليف أبي يعقوب السجزي المعروف ببندانه^(١).

ونبغ في مقابل هؤلاء من فقهاء السنة الخراسانيين أيضا من تولوا الرد على الفرق السابقة من مخالفي السنة، نذكر منهم الدرامي (ت ٢٨٠هـ/٨٩٣م) وهو الذي تصدى للكرامية في هراة، وطرد محمد بن كرام منها، ومن مؤلفات الدرامي أيضا كتاب "الرد على الجهمية" التي تقول بالجبر، ووجد أيضا غير الدرامي العديد من فقهاء خراسان ومتكلميها الذين اشتهروا بتصديهم لأصحاب الفرق الأخرى من غير السنة مثل السراج النيسابوري (ت ٣١٣هـ/٩٢٥م) وأبو سهل الصعلوكي (ت ٣٦٩هـ/٧٩٧م) والفاشاني (ت ٣٧١/٩٨١) وغيرهم^(٢)، وقد اتسمت مؤلفات علماء الكلام من أهل السنة في مناقشتها لعقائد الفرق المناوئة بالجدية التي وصلت إلى درجة العنف أحيانا في حكمها على بقية المناوئة، حيث أخرجتها عن دائرة الإسلام كلية، ونسبت هذه المؤلفات السننية الفرق المناوئة من شيعة وكرامية وغيرها إلى الإلحاد أو الثنوية إلى غير ذلك من العقائد التي لا يقرها الإسلام^(٣).

وازدهر أيضا في هذه الفترة (علم التصوف) الذي يعني اصطلاحيا كما يقول السيوطي في مؤلفه القيم (مقاليد العلم) العلم بالأحوال الموروثة من تصحيح الأعمال ظاهرا وباطنا. وهو ما اقتضى العكوف على العبادة والزهد في متاع الدنيا وليس الانقطاع عنها، ونحن عندما

(١) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٢٤٨، وأنظر أيضا: محمد السعيد جمال الدين،

نفس المرجع، ص ٧٢ وما بعدها والمصادر المذكورة هناك.

(٢) السبكي، نفس المصدر، ج ٣، ص ١٠٨، ١٦٧.

(٣) البغدادي، نفس المصدر، ص ٢٤٧، ٢٧٠.

نتكلم عن التصوف أو مذهب الصوفية (Sufism)، ندخل في ناحية من أروع نواحي الفكر الإسلامي، والحضارة الإسلامية. ولقد قدمت نظريات متعددة حول أصول هذه الحركة في الإسلام: ف قيل أن أصلها من الرهبانية السريانية، أو من الأفلاطونية المحدثة أو الزردشتية الفارسية أو الفيدانتا (Vedanta) الهندية. لكن أمكن إثبات أنه لا يمكن التمسك بالافتراضات التي تذهب إلى اقتباس المسلمين التصوف من أصول أجنبية، وثبت أن أصل التصوف إسلامي صرف، وبدايته ظهرت، مع ظهور الإسلام نفسه كما هو واضح من بعض آيات القرآن الكريم. فالحق سبحانه وتعالى يقول " أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير، أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار، فأنهار به في نار جهنم، والله لا يهدي القوم الظالمين"، وغير ذلك من الأحاديث النبوية الشريفة. ^(١) ولعل ازدهار التصوف في خراسان إبان فترة حكم الصفاريين والسامانيين، يرجع إلى محاولة الهروب من النزعة المادية التي سيطرت على المجتمع الخراساني في تلك الفترة عموماً وما ارتبط بها من تناحر وقلق سياسية واجتماعية، ووصل الصراع إلى حد كبير حتى بين الفرق العقائدية والمذهبية، فيؤثر عن أقوال بعض متصوفة خراسان قوله: "ابتلينا بزمان ليس فيها آداب الإسلام ولا أخلاق الجاهلية، ولا أحلام ذوي المروءة" ^(٢).

لذلك فرض متصوفة خراسان على أنفسهم مسئولية أخلاقية مؤداها إظهار الحقائق ومعالجة الأخطاء الاجتماعية، بعدم التكالب على المصالح الدنيوية وتنزيه النفس عن الدنايا، ومن ثم لم يكن موقف متصوفة

(١) القرآن الكريم، سورة التوبة، آية ١٠٩، شاخت و بوزورث، تراث الإسلام، ح ٢، ص ٨٧ وما بعدها.

(٢) السلمى، طبقات الصوفية، ص ٣٠٣.

خراسان في هذه الفترة هو التقوقع أو اعتزال المجتمع، وإنما اتخذوا موقف القدوة الحسنة، فمن أقوال بعضهم في هذا الشأن: "الفتوة تؤخذ استعمالاً ومعاملة لا نطقاً"، كما أنهم اعتبروا أنفسهم حملة رسالة سامية هدفها إظهار ظواهر الشريعة الإسلامية وبواطن حقائقها إما بقول أو بفعل بما وهبهم الله من فراسات صادقة، وقد وضع الصوفية لأنفسهم درجات يتدرجون بها في مراحل الوصول إلى الإيمان أو إلى الله حسب اصطلاحهم، أدناها الإجابة وأعلىها التوكل على الله. (١)

ومع أن متصوفة خراسان لم ينزلوا عن مجتمعهم إلا أنهم فضلوا الخلوة في وقت العبادة، فمن أقوال بعضهم: "العبادة حرفة حوانيتها الخلوة ورأس مالها الاجتهاد بالسنة وربحها الجنة". وقد اشتهر عديد من أسماء المتصوفة في خراسان نذكر منهم أبو زيد البسطامي (ت ٢٦١هـ/٨٧٤م) وأبو حفص النيسابوري (ت ٢٧٠هـ/٨٨٣م) وأبو عثمان الحيري النيسابوري (ت ٢٩٨هـ/٩١٠م)، وأبو عثمان الوراق النيسابوري (ت حدود ٢٣٠هـ/٩٣٢م)، والزجاجي (ت ٣٤٨هـ/٩٥٩م)، والفراء (ت ٣٧٠هـ/٩٨٠م)، وأبو الحسن العامري (ت ٩٨١هـ/٩٩١م) وغيرهم من علماء التصوف (٢).

الحركة الأدبية:

أما عن الأدب فقد شهدت فترة حكم الصفاريين والسامانيين نهضة أدبية مميزة، نستطيع وصفها بالثنائية أو الازدواجية الأدبية ونقصد بذلك ازدهار الأدب العربي بالإضافة للأدب الفارسي، ولا يعني هذا اختفاء الأثر

(١) السلمى، طبقات الصوفية، ص ١٤٩.

(٢) نفس المصدر، ص ١٠٩، ١٤٩، ٢٩٩، ٢٣١، فتحى أبوسيف، خراسان، ٢٥٠ -

الفارسي في الأدب العربي شكلا وموضوعا قبل هذه الفترة كما يذكر (بروكلمان) في تاريخ الأدب العربي^(١). وهو ما أطلق عليه البعض "أدب اللقاء" في العصر العباسي الأول، ولكننا لانوافق في الوقت نفسه آراء بعض الدارسين الإيرانيين المعاصرين، الذين يحاولون إسناد ما حدث من تطور في الأدب العربي إلى أدباء الفرس الذين اتقنوا العربية، فقد كان لعلماء العرب دورهم في هذا التطور، وخاصة أن الكثيرين منهم انتسبوا إلى مدن فارسية، وهم ليسوا فرسا، ولكن نظرا لاستيطان هؤلاء العلماء في مدن فارسية، فانتسبوا إلى مدنهم التي ولدوا بها. وحسبنا في هذا أن نذكر على سبيل المثال أبو الفرج الأصفهاني (٢٨٤-٣٥٦هـ/ ٨٩٧-٩٦٦م) صاحب كتاب الأغاني الشهير، فهو عربي الأصل، وبيدع الزمان الهمداني (ت ٣٩٨هـ/١٠٠٧م) صاحب المقامات المعروفة فهو كما يقول عن نفسه مضري المحتد، وغيرهما من العرب الذين تصور البعض بحكم انتسابهم إلى مدن فارسية أنهم من أصل فارسي^(٢).

وسار بعض الدارسين العرب المعاصرين على نفس الوتيرة، فقرر الدكتور حسن إبراهيم حسن أن العرب في العصر العباسي شغلوا أنفسهم بالرياسة دون العلم انفة في انتحال العلم^(٣). ويبدو لنا أن هذا الرأي لا يستند أيضا إلى الواقع التاريخي في العصر العباسي، فإن صدقت حرفية العلم وامتھانها من جانب العرب في فترة حكم الأمويين، فلا تصدق على فترة حكم العباسيين، الذين كان أغلب خلفانهم شغوفين بالعلم وأهله، بل اعتبر بعض خلفاء العباسيين من العلماء لشغفه بالعلم والأدب، وحسبنا

(١) بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج ٢، ص ٨.

(٢) ناجي معروف، علماء ينسبون إلى مدن أعجمية وهم من أرومة عربية، حوليات

كلية الآداب جامعة بغداد، ١٩٦٥، ص ٥-٩.

(٣) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج ٢، ص ٢٧٩.

في هذا الخليفة المأمون (١٩٨-٢١٨هـ/٨١٣-٨٣٣م)، الذي لقب لعلمه واهتمامه بالعلم والعلماء بالخليفة العالم. أما مسألة الرياسة وانشغال العرب بها، فهي مسألة في حاجة إلى تصحيح أيضاً، حيث أن العرب لم ينفردوا كعصر في العصر العباسي بهذه الرياسة، وإنما بقيت لهم فقط الخلافة، أما بقية أجهزة الدولة السياسية والإدارية، فقد شاركت بقية العناصر فيها من فرس وترك وغيرهما. ومن ثم فنغني بازواجية الأدب في خراسان ظهور الأدب الفارسي ككيان بلغة فارسية جديدة كوسيلة للتعبير عن هذا الأدب، بالإضافة إلى الأدب العربي الذي ازداد في هذه الفترة^(١).

وكانت اللغة العربية هي لغة الأدب شعراً ونثراً بعد أن أصبحت اللغة الرسمية والشعبية في بلاد الفرس، وتوقفت أمامها اللهجة البهلوية، وانحصر استخدامها في مناطق محددة، حيث فر اصحاب الدين الزردشتي، وظلوا يستخدمونها فيما بينهم على نطاق ضيق كما يذكر (عبد العزيز بن عبد الله) في مقاله القيم عن " العربية لغة العلم والحضارة " ، وليس لدينا أدلة على تشجيع أو إحياء لغة فارسية جديدة من جانب أي من ولاة أو أمراء الولايات الفارسية بصورة رسمية، بل على العكس تشير المصادر إلى رفض أمراء الطاهريين استخدام أية لهجة فارسية قديمة بدلاً من العربية لغة القرآن والدين الإسلامي، فهم لم ينظروا إلى الأدب الفارسي نظرة حسنة، وكانوا يرون العناية به مخالفة للدين الإسلامي. وينسب إلى عبد الله بن طاهر أمير خراسان (٢١٣-٢٣٠هـ/٨٢٨-٨٤٤م) إقدامه على حرق إحدى المنظومات البهلوية التي تدعي (وامق وعزرا) حتى لا يتهم بميوله الفارسية المتعصبة. ووصل الأمر أن بعض أمراء

(١) فتحى أبو سيف، خراسان، ص ٢٥٦-٢٥٧.

الطاهريين أنفسهم نظموا الشعر بالعربية^(١). ولذلك فلا نستطيع أن نبني على بعض الاستخدامات القليلة لهجة البهلوية أساسا للحكم على وجود لغة فارسية مناهضة للغة العربية قبل حكم الصفاريين^(٢).

وتفيد بعض الإشارات التاريخية إلى حدوث بعض التطور اللغوي في فترة حكم الصفاريين، حيث تحققت الازدواجية اللغوية، وبدأت اللغة الفارسية تأخذ دورها بشكل رسمي وأدبي معا، بجانب اللغة العربية. فالعلامة (بارتولد) يذكر أن إزدياد نشاط المانوية لا في خراسان التابعة لهم مباشرة فحسب، بل في البلاد الأخرى أيضا، أدى إلى ازدهار الحضارة عامة وإزدهار الحضارة الإيرانية خاصة. وفي أيامهم نقلت عاصمة خراسان من مرو إلى نيسابور التي صارت في مدة وجيزة أحد مراكز الحضارة، وصارت مدينة بيهق - سبزوار الحالية - أهم مراكز الدعاية الشيعية^(٣). وكانت هذه اللغة الفارسية المناهضة تحمل في داخلها التراث اللغوي الإيراني بعد امتزاجه بالأدب العربي وتأثره به، حيث بدأت تظهر لهجة أدبية استعملت كوعاء للشعر والنثر، وهي التي عرفت بالدرية أو الفارسية الحديثة، فأخذت هذه اللغة الجديدة جذورها من الفارسية الوسيطة، فكانت تطورا طبيعيا لها، ونتيجة للتفاعل بين اللهجتين الرسميتين في العهد الاشكاني والعهد البهلوي، بل وبعض اللهجات المحلية الأخرى^(٤).

(١) ابن النديم، الفهرست، ص ١١٧، ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج ٢١، ص ٣٣-

٣٤.

(٢) فتحي أبو سيف، نفسه، ص ٢٥٧.

(٣) بارتولد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ١٠٢-١٠٣.

(٤) إسعاد قنديل، فنون الشعر الفارسي، ص ١١.

ويبدو لنا أن هذا التطور اللغوي الذي حدث على عهد الصفاريين لم يتم مفاجأة، وإنما كانت له خطواته التي سار فيها، فقد كان تقدم العناصر الفارسية وسيطرتها على مقاليد الأمور السياسية والعسكرية في العصر العباسي الأول من الظواهر التي دفعت ببعض القيادات الفارسية أو ببعض المتعصبين من الفرق أن يكيدوا للعرب ولغتهم بوجود لغة قومية مناهضة للغة العربية. ومن هنا جاء الربط عند كثير من الدارسين (مثل بارتولد) بين ظهور الدول المستقلة ونهضة اللغة الفارسية الحديثة^(١). ولا مانع أن يكون هذا التطور اللغوي تطوراً طبيعياً يتفق مع دورات التاريخ وتغييراته التي تشمل الإنسان في شتى مجالات حياته المادية والثقافية، ولكننا لا نستطيع تجاهل أثر الشعوبية الفارسية في خلق هذا التطور والتعجيل به.

لذلك أصبحت اللغة الفارسية لغة شبه رسمية مع بداية حكم الصفاريين حتى أن يعقوب بن الليث فضل التحدث بها بين حاشيته، واستهجن أن يمدح بغيرها شعراً ونثراً^(٢). وتطورت اللغة الفارسية على عهد السامانيين وأصبحت في معظم فترات حكمهم لغة رسمية، مما أدى إلى انتشارها داخل المجتمع الخراساني، وخاصة بين طبقة المثقفين والعاملين في دواوين الدولة، فصارت اللغة الفارسية لغة الثقافة، تقف مع العربية على حد سواء. ولا يعني ذلك بطبيعة الحال ضعف اللغة العربية، فقط ظلت هذه اللغة حتى نهاية حكم السامانيين لغة العلم والثقافة في خراسان، تدون بها المؤلفات والموسوعات العلمية. وتشير الدراسات المقارنة للغتين العربية والفارسية أنه حتى بعد انحسار المد الحضاري

(١) بارتولد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ١٠٣، بروكلمان، تاريخ الأدب العربي،

ج ٢، ص ٧.

(٢) مجهول، تاريخ سيستان، ص ٢٠٩.

للغة العربية عن بلاد الفرس، فإن الآداب الفارسية ظلت تستمد وجودها وكيانها من الآداب العربية. وبهذا تحققت الازدواجية اللغوية، وتمتعت خراسان ثقافياً وعلمياً بوجود اللسانين العربي والفارسي، وقد انتقلت هذه الصورة إلى الشعر وفنونه، فوجدنا الشعر العربي والفارسي جنباً إلى جنب، العربي يتفوقه وازدهاره، والفارسي يبدأ مراحل تطوره على طريق الازدهار.

ويبدو أن شعراء العربية في خراسان لم تتح لهم الفرصة الكاملة في الانطلاق إبان حكم الصفاريين، وذلك لعوامل سياسية واجتماعية أهمها الاضطرابات السياسية وانقسام القوى الخراسانية على نفسها، وكثرة الحروب الداخلية، فأدى ذلك بالتالي إلى عدم الاستقرار الاجتماعي الذي يرتبط عادة بانزواء الشعراء وخمولهم، أما العامل الثاني فيرتبط بسياسة الدولة الصفارية نفسها تجاه الأدب العربي، وهي سياسة تشير إلى عدم الحماس للشعر العربي وتحيز لشعراء الفارسية، ومع ذلك فلدينا بعض الإشارات على وجود بعض شعراء العربية الذين مدحوا أمراء الصفاريين، فتشير المصادر إلى بعض الأبيات اشعرية التي مدح بها الشعراء يعقوب بن الليث عند فتحه مدينة هراه الخراسانية، ورغم أن يعقوب لم يأبه بما قيل في مدحه، وفضل أن يكون مديحه بالفارسية، إلا أن ذلك يؤكد وجود شعراء العربية في فترة حكم الصفاريين^(١).

ولكن الموقف تغير تماماً على عهد السامانيين الذين ربطتهم بالخلافة العباسية علاقة وطيدة، وأرادوا أن يجعلوا من الولايات الخاضعة لسلطانهم خاصة بخاري وخراسان مراكز حضارية على مستوى

(١) مجهول، تاريخ سيستان، ص ٢٠٩، فتحي أبو سيف، خراسان، ص ٢٦٠.

العالم الإسلامي، فاحتضنوا شعراء العربية والفارسية معا، ولقد شجع السامانيون الحركة الأدبية،، كما شجعها وزيران لهذه الدولة فكانا صورة مصغرة لابن العميد وابن عباد وهما: الوزير البلعمي، والجيّهاني. ولما كان السامانيون حماة لأهل السنة، فقد صنف في أيامهم كتاب في العقائد باللغة العربية لوقاية الشعب من الرافضة، ثم ترجم هذا الكتاب إلى الفارسية. وفي زمنهم أيضا ترجم تفسير الطبري إلى الفارسية، كما ألف تفسير آخر بالفارسية. وأفتى الناس بجواز الصلاة باللغة الفارسية كاللغة العربية. وقد ادعى علماء الدين بأن الأنبياء المتقدمين كانوا يتكلمون الفارسية حتى زمن إسماعيل عليه السلام جد العرب. (١) لذلك ازدهر الشعر العربي بشتى أشكاله في المديح والهجاء والزهد وغيرها. وحفلت خراسان بعدد من الشعراء الذين قرضوا الشعر بالعربية نذكر منهم: أبوأحمد بن أبي بكر الذي تقلد بعض المناصب الإدارية في خراسان كنائب للسامانيين، وقد استخدم هذا الشاعر شعره في تشخيص النظم الإدارية السامانية في خراسان وعيوبها، فقد احتفظ الثعالبي بأشعاره في نقد عمال الخراج بنيسابور. كما عرف الهجاء وله في هجاء الوزير أبي عبد الله الجيهاني وزير السامانيين في عهد نصر بن أحمد (٣٠١-٣٣١هـ/ ٩١٣-٤٧٢م) بعض أبيات من الشعر منها:

يا ابن جيّهان لا وحقك لاتصلح فاغضب أو فارضين بالحراسة
ولو أن التدبير والحكم في الخلق على العدل ما وليت كناسة

وكان هذا الشاعر يقرض الشعر بأوزانه المختلفة البسيط والخفيف

والكامل. (٢)

(١) بارتولد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ١٠٣.

(٢) الثعالبي، يتيمة الدهر، ح ٤، ص ٦٧، بارتولد، نفسه، ص ١٠٣.

ومن شعراء خراسان أيضا الذين قرضوا الشعر العربي أبي الطيب الطاهري الذي لقي العطف من أمراء السامانيين، ولكنه لم ينس ما كان لأسرته الطاهرية من حكم في خراسان، لذلك فاضت أشعاره بتمجيد نيسابور عاصمة خراسان، واشتهر أيضا الحسين بن علي المروزي وهو من قادة جيوش خراسان وله احتكاكاته السياسية مع أمراء ووزراء السامانيين التي انطبعت على أشعاره العربية. وقد أحاط شعراء العربية بقيادة جيوش خراسان وحكام مدنها، كما أحاطوا بأمراء السامانيين في مركز الدولة ببخاري ولدينا بعض أسماء لشعراء من المدن الخراسانية، ومنهم أبو الحسن المزني شاعر نيسابور، وأبو أحمد الساوي الهروي شاعر هراة، وأبو الحسن بن المؤمل الذي كان شاعرا وكاتباً لفائق الخاصة أحد قادة خراسان في الفترة الأخيرة من حكم السامانيين، ومحمد بن موسى شاعر بلخ، وأبو الفضل السكري والمروزي شاعر مرو، وأبو أحمد اليماني البوشجني شاعر بوشنج، وغيرهم من شعراء العربية^(١)، مما يدل على ازدهار الشعر العربي في خراسان على عصر السامانيين.

إحياء الشعر الفارسي:

وشهدت هذه الفترة من حكم الصفاريين والسامانيين نهضة الشعر الفارسي، فقبل ذلك ظهرت إشارات عن بداية قرص الشعر الفارسي حتى أنه يسند لأهل خراسان بعض الأشعار الفارسية التي قالوها في هجاء أسد بن عبد الله القسري والى خراسان في العصر الأموي بعد هزيمته من أمير ختلان وخاقان الترك. كما توجد إشارات أخرى عن قرص الشعر

(١) الثعالبي، يتيمة الدهر، القسم الخاص بشعراء خراسان وما وراء النهر، ص ٦٤ وما بعدها.

بالفارسية في خراسان عندما كان المأمون مستقرا بها كولي للعهد، ثم ولايته للخلافة واتخاذه خراسان مركزا له فترة من الوقت (١٩٨-٢٠٢هـ/٨١٣-٨١٧م)، فيروي (عوفي) أن أحد شعراء خراسان وهو عباس المروزي أنشد قصيدة مدح في المأمون بالفارسية، ولقى هذا الشاعر العطف من المأمون. ويسند البعض الآخر لحنظلة الباذ عيسى (ت ٢١٩ أو ٢٢٠هـ / ٨٣٤هـ أو ٨٣٥م) الفضل في بداية قرض الشعر بالفارسية، ولدينا من اشعاره أو مما نسب إليه من أشعار أشكال مختلفة في الغزل وفي الحماسة وغيرها. ويؤخذ من بعض الروايات أنه كان لحنظلة ديوان شعر حفظ فيه شعره الفارسي، ولكن لم تصلنا إلا بعض الأبيات من هذا الديوان. وناقش كثير من الباحثين مدى صحة انتساب هذه الأبيات إلى حنظلة، حيث أجروا عليها النقد، وشكك البعض في انتسابها إليه لما وجدوه في هذه الأشعار من نضج لا يتفق مع البداية الشعرية التي بدأ بها الشعر الفارسي. لذلك تعتبر فترة حكم الصفاريين والسامانيين هي الفترة التي اتفق عليها كبداية حقيقية لقرض الشعر بالفارسية. (١)

واسند لشعراء هذه الفترة فضل السبق في قرض الشعر الفارسي، وأولهم محمد بن وصيف السجزي الذي كان كاتباً وشاعراً ليعقوب بن الليث وأخيه عمرو، حيث استجاب هذا الشاعر إلى رغبة يعقوب في خلق أدب فارسي يتناسب مع وضع الدولة الصفارية الجديدة بحكم فارسيتها^(٢). فبدأت تظهر لهذا الشاعر بعض قصائد المدح التي بدأ بها الشعر الفارسي، مما يدل على أن البداية أخذت الطابع الرسمي، وهو ما يعرف بشعر القصور أو البلاط. ولدينا من هذه القصائد التي قيلت في مدح يعقوب،

(١) بارتولد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ١٠١.

(٢) مجهول، تاريخ سيستان، ص ٢٠٩، فتحي أبو سيف، خراسان، ص ٢٦٢.

تلك القصيدة التي أنشدها محمد بن وصيف بمناسبة انتصار يعقوب على الطاهريين في هراة المدينة الخراسانية وانتصاراته الأخرى. ومطلع هذه القصيدة (الترجمة العربية):

أيها الأمير الذي أمراء العالم الخاص منهم والعام..

عبده وخدمه وكلايه وغلمانه

في اللوح المحفوظ حظ اولى يقول اعطو الملك

لأبي يوسف يعقوب بن الليث المهام (١)

ثم ازداد قريض الشعر بالفارسية على عهد السامانيين اذين شجعوا الكتابة والنظم بالفارسية رغبة منهم في إحياء لغتهم القومية والنهوض بأدابها، فقد كانوا كما ذكرنا من أصل فارسي لذلك راجت هذه اللغة في عهدهم، فقد شملوا برعايتهم وحملوا في قصورهم كتاب العربية إلى جانب كتاب الفارسية. ولذلك يرى (بارتولد) وغيره من علماء أوروبا أن النهضة القومية الفارسية ما هي إلا إحدى نتائج ظهور دول في فارس غير مرتبطة ببغداد، ويرى أيضا أن الدول الفارسية قد عاونت على ترقية القومية الفارسية^(٢).

فازداد عدد الشعراء الذين قرضوا الشعر بالفارسية حتى أن عوفي الكاتب الفارسي ذكر ما يقرب من ثلاثين شاعرا فارسيا على عهد السامانيين مما يدل على ازدهار الشعر الفارسي في هذه الفترة، وتعددت

(١) إسعاد قنديل، فنون الشعر الفارسي، ص ٣١.

(٢) بارتولد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٩٧.

مجالات الشعر الفارسي في ظل السامانيين، وظهرت أنماط مختلفة، فمنها ما قيل في المديح أو الهجاء، ومنها ما قيل في الغزل بنوعيه البشري والصوفي. كذلك بدأت تظهر على عصر السامانيين الملاحم الشعرية التي ستزدهر في الفترة الأخيرة من حكمهم ازدهارا كبيرا.

وساعد على هذا الازدهار الأدبي في مجال الشعر الفارسي، أن أمراء السامانيين أحاطوا الشعراء برعايتهم فأجروا عليهم الرواتب والهبات، وانتقلت هذه العناية بالشعراء من الأمراء إلى قادة الجيوش وحكام المدن والوزراء^(١). ويؤكد عوفي ما وصل إليه الشعراء من رفاهية عند ترجمته للشاعر الرودكي في عهد الأمير نصر بن أحمد الساماني (٣٠١-٣٣١هـ/٩١٣-٩٤٢م) بأن ثروات الرودكي زادت من كثرة الهبات حتى أنه كان في حوزته مائتا غلام. وكان البلاط الساماني في بخارى زاخرا بالعلماء والأدباء الذين يفدون على الدولة، وأصبحت بخارى عاصمتهم مركزا من مراكز الثقافة تشع منه المعرفة، ويزخر بالأدباء ورجال الفكر والفن.

وعلى الرغم من أن أغلب الشعراء في فترة حكم السامانيين فضلوا الانتقال إلى بخارى عاصمة الدولة السامانية، وأحاطوا ببلاط الأمراء هناك، إلا أن الافتتاح الثقافي الذي تميزت به فترة حكم السامانيين، يؤكد انطلاق الشعر الفارسي في خراسان. وأغلب الظن أن كثيرا من شعراء بخارى بدأوا حياتهم الأدبية في خراسان، ثم شدهم بعد ذلك بريق بخارى فانتقلوا إليها كعاصمة الدولة الحاكمة. فتشير أسماء بعض الشعراء إلى نسبهم الخراساني كالدقيقي الطوسي (ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م) من طوس،

(١) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج ٤، ص ١٤٨.

والكسائي المروزي، (ت ٣٩٤هـ / ١٠٠٣م) من مرو وغيرهما من الشعراء.

وتميزت هذه الفترة أيضا بظهور الملاحم الشعرية، وهي ظاهرة أدبية تظهر بظهور الروح الوطنية والحماس الديني. ولما كانت الدولة السامانية من الدول المتحمسة لفارسيتها ونسبها الإيراني القديم، فبدأت تظهر بعض الأعمال التي أطلق عليها شاهنامه - سير الملوك - التي اعتمدت في نظمها على الفن المعروف بالمتنوي، الذي يتناسب مع شعر الملاحم الطويلة حيث لا يتقيد الشاعر بسوزن وقافية موحدة في الملحمة كلها. ونعرف من هذه الملاحم شاهنامه أبي علي البلخي، وشاهنامه أبي منصور نسبة إلى أبي منصور محمد بن عبد الرازق الطوسي قائد جيش خراسان في عهد عبد الملك بن نوح الساماني (٣٤٣-٣٥٠هـ / ٩٥٤-٩٦١م)، وكلها أعمال ملحمية في النصف الأول من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، وموضوعها تاريخ الفرس القديم وأمجادهم وبطولاتهم، وقام الشاعر الدقيقي الطوسي بأمر من نوح بن منصور الساماني (٣٦٥-٣٨٧هـ / ٩٧٦-٩٩٧م) بنظم شاهنامه جديدة بدأها بنظم قصة كشتاسب الإيراني وحربه مع أرجاسب الطوراني لحماية الدين الزردشتي، ولكن الدقيقي قتل قبل إتمام هذه الملحمة، وتجدر الإشارة إلى أن الشاعر الدقيقي قد صرح بعلاقته بالعقيدة الزردشتية قائلا إنه يفضل الخمر وشفقتي حبيبه ودين زردشت على كل شئ آخر. (١) حيث استفاد منها بعد ذلك الفردوسي (ت ٤١١ أو ٤١٦هـ ، ١٠٢٠ أو ١٠٢٥م) في الشاهنامه التي نظمها، والتي وقفت بشعر الملاحم الفارسية في صف

(١) بارتولد عن مقدمة الشاهنامه، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ١٠٤.

واحد مع ملاحم اليونان والرومان بل ربما تفوقت عليها. وقد بلغ عدد أبياتها ما يزيد على خمسين ألف بيت، وتناولت تاريخ الإيرانيين من أقدم عصورهم حتى سقوط الدولة السامانية، ويصفها (بارتولد) بأنها بقيت كنزا قوميا للشعب الإيراني كله. ولهذا الكتاب مكانة ممتازة في آداب العالم، إذ أن الأقسام الأخرى عاشوا عصورهم السياسية بعد أن فقدت أساطيرهم بهجتها بتأثير الكتاب^(١) وهنا يجب الإشارة أن الفردوسي يعتبر من شعراء خراسان في العصر الساماني، فمولده ونشأته بإحدى قرى طوس - إحدى مدن خراسان - ، ولقى العطف من حسين بن قتيبة حاكم طوس، وقد أنهى الفردوسي الشاهنامه عام ٣٨٩هـ/٩٩٨م بعد أن قضى في تأليفها خمسة وعشرين عاما^(٢).

وعرف في فترة حكم السامانيين شعر الغزل الذي يعتبر (الروديكي) رائدا له، فقد كان هذا الشاعر نديما لمجلس الأمير نصر بن أحمد، وينسب إليه أيضا أنه أول من ابتدع الارتجال الغنائي الفارسي، (وإن كان شعره لا يخلو من كلمات عربية) فغنى كثيرا على أنغام العود أمام الأمير نصر وصحبه الأمير معه عندما استقر في مدينة هراة الخراسانية. ويسند إلى أشعار الروديكي وغزله في بخارى شعرا وغناء تحريك مشاعر الأمير نصر وحنينه إلى بخارى وترك مدينة هراة الخراسانية. ويذكر (بروكلمان) أن أوزان (الروديكي) التي إصطنعها كأوزان جميع شعراء الفرس من بعده، كانت مفرغة في القوالب العربية. وقد ولد (الروديكي) في قرية صغيرة بالقرب من سمرقند. ولم يكن جميل المنظر فحسب، بل

(١) بارتولد، نفسه، ص ١٠٧.

(٢) إسعاد قنديل، فنون الشعر الفارسي، ص ٤٨، أحمد مختار العبادي، في التاريخ

كان عذب الصوت بارعا في الموسيقى ، حتى حظي بمكانة مرموقة عند الأمير السعيد نصر بن أحمد الساماني. وقد دعا الرودكي في شعره إلى فلسفة في الحياة بعيدة عن الهم ناضحة بالسعادة، مستوحاة من حب النساء والغناء والخمر، على الرغم من شرائع الإسلام التي تحرم مثل هذه الأمور، فقد كان شعراء إيران في عصر السامانيين يذيعون آراء لا تتفق مع الإسلام. ولم تقتصر آراء الرودكي على ماسبق، وإنما كان من رأيه أنه "لامعنى لتحويل الوجه إلى القبلة والقلب منجذب إلى القدسية المجوسية، ويجب الإيمان بحب الإله العام لجميع الأديان، فإن إلهك يقبل حبك ولكن لا يقبل صلاتك".^(١) وكان إلى جانب هذا كله مؤسس الملحمة التعليمية، وهي أخصب فروع الأدب الفارسي على الإطلاق كما يذكر (بروكلمان)، فقد حاكى في الشعر الفارسي كتاب (كليلة ودمنة) الهندي القديم الذي سبق للإمبراطور الساساني كسرى أنوشروان أن أمر (برنويه) طبيبه الخاص بترجمته إلى البهلوية ثم نقله عبد الله بن المقفع إلى العربية في صدر الدولة العباسية^(٢).

ولقد افتخر (البلعمي) وزير الأمير إسماعيل الساماني بمكانة الرودكي بين شعراء العرب والعجم فقال عنه: "إن الرودكي شاعر لا نظير له بين شعراء العرب والعجم". ولقد استحق الرودكي هذه المكانة بالفعل، حيث أن شهرته بذت شعراء الفرس القدامى، حتى لقب بأنه أبو الشعر الفارسي ورائده في العصر الحديث، ومن دواعي الأسف والحزن أن آثاره الشعرية فقدت وكانت تملأ مائة كراسة، ولم يعثر منها إلا على القليل .

(١) بارتولد، نفسه، ص ١٠٤.

(٢) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ج ٢، ص ١١٥.

ولقد ترتب على صحبة الرودكي للأمير نصر بن أحمد الساماني ورعاية الأخير له، أن قربه من مجلسه الخاص، فعلا شأنه ونمت ثروته، واسبغ عليه النعمة حتى قيل أنه كان يمتلك مائتا غلام. غير أن الرودكي قد أصابته محن الأيام والدهور، ولم ينعم بعطف الأمير الساماني طويلا، فقد أفل نجمه في أواخر حياته، عندما غضب عليه سيده الأمير لأسباب دينية لعلها بسبب إيمانه بأفكار ترتبط بالمجوسية، وإنكاره للأفكار والمبادئ الإسلامية، فتبدلت سعادته شقاء ونعيمه بؤسا، وقد صور نكبته هذه خير تصوير في أبيات شعرية منها (مترجمة):

وَأَمَاه : وَاحْسِرْتَان : عَلِي أَنْ قَطَعَ دُورَ الزَّمَانِ
عَلَى الطَّرِيقِ دُونَ أَنْ يَكُونَ مَعِيَ آلَةٌ وَلَا سِلَاحَ
كَلَّمَا بَدَا لِي مَجْدٌ بَدَتْ لِي بَعْدَهُ مَحْنَةٌ
وَلَا غُرُو قَلَمٌ تَكُنُ الْأَيَّامُ لَتَمُرُّ دُونَ أَنْ تَصْنَعَ الْعَجَائِبَ

وقد استمرت هذه المحنة حتى وافاه الأجل في عام ٣٢٩هـ^(١).

وشارك شعراء خراسان في شعر الغزل البشري والصوفي وأهم هؤلاء الشعراء الشهيد البلخي (ت ٣٢٥هـ/٩٣٦م)، والدقيقي الطوسي (ت ٣٦٨هـ/٩٧٨م)، وكان الشعراء يقرضون هذه الأشعار أما في مقطعات أو رباعيات . كل هذه إشارات تؤكد ازدهار الشعر الفارسي إبان حكم الصفاريين والسامانيين^(٢). وإن كان عهد السامانيين بحق أول العهود التي ارتفعت فيها الآداب الفارسية، وظهر في أيام حكمهم كثير من

(١) حامد عبد القادر، قصة الأدب الفارسي، ج ١، ص ١٣٠-١٣٤، محمد علي حيدر، الدويلات الإسلامية، ص ١٩٨-٢٠٠.

(٢) إسعاد قنديل، فنون الشعر الفارسي، ص ٥٥.

الشعراء وقد أورد (عوفى) في كتابه عددا من الشعراء الذين عاشوا في هذا العصر وبلغ عددهم ٢٧ شاعرا، ومنهم أبو شكور البلخي، وأبو بكر محمد بن علي الخنسروي، والجرجاني وغيرهم كما سبق أن ذكرنا.

وشهدت هذه الفترة ازدهار (النثر العربي والفارسي) على السواء وساعد على تقدم الكتابة النثرية أن الخلفاء والأمراء أولوا اهتماما كبيرا بكتاب الرسائل الذين كانوا يصيغون للخلفاء رسائلهم الرسمية إلى عمالهم أو إلى وزراءهم أو حتى إلى أعدائهم ومنافسيهم، فصارت الكتابة فن يستدعي التأنق والبراعة لإظهار القدرة وإبراز العبقرية. وكان أشهر من كتب الرسائل النثرية هو عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين (١٢٧-١٣٢هـ / ٧٤٤-٧٤٩م) حيث صارت كتابته النثرية نموذجا احتذاه من بعده الكتاب. وأسند لعبد الحميد فضل السبق في كتابة الرسائل النثرية الطويلة المنمقة^(١). وهذا النوع من الرسائل يعرف بالرسائل الديوانية، إلا أنه وجد أيضا بجانب هذه الرسائل الديوانية كتابات نثرية حرة أو بعيدة عن متطلبات الدولة ورسائلها، وقد استخدمها الكتاب في مؤلفاتهم التاريخية والأدبية، كما يذكر الدكتور شوقي ضيف.

وتعد كتابات ابن المقفع (ت ١٤٠هـ / ٧٥٧م) الذي كان معاصرا لعبد الحميد الكاتب نموذجا للكتابات النثرية الحرة. وازدهرت من بعده الكتابات النثرية، واشتهر العديد من كتابها، نذكر منهم أحمد بن يوسف صاحب رسائل الخميس في عهد المأمون (١٩٨-٢١٨هـ / ٨١٣-٨٣٨م)، وهي الرسائل التي كانت توجه إلى أهالي خراسان عند تولية الخليفة العباسي أمور الخلافة^(٢). وعرف العديد من كتاب الرسائل مرورا

(١) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ٧٢.

(٢) الجهشياري، نفس المرجع، ص ٣٠٤.

بابن الزيات والصولي ووصلأ إلى الجاحظ (ت ٢٥٥هـ/٨٦٨م) الذي غلبت على كتابته الإجادة والإطناب والطرافة مع استخدام الأسلوب النثري الرائع.

وكان الطاهريون أنفسهم الذين حكموا خراسان مع بداية القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي قد اهتموا بفن كتابة الرسائل، فالرسالة التي أرسل بها طاهر بن الحسين إلى ابنه عبد الله حاملة وصايا الأب إلى الابن، وواجبات الأمير والقائد نحو الخليفة، وغيرها من شئون الإدارة والسياسة، تعتبر من أعظم الرسائل النثرية التي تدل على تقدم فن النثر على عصر الطاهريين. والملاحظة العامة التي تميزت بها الرسائل النثرية في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي هي عدم التزام كتاب الرسائل بصفة دائمة في استخدام السجع. وكانت المعاني تصاغ بألفاظ سهلة وأسلوب عذب. (١)

ورغم الدلائل التي تشير إلى استهجان أمراء الصفاريين للأدب العربي وخاصة يعقوب بن الليث، إلا أن وجود كتاب الرسائل العربية في دواوين الدولة الصفارية، ووجود بعض الرسائل الديوانية المتبادلة بين أمراء الصفاريين والخلافة من ناحية وبين أمراء السامانيين من ناحية أخرى، يؤكد استمرار الكتابات النثرية العربية على عهد الصفاريين، إذا أضفنا إلى هذا أن خراسان تعرضت في أغلب فترات حكم الصفاريين إلى الانقسامات السياسية، وكان على رأس كل قوة قائد أو

(١) بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ح ٢، ص ١٠٧-١٠٨.

حاكم مدينة له اتصالاته الرسمية مع الخلافة أو مع القوى المنافسة له،
جاز لنا أن نتصور استمرار الكتابات الرسمية التي استخدم فيها فن النثر.

ولكن مع بداية حكم السامانيين لخراسان قرب مطلع القرن الرابع
الهجري/ العاشر الميلادي وهو القرن الذي ازدهرت فيه الكتابة النثرية
في المشرق الإسلامي بصفة عامة، بحيث فضل الناس النثر على غيره
من فنون الأدب وأصبحوا يتذوقون الكتابات النثرية عن الشعر، فمن
الأقوال التي قيلت في هذا الشأن "النثر أصل الكلام والنظم فرعه والأصل
أشرف من الفرع"^(١). وتنوعت في هذا القرن الكتابات النثرية منها ما
هو ديواني برع فيه كتاب من أمثال ابن العميد (ت ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م)
والصابي (ت ٣٨٤هـ - ٩٩٤م) والصاحب بن عباد (ت ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م)
وأبو حيان التوحيدي (ت حوالي ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م) وغيرهم، وقد ساعد
هؤلاء بكتاباتهم على دفع فن النثر وتقدمه في هذه الفترة^(٢).

ووجد أيضاً بالإضافة إلى الرسائل الديوانية رسائل عرفت بالإخوانية
وهي التي لم تختص بالدواوين، وإنما كانت أدبية صرفة تتناول
موضوعات اجتماعية وعقائدية، ويعد الخوارزمي (ت ٣٨٣هـ/ ٩٩٣م)
من أهم كتاب الرسائل الإخوانية. وليس هناك مانعاً أن يكتب أصحاب
الرسائل الديوانية رسائل إخوانية أو عامة، فقد فاقت بعض رسائل ابن
العميد الإخوانية رسائله الديوانية وخاصة تلك الرسالة التي وصف فيها
شهر الصوم^(٣).

(١) مصطفى الشكعة، بديع الزمان الهمداني، القاهرة ١٩٧٥، ص ٧١.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٠٦، الشكعة، نفس المرجع، ص ٧٣.

(٣) الشكعة، نفسه، ص ٧٤، ١٠٢.

وكان من الطبيعي أن تتأثر خراسان ثقافياً بهذا الازدهار في فن كتابة النثر بالمنطقة الشرقية من العالم الإسلامي، وخاصة أن هذا القرن - الرابع - شهد حركة التأليف الأدبي والعلمي في خراسان حيث كان العلماء والأدباء يفضلون صياغة مؤلفاتهم باستخدام الأسلوب النثري، بل كثيراً ما كانت تعقد المناظرات الفقهية بين فقهاء خراسان ويغلب عليها أيضاً استخدام النثر في النقاش والمناظرة. واشتهرت خراسان بعدد من كتابها في فترة حكم السامانيين، وإن كانت الملاحظة التي لاحظناها في الشعراء الخراسانيين نلاحظها أيضاً في الكتاب وهي محاولة هؤلاء بعد الوصول إلى الشهرة والنبوغ في فن الكتابة النزوح إلى بخارى مركز الدولة السامانية، ونذكر من كتاب خراسان الذين عاشوا في كنف مدنها وحكامها محمد بن عيسى الدامغاني الذي كان كاتباً لأبي منصور محمد بن عبد الرازق قائد جيش خراسان في عهد عبد الملك بن نوح الساماني (٣٤٣-٣٥٠هـ/٩٥٤-٩٦١م) وقد تولى الدامغاني ديوان الرسائل للسامانيين عدة مرات. ومن كتاب خراسان أيضاً أبو جعفر الرامي، وينتسب إلى الرام إحدى رساتيق نيسابور، بعد أن ذاع صيته في فن الكتابة انتقل إلى بخاري، حيث تولى ديوان الرسائل للسامانيين^(١).

وكانت مدينة نيسابور من المدن الكبيرة التي فتحت أبوابها جاذبة العديد من الكتاب المجيدين في فترة حكم السامانيين، وخاصة في الفترة التي أسندت فيها رئاسة هذه المدينة لأسرة من الأسر التي عنيت بالثقافة عناية كبيرة وهي أسرة آل ميكال، وهي من الأسر الخراسانية الفارسية التي تنتسب إلى (ميكال بن عبد الواحد) من سلالة يزدجرد الملك الساساني. وكان أفراد هذه الأسرة أنفسهم من الكتاب البارعين، وقد

(١) الثعالبي، ينيمة الدهر، ج٤، ص١٤٣، ١٥١.

اشتهر منهم في عهد السامانيين الأمير أبو العباس إسماعيل بن عبد الله الميكالي (ت ٣٩٢هـ / ١٠٠١م). ونعمت نيسابور كعاصمة لخراسان في ظل آل ميكال بمقدم كثير من الكتاب الذين وصلت شهرتهم للآفاق من أمثال أبي بكر الخوارزمي (ت ٣٨٣هـ / ٩٩٣م) وبديع الزمان الهمداني (ت ٣٨٩هـ / ١٠٠٧م) وغيرهما ممن ذكرهم الثعالبي بأسمائهم ومؤلفاتهم حيث يتضح من خلال ما ذكره مدى ما وصل إليه فن النثر من ازدهار في هذه الفترة. (١)

وتميزت الكتابات النثرية في هذه الفترة باستخدام السجع والمحسنات اللفظية، كما ينسب إلى هذه الفترة ظهور المقامات التي يرجع الفضل إلى بديع الزمان الهمداني في ازدهارها، حيث كانت المقامة عرض في صورة قصة نثرية مسبوكة النسج والهيكل، يأتي فيها المدح أو الوعظ بطلاقة وإنشاء جميل.

وأدى استخدام اللغة الفارسية كلغة رسمية في فترة حكم الصفاريين والسامانيين إلى تقدم النثر الفارسي، ووجود بعض الكتاب الذين أجادوا كتابة الرسائل بالفارسية، ورغم أن (دولت شاه) يؤكد أن اللغة الفارسية لم تستخدم رسمياً في كتابة المناشير والرسائل الرسمية حتى نهاية الحكم الساماني، إلا أنه يبدو أن عدم استعمال الفارسية في لغة الكتابة الرسمية كان خاصاً بمكاتبات الدولة السامانية مع الخلافة فقط، أما فيما عدا ذلك من مكاتبات فقد كانت الفارسية تستخدم كلغة رسمية في أيام أكثر حكامهم^(٢). وتشير الدلائل على استخدام هذه اللغة في الكتابة الرسمية

(١) الثعالبي، بتيمة الدهر، ج ٤، ص ٦٤ إلى ٩٩.

(٢) بارتولد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ١٠٣.

حتى في العهد الصفاري، حيث كان محمد بن وصيف السجزي كاتباً من كتاب الفارسية للدولة الصفارية بالإضافة إلى كونه شاعرهم.

وبدأ استخدام النثر الفارسي في ترجمة الكتب الفارسية القديمة التي كتبت بالبهلوية أو غيرها، فينسب إلى فترة حكم الصفاريين ترجمة بعض الكتب الساسانية مثل كتاب "ملوك العجم"، الذي يحتمل أن تكون ترجمته تمتد على عهد يعقوب بن الليث، وأن الذي قام بترجمته أحد علماء خراسان. وكانت أهم الأعمال النثرية التي تمت في بداية حكم السامانيين هي ما قام به الوزير الساماني (أبي الفضل البلعمي) في عهد الأمير إسماعيل بن أحمد (٢٧٩-٢٩٥هـ/٨٩٢-٩٠٧م) بترجمة كتاب "تاريخ الأمم والملوك" من تأليف المؤرخ الطبري (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) من اللغة العربية إلى اللغة الفارسية في عام ٣٥٢هـ، وقد استخدم البلعمي الأسلوب النثري في هذه الترجمة بعد أن حذف التفاصيل المملة التي كانت موجودة في السفر الأصلي، وقد اشتهرت ترجمته، وترجمت بدورها إلى لغات أخرى عديدة^(١). وأقدم الشاعر الرودي على ترجمة كتاب كليلة ودمنة في عهد الأمير نصر بن أحمد (٣٠١-٣٣١هـ/٩١٣-٩٤٢م) ونال عن هذه الترجمة التي بلغت في أسلوبها النثري حداً كبيراً من التفوق منح الأمير وعطاياه. كذلك قام علماء السامانيين الذين أجادوا الكتابة باللغة الفارسية الجديدة بإيحاء من أمراء السامانيين وخاصة عبد الملك بن نوح (٣٤٣-٣٥٠هـ/٩٥٤-٩٦١م) ومنصور بن نوح (٣٥٠-٣٦٦هـ/٩٦١-٩٧٦م) بترجمة تفسير القرآن الذي صنفه الطبري أيضاً. ولم تقف الكتابة النثرية على عهد السامانيين عند حد الكتابات الأدبية أو الدينية،

(١) النرشخي، تاريخ بخاري، ص ١٣٩، العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، ص

وإنما تعدتها إلى المجالات العلمية، فلدينا من الكتب العلمية التي تمت ترجمتها على عهد السامانيين كتاب "الأبنية عن حقائق الأدوية" الذي ترجمه بأسلوب نثري موفق الدين أبو منصور علي الهروي في عهد الأمير نصر بن أحمد أيضاً. هذه أهم المجالات التي استخدم فيها الكتاب الأسلوب النثري في صياغة كتبهم أو ترجماتهم، وهي بدايات تمهيدية لازدهار النثر الفارسي بعد ذلك سواء في الكتابة الأدبية أو العلمية^(١).

الفلسفة:

وشهدت هذه الفترة ازدهاراً في علم (الفلسفة الإسلامية)، وهو العلم الذي أطلق عليه الحكمة، ويبحث فيه عن حقائق الأشياء على ما هي عليه من الوجود بقدر الطاقة لتصير النفس الإنسانية بتحصيلها كاملة مضاهية للعالم العقلي. وقد نبغ عديد من فلاسفة المسلمين الذين حاولوا التوفيق بين الفلسفة والدين، ونجحوا في هذا المجال إلى حد بعيد، وخاصة أن الدين الإسلامي يدعو إلى النظر في جنبات الكون والتأمل في مخلوقات الله، كما أنه بدأت تظهر بعض الأفكار الإسلامية التي نادت باستخدام الفلسفة اليونانية ومنهج تفكيرها في الشريعة الإسلامية، ليتحقق بذلك تخلص الشريعة مما ترسب فيها من جهالات وضلالات، فشهدت هذه الفترة ترجمة العديد من كتب فلاسفة اليونان كآرسطو وأفلاطون والتأثر بما فيها من أفكار، مما أعطى للفلسفة الإسلامية صبغتها العالمية.

والجماعة التي نادت بهذه الأفكار تسمى جماعة (إخوان الصفا وخلان الوفا)، وهم جماعة اجتمعوا حوالي منتصف القرن الرابع الهجري

(١) ولهذا الكتاب تسمية أخرى هي "روضة الألس ومنفعة النفس". تصحيح شادروان أحمد بهمنيار بكوشش حسين محبوبي اردكاني، طبع طهران ١٣٤٦ (فتحي أبوسيف، خراسان، ص ٢٧١-٢٧٢).

على تصنيف كتاب في أنواع الحكمة الأولى، ورتبوه مقالات عدتها إحدى وخمسون مقالة، خمسون منها في خمسين نوعا من الحكمة، ومقالة حادية وخمسون جامعة لأنواع المقالات على طريق الاختصار والإيجاز، وهي كما يذكر (القفطي) مقالات مشوقات غير مستقصاة ولا ظاهرة الأدلة والاحتجاج، وكأنها للتنبيه والإيماء إلى المقصود الذي يحصل عليه الطالب لنوع من أنواع الحكمة.

وقد كتم مصنفوها أسماءهم، ولذلك اختلف الناس في الذي وضعها، فقالت أكثر الروايات أنهم من نسل الإمام على بن أبي طالب، وكانت هذه الجماعة قد تألفت بالعشرة وتصافت بالصدافة واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة، فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله، وذلك أنهم قالوا إن الشريعة قد دنست بالجهالات، واختطلت بالضلالات ولا سبيل إلى غسلها إلا بالفلسفة، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية. وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة الإسلامية فقد حصل الكمال، وصنفوا خمسين رسالة في جميع أجزاء الفلسفة علميها وعمليها، وأفردوا لها فهرساً وسموه (رسائل إخوان الصفا) (١).

ورغم أننا لا نستطيع أن ننكر الافتباسات التي نقلها فلاسفة المسلمين من كتب أرسطو وأفلاطون، وخاصة فيما يتعلق بالفلسفة السياسية المتصلة بالدولة والحكام، وغيرها من الآراء الفلسفية التي ظهرت في كتابات فلاسفة المسلمين، إلا أن هذه الافتباسات لا تقلل من

(١) القفطي، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، دار الآثار للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، بدون تاريخ، ص ٥٨ وما بعدها، جبور عبد النور، إخوان الصفا، مجموعة نوابغ الفكر العربي رقم (٧)، دار المعارف، مصر ١٩٨٣، ص ١٥ وما بعدها.

قيمة الأعمال التي ألفها فلاسفة المسلمين، وفي محاولة إحياء الفلسفة اليونانية والوصول بها إلى درجة كبيرة من الازدهار بما اضافوا عليها من تجديدات.

وشهد النصف الثاني من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي والقرن الرابع / العاشر الميلادي ظهور أعظم فلاسفة المسلمين وأهمهم الكندي (ت ٢٦٠هـ / ٨٧٣م) ومن مؤلفاته "إثبات النبوة" و"التوحيد"، والفارابي (ت ٣٣٩هـ / ٩٥٠م) ومن مؤلفاته "آراء أهل المدينة الفاضلة" و"فصوص الحكم"، وابن سينا (ت ٤٢٨هـ / ١٠٣٧م)، ومن مؤلفاته "الشفاء" و"الإشارات". ونظرا لما تمتعت به خراسان في فترة حكم السامانيين من ازدهار ثقافي، فقد حظيت مدنها بزيارات متعددة من هؤلاء الفلاسفة، الذين وجدوا في المدن الخراسانية عواصم ثقافية مزدهرة ملائمة لوجودهم بها كما أن أمراء السامانيين استضافوا العديد من هؤلاء الفلاسفة في بلاطهم من أمثال الرازي (ت ٣١٣هـ / ٩٢٥م) والفارابي (ت ٣٣٩هـ / ٩٥٠م) وابن سينا (ت ٤٢٨ / ١٠٣٦) وغيرهم.

وهناك فلاسفة نشأوا وعاشوا معظم حياتهم في خراسان، وخاصة في مدينة (بلخ) الخراسانية التي ينتسب إليها كل من أبي زيد أحمد بن سهل البلخي (ت ٣٢٧هـ / ٩٣٨م) وعبد الله بن أحمد الكعبي (ت ٣١٧هـ / ٩٢٩م) فقد قامت بفضلهما حركة فلسفية ونهضة فكرية عظيمة في ربوع الدولة السامانية، لقد استطاع الأول أن يجمع بينه الفلسفة والعلوم الشرعية، يقول عنه ياقوت الحموي في معجمه "أنه جمع بين الحكمة والشريعة"^(١)، أما أبو حيان التوحيدي فقد قال عنه "

(١) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج ١، ص ١٢٥.

أنه لم يتقدم له شبيهه في العصر الأولي، ولا يظن أنه يوجد له نظير في مستأنف الدهر، ومن تصفح كلامه في كتاب أقسام العلوم، وفي كتاب أخلاق الأمم، وفي كتاب نظم القرآن، وفي كتاب اختيار السيرة، وفي رسائله إلى إخوانه، وجوابه عما يسأل عنه، ويبيده به، علم أنه بحر البحور وأنه عالم العلماء، وما روي في الناس من جمع بين الحكمة والشريعة سواء". وله عديد من الكتب منها "حدود الفلسفة" و "السياسة الكبير" و "السياسة الصغير" و "أخلاق الأمم" وغيرها من الكتب كما ألف كتاب صور الأقاليم وهو خرائط ملونة موضحة ببعض الشروح. وقد مات ببلخ سنة ٣٢٢ هـ في عهد السعيد نصر بن أحمد الساماني. (١) ويمثل الكعبي هو الآخر مرحلة التوفيق بين الفلسفة والدين، فاشتهر بتعمقه في علم الكلام، وكان من كبار علماء المعتزلة، وكان له مذهب خاص وأتباع يقال لهم الكعبية، ومات في سنة ٣١٧ هـ. (٢)

وتوجد بعض الدلائل عن علاقة الفيلسوف الإسلامي الكبير محمد ابن محمد بن طرخان أبو نصر الفارابي بالدولة السامانية، فمن ناحية نسبه فهو أساسا من (فاراب) إحدى مدن بلاد ما وراء النهر (٣)، وإن كان ابن سفل قد نسبه إلى (وسيج) لا إلى فاراب، كذلك حاولت بعض الدراسات الإيرانية الحديثة إثبات نسب الفارابي الخراساني على أساس أنه من فارياب إحدى ضواحي بلخ الخراسانية وأن والده كان أحد قادة

(١) أحمد أمين، ظهر الإسلام، ج ١، ص ٢٦٧.

(٢) أحمد أمين، ظهر الإسلام، ج ١، ص ٢٦٧، محمد علي حيدر، الدويلات الإسلامية، ص ٢٠٤.

(٣) عرفت قديما باسم باراب أو فاراب، وتسمى حاليا أترار، وهي مدينة كبيرة عليها حصن فيه الجامع، ولها أسواق وقهندز، وهي أرض في سبخة ذات غياض (القزويني، آثار البلاد، ص ٥٤٨، أبو الفدا، مختصر، ج ٢، ص ٩٩، لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٥٢٨).

الجيش الخراساني. ولعل هذا اللبس مرجعه إلى التشابه بين فاراب فيما وراء النهر أو فارياب بخراسان، كذلك كانت خراسان وبلاد ما وراء النهر تحكمها دولة واحدة هي الدولة السامانية، ولكن يبدو لنا أن نسبة الفارابي إلى فاراب أقرب إلى الصحة، حيث تميل أغلب الروايات إلى هذه النسبة، كما أن النسبة إلى فارياب فاريابي، وهي نسبة لم نجد لها بشأن الفارابي، مما يرجع نسبة التركي إلى فاراب ولا يتنافى ذلك مع يكون أصل الفارابي من خراسان ثم انتقل إلى فاراب التي نسب إليها حسب التقاليد المتبعة آنذاك. وهو ما أكدته القفطي^(١). والفارابي فيلسوف المسلمين غير مدافع، دخل العراق واستوطن بغداد وقرأ بها العلم الحكمة على يوحنا بن جيلاد في أيام الخليفة المقتدر العباسي، ولقد تفوق الفارابي على أقرانه في التحقيق وشرح الكتب المنطقية وأظهر غامضها وكشف سرها وقرب متناولها، وله كتاب شريف في إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها لم يسبق إليه ولا ذهب مذهبه فيه وصار هذا الكتاب مرجعا لطلاب العلم لا يستغنون عنه. وله كتاب في أغراض أفلاطون وأرسطوطاليس يشهد له في صناعة الفلسفة. ومن منصفاته: كتاب البرهان، وكتاب القياس الصغير، وكتاب الرد على جالينوس وغيرها^(٢).

ولما كان أمراء السامانيين مهتمين بالعلماء والفلاسفة فقد كلف منصور بن نوح (٣٨٧-٣٨٩هـ/٩٩٧-٩١٩م) أمير السامانيين الفارابي بجمع ما كان قد ترجم من كتب اليونان منذ أيام المأمون العباسي، فكان من ضمن هذه الترجمات التي علق عليها الفارابي وشرحها إحدى كتب

(١) القفطي، أخبار العلماء، ص ١٨٢، ويؤكد عبدالعزيز جنكيز خان (تركستان قلب آسيا، ص ٤٣) أنه كان تركيا.
(٢) القفطي، أخبار العلماء، ص ١٨٢ - ١٨٤.

الحكمة اليونانية التي قدمها الفارابي للأمير منصور وسماها "التعليم الثاني" فأطلق على الفارابي بعدها "المعلم الثاني"^(١)، وبقيت هذه المخطوطة في خزانة منصور بن نوح حتى اطلع عليها فيما بعد ابن سينا وأسس عليها كتابه الشفاء، ومن آراء الفارابي الفلسفية أنه كان مقتنع بوحدة المعرفة التي تتوجها الإلهيات. وفي كتابه (إحصاء العلوم) يحصى العلوم المتنوعة ويتكلم عنها، ويذكر الفلسفة في النهاية على أنها رأس العلوم، لأنها تضمن اليقين في المعرفة التي يحصل عليها بالبرهان.^(٢) ولقد قدم الفارابي على سيف الدولة الحمداني في حلب فأكرمه وعرف موضعه من العلم ومنزلته من الفهم، ورحل بصحبته إلى دمشق ومات بها^(٣).

وينتسب الفيلسوف الإسلامي الكبير ابن سينا الذي أطلق عليه المعلم الثالث بعد أرسطو والفارابي إلى مدينة بلخ الخراسانية، ففيها ولد وبدأ حياته، ثم انتقل إلى بخاري عاصمة السامانيين وأكمل تعليمه على يد علمائها، كما أنه استفاد إفادة كبيرة من خزينة كتب الأمير نوح بن منصور الساماني (٣٦٦-٣٨٧هـ/٩٧٦-٩٩٧م) التي امتلأت بمصادر الفلسفة والعلمية عند زيارة ابن سينا للأمير وعلاجه له. ويذكر (ابن أبي أصيبعة) نقلاً عن ابن سينا في ترجمة حياته بنفسه قصة تعلمه الفلسفة على يد (أبي عبد الله الناتلي) الفيلسوف. يقول إن أخاه ووالده كانا يتذاكران الفلسفة والهندسة وحساب الهيئة، ثم جاء إلى بخاري

(١) القفطي، نفسه، ص ١٨٢ - ١٨٣، فتحة النبروي، تاريخ النظم والحضارة الإسلامية ص ١٨٤ - ١٨٦.

(٢) الفارابي، إحصاء العلوم، تحقيق عثمان أمين، ط ٢، القاهرة، ١٩٤٩، ص ١٣، ٤٣، ٧١، ٧٢، شاخت و بوزورت، تراث الإسلام، ج ٢، ص ٦٨-٦٩.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٥٢.

أبو عبد الله الناتلي وكان يدعى المتفلسف، وأنزله والد ابن سينا في منزله وكلفه بتعليمه، فابتدأ بتدريس كتاب إيسافوص، وتفوق في فهم المسائل وإيجاد تصورات فلسفية طبية، ثم أحكم دراسة علم المنطق بنفسه من خلال القراءات الخاصة، خاصة كتب (أقليدس) والمجسطي، وبعد مفارقة الناتلي له، اشتغل هو بتثقيف نفسه من النصوص والشروح من الطبيعي والإلهي، فتفتحت أمامه أبواب العلم، فقرأ ما وراء الطبيعة لأرسطو، فصعب فهمه ولم يقدر على حل معضلاته، ولما قرأ شرحه للفارابي، بعدما اشتراه من السوق بثلاثة دراهم، فهم هذا الكتاب. ولقد ألف ابن سينا في المنطق والفلسفة. مقتفياً أثر أستاذه الفارابي، وكذلك تأثر بأرسطو، وبحث في الإلهيات، وكان يحاول أن يوفق بين فلسفته وعقيدة أهل السنة، كما تكلم في الإنسان والنفس الإنسانية والعقل^(١).

وتجدر الإشارة إلى أن ابن سينا وقد استفاد كثيراً من مكتبة السامانيين، قد ترك لنا وصفا لها بعد أن أثنى له في دخولها لقراءة ما فيها، فيقول "دخلت داراً ذات حجرات كثيرة، وفي كل حجرة صناديق مملوءة بالكتب، وفي بعضها كتب العربية والشعر، وفي أخرى الفقه، وأخرى للعلم والفلسفة، وكان لكل مجموعة خاصة من الكتب أمكنة معينة لها، وقد تفقدت أسماء المؤلفين للقدامى لأبحث عن مؤلفاتهم، وراعني ما وجدت من الكتب الكثيرة التي لا يعرفها كثير من الناس". وقد اتهم ابن سينا بتدبير حرق هذه الخزنة حتى لا يظفر عالم آخر بما ظفر به هو من اطلاعات في الفلسفة والطوم التي حوتها مصادر هذه الخزنة.

(١) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج ٢، ص ٢، بارتولد، تاريخ

وأغلب الظن أن هذا الاتهام لا يقف على قدميه، فليس من المعقول أن يقدم عالم مثل ابن سينا يعرف لهذه المصادر العلمية قيمتها على هذه الجريمة في حق التراث العلمي والأدبي، كما أن هذه الخزانة لم تكن وقفاً على ابن سينا، فكما نعلم أن أمراء السامانيين احتضنوا العلماء والفلاسفة ولم يبخلوا عليهم بشيء، فمصادر هذه المكتبة إذن طرقت قبل ابن سينا، وليست ممنوعة عن علماء السامانيين وفلاسفتهم، وأخيراً فكيف يستطيع عالم شاب مثل ابن سينا حضر إلى بخاري لمهمة محددة وهي علاج الأمير، أن يدبر مؤامرة حرق إحدى مؤسسات الدولة التي تتبع إدارتها وملكيتهما إلى أعلى سلطة وهي الأمير الساماني نفسه، بما يعني ذلك كله من شدة الحراسة عليها. لذلك لا نملك إلا الشك الذي يصل إلى نفي ما نسب إلى ابن سينا من تهمة حرق هذه الخزانة. وأغلب الظن أن يكون خصوم ابن سينا هم الذين ربطوا بين حرق الخزانة وهو ما حدث فعلاً وزيارة ابن سينا لبخاري التي سبقت حرق هذه الخزانة، وليس لابن سينا علاقة بحرقها. ويبدو لنا أن حرق هذه الخزانة تم في ظروف الاضطرابات السياسية والاجتماعية التي سادت مدينة بخاري في هذه الفترة، فقد كانت هناك انقسامات بين قادة الجيوش من الترك مع وجود أخطار خارجية من ناحية الدولة الخاتية في بلاد الترك، بالإضافة إلى ما كانت تقوم به بعض الفرق العقائدية من فتن داخلية كالإسماعيلية والكرامية وغيرها^(١).

وشارك ابن سينا كغيره من الفلاسفة في موائمة الفلسفة للدين الإسلامي، ولعل أهم النظريات التي نلمح فيها هذا التوفيق، ما حاول ابن سينا أن يصل إليه من إثبات وجود الله وصفاته، وغيرها من الأفكار

(١) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ١٨٩-١٩٧، فتحي أبو سيف، خراسان، ص ٢٧٥-٢٧٦.

التي نسبت له. ويدخل ابن سينا في نطاق الإلهيات جميع ماجاء الوحي في القرآن الكريم. ويبين أن الله، هو واجب الوجود والذي لا واجب وجود سواه خير قادر على كل شيء، وخالق كل شيء وقدير حكيم. وإلى جانب ذلك يحاول ابن سينا أن يتبين من جديد عن طريق الإستدلال الفلسفي صحة أوامر القرآن الخاصة بأمور الجماعة، وهي الخلافة، وبناء الأسرة، وبيان حكمة تعدد الزوجات، والطلاق، وما إلى ذلك. (١)

الطب:

شهدت فترة حكم الصفاريين والسامانيين تقدما ملحوظا في علم الطب، وهو العلم الذي يبحث بدن الإنسان للحفاظ عليه. وفي ذلك يقول ابن سينا " إن الطب علم يتعرف منه أحوال بدن الإنسان من جهة ما يصح ويزول عن الصحة، ليحفظ الصحة حاصله ويستردها زائلة" (٢) فلم يعد أطباء المسلمين مجرد نقله عن الطب اليوناني الذي ترجمت كتبه إلى العربية، وإنما تعدوا هذه المرحلة عن طريق تجاربهم في علاج المرضى، واكتشافهم لأمراض جديدة ومحاولاتهم علاجها، ومن الملاحظ في العلم الطبي كما في علوم أخرى كثيرة، أن بعض الإنجازات الرئيسية في الطب تمت في أوائل إشتغال المسلمين بهذا العلم. وكانت الولايات الشرقية الفارسية قد تعرفت على الطب اليوناني وترجمت بعض كتبه إلى الفارسية القديمة، عن طريق المراكز الثقافية الإيرانية التي أخذت بالعلم اليوناني وأهمها جند يسابور التي بقيت شهرتها في الطب حتى القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، فأقدم موسوعة عربية في الطب لازالت باقية

(١) راجع عن تلك الآراء، مصنفات ابن سينا (كتاب السياسة) كتابه الكبير الجامع

(الشفاء) (شاخت و بوزورث، تراث الإسلام، ح ٢، ص ٦٩).

(٢) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ١٥-١٦.

بين أيدينا، وهي كتاب (فردوس الحكمة) الذي كان يحتوى على ثلاثين مقالة، والمقالات تحتوى على ٣٦٠ كتابا، ظلت فى نواحي معينة تفوق كل ما عداها. وقد ألف هذا الكتاب (على بن ربن الطبرى) فى عام ٢٣٦هـ/٨٥٠م، أى أن المؤلف كان معاصرا لحنين بن إسحاق. وأهمية هذا الكتاب ترجع أولا إلى حقيقة هامة هى أن مؤلفه كان على علم بالكتاب الرائد الذى وضعه حنين بن إسحاق عن طب العيون، وربما كان أيضا على علم بترجمته لكتاب (مقالة فى الدلائل) أى التشخيص لأبقراط. والسبب الثانى لأهمية كتاب (فردوس الحكمة) هو أن مؤلفه خصص فصلا قائما بذاته للطب الهندى، بغرض واضح هو المقارنة بين هذا الطب وبين طب اليونان الذى يقوم عليه الكتاب أصلا. وثالث أسباب هذه الأهمية هو أن المؤلف يستخدم مصطلحات حنين فى الفصل الأول المطول من الكتاب، الذى يدور حول فلسفة الطبيعة^(١). كذلك ازدهر الطب فى الولايات الشرقية من ناحية أخرى عن طريق علاقات هذه الولايات بالهند، حيث أصبح الهنود أساتذة فى البيمارستانات الإسلامية، عاملين على ترجمة ما لديهم من كتب إلى العربية، كما سافر أطباء المسلمين إلى الهند لتعلم الطب هناك.

والبيمارستان كلمة فارسية مركبة من مقطعين، بيمار بمعنى مريض أو عليل أو مصاب، وستان بمعنى مكان أو دار، فهى إذن تعنى دار المرضى^(٢). ولعل انتشار البيمارستانات من مدن المشرق الإسلامى إبان

(١) أبو الحسن على بن ربن الطبرى (ت ٢٤٧هـ/٨٦١م)، طبيب حكيم ولد فى طبرستان ونشأ بها، ألف عددا من المصنفات الهامة منها: فردوس الحكمة، الدين والدولة، منافع الأطعمة والأشربة والعقاقير، وأخذ عنه محمد بن زكريا الرازى عندما استقر ابن ربن فى بلدة الرى (القفطى)، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ١٥٥، شاخت وبوزورث، تراث الإسلام، ح ٢، ص ٢٥٤-٢٥٥.

(٢) أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات فى الإسلام، دمشق ١٩٣٩، ص ٤١.

حكم الدولة الطاهرية وتقدير حكام هذه الدولة لعديد من الأطباء أمثال يوحنا بن ماسويه (ت ٢٤٢/٨٥٧م) وقد خدم هذا الطبيب الرشيد والأمين والمأمون، وعاش إلى عصر المتوكل، وولاه الرشيد بيت الحكمة وكلفه بترجمة الكتب اليونانية، وله مؤلفات عديدة منها (كتاب في الجذام) وهو أول من كتب فيه. وسابور بن سهل (ت ٢٥٥هـ/٨٦٨م)، من الشواهد التي تدل على تقدم علم الطب. ولقد كان سابور بن سهل صاحب بيمارستان (جند يسابور) وكان فاضلا عالما متقدما في هذا النوع، وله تصانيف مفيدة مشهورة منها كتاب (الأقرباذين) المعمول عليه في البيمارستانات وحوانيت الصيادلة وهو إثنان وعشرون بابا، وتوفى نصرانيا في سنة ٢٥٥هـ^(١). وقد أورد حمد الله المستوفى دليلا آخر على تقدم الطب في خراسان، وذلك عندما استقدم الخليفة العباسي الواثق (٢٢٧-٣٣٢هـ/٨٤٢-٨٤٧م) أحد أطباء نيسابور عاصمة خراسان لعلاجها وذلك لشهرة أطبائها وتفوقهم.

ورغم ما تدل عليه الإشارات السابقة من تقدم علم الطب في خراسان في الفترة التي سبقت حكم الصفاريين والسامانيين، فقد استمر ازدهار هذا العلم بشكل ملموس على عهد الصفاريين حيث شهدت هذه المرحلة ممارسة الأطباء لتجارب وإجراء الجراحات الطبية، حتى أن يعقوب بن الليث الصفار نفسه أجريت له عملية جراحية استخدمت فيها الأنايب والمحاقن والمخيط^(٢) وغيرها من أدوات الجراحة، مما يدل على تقدم علم الطب. كذلك شهدت هذه الفترة وضع الأسس الصحيحة لمن

(١) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج ٢، ص ١١٧، القفطي، تاريخ

الحكماء، ص ١٤١.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٤٤٧، فتحي أبو سيف، خراسان ص ٢٧٧.

يعمل بالطب؛ فبعد دراسة الطب نظريا وعمليا في مدارس الطب التي
أنشأت لهذا الغرض، يتقدم الطلاب لأداء الإمتحان، ثم يقسمون اليمين
وينالوا الشهادة التي تؤهلهم لممارسة مهنة الطب تحت إشراف ورقابة
الدولة، وهذه الشهادة التي تسمى "إجازة" كان لابد للطبيب أن يحصل
عليها قبل ممارسة عمله، وذلك بتأدية امتحان أمام كبار الأطباء، فإذا
أجازوا له ممارسة المهنة، مارسها بمقتضى منحه الإجازة^(١)، وكان
الخليفة المقتدر العباسي (٢٩٥-٣٢٠هـ) أول من أمر بتأدية الإمتحان لكل
من يريد ممارسة الطب، وذلك بعد أن أخطأ أحد المتطبيين (المتمرنين
الذين لا يحملون إجازات) في سنة ٣٠٩هـ/٩٢١م، في معالجة رجل من
العامّة فمات. وجعل الخليفة أمر هذا الإمتحان إلى (سنان بن ثابت بن
قرّة)، فامتنح سنان في نواحي بغداد وحدها تسمعاته من المتطبيين،
وأصبح هذا الامتحان نظاما عاما على بقية الولايات.^(٢)

وإزداد الطب ازدهارا على عهد السامانيين، حيث أصبحت الولايات
التابعة لهم ومنها خراسان مراكز علمية ذائعة الشهرة، بالإضافة إلى
رعاية أمراء السامانيين أنفسهم للأطباء، الذين كان على رأسهم في هذه
الفترة الرازي (ت ٣١٣هـ/٩٢٥م)، كما شهدت الفترة الأخيرة من حكمهم
ظهور نجم ابن سينا.

(١) أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ص ٤١، عبد الحليم منتصر، تاريخ

العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، ص ١١٧-١١٨.

(٢) تجدر الإشارة إلى أن الخليفة المقتدر وأمه كانوا يهتمون كثيرا بالطب والأطباء
وصحة الرعية، فقد أنشأت أم المقتدر في عام (٣٠٦هـ) مرستقا، وكان مبلغ
النفقة فيه في العام سبعة آلاف دينار، كما كانت ترسل خزائنة الطب والأشربة إلى
الحرمين الشريفين في موسم الحج (ابن ظافر الأزدي، أخبار الدول المنقطعة، ص
٢٢١، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٣٤٩).

وينتسب (أبو بكر محمد بن زكريا الرازي) إلى الري موطن ولادته في عام (٢٤٠هـ / ٨٥٤م) حيث نشأ بها، ثم انتقل إلى بغداد فتعلم الموسيقى وضرب على العود، ثم ترك ذلك وأقبل على تعلم الفلسفة فنال منها كثيرا، وألف كتب كثيرة في ضروب المعارف الطبيعية والإلهية، ثم أقدم على تعلم الطب بعد الأربعين من عمره فبرع فيه، حتى أنه وصل إلى مديبر بيمارستان الري ثم مديبر بيمارستان بغداد. وقد بلغ منزلة رفيعة وصار " إمام وقته في علم الطب"، ولقبه ابن أبي أصيبعة بـ "جالينوس العرب". وتدل المؤلفات التي ألفها الرازي في هذه الفترة على مدى ازدهار علم الطب بفروعه المختلفة، فمن هذه الكتب كتاب "الجامع"، وهو عبارة عن سبعين مقالة في الطب^(١). ولعل هذا الكتاب الذي عرف باسم "الحاوي"، وإن كان ابن خلكان يذكر أن كتاب الجامع يختلف عن كتاب الحاوي، فهما كتابان منفصلان، ويصف كتاب الحاوي بأنه يقارب ثلاثين مجلدا. ويعتبر كتاب الحاوي من أعظم وأشهر كتب الرازي وأبعدها أثرا في عالم الطب وهو عمدة الأطباء في النقل منه والرجوع إليه عند الاختلاف^(٢). وقد توصل الرازي في كتاب الحاوي إلى أدوية لم يصل إليها غيره من الأطباء، واعتبره البعض أكثر أهمية من كتاب "القانون لابن سينا".

ومن مؤلفات الرازي أيضا كتاب في "الأعصاب" وكتاب "الطلب الملوكي" وكتاب "الطب الروحاني". ثم له كتب في أمراض محددة

(١) ابن جليل، طبقات الأطباء، ص ٧٧، القفطي، أخبار الطمء، ص ١٧٨، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٤١٦، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج ٣، ص ٣٨٧.
(٢) ابن أبي أصيبعة، نفس المصدر، ص ٤١٦، ابن خلكان، نفسه، ج ٤، ص ٢٤٤.

ككتابه عن "الجدري والحصبة"، وهو الكتاب الذي طالما تناقش حوله العلماء، وعرف فيه لأول مرة تعريفا صحيحا للفرق بين الجدري والحصبة، وكذلك كتاب "الحصى فى الكلى والمثانة". ثم يظهر مدى ماوصل إليه الرازي من تفوق وعلم بالطب في كتابه الذي ألفه على أبقراط Hippocrates وجالينوس Galenos وأطلق على هذا الكتاب اسم "الشكوك"، يدور فيما أثبتته الرازي وحققه وأجرى عليه التجارب في الطب اليوناني، وما أثبتته هو مخالفا أطباء اليونان، مما يدل على براعة هذا الطبيب. وتعد هذه المؤلفات خير دليل على تقدم علم الطب في هذه الفترة، بما فيها الطب النفسي والعصبي، وهي أنواع تحتاج إلى براعة في التشخيص والعلاج^(١).

أما الكتاب الهام الذي يهمننا ذكره، واختلفت بسببه الروايات وتعددت الآراء فهو كتاب "المنصوري" أو "الطب المنصوري" الذي ألفه الرازي وأهداه إلى أحد أمراء السامانيين. ويحتوى هذا الكتاب على عشر مقالات في الطب بمختلف فروعه مثل تشريح أعضاء الجسم، وتأثير الأغذية والأدوية وحفظ الصحة، والاحتراس عن الأمراض المعدية، والعناية بالجنين والطفل، والمسموم، والأمراض، والحميات.. وغيرها. وتذكر بعض المصادر أن الرازي ألفه للأمير منصور بن نوح أو منصور ابن خاقان أمير خراسان الساماني في ذلك الوقت^(٢).

(١) ابن جلجل، طبقات الأطباء، ص ٧٨، القفطي، نفسه، ص ١٧٩، شاخت وبوزورث،

تراث الإسلام، ح ٢، ص ٢٣١-٢٣٢.

(٢) القفطي، أخبار الحكماء، ص ١٧٨، غوستاف لوبون، حضارة العرب، ص ٤٨٩

وليس في أمراء السامانيين من يدعى منصور بن خاقان، ولكن وجد أميران باسم منصور بن نوح أولهما حكم الدولة السامانية من ٣٥٠ إلى ٣٦٦هـ/٩٧٦م، وثانيهما الذي حمل نفس الاسم تولى أمور الدولة من ٣٨٧ حتى ٣٨٩هـ/٩٩٧-٩٩٩م، والمعروف أن الرازي توفي في ٣١٤هـ/٩٢٥م ومن ثم لا نستطيع أن نقبل الرواية التي تقول أن الرازي أهدى كتابه إلى الأمير الساماني منصور بن نوح، حيث أن حكم هذا الأمير جاء بعد وفاة الرازي بما لا يقل عن ثلاثين عاما. وحاولت بعض المصادر^(١) إيجاد مخرج لهذا البعد الزمني باحتمال حصول الأمير الساماني منصور بن نوح الأول على هذا الكتاب وهو في طفولته، وهو مخرج ليس له ما يبرره، فما الداعي أن يقدم الرازي هذا الكتاب إلى طفل لم ينضج بعد، في الوقت الذي كان كبار الأمراء يفخرون ويتقبلون مثل هذه الكتب كهدايا، ويجزون عنها العلماء خير الجزاء.

وبإجراء المقارنات وربط الأحداث بعضها ببعض، نستطيع أن نرجح أن كتاب المنصوري الذي ألفه الرازي لم يقدمه للأمير منصور بن نوح أمير الدولة السامانية وأنه قدمه لصديقه الأمير (منصور بن إسحاق الساماني) نائب الدولة السامانية على ولاية الري في عهد أمير السامانيين إسماعيل بن أحمد (٢٧٩-٢٩٥هـ/٨٩٢-٩٠٧م) عربونا لهذه الصداقة، فقد كان منصور بن إسحاق من أبناء عمومة الأمير إسماعيل، وتولى الري في الفترة ما بين ٢٩٠-٢٩٦هـ/٩٠٢-٩٠٨م، وهذا هو سبب اللبس الذي وقعت فيه معظم المصادر التي كتبت عن كتاب المنصوري في الطب. ولعل خير دليل على صدق هذا الرأي ما ذكر على

(١) ابن خلكان، وفيات، ج ٤، ص ٢٤٥.

إحدى مخطوطات هذا الكتاب حيث ورد صراحة إهداء الكتاب إلى الأمير منصور بن إسحاق بن أحمد الساماني وكنيته أبو صالح. كل هذه الدلائل تشير إلى صدق ما ذهبنا إليه، وخاصة أن الرازي لم يصنف لهذا الأمير الساماني منصور بن إسحاق كتاب المنصوري فقط، وإنما الف له أيضا كتاب "الطب الروحاني" الذي يحتوي على عشرين مقالة في الطب. وقد انتشرت في هذه الفترة ظاهرة إهداء الأطباء أعمالهم ومؤلفاتهم ليس فقط إلى الأمراء الكبار وإنما أيضا إلى زملائهم وأقرانهم من العلماء، فنستطيع أن نتصور الطبيب الذي يقطن أصفهان مثلا يرسل ببعض أبحاثه الطبية إلى الطبيب الذي يوجد في نيسابور أو بخاري، فيتبادلون المعارف الطبية بهذه الطريقة^(١).

وقد احتفظ (ابن النديم) في فهرسته بأخبار عن الرازي الإنسان والطبيب وأهم تصانيفه الطبية. فقد اشتهر هذا الرجل بالكرم والعطف على المرضى لاسيما الفقراء منهم، حتى كان ينفق عليهم ويعالجهم بإرشاداته الطبية، ومن أقواله الطبية الماثورة "ومهما قدرت أن تعالج بالأغذية فلا تعالج بالأدوية، ومهما قدرت أن تعالج بدواء مفرد فلا تعالج بدواء مركب"، ومنها أيضا "وإذا كان الطبيب عالما والمريض مطيعا فما أقل لبث العلة". وكان الرازي يعتمد في دراسة الأمراض على تعريف المرض، ثم بيان العلة والسبب وفيما إذا كان ينقسم من حيث السبب أو النوع أم لا، وينتهي بالعلاج وبيان الاستعداد ثم الاحتراس ثم الإنذار، واهتم الرازي أيضا بتاريخ المرض. وقد لاحظ الرازي تأثير العامل النفسي

(١) ابن جلجل، نفس المصدر، هوامش ص ٧٩-٨٠، القفطي، نفسه، ص ١٧٩، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٤٥٩، ابن خلكان، وفيات، ج ٤، ص ٢٤٥، فتحى أبو سيف، خراسان، ص ٢٨٠-٢٨١.

فى صحة المريض وفى إحدائ بعض الأمراض العضوية. ويعتبر الرازى أول من استخدم مصارين الحيوانات لخياطة الجروح، وأول من استخدم الرصاص الأبيض فى المراهم، وأدخل الزئبق فى المسهل، واستخدم الأفيون كمنوم وفى حالات الإسهال الحاد. ومن مصنفاة الطببة غير ما تقدم ذكره : (كتاب فى أعلى الحمبة المفرطة تضر الأبدان)، وكتاب مايقم من الفواكه، وكتاب النقرس، وكتاب أوجاع المفاصل، إثنان وعشرون فصلا، وكتاب دفع مضار الأغذية، وغيرها كثير، سوى مؤلفاته فى المنطق، والفلسفة والهندسة، والكيمياء^(١). وخلاصة القول، فإن أبو بكر الرازى يعد بحق طبيب المسلمين غير مدافع كما يذكر (القفطى). وتجدر الإشارة إلى أن هذه الشهرة قد تجاوزت حدود البلدان الإسلامية إلى أوربا، فعرف بأنه (جالينوس العرب) وسمى عندهم Razes وقد توفي الراوى بعد أن أصيب بالعمى فى آخر عمره، وجدير بالذكر أن معارفه أشاروا عليه بالقدح فى عينيه، فقال لهم "لا" قد أبصرت من الدنيا حتى مللت منها، فلا حاجة لى إلى عينين"، وقد اختلفت الروايات فى تاريخ وفاته فالقاضي صاعد الأندلسى يحدد وفاته بعام ٣٢٠هـ، بينما ذكر (ابن شيراز) فى تاريخه أنه توفي سنة ٣٩٤هـ، وإن كانت المراجع الحديثة تأخذ بتاريخ أقرب لرأى القاضي صاعد وهو عام ٣١٤هـ.

ويعتبر (أبو الحسن بن عبدالله بن سينا) Avicenna فى الغرب، من الأطباء الذين عاصروا الفترة الأخيرة من حكم السامانيين، فقد عاش بين سنتى (٣٧٠-٤٢٨هـ/ ٩٨٠-١٠٣٧م) ويعرف بالشىخ الرئيس

(١) ابن النديم، الفهرست، ص ٤١٧-٤١٩، القفطى، نفسه، ص ١٨٠ - ١٨٢، محمد على حيدر، المرجع السابق، ص ٢٠١-٢٠٣، جلال موسى، منهج البحث العلمى عند العرب، ص ١٨٢ ومابعدها.

والفيلسوف الطبيب، حيث أنه نشأ في بلخ إحدى مدن خراسان وأكمل دراساته في بخاري، فبعدها درس الرياضيات والفلك، رغب في دراسة الطب فنبغ فيه، وأصبح طبيباً يمارس الطب ويعلمه وهو في السادسة عشرة من عمره. قال عن دراسته للطب " فلا جرم أنى برزت فيه فى أقل مدة، حتى بدأ فضلاء الطب يقرأون على علم الطب، وتعهدت المرضى، فانفتح على من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف، وأنا مع ذلك أختلف إلى الفقه وأخالف فيه، وأنا فى هذا الوقت من أبناء ست عشرة سنة".^(١) وله العديد من المؤلفات الطبية، وأهمها كتابه "القانون فى الطب" الذى جمع فيه ابن سينا خلاصة تجاربه الطبية، ومعارفه التى استقاها من طب اليونان والفرس والهند وغيرهم، وذكره لأهم الأدوية المعروفة فى ذلك الوقت، ويقع كتاب القانون فى خمسة أجزاء تتناول علوم التشريح ووظائف الأعضاء، وطبائع الأمراض والصحة والعلاج. ووصفت فيه الأمراض بأحسن مما وصفت به فى الكتب التى ألفت قبله، وهذا الكتاب العظيم قد وضعه ابن سينا مع تلاميذه، وتستعمل كلمة القانون فى العالم الإسلامى فى معنى يخالف معناها فى أوروبا، فهو عندهم "مجموع قوانين العلم"، وأصبح هذا الكتاب القيم كما يذكر "مارتن انسر" إنجيل الطب فى العصور الوسطى، وحل إلى حد ما محل مؤلفات الرازى.^(٢) وقد ظهر نبوغ ابن سينا فى الطب وهو فى صغر سنه، حتى أنه استدعى لعلاج الأمير الساماني نوح بن منصور (٣٣٦-

(١) ابن أبى أصيبعة، المصدر السابق، ص ٤٣٧، جوستاف لوبون، حضارة العرب، ص ٥١٨.

(٢) شاخت وبوزورث، تراث الإسلام، ح ٢، ص ٢٥٨.

٣٨٧هـ/٩٧٦-٩٧٧م) الذي أكرم معاملة ابن سينا وأحسن استقباله^(١). ولقد تكلم ابن سينا عن الأورام الخبيثة، وذكر أن السبيل الوحيد للشفاء منها، إنما هو الجراحة في أدوار المرض الأولى، على أن يكون الاستئصال واسعا وعميقا، وأن يعقم الطبيب جميع المنطقة الباقية بعد الاستئصال، ومع هذا كله فإن الشفاء غير أكيد، وكان له معرفة جيدة بالطب النفسى.

الكيمياء والفلك والرياضيات:

ولم يقتصر الازدهار الثقافى في خراسان وبلاد ما وراء النهر على العلوم السابقة، وإنما شهدت فترة حكم الصفاريين والسامانيين نهضة علمية في شتى فروع الثقافة الأخرى، وذلك لأن علماء هذه الفترة اتسمت ثقافتهم بالموسوعية، مما جعلهم يطرقون أنواع العلوم المختلفة الطبيعية والإنسانية، ويؤلفون فيها الكتب والأبحاث. ولذا فإن نواحي معينة من نشاطاتهم العلمية لاتقع على وجه التحديد فى نطاق الإطار المخصص لهذا المبحث، فقد ألف كل من الفارابى وابن سينا بالإضافة إلى مؤلفاتهم السابقة مؤلفات أخرى فى المنطق والعلوم الرياضية وغيرها. كما أن الرازى ألف فى الكيمياء مؤلفات عديدة منها كتاب "فى أن صناعة الكيمياء إلى الوجوب أقرب منها إلى الامتناع"، وكتاب "سبب وقوف الأرض فى وسط السماء"، وكتاب "الآراء الطبيعية"، ورسائله فى غروب الشمس، والكواكب، ورسائله فى استدارة الكواكب وغيرها. وقد أهدى أحد كتبه فى الكيمياء إلى الأمير السامانى منصور بن إسحاق حاكم

(١) ابن أبى أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٤٣٧، بارتولد، تاريخ الحضارة الإسلامية،

ص ١١٠، بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ج ٢، ص ١١٦.

الرى سابق الذكر. وقد طالبه هذا الأمير الساماني بإجراء التجارب الكيميائية أمامه، وسهل له الحصول على المواد الكيميائية اللازمة لتجاربه. ويمتاز الرازي أنه قدم تقسيما منطقيا للعناصر الكيميائية المعروفة لديه، وأعطى أوصافا دقيقة للأدوات والطرق التي استخدمها في تجاربه العلمية، وتوصل من خلال ذلك إلى نتائج دقيقة مبنية على ملاحظاته الشخصية^(١).

وازدهرت كذلك العلوم الفلكية والرياضية في خراسان، حيث قرر ابن النديم^(٢) أنه كان بخراسان علماء عديدين تفوقوا في العلوم الرياضية والفلكية في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي أي فترة حكم السامانيين. ومن المعروف أن عالم الرياضيات الشهير (محمد بن موسى الخوارزمي) (ت حوالي ٢٣٢هـ/ ٨٤٦م) عاش فترة من حياته في خراسان مما ساعد على ازدهار النهضة العلمية في الرياضيات بهذا الإقليم، فيعتبر الخوارزمي أول من وضع تنظيم منهجي باللغة العربية لكل المعارف العلمية أي الأعداد ومنازلها والصفير، وهو ما عرف في الأسبانية GUARISMO والإنجليزية ALGORISM وهي اصطلاحات مشتقة من اسم الخوارزمي نفسه، لما أوجده من الترقيم معتمدا على كتب الهند في الرياضيات ولقد صنف الخوارزمي في هذا الصدد كتابا باسم "الجمع والتفويق لحساب الهند" وقد ضاع أصله، وفي هذا الكتاب وضع الخوارزمي القواعد اللازمة لاستعمال الأرقام الهندية التي هذبها العرب

(١) ابن ججل، طبقات الأطباء، ص ٧٨، القفطي، نفسه، ص ١٧٩-١٨١، شاخت،

وبوزورث، تراث الإسلام، ص ٢٣١، ٢٣٣،

(٢) ابن النديم، الفهرست، ص ٤٠٨.

واستعملوها في المشرق الإسلامي مثل ١، ٢، ٣، ٤، ٥، الخ. وعن الخوارزمي أيضا أخذنا كتابة الأعداد على أساس (الخانات)^(١).

وكان هذا العالم وأصله من خوارزم منقطعاً إلى خزانة كتب الحكمة للخليفة المأمون العباسي، وهو من أصحاب علم هيئة النجوم والكواكب، وكان الناس قبل الرصد وبعده يعولون على زيجه الأول والثاني، ويعرف بالسندهند، وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية ونقله الشاعر الأندلسي عباس بن ناصح الجزيري إلى الأندلس بتكليف من الأمير عبد الرحمن الأوسط، وصار هذا الكتاب أساساً لقيام المدرسة الأندلسية لعلم الفلك، وإستفاد منه مسلمة المجرطي رأس هذه المدرسة. ومن مؤلفات الخوارزمي أيضا كتاب الرخامة، وكتاب العمل بالأسطرلاب، وكتاب الجبر والمقابلة^(٢).

وشهد النصف الأول من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) مولد عالم كبير من علماء الرياضيات الخراسانيين وهو العالم أبو الوفا محمد بن محمد البوزجاني (٣٢٨-٣٨٨هـ/٩٣٩/٩٩٨م) الذي ولد ببوزجان من ضواحي نيسابور، وتلقى تعليمه بها، ثم ارتحل إلى المدن الإسلامية الأخرى. ومنها بغداد لاستكمال دراساته، فقرأ العدد والهندسة، على أبي يحيى البارودي، وأبي العلاء بن كرنيب، ثم عاد إلى خراسان.

(١) شاخت وبوزورث، تراث الإسلام، ج ٢، ص ٣٠١-٣٠٢.

(٢) ابن سعيد، الأندلسي، المغرب في حلي المغرب، ج ١، ص ٤٥، القفطي، أخبار

العلماء، ص ١٨٧، شاخت وبوزورث، نفس المرجع، ج ٢، ص ٣٠٢-٣٠٤، ص

١٦٨، وعن تأثير كتاب السندهند على ثقافة الأندلس الفلكية راجع: إبراهيم

عبد المنعم سلامة، رحلات عباس بن ناصح الثقافية إلى العراق وأثرها في تشكيل

ثقافات الأندلس في عصر الدولة الأموية، بحث ألقى في مؤتمر الاسكندرية الدولي

الثالث للتبادل الثقافي بين شعوب البحر المتوسط، الاسكندرية، أغسطس ١٩٩٨.

وللبوزجاني عديد من المؤلفات أهمها كتاب "ما يحتاج إليه العمال والكتاب من صناعة الحساب"، رتبته في سبعة أبواب يتناول كل منها موضوعا حسابيا كالنسبة والضرب والقسمة والمساحة وغيرها. ومن مؤلفاته أيضا كتاب تفسير كتاب الخوارزمي في الجبر والمقابلة، وكتاب "المدخل إلى الأثرماتيقي"، ووجدت مؤلفات أخرى لأبي الوفاء البوزجاني في الفلك منها "معرفة الدائرة من الفلك"، وكتاب "الكامل"، ويحتوي على ثلاثة مقالات في دراسة الكواكب وحركاتها، وكتاب المجسطي وكتاب تفسير كتاب ديوفنطس في الجبر، وكتاب استخراج مبلغ المعكب بمال مال وما يتركب منها، وكتاب العمل بالجدول الستيني، ولم يزل أبو الوفاء البوزجاني مقيما ببغداد إلى أن توفي بها في ٣ من رجب سنة ٣٨٨هـ^(١). ويذكر غوستاف لوبون أن شهرة البوزجاني الفلكية إنما ترجع إلى معرفته للإختلاف القمري الثالث، وذلك أنه استوقف نظره مافى نظرية بطليموس من النقص في أمر القمر فبحث في أسبابه، فرأى إختلافا ثالثا غير المعادلة المركزية والاختلاف الدوري، يعرف اليوم بالاختلاف. ولقد نسب هذا الاكتشاف إلى (تيخو براهه) بعد وفاة أبي الوفاء البوزجاني بستمائة سنة، مما يبطل على وصول مدرسة بغداد في أواخر القرن الثالث الهجري/ العاشر الميلادي، إلى أقصى ما يمكن علم الفلك أن يصل إليه بغير نظارة ومرقب. وكان أبو الوفاء مجهزا بآلات متقنة، فقد شاهد إنحراف سمت الشمس بربع دائرة يبلغ نصف قطرها إحدى وعشرين قدما^(٢).

(١) ابن النديم، الفهرست، ص ٤٠٨، القفطي، أخبار العلماء، ص ١٨٨-١٨٩.

(٢) غوستاف لوبون، حضارة العرب، ص ٤٥٧-٤٥٨.

الجغرافيا:

وفى بلاط السامانيين بلغت الجغرافية العربية أوجها العلمي أيضاً، على الرغم من أن العرب قد تكشفوا قبل ذلك بزمن طويل عن عناية خاصة بوصف البلدان، يذكيها في جنوبي بلاد العرب بخاصة اعتزاز بالحضارة التي تمت لتلك الديار قبل الإسلام، على ما نرى في "صفة جزيرة العرب" الذي وضعه الهمداني المتوفى في سجن صنعاء سنة ٣٣٤هـ. وكانت طليعة رواد العرب مؤلفة من تجار يسيحون للتجارة، وعلى ما كان يُعوز هؤلاء من الاستعداد الضروري للتأمل العلمي، لم تخل رحلاتهم التجارية من طرائف مفيدة في بعض الأحيان، والواقع أن نظام البريد والاستعلامات الذي اقتبسه الأمويون عن ملوك الفرس، وتعهده العباسيون الأوائل بالتجديد والتوسع كان قد قدم للدولة شبكة من المواصلات أفاد منها أصحاب الوظائف في الدولة، كذلك عنيت الكتب المؤلفة في الخراج بالتنظيم المالي، مما جعل الدول الناشئة كالدولة السامانية تهتم اهتماماً كبيراً بشئون البلدان، والشعوب المجاورة، وبرز هذا بصورة خاصة في اهتمامهم الكبير بالجغرافيا^(١).

وفى بلاط إسماعيل الساماني (٢٧٩-٢٩٥هـ) ألف الوزير الجيهاني كتاباً لم يصلنا للأسف استطرده فيه من بحث الضرائب إلى وصف البلدان المجاورة، ثم نجد أبا زيد البلخي وكان في خدمة إسماعيل ببلخ يضع مصوراً جغرافياً وجعله ذليلاً لأطلس إسلامي قديم موضوع على أساس اقتبسه الخوارزمي عن جغرافية بطليموس. ولذلك يقول (عبدالعزیز جنكيزخان) أنه أول من كتب الجغرافيا على طريقة اليونان، ولم تقتصر

(١) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ج ٢، ص ١١٦، ١١٧.

جهود أبى زيد البلخى على ذلك فحسب، بل نراه يكمل كتاب رحلة التاجر سليمان السيرافى الذى كتبه فى عام ٨٥١م، وكان ذلك فى عام ٨٨٠م، وأضاف أبوزيد البلخى إلى هذه الرحلة معارف أخذها عن عرب زارو بلاد الصين. (١)

وكان هذا المصور الجغرافى المنسوب لأبى زيد البلخى الكتاب أساسا للأثر الذى وضعه المقدسى المتوفى سنة ٣٨٧هـ، وأطلق عليه "أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم"، والذى أشاع الحياة فى هذا المصور الجغرافى بما وضعه عليه من دراسات بارعة، ومواد جمعها من رحلاته الشخصية حول البلاد الواقعة فى حوزة كل من السامانيين والفاطميين.

بيد أن المسعودى المتوفى سنة ٣٣٤هـ فى مصر، كان أوسع منه أفقا، فقد قادته شهوة الترحال بطريق الهند إلى سيلان والبحر الصينى (٢) إلى أن يزور كل أرجاء العالم تقريبا فزار بلاد الفرس والهند وجزيرة سرنديب وصحب التجار إلى بحار الصين، كما زار سواحل إفريقية الشرقية والسودان، وقام برحلات فى إقليم بحر قزوين وبلاد الشام وفلسطين، وزار مصر فى عهد الإخشيد سنة ٣٣٠هـ، ولقد قضى المسعودى خمسا وعشرين سنة من حياته على هذه الممالك، وقيد ماشاهده فى تأليفه الكثيرة المهمة التى تُعد كتاب (مروج الذهب) أشهرها (٣).

(١) غوستاف لوبون، حضارة العرب، ص ٤٦٥، عبد العزيز جنكيزخان، تركستان قلب آسيا، ص ٤٣.

(٢) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ج ٢، ص ١١٧.

(٣) غوستاف لوبون، نفسه، ص ٤٦٦ - ٤٦٧، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ٤٠٤، محمد علي حيدر، الدويلات الإسلامية، ص ٢١٠.

الفنون:

ولم يقتصر الازدهار الثقافي في خراسان وبلاد ما وراء النهر على العلوم والآداب فحسب ، وإنما ازدهرت أيضاً الفنون بمختلف فروعها ومنها:

(أ) العمارة :

أخذ فن العمارة يزدهر شيئاً فشيئاً في عصري الصفاريين والسامانيين في كل من خراسان وبلاد ما وراء النهر. ولسوء الحظ لم يبق من الآثار المعمارية لفترة حكم الصفاريين والسامانيين إلا النذر القليل. ومن أروع هذه الآثار وأهمها في العمارة الإسلامية (مشهد الأمير إسماعيل بن أحمد الساماني)، وهو أقدم مشهد من نوعه في تاريخ العمارة الإسلامية بعد مشهد قبة الصليبية بسامراء الذي أقامته أم الخليفة المنتصر العباسي بعد موته في ربيع الثاني سنة ٢٤٨ هـ.

وقد شيد الأمير إسماعيل هذا المشهد في الضواحي الغربية لمدينة بخاري، ولهذا المشهد أهمية كبيرة في الفن المعماري الإسلامي حيث يمكننا عن طريقه أن نصف بعض المظاهر والسمات المعمارية في هذه الفترة. فقد اجتمعت فيه مجموعة من هذه المظاهر التي جعلته أعظم المباني الإسلامية في القرن الثالث الهجري، وهذه المظاهر تعتبر فاتحة عصر جديد للتطور الذي أصاب مثيلاتها بعد ذلك في المباني الإسلامية ومن هذه المظاهر :

١- توجد في كل واجهة عشرة عقود تخفي من الخارج منطقة الانتقال إلى القبة، وهذه الظاهرة نجدها أيضا في مشهد السلطان سنجر في مرو القديمة.

٢- الحنايا التي لكل واحدة منها طاقان صغيران وهي التي أقيمت عليها القبة، ونجد نموذجا لهذا في مشهد السلطان سنجر، وهذان المثالان الوحيدان اللذان ذكرهما الأستاذ كريزول لهذه الظاهرة.

٣- وفي الركنين اللذين يكتنفان الحنية من أعلاها نجد زخرفتين مستديرتين، ونجد مثلها في خصري عقود النوافذ (وهناك مثال لهذا في المحراب الرئيسي لجامع ابن طولون)، وهذه الظاهرة نجدها بعد ذلك في كثير من أبنية بخاري وغيرها، وفي المحارب الفاطمية، وفي الأبنية الإسلامية في الهند، ونجد هذه الزخرفة المستديرة تتحول فيما بعد إلى سرّة تتفرع منها زخارف أخرى.

٤- القبة الكبيرة الرئيسية التي تقام على أركانها اربع قباب أخرى صغيرة، وهذه كانت مقدمة لما جاء بعد ذلك في عمارة المشاهد الهندية الإسلامية^(١).

ولعل أهم ما يميز العمارة في تلك الفترة أن المعمارين بدأوا في استخدام الحجر والجص بدلا من الحجر الذي كان مستخدما قبل ذلك، كما تأثرت الفنون المعمارية بالفنون الساسانية، فكانت الجوامع الكبيرة ذات أعمدة أو دعائم، تحمل السقف مباشرة، ووجدت أيضا مساجد ذات أعمدة خشبية. وأقيمت الأعمدة الاسطوانية القصيرة، ويعطو الأعمدة وسادة بسيطة تحمل أقواسا زورقية الشكل. فأصبح الشكل نموذجا في العمارة

(١) زكي حسن، الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي، القاهرة، ١٩٤٦.

الفارسية، ويعد استخدام الآجر من أهم الأسباب التي أدت إلى ازدهار فن العمارة وروعة جمالها، وذلك لأن الآجر استخدم لأغراض مختلفة كالقبوات - جمع قبوة- ذات الشكل نصف الاسطواني، والقبوات المتصالية والقبوات المقببة وغيرها من الأشكال. وقد اتضحت هذه الأشكال المعمارية في مقبرة الأمير إسماعيل بن أحمد الساماني، حيث زينت بنقوش بارزة رافعة من الآجر.

وكما لعب استخدام الآجر دوراً هاماً في المعمار، فقد ساعد أيضاً على تقدم فن الزخرفة لسهولة تشكيله وتغطيته بألوان مختلفة سواء على المساجد وقبابها أو على المقابر، وتشكل الكتابات والأشكال النباتية والمشبكات الهندسية الزخرفات الداخلية المنحوتة على الجص. ولدينا بعض النقوش بالألوان المائية عثر عليها في نيسابور ترجع غالباً إلى القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وهي عبارة عن حنية من الجص أو مقرنصة التي كانت ترتكز عليها القباب في إحدى العمائر التي كشفت أطلالها في مدينة نيسابور، ولعها أقدم الأمثلة للمقرنصات أو الدلايات التي أصبحت في العصور التالية من خصائص العمارة الإسلامية. وتتمثل الزخرفة في هذا الرسم الحائطي في وجود فروع نباتية ووريقات وأنصاف ووريقات محورة عن الطبيعة ووريدات. ويبدو في تأليف الزخرفة اتجاه إلى بدء اللوحات التي تطورت في العصور التالية، فنشأت منها رسوم الرقش العربي (الأرابسك) ^(١).

(١) مارسية، الفن الإسلامي، ص ٩٨-١٠٠، زكي حسن، أطلال الفنون الزخرفية، ٢٧٤، ٥٠٣،

فتحي أبو سيف، خراسان، ص ٢٨٤.

كذلك ازدهرت الفنون التطبيقية الأخرى ممثلة في خزف وزجاج
واخشاب ونسيج وسجاد، بحيث احتلت هذه الفنون في خراسان مركزا
أساسيا بين الفنون الإسلامية هناك، فلم يقف الفنان الخراساني عند حد
تطوير الأساليب الصناعية والزخرفية القديمة، بل ابتكر أساليب جديدة في
شتى أفرع الفنون التطبيقية^(١). ولحسن الحظ لدينا العديد من الأواني
الخزفية، وبعض السجاجيد التي ترجع إلى فترة حكم الصفاريين
والسامانيين، وقد حفظ بعضها في المتحف الإسلامي بالقاهرة، وبعضها
الأخر بالمتاحف الإيرانية والأوروبية.

(ب) الخزف:

وقد أدى الازدهار في فن الخزف إلى تخصص بعض المدن
والأقاليم الشرقية في صناعة وإنتاج القيشاني ذي البريق المعدني
المستخدم آنذاك في الأقاليم الشرقية ومنها خراسان، ثم ابتكرت نيسابور
عاصمة خراسان نماذج خزفية جديدة عبارة عن أقداح مزينة بكتابات
سوداء على خلفية قشدية اللون^(٢). ثم بدأت الأواني الخزفية في نيسابور
تأخذ خطوة جديدة في زخرفتها باستخدام العناصر النباتية والحيوانية
متأثرة بفن الزخرفة الإيراني القديم أو الصيني وذلك بعد تهذيب بسيط
يجرد الأنماط الساسانية والصينية في بعض الأحيان من العنف والقوة^(٣).
وقد أتبع نفس الطريقة في بخاري حيث تميز خزفها بأنه ذو أرضية
سوداء أو سمراء وعليها زخارف منقوشة فوق الطلاء، يبدو فيها التآلف
بين الألوان مع وجود نفس الرسوم النباتية أو رسوم للطيور كالبط والبعج

(١) حسن الباشا، مدخل إلى الآثار الإسلامية، ص ٣٣٥.

(٢) مارسية، الفن الإسلامي، ص ١٠٥.

(٣) زكي حسن، الفنون الإيرانية، ص ١٨.

وغيرها^(١). وتجدر الإشارة إلى أن صناعة الخزف قد نشطت في بلاد ماوراء النهر في عصر الدولة السامانية، وكان هذا الاقليم من أزهر الأقاليم الإسلامية، وكان بلاط السامانيين في سمرقند محط العلماء والأدباء والفنانين وموطن النهضة الأولى.

وكان صناع الأواني والقدور الخزفية يحرصون على كتابة أسمائهم على ما يصنعون، فلدينا بعض الأسماء التي ذكرت على الأطباق والقدور، وإن كنا لا نعرف عن أصحابها شيئاً، فتذكر على بعض الأواني والأطباق عبارات "مما عمل سهيل" و"مما عمل ابن صالح" و"مما عمل صالح"^(٢). وكانت تذكر أيضاً بعض العبارات الأخرى غير الأسماء مثل "كل هنيا" أو "كل هنيا مريا" وغيرها من العبارات^(٣).

(ج) صناعة الزجاج:

ولعل ازدهار صناعة الزجاج في خراسان واستخدامه في المساجد والمنازل أدى إلى ازدهار فن النقوش الزجاجية، حيث كان الفنانون يزينون نوافذ المساجد أو المنازل بالرسوم النباتية والحيوانية أو كتابة بعض الآيات القرآنية بالخط الكوفي.

(د) صناعة النسيج:

وازدهرت فنون النسيج وصناعة السجاجيد في خراسان، واشتهرت مدن خراسان وعلى رأسها نيسابور ومرو بجودة صناعات النسيج بهما والتفوق في تزيين النسيج برسوم النباتات أو الطيور أو

(١) محمد علي حيدر، الدويلات الإسلامية، ص ٢١٢.

(٢) انظر هذه الأواني والأطباق في المتحف الإسلامي تحت أرقام (١٦٠٠٥ و ١٣٦١٨ و ١٣٦٣٠ و ١٦٠٠٤).

(٣) نفسه، تحت أرقام (١٣١٩٧ و ١٤٧١١).

إضافة السلوك الذهبية إلى الصناعات المنسوجة، فيضفي عليها ذلك بريقاً وجمالاً^(١). كذلك اشتهرت بخارى في عهد السامانيين باتقان صناعة الحرير الذي جعلوا عليه رسوما حيوانية جميلة، وقد عثر على قطعة من النسيج الساماني محفوظة الآن بمتحف اللوفر بباريس عليها كتابة نصها "عز و اقبال للقائد ابي منصور بختكين اطل الله بقاءه". ولطه القائد عاش في بلاط عبد الملك بن نوح حاكم خراسان وماوراء النهر، وجرح وقتل في عام ٣٤٩هـ، على يد هذا الأمير.^(٢)

(هـ) الموسيقى:

وشهت هذه الفترة تقدماً ملحوظاً في الموسيقى التي تعني صناعة الألحان المرتبة على الأنغام. فالتأليف الموسيقي يعني تركيب النغمات، والنغمة تعني صوت محدد غير متغير، والثقل كيفيتان مسموعتان تعرضان لبعض الأصوات بالقياس إلى آخر^(٣). وجدير بالذكر إلى أن المنظرين المسلمين وغيرهم من الأوربيين في العصور الوسطى، كانوا يذهبون إلى أن الموسيقى تنتمي إلى العلوم الرياضية، ومن ثم فرغم أن العديد من رسائلهم في هذا الشأن يعتبر على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للطريقة التي عالجوا بها المسائل الفنية (التحليل العددي للفواصل الموسيقية، أجناس البعد الرباعي) فإن من الصعب أن نقرر: هل كانوا يمثلون ماجرى العمل به فعلاً، أم أنهم كانوا يعيدون إنشاء نظريات الإغريق في هذا الصدد.^(٤) ومن المعروف أن فن الموسيقى والغناء قديم

(١) باقوت الحموي، معجم، مجلد ٥، ص ٦٥، حيدر، نفسه، ص ٢٢٧.

(٢) زكي محمد حسن، الفنون الإيرانية، ص ٢٤٧، حيدر، نفسه، ص ٢١٢.

(٣) السيوطي، مقاليد الطوم، ص ٢٧.

(٤) شاخت وبوزورث، تراث الإسلام، ج ٢، ص ٣٥٦.

في إيران، فقد وجد على الآثار الساسانية بعض الصور التي توضح الرقص الغنائي على أصوات الموسيقى في العصر الساساني. وقد تأثر العرب في فترة حكم الأمويين والعباسيين بالموسيقى الإيرانية تأثراً كبيراً سواء إذا كان ذلك في الألحان أو الغناء. وشهدت فترة وزارة البرامكة للعباسيين رواج الفنون الموسيقية الإيرانية وزيادة التأثير بها والعمل على نقلها إلى فنون الموسيقى الإسلامية ونعرض أسماء العديد من المغنيين والمغنيات في العصرين الأموي والعباسي من أمثال عزة ورباب ورابعة وزرياب وغيرهم، وقد اشتهر من المغنيين الفرس في العصر العباسي إبراهيم بن ميمون أو ماهان المعروف بإبراهيم الموصللي، ومنصور المعروف بزلزل وغيرهما^(١).

وكان لازدهار الشعر الفارسي أثره الفعال في ازدهار فن الغناء والموسيقى بخراسان، حيث فضل العديد من شعراء الفارسية استخدام الغناء في عرض أشعارهم على أمراء السامانيين مع استخدام الأتغام الموسيقية، بل ابتدع الشاعر الفارسي الرودكي الارتجال الغنائي أمام الأمراء. وأدى اتصال فلاسفة المسلمين بالتراث اليوناني والهندي إلى معرفة فن الموسيقى والتأليف فيه. وتجدر الإشارة إلى أنه منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، نجد تمييزاً قائماً بين الغناء، وبين الموسيقى النظرية. لكن لسوء الحظ لا نملك إلا القليل عن وصف هذا الغناء أو تحليله، بالرغم من أن المؤلفات الأدبية العامة كالأغاني للأصفهاني تزودنا بمادة غنية عن حياة الموسيقيين البارزين، وتصور تصويراً حياً دورهم في بلاط الخلفاء والأمراء. ويمثل الفيلسوفان الشهيران الفارابي، وابن سينا الاتجاه المشائي الأرسطي في الموسيقى،

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج ٥، ص ١٥٤.

وأهم ما فى كتابات ابن سينا الموسيقية يتمثل فى القسم الممتاز من كتابه (الشفاء) الذى تحدث فيه عن الموسيقى، بينما يعتبر مصنف الفارابى الضخم المعروف بكتاب (الموسيقى الكبير) أعظم مؤلف فى الموسيقى صنف حتى عصره " كما يذكر فارمر. (١)

ولدينا العديد من أسماء الآلات الموسيقية التى كانت تستخدم فى خراسان مثل الناي والدف والصنوج والكوسات والعود والقانون والشهروود أو شاهروود، والسنتور - بالعربية صنطير - والكمانجة أو الكمنجا. ولعل تأليف الفيلسوف الإسلامى الفارابى الذى قضى فترة من حياته فى بلاط السامانيين لكتابه الهام الموسيقى الكبير، وغيره من المؤلفات الموسيقية مما يؤكد على تقدم فن الغناء والموسيقى فى هذه الفترة. وتجدر الإشارة إلى أن الفارابى قد قدم لنا بعض الآلات الموسيقية التى كانت تستخدم فى عصره ومنها عودين طويلى العنق لهما دساتين مختلفة تمام الاختلاف، أحدهما يسمى الطنبور البغدادى، والآخر الطنبور الخراسانى، وهذا النوع الأخير يرجع إلى أصل فارسى. وقد طور الفرس والترك فيما بعد عدة أنواع أخرى من هذه الطنابير بينها طنبور الشروان. كما قدم لنا الفارابى أول وصف للآلة الموسيقية ذات القوس المعروفة بالرباب. (٢)

يتبين لنا مما سبق أن خراسان وبلاد ماوراء النهر قد شهدتا فترة من أهم فترات تاريخهما الحضارى، رغم ما تعرضتا له من اضطرابات سياسية، وقد بدت مظاهر هذا التقدم الحضارى فى شتى فروع المعرفة العلمى والأدبية.

(١) شاخت وبوزورث، تراث الإسلام، ج٢، ص ٣٥٧-٣٥٩.

(٢) شاخت وبوزورث، تراث الإسلام، ج٢، ص ٣٨٢.

الفصل السادس

الدولة الزيارية في بلاد الديلم

(٢١٦-٤٢٢هـ)

- أرض الديلم.
- مرداويج بن زيار (٣١٦-٣٢٣هـ).
 - علاقة مرداويج ببني بويه.
 - (تزايد الهجرة الديلمية إلى الجنوب).
 - مقتل مرداويج (٣٢٣هـ).
- ولاية وشمكير بن زيار (٣٢٣-٣٥٧هـ).
 - مقتل ماكان (٣٢٩هـ).
 - علاقة وشمكير ببني بويه.
 - وفاة وشمكير الزياري (٣٥٧هـ/٩٧٦م).
- ولاية بيستون بن وشمكير (٣٥٧-٣٦٦هـ).
- ولاية شمس المعالي قابوس بن وشمكير (٣٦٦-٤٠٣هـ).
- ولاية فلك المعالي منوهر (٤٠٣-٤٣٣هـ).
- ولاية نوشيروان بن فلك المعالي (٤٢٣-٤٣٥هـ).
- خاتمة.
- أسماء الأمراء الزياريين وزمن إمارة كل منهم.

الفصل السادس

الدولة الزيارية في بلاد الديلم

(٢١٦ / ٤٢٣ هـ)

أرض الديلم:

كانت ناحية الديلم تشمل - عند القدماء- جزءا من جيلان الحالية التي كانت تحد بولاية قزوين جنوبا ومنطقة (جالوس) (تنكاين الحالية) شرقا. ومع أن جميع جيلان والولايات الساحلية لبحر الخزر كانت تصير جزءا من بلاد الديلم، حينما كان الديالمة يمدون سيطرتهم إليها، لكن اسم (الديلم) في الحقيقة هو اسم الجزء الجبلي من جيلان الحالية وحسب، وكان يطلق عليه (ديلمان) و (ديلمستان) أيضا. وكان يقابل الجزء المنخفض والسهلي الذي كان يسمى باسم (جيلان). اذن فإن (ديلمان) أو الديالمة والـ(ديلمستان) أو أرض الديلم تعني مساكن جماعة الديلم، و(جيلان) تعني مساكن جماعة الجبل. وأخذ هذا التحديد يزول تدريجيا وصار اسم (جيلان) يطلق على الجزء المحصور بين طبرستان وطالش وطارم وقزوين.

وبسبب الطبيعة الجبلية لمساكن الديلم وصعوبة السيطرة عليها، فقد عاش الديلم مستقلين دائما وكان لهم آداب وحياة خاصة بهم قل أن وقعت تحت تأثير من الخارج. ولما كان الديلم رجال حرب وأصحاب شجاعة فقد كانوا يمدون سيطرتهم إلى المناطق التي على حدودهم مثل قزوين وطارم وجالوس، ولجأ سكان هذه المناطق إلى بناء الاستحكامات والقلاع لمنع اعتداءاتهم خاصة في قزوين وجالوس^(١).

(١) القزويني، آثار البلاد، ص ٢٣٠، ٤٣٥، عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ٣٣.

ولم تفتح مساكن الديالمة أمام المسلمين مع شدة حروبهم لهم، ولم تستسلم لهم هذه الجماعة، فبقوا على مذهبهم القديم وآدابهم المتوارثة. ولم يتمكن أحد من المسلمين من النفوذ في بلادهم غير السادات العلويين الذين التجأوا إلى الديلم وجبال طبرستان في خلافة المتوكل والمستعين بسبب ائذانهما لجميع العلويين.

وكما رأينا في الفصل المتعلق بالدولة الزيدية العلوية في طبرستان، فقد وفق السادات بعد مدة من اقامتهم في هذه المنطقة في جمع أتباع وأشياء كثيرين وانتشر الإسلام بذلك في بلاد الديلم. وقبل اعتناق الديالمة للإسلام كان لبلادهم عند المسلمين حكم دار الحرب أي أنها بلاد الكفار الذين يثاب على جهادهم وغزوهم، فكان حكام الري وقزوين وطبرستان يهاجمون الديلم أحيانا ويستأسرون منهم ويبيعونهم أو يهدون منهم للخلفاء. ولهذا فقد عرف الديلم بين المسلمين فترة من الزمن على أنهم غلمان أسرى وموال مثلهم كالزنج والهنود وغيرهم.

ومن بين الأسر القديمة للديلم أسرة (آل جستان) التي حكمت على حدود نهر (منجيل) وقصبة الديلم الحاليين. وهؤلاء قبلوا تبعية الحسن بن زيد الداعي الكبير بمجرد أن أعلن ثورته، ولم يبخلوا عليه طوال مدة إمارة الدعاة على طبرستان بصادق عونهم ولذلك كان إذا طردوا من جرجان وطبرستان لا يلجأون إلا إلى أراضي آل جستان.

وفي الفترة التي تحكم فيها آل سامان في طبرستان - وقد استمرت ثلاثة عشر عاما (من ٢٨٧ حتى ٣٠١ هـ) كان الناصر الكبير (الأطروش) يعيش منزويا بين الديالمة بعد قتل محمد بن زيد، فصرف كل همه إلى أن يدعو بقية الديلم للإسلام وينشر الآداب والأحكام الإسلامية فيهم، ويأخذ منهم العُشر، ويدافع عنهم ملكهم ابن حسان. ولما كان

الناصر مثال الإيمان التام والعلم والزهد الكاملين، فقد اعتنق أكثرية الديلم الإسلام عن طواعية وبنى لهم المساجد، وزحف بهم كما يذكر ابن خلدون إلى ثغور المسلمين، أراهم مثل قزوين وسالوس فأطاعوه، وهدم حصن سالوس. ثم دعاهم إلى غزو طبرستان، فرفضوا في بداية الأمر، لأن السامانيين كانوا قد استمالوهم بالمهادة والإحسان. فأقبل الناس على طاعتهم. فلما دعاهم الأطروش إلى غزو طبرستان، لم يجيبوه من أجل السامانيين. غير أن الظروف تحولت لصالح الأطروش، عندما عزل ابن نوح وال السامانيين العادل على الديلم، وخلفه على ولاياتها (سلاما) الذي أساء السيرة، ولم يحسن سياسة الديلم. فهاجوا عليه فقاتلهم وهزمهم. واستغفى من ولايتها، فعاد ابن نوح إلى حكمها، وصلت الحال. كما كان إلى أن مات. فولى عليها محمد بن إبراهيم بن صلوك. فأساء السيرة وتكر للديلم، فانتهز الأطروش هذه الفرصة، ودعاهم إلى غزو طبرستان فأجابوه وكان من أثر هذا أن استطاع الناصر في (٣٠١ هـ) أن يخرج طبرستان مرة أخرى عن قبضة العمال السامانيين. وخلاف آل جستان دخل أكثر رؤساء الجبل والديلم، الذين لم يتحملوا أن يظلوا خاملى الذكر وكانوا يطلبون الشهرة وذيوع الصيت، في خدمة الدعاة، وأهم هذه الجماعة هم من سبق ذكرهم ضمن تاريخ العلويين خاصة الناصر الكبير وأبنائه مثل (إيلي بن النعمان) و(حسن بن فيروزان) وابن عمه (ما كان بن كاكى) و (أسفار بن شيرويه) و(مرداويج بن زيار) و (على بن بويه ماهيكير) ^(١).

(١) ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٤٥٧ - ٤٥٩.

مرداويج بن زيار (٣١٦ - ٣٢٢ هـ):

ثورة مرداويج في ٣١٦ هـ:

كان مرد أويج ومرد أويز وتعنى المتعلق بالرجولة الحرى بها، كما مر بنا عند الحديث عن الدولة الزيدية، فى بداية أمره من أتباع أسفار بن شيرويه. وأسفار بدأ أمره بحياته فى خدمة علوي طبرستان، ثم تحول عنهم فى النهاية ولحق بالأمير نصر السامانى وعماله فى خراسان، وقتل بعون منهم شيرويه الداعى الصغير فى (٣١٦ هـ) وجعل ماكان بن كاكى يتوارى. ونتيجة لهذا استولى على جرجان^(١). وطبرستان وقزوين والرى وقم وكاشان ولرستان^(٢). وبعد أن حاز أسفار هذه القوة ثار على الخليفة والأمير نصر. وكان الأمير نصر عازما على ضربه لكن الأمر انتهى بالصلح وقبول أسفار أن يدفع خراجا سنويا، وأن يحكم المناطق التى استولى عليها. لكن الرجل، ولم يكن قد أسلم واستمر على دين آبائه، لم يحسن معاملة رعيته المسلمين المتعصبين خاصة أهالى قزوين حتى أنه أمر ذات مرة بأن يلقى بمؤذن كان يؤدى للصلاة من فوق المنارة، وبخراب المساجد وأخذ يحصل من العامة المال متعديا كل حدود النصفة والعدل. وسبق القول أن أسفار استدعى لخدمته حينما كان يتأهب لغزو طبرستان أحد كبار قواد الديلم المعروف بـ(مرداويج بن زيار) الجبلى وقدمه على جيشه، وقصدوا طبرستان، واستولى الاثنان عليها من الداعى الصغير وما كان بن كاكى فى عام (٣١٦ هـ)^(٣).

(١) فى هذا الفصل والفصول بعده إذ تحدثنا عن جرجان فإتما نعنى جرجان القديمة أى

كنبد قابوس الحالية، وليست جرجان الجديدة أو استراباد الحالية.

(٢) ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٤٧٥.

(٣) ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٤٧٧.

ويذكر (ابن خلدون) أن الحسن بن القاسم الداعي كان قد استولى على الرى وأعمالها من يد نصر بن سامان، ومعه قائده (ما كان بن كالى). فلما غلب أسفار على طبرستان، زحف إليه الداعي وقائده ما كان، فانهزما وقتل الداعي، ورجع ما كان إلى الرى، واستولى أسفار بن شيرويه على طبرستان وجرجان، ثم سار إلى الرى وأخذه من يد ما كان بن كالى، واستولى على سائر أعمال الرى وقزوين وزنجان وابهر وقم والكرخ، وعظمت جيوشه، فانتصر على جيوش الخلافة العباسية التي سيرها المقتدر العباسي إليه، فعظم أمر أسفار وكثر عيثه وعسف جنده^(١).

وبعد فتح طبرستان أنفذ أسفار مرداويج إلى طارم حيث كان (سلار) أحد أمراء أسرة (آل مسافر) يحكم فيها مستقلا ليدعوه إلى بيعة أسفار. وكان مرداويج شديد التبرم والضجر بمظالم أسفار، فتعاهد سرا مع سلار المسافري، وحينما كان أسفار ينتظر عودته من قزوين أرسل مرداويج إلى جماعة من قواد جيشه ووزيره محمد بن مطرف الجرجاني، كانوا ينقمون على أسفار أيضا وأطلعهم على اتحاده مع سلار وعزمهما الثورة على أسفار. فهاج الجند على أسفار، فلما رأى أسفار هذا ووصله قصد : داويج وسلار فر هاربا من قزوين إلى الرى ثم قصد بيهق.

ولما عرف أن ما كان بن كاكي بخراسان وقد دعاه مرداويج إلى قصده، يمم فار نحو قلعة (الموت) (تعنى بلغة الديلم تعليم العقاب) ونمى الخبر إلى مرداويج، فسار لاعتراضه، وقدم بعض قواده أمامه، فلحقه القائد وجاء به إلى مرداويج، فقتله في عام ٣١٦ هـ، ورجع إلى الرى ثم

إلى قزوين، وقدم إليه ما كان من خراسان، فأمره على جيلان وطبرستان^(١).

ولم تمر فترة طويلة حتى تكدر الصفو بين الاثنين، وأسرع مرداويج لما قوى أمره، لدفع ما كان بطبرستان فغلبه عليها، ثم أجلاه عنها، وعاد بعد السيطرة على جرجان إلى أصفهان غانما منتصرا، أما ماكان فقد هاجم بعون الأمير نصر الساماني جرجان والدامغان لكنه غلب ورجع إلى خراسان منهزما.

وبعد قتل أسفار وطرده ما كان، تملك مرداويج طبرستان وجرجان والدامغان والجزء الأعظم للعراق العجمي، وتجاوزت مناطق حكمه في (٣١٩ هـ) مع ولايات السامانيين من ناحية والبلاد التي يحكمها الخليفة العباسي حكما مباشرا من ناحية أخرى. وأخذ يتقاطر عليه رؤساء الديلم طمعا في المال الذي كان يهبه لجنده وحاشيته، وطفق اعتباره وشوخته يزيدان يوما بعد يوم، وكثرت جموعه وعظم خراجه. فلم يكف ما في يده من الأعمال إنما تطلع إلى السيطرة على نواحي أخرى. ففي عام (٣١٩ هـ) وجه مرداويج ابن أخته بجيش للسيطرة على همدان، لكنه لم يحقق شيئا لتآزر شعب همدان مع نائب الخليفة وكان يدعى محمد بن خلف بل قتل في معركته معه. مما جعل مرداويج يتحرك بنفسه من الري إلى همدان، وبعد أن أتم سيطرته عليها أوقع بها مذبحه استمرت يومين. فبعث المقتدر الخليفة العباسي ابن خاله (هارون بن غريب) بجند كثيف لدفعه. ودارت بينهما معركة شديدة انتهت بهزيمة هارون، واستولى مرداويج على بلاد

(١) ابن خلدون، العبر، ج ٣، ص ٤٧٦، عباس إقبال، تاريخ إيران، ص ٣٦.

الجبل وماوراء همدان، وبعث قائده إلى الدينور ففتحها عنوة، وإنتهت
عساكره إلى حلوان فقتل وسبى.

وبذلك امتدت سيطرة مرداويج حتى حدود العراق العربى. وبعد
فترة قصيرة قصد فتح أصفهان، فأنفذ الخليفة حاكما جديدا للدفاع عنها
هو (مظفر بن ياقوت) لكن مظفرا فشل فى الحفاظ عليهما، واستخلصها
جند مرداويج بسهولة، ثم دخلها مرداويج بعد قليل على رأس ٤٠ أو ٥٠
ألفا من الجند. وقد أطمعه إنتصاره فى أصفهان فى أن يعجل بإرسال جزء
من جيشه للتمكن من الأهواز، فاستولوا عليها وعلى خوزستان كذلك
وجبى أموالها وقسم الكثير منها فى أصحابه وصار على حدود العراق
العربى تماما. لكنه سير مبعوثا من لدنه إلى المقتدر يتعهد ألا يتعدى على
بلاد الخلافة ويدفع سنويا مائتى ألف دينار إليه من خراج همدان
والدينور.^(١) مقابل أن يقلده الخليفة المقتدر ولاية هذه الأعمال، وإضافة
همدان والكوفة إليها، فأجابه الخليفة إلى طلبه وقاطعه وولاه وذلك فى
سنة ٣٠٩ هـ، ويرى الدكتور أحمد الشريف أن موافقة الخلافة العباسية
على تفويض مرداويج حكم هذه البلاد، إنما كان بهدف وقف تيار الهجرة
الدلمية، وأن تظل العلاقات سلمية بين مرداويج وبين الخلافة، فلا يتعدى
أحد الطرفين على الآخر، وتقف بذلك الهجرة الدلمية. كما يرى الدكتور
الشريف أن الدولة الزيارية رغم أنها دولة شيعية زيدية المذهب، إلا أنها
استغنت عن الإمامة الزيدية، عندما اتصلت بالخلافة العباسية واعترفت
بها، وقبلت التقليد من الخلفية العباسية. وأصبحت دولة (طرفدارية)^(٢).

(١) ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٤٧٧.

(٢) حسن محمود، أحمد الشريف، العالم الإسلامى، ص ٤٨٩، ٥٠٣.

ولعل هذا راجعا إلى فكر الزيدية الذين كانوا يجيزون إمامة المفضول مع وجود الأفضل. كما ذكرنا من قبل، ولذلك أظهروا الولاء للخلافة العباسية السنية حرصا على مصلحتهم السياسية. وهذا ما سوف يفعله البويهيون عند إقامة دولتهم.

وتجدر الإشارة إلى أن الزياريين فكروا في إقامة دولة فارسية. ولذلك أحيوا التقاليد الساسانية في البلاد. وامتد بهم الطموح إلى إعادة ملك بني ساسان الفرس، فابن طباطبا يقول عن طموح مرداويج أنه فكر في الاستيلاء على بغداد وأن ينقل الدولة إلى الفرس ويبطل دولة العرب^(١).

وفي عام (٣٢٠ هـ) بعث مرداويج رسولا منه إلى أخيه (وشمكير) في جيلان وكان يعمل بالزراعة يستدعيه إليه. فلم يطعه وشمكير في البداية بل لعن أخاه لأنه داهن الخليفة العباسي وطوع نفسه إليه. وفي النهاية رضی لاصرار الرسول بأنه يلحق بأخيه. فجاء إليه حافيا بما كان يعاني من أحوال البداوة والتبذل في المعاش، ينكر ما يراه من أحوال الترف ورقة العيش. ثم صار إلى ترف الملك وأحوال الرياسة، فرقت حاشيته وعظم ترفه وأصبح من عظماء الملوك وأعرفهم بالتدبير والسياسة كما سنرى^(٢).

وفي العام التالي وصل إلى مسامع مرداويج أن السامانيين عادوا وسيطروا على جرجان، وأن الأمير نصر بن أحمد ووزيره محمد بن عبيدالله البلعمي وجيشا كثيفا ينتظرون في نيسابور. فترك الري قاصدا جرجان لكنه أدرك أنه لن يستطيع استردادها، فاضطر إلى أن يستمع إلى

(١) ابن طباطبا، الفخرى في الآداب السلطانية، ص ٢٥١، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج ٣، ص ٤٢.

(٢) ابن خلدون، العبر، ج ٣، ص ٤٤٧ - ٤٧٨، عباس إقبال، نفس المرجع، ص ٣٧.

نصح البلعمى فتصالح مع الأمير نصر وترك جرجان إلى السامانيين وقفل عائدا إلى الرى.

علاقة مرداويج ببني بويه:

(تزايد الهجرة الديلمية إلى الجنوب)

فى هذه الآونة كان (ماكان) الذى نال هزائم متلاحقة من مرداويج وعماله يعيش فى خراسان فى حماية السامانيين، على أمل الاستيلاء على جرجان وطبرستان. وبعد صلح مرداويج مع الأمير نصر السامانى خابت آماله وحرار فى أمره وتخلى عنه أتباعه وذهب كل منهم إلى ناحية. وتجدر الإشارة إلى أن الديلم كانوا بعد أن انفتح أمامهم خط الثغر الطبرى - طبرستان - يهاجرون على هيئة أجناد، فكانوا يتخفون لأنفسهم قائدا يتبعونه، وكان هذا القائد ينتقل من خدمة ملك إلى خدمة ملك آخر حسب مصالح جماعته، وحسب من يحتاج لخدمته، ومن يدفع له ولأصحابه أكبر عطاء ممكن. أى أنهم كانوا جندا مرتزقة، وهذا ما تكرر مع كبار قوادهم مثل أسفار بن شيروية، ومرداويج بن زيار، وعلى بن بويه.

وكان من أتباع ماكان الذين تركوه، أبناء (بويه الصياد) الذين عاشوا فترة فى خدمته، فقالوا له (مادنا وما دام أتباعنا محل اعتمادك فى هذه الأيام السوداء فإن الأصلح أن نأذن لنا حتى نأتى لخدمتك إذا تحسنت الأمور) وذلك لكى تخف عنه مؤنتهم. فرضى ماكان بهذا الأمر، وسلك أولاد بويه وأتباعهم طريقهم رأسا إلى مرداويج. فاحتفل الأمير الزيارى بمقدمهم وقبلهم فى خدمته وأكرمهم، فى حين قتل جماعة من قواد (ماكان) وأولادهم بعدما استأمنوا إليه، وأمر كلامنهم (بنى بويه) على جزء من العراق العجمى (بلاد الجبل، وأحيانا يجمع فيسمى إقليم

(الجبال). ومن بينهم (على) الذي لقب بعد بعماد الدولة والذي عينه في الكرج وهي ولاية صغيرة في أقصى الجنوب من ممتلكات الدولة الزيارية، بين همذان وأصبهان^(١). ولقد كان مرداويج حريصا على أن يوزع المهاجرين إليه توزيعا يضمن به طاعتهم، فكان إذا ولاهم لم يبقهم في ولاياتهم مدة طويلة، وكان إذا رأى لديهم مالا كثيرا خصص بعض هذا الدخل لجند جدد، وكان لا يولى واليا إلا بعد أن يدير الأمر في فكره مرات ومرات. ولكن مرداويج بعد قليل ندم لأنه قسم الولايات الهامة بين أولاد بويه والقواد الديالمة الآخرين، وأراد أن يحول بينهم وبين ما يشتهون. فأرسل رسالة إلى أخيه وشمكير ووزيره الحسين بن محمد القمي والد (ابن العميد) المعروف الذي كان مع وشمكير أيضا بالرئ^(٢) ليمنعاهم من التحرك، وإذا رفض أحدهم يرسله إليه.

وكان على بن بويه قد شمل ابن العميد الوزير بأفضاله^(٣). مما جعله يعرض عليه رسالة مرداويج قبل أن يسلمها لوشمكير، ثم أشار عليه بقصد الكرج تحت جناح الظلام^(٤). وحينما حل الصباح أطلع الوزير

(١) ابن الأثير، الكامل، ح ٨، ص ٩٢، ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٤٩٠ - ٤٩١، السيوطي، تاريخ الخلفاء ص ٣٥٤، حسن محمود، أحمد الشريف، العالم الإسلامي، ص ٥٠٤.

(٢) هو أبو الفضل محمد بن الحسين القمي من وزراء وأدباء البويهيين المعروفين، وكان والده كاتب ماكان بن كاكى، ثم صار صاحب ديوان رسائل نوح بن نصر الساماني. وبلغ ابن العميد وزارة ركن الدولة الديلمي وظل في وزارته حتى وفاته. وكان أستاذا في النجوم والفلسفة والبلاغة ويجمع في تأليفه بين المعاني الدقيقة والصناعة اللفظية، ومن آثاره ديوان الرسائل ومذهب في البلاغات، توفي عام ٣٦٠هـ.

(٣) قيل في ذلك أن عليا بعد أن وصل الرئ لم يكن يملك غير سرير عرضه للبيع فاشتراه العميد بمائتي دينار وأرسلها إليه. فأخذ على عشرة دنائير ورد الباقي إلى الوزير واكتسب بهذا قلب الوزير وكان يزعم في خبيثة نفسه أن يحقق أحلام سيطرته.

(٤) مسكويه، تجارب الأمم، ح ١، ص ٢٧٨، ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٤٩١.

وشمكير على رسالة أخيه، فمنع الآخرين من قصد ولاياتهم، وهم بإرسال من يرد عليا بن بويه عن مقصده، فتدخل الوزير أيضا بحجة أنه لن يعود مختارا وربما يؤدي به هذا الأمر إلى عصيان مرداويج، وصرفه عن إرادته. ووصل علي بن بويه إلى الكرج وأنشأ يحسن معاملة الرعية وعمال مرداويج ويبعث إلى مرداويج برسائل الرضا والشكر، ثم أخذ في فتح القلاع على أطراف الكرج مثل قلاع الخرمية التي ظفر منها بذخائر كثيرة.

وسرعان ما اشتدت شوكته في هذه النواحي وملك قلوب الرعية واحترامها، ولهذا سعى مرداويج أن يضعف والى الكرج، فأرسل إليه جندا من المهاجرين يتقاضون أرزاقهم من دخل ولايته، فاحتفى عليا بمقدمهم، واستفاد من ذلك لأنه لم يكن طالب مال. وإنما كان طالب رجال، ولما كان قد تعود أن يعطى كل ما يغمه للأجناد، فإنه أكرم الوافدين عليه حتى صاروا أتباعا له، وهنا أدرك مرداويج خطأ تصرفه، وندم على ما فعل، وحاول أن يستقدم هؤلاء الجند الذين صاروا قوة لعلي بن بويه، ويحولهم إلى مكان آخر، فخاف هؤلاء الأجناد على أنفسهم، وأيقنوا أن الأمور قد تخرجت بينهم وبين مرداويج، وهنا بدأ النزاع بين الزيارية وبين أتباع علي بن بويه، مما جعل مرداويج يصمم على إزالته والقضاء عليه أمامهم^(١). وعندما علم علي بن بويه بنية مرداويج نحوه، دبر خطة للفرار من الكرج إلى مكان لا تصل فيه إليه يد مرداويج، وأن يدخل في طاعة الخلافة العباسية ليكون من خدامها بدلا من أن يخدم مرداويج. فلهجرة إذن هجرة جند ينتقل من خدمة سيد إلى خدمة سيد آخر. غير أن مثل هذا

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ٩٢، ابن خلدون، العبر، ج ٣، ص ٤٩١، حسن محمود، أحمد الشريف، العالم الإسلامي، ص ٥٠٥.

التنقل لم يكن ينظر إليه دائما بعين الإرتياح من الولاة والملوك والخلفاء فلم علم مرداويج بتدبير علي بن بويه، عمل جاهداً على إفساده، فأرسل إلى أمراء الكرج فاستأمن إليه (شيرزاد) من كبار قادة الديلم، فقويت نفسه وسار إلى أصبهان وبها الأمير المظفر بن ياقوت في عشرة آلاف مقاتل، وأبو علي بن رستم على الخوارج، وسيرهما لقتال علي بن بويه، فأرسل الأخير يستعطفها في الانحياز إلى طاعة الخليفة العباسي وخدمته، والمسير إلى بغداد، فلم يوافقاه، وكان أبو علي بن رستم أشد كراهة لعلي بن بويه، فمات في هذه الأيام، فاستراح ابن بويه منه، أما ابن ياقوت فقد سار ثلاثة فراسخ عن أصبهان وكان في أصحابه بعض الديلم على رأسهم حسل وديلم، فاستأمنوا إلى ابن بويه، ولما اشتبك الطرفان، وقعت بينهما معركة بظاهر أصفهان في عام ٣٢١ هـ، فانهزم المظفر بن ياقوت، واستولى علي بن بويه على أصبهان، وكان عسكره نحو من تسعمائة، في حين بلغ جند ابن ياقوت الذي فر إلى فارس نحو من عشرة آلاف، وكان سبب النصر كان يذكر ابن الأثير وابن خلدون إنضمام جماعة الديلم في جيش ابن ياقوت وعددهم ٦٠٠ مقاتل أثناء المعركة إلى الديلم أتباع علي بن بويه^(١).

ولقد ترتب على فتح علي بن بويه لأصفهان، أن بلغ القلق مداه بكل من الخليفة القاهر العباسي (٣٢٠ - ٣٢٢ هـ)، ومرداويج، وخوفهما على أملاكهما. فأخذ مرداويج بتوعد عليا من بويه ويوعده، محاولاً استدعائه إليه مرة، ومرة بإرسال أخاه (وشمكير) بجيش عظيم إلى أصفهان للقضاء عليه. وشعر علي بن بويه بخطورة البقاء في أصفهان،

(١) ابن الأثير، الكامل، ح ٨، ص ٩٣، ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٤٩١، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ح ٣، ص ٤٢، عباس إقبال، تاريخ إيران، ص ٣٩.

لأن بقاءه فيها يجعله قريبا من مرداويج من ناحية، ويسخط الخلافة العباسية من ناحية، بسبب حرصها على التمسك بأصفهان تحت طاعتها. فما كاد على بن بويه يعلم بمسير وشمكير إليه، حتى قصد مدينة أرجان الكبيرة (بهبهان الحالية) وتقع على بعد ستين فرسخا من كل من شيراز والأهواز، فاستولى عليها بدون قتال، لأن صاحبها أبو بكر بن ياقوت لم يأنس من نفسه قوة للوقوف أمام ابن بويه الذي ألحق الهزيمة بوالى أصفهان، وانسحب إلى الجنوب ليستطيع الانضمام إلى غيره، وليستطيع بعد ذلك مواجهة زحف على بن بويه، أما ابن بويه فقد استخرج خراج أرجان الذي بلغ ألف درهم. في حين دخل وشمكير أصفهان فملكها، لكنه لم يهنأ بها، إذ أن الخليفة القادر أرسل إليه أن يتركها لواليه محمد بن ياقوت، فتركها بعد أن تلكأ في خروجه منها^(١).

مكث على بن بويه في أرجان مرة من الزمن، طلبا لراحة جنده، وجمع بعض المال من الناس، ثم خشى أن يجتمع عليه مرداويج وشمكير فاستمر في انسياحه مع قواته نحو الجنوب، فاستولى على (النوبندجان) وهي مدينة كبيرة تقع بين أرجان وشيراز، دون قتال كبير، بسبب جبن واليها عن مقاومته، أو حتى مساندة قوات آل ياقوت التي وصلت من فارس للتصدي لعلي بن بويه. وهكذا وصل على بن بويه من الكرج إلى النوبندجان دون أن يحارب إلا مرة واحدة في معركة كبيرة، فقد كان يقتصد في خوض المعارك ما أمكن، وهذا يعطينا صورة، كما يذكر الدكتور أحمد الشريف عن رجل سياسى، يستعمل الحكمة أكثر مما يستعمل السيف، فمع كونه قائدا لم يكن يتعجل القتال، وكان يفضل التريث

(١) مسكويه، تجارب الأمم، ح ١، ص ٢٩٧ - ٢٩٨، ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٤٩١، حسن محمود، أحمد الشريف، العالم الإسلامى، ص ٥٠٦.

والسياسة^(١). ثم بدأ بعد ذلك يستعد للزحف نحو شيراز، فاستولى أولاً على مدينتي كازرون، غرب شيراز، واصطخر، ليقطع شيراز عن المنطقة الشرقية، وليجبي الأموال منهما لينفق في عسكره، ثم تقدم نحو شيراز فلقى جيش المظفر بن ياقوت عند قنطرة شيراز، ف وقعت بينهما موقعة كبيرة (موقعة القنطرة) في عام ٣٢٢ هـ، فانهزم صاحب شيراز، وفر إلى واسط، واستسلمت المدينة فاستقر بها علي بن بويه واتخذها قاعدة له. ويمدح ابن خلدون معز الدولة بن بويه حيث أبلى في ذلك اليوم بلاءً حسناً، فكان من عوامل النصر^(٢).

وهكذا استقر المهاجرون الديلم النازحون من الشمال إلى الجنوب بعد عامين في مدينة شيراز. فعلى الرغم من أنهم فتحوا بلاداً ومدناً كثيرة، إلا أنهم مروا بها دون أن يتركوا بها حامية، ودون أن يخضعوها خضوعاً تاماً. حتى بلغوا شيراز، وشعروا فيها بالأمن، فاستقروا فيها واتخذوها قاعدة، وكان اختيارهم لهذه القاعدة ينم عن بُعد نظر سياسي وحربي سليم^(٣).

تقدم مرداويج بسرعة إلى أصفهان من الري وأعاد أخاه إليها ليحفظها، وتقدم بنفسه لقتال علي بن بويه. وكان علي بن بويه ومرداويج يفتحان البلاد في هذه الآونة باسم الخليفة العباسي في الظاهر، ولكن في باطن الأمر كان كلاهما يهدف إلى تكوين دولة خاصة به والاستيلاء على خراج المدن وتحميل الخليفة بأمره، لأنه لم يعد للخليفة قدرة

(١) حسن محمود، أحمد الشريف، العالم الإسلامي، ص ٥٠٦.

(٢) مسكويه، تجارب الأمم، ح ١، ص ٢٩٧ - ٢٩٨، ابن الأثير، الكامل، ح ٨، ص ٩٣،

٩٥، ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٤٩١، ٣٩٢، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص

٣٥٤، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ح ٣، ص ٤٢.

(٣) حسن محمود، أحمد الشريف، نفس المرجع، ص ٥٠٧.

عسكرية أو سياسية يؤبه بها وكان لا فوت له من أن يحكمه أمير أو قائد غالب. وهاجم مرداويج الأهواز ليقطع الطريق على علي بن بويه الذي كان يريد الخليفة وبغداد وليجعل دار الخلافة تحت تهديده الدائم. ولكن الخليفة الذي لم يكن راضيا على أي من هذين الندين أفد قائده ابن ياقوت ليدفع مرداويج ، غير أن الأخير استطاع الانتصار على ابن ياقوت وكاتبه أبو عبد الله البريدي، وملك الأهواز (١).

ومع أن مرداويج كان تمكن من إسترداد رامهزمز والأهواز في شوال (٣٢٢ هـ) لكنه ظل عاجزا أمام جند الخليفة ولم يستطع التقدم إلى العراق. غير أن طموح علي بن بويه السياسي، وتطلعه إلى أن يصبح متقلدا من قبل الخلافة العباسية على ما تحت يده من أملاك، أدى إلى تجدد الصراع من جديد بينه وبين مرداويج الزيارى. فالروايات التاريخية تذكر أن عليا بن بويه نال تقليد الخلافة لحكم البلاد التي كانت تقع تحت سيطرته مقابل مبلغا كبيرا من المال، فأصبح بذلك واليا شرعيا، وأمن جانب الخلافة، وأتباعهم آل ياقوت الذين كانوا يتحفظون لاسترداد ما اغتصبه منهم. فعظم شأنه في فارس وبلغ مرداويج خبره فخاف غائلته وسطوته، فحشد قواته وأرسلها إلى أصفهان دون أن تشعر بها قوات بني بويه، ثم أرسل مدداً جديداً، واتجهت هذه القوات نحو الجنوب بعد أن قسمت نفسها قسمين لتحصر بينها عليا بن بويه في شيراز. فلما علم الخليفة العباسي بتقدم قوات الزياريين، شعر بخطورة الموقف على أملاكه، فأرسل جيشا بقيادة ابن ياقوت ليردها، فأصبح مرداويج بذلك معرضا لسخط الخليفة والوقوع في حروب مع جنده، ومن ثم يتحول من الولاة المتقلدين إلى الولاة العصاة المتغلبين. وفي ذلك الحين كان علي بن بويه يعمل على

(١) ابن الأثير، الكامل، ح ٨، ص ٢٨٦، ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٤٩٢.

كسب رضا مرداويج الذي كان يلاحقه منذ أن خرج من الكرج إلى أن استقر في شيراز، فانتهاز تأزم العلاقات بين مرداويج والخلافة العباسية، وتملق سيده القديم، وعرض عليه في مرونة سياسية أن يدخل في طاعته، وأن يكون ما بيده تابعا للدولة الزيارية، ويخطب على منابر أعماله لمرداويج، فرحب مرداويج بهذا العرض. واشترط أن يرسل على بن بويه أخاه الحسن إلى مرداويج ليكون رهينة عنده على الوفاء، فقبل على بن بويه هذا الشرط وأرسل أخاه الحسن كرهينة إليه محملا بالهدايا النفيسة والطرف^(١). وبهذا العهد الذي أعطاه على بن بويه لمرداويج، أمن على حدود دولته وأصبح مركزه قويا، وقصده الرجال من كل ناحية من نواحي الديلم^(٢).

مقتل مرداويج (٢٢٣ هـ):

لم يكن مرداويج مثل أخيه وشمكير وسيده الأول أسفار بن شيرويه، في الأصل مسلما، أو قبل الإسلام في الظاهر، لكنه كان متعلقا في الباطن بالآداب الإيرانية القديمة ومراسيم المذهب الزردشتي. لهذا كان شديد الكره للخليفة العباسي وولاته العرب. وكان يهدف إلى احياء دولة الساسانيين الخالية، وتخريب بغداد وتعمير المدائن وعمائر الملوك الإيرانيين وإدالة الأسرة العباسية، وفي ذلك يقول الإمام السيوطي أن مرداويج كان "مسالم لصاحب المجوس، وكان يقول: أنا أرد دولة العجم، وأمحق دولة العرب"^(٣). ولهذا فقد توج نفسه بتاج مرصع كما كان يفعل

(١) مسكويه، تجارب الأمم، ج ١، ص ٣٠٢، ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ٩٨، عباس إقبال، تاريخ إيران، ص ٤٠.
(٢) حسن محمود، أحمد الشريف، العالم الإسلامي، ص ٥١٠.
(٣) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٣٥٧.

أنوشيروان، وكان يجلس على عرش ذهبي ويقف عسكره صفوفًا بالبعد عنه، ولا يخاطبه أحد إلا الحجاب الذين قد رتبهم لذلك^(١). وينفق كثيرا في إقامة الأعياد القومية الإيرانية. وفي شتاء عام (٣٢٣هـ) حينما كان في أصفهان أمر في ليلة عيد النور^(٢). أن يجمع وقود كثير وأسباب الاضاءة واشعال النيران على شاطئ نهر (زانيده)، وأن يقام احتفال واحتفاء عظيمان يليق بهذا العيد القديم ويجدر بمثل ملكه. وقبل إقامة مراسم هذا الاحتفال بيوم انشغل مرداويج بتقصي الاعداد له، فوجد أنه لم يعد له الاعداد الكافي فأخذته العزة بالإثم وأراد البطش بمن عهد إليهم بذلك. فخشى رؤساء الجيش على أنفسهم وخافوا سفكه دمهم واعتزموا الثورة عليه قبل أن يوقع بهم انتقامه ويتخلصون منه. لكن الحسين بن محمد أخذ هذه الفتنة. وبعد هذا بأيام أربعة حرض مرداويج جنده الديلم على ضرب غلمانه من الترك وتأديبهم لسخطه عليهم وهددهم بالقتل، لأنه لم يصف يوما للأتراك وكان يسميهم بالشياطين ويبدى كرهه لهم.

فتأمر الغلمان الترك على قتله لكي ينجوا منه، وانتهزوا ذهابه للحمام يوما وأمر رئيس حراسه لغضبه منه أن يدع حراسته له فهاجموه

(١) أبو الفداء، المختصر، ج ٢، ص ٧٣. يسميه الفرس (جشن سده) يحتفلون ليلته باشعال النيران باللوز والجوز ويشربون الخمر حولها ويطربون ويلهون، ويقع في شهر بهن وهو الشهر الحادي عشر من السنة الشمسية الإيرانية، يقع في اليوم العاشر فيه. أما الاحتفال باشعال النور فيحدث ليلة اليوم الحادي عشر، وسبب تسمية (سده) أي المنوى أنه يقع قبل النيروز بخمسين يوما وخمسين ليلة، وسبب الاحتفال به في عقيدتهم أن أفرويدون في حربته للضحك كما في شاهنامه الفردوسي الشهيرة أمر الناس باشعال النيران على أسطح منازلهم ليلا لكي يتحقق من أن وزير الضحك المسمى (ارمانيل) كان ينفذ نصف الشباب المعينين للقتل لكي يدهن الضحك كتفيه بأمخاضهم فتهدا الحيتان النايتان على كتفيه ولا تؤذيها إذا أصابتا من هذا الدهن (عن أعياد الفرس راجع: كتاب البيروني (التفهيم لأوائل صناعة التنجيم)، ص ٢٥٣ - ٢٦١، طبعة عام ١٣١٨ هـ. نشر بإيران تصحيح جلال هماني).

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ٢٨٦، ابن خلدون، العبر، ج ٣، ص ٤٩٢.

في الحمام وقبضوا عليه وقتلوه، ثم نهبوا قصره وما به من أثاث وهربوا إلى أصفهان خوفا من الجنود الديالمة وترتب على مقتله أن تفرق كثير من جند الديلم، واتجهوا مهاجرين نحو الجنوب، والتحق بعضهم بخدمة بني بويه في شيراز وكان ذلك في عهد الخليفة العباسي الراضي بالله^(١). وتجدر الإشارة إلى أن بعض المؤرخين الإيرانيين قد ركزوا على فترة حكم مردوايغ بن زيار، واعتبروها ذات أهمية سياسية في تاريخ الفرس، لأحيائه الرسوم الملكية الفارسية، واعتزازه بها.

ولاية وشمكير بن زيار (٣٢٣ - ٣٥٧ هـ):

(وشمكير) صفة للوشم الذي وضعه هذا الرجل على يده، حيث وشم على ذراعه صورة طائر صغير فعرف بوشمكير. وبعد قتل مرداويج تحول الجند الجيليون والديلم من أصفهان إلى الري وبايعوا أخاه وشمكير، كما أن الديالمة بخوزستان أخلوها له وأسرعوا إليه، وسنحت بهذا الفرصة للحسن بن بويه أخى على وكان مقيما بالأهواز في ذلك الوقت كرهينة، ففر من حبسه ولحق بأخيه في فارس. ولما سمع الأمير نصر بن أحمد الساماني بخبر قتل مرداويج الذي كان يعتبر دائما ندا خطير له، سُر وعزم على استعادة جرجان وطبرستان والري تلك المدن التي كانت تحت سلطان السامانيين في عهد الأمير إسماعيل، وخرجت عن أيديهم في حكم الناصر الكبير وأسفار ومرداويج، فأصدر أوامره إلى حاكم خراسان الأمير محمد بن مظفر بن محتاج الجفاني، وما كان بن كاكى الذي يعيش في كرمان متواريا، أن يهاجم قومي الري وجرجان (كان

(١) ابن الأثير، الكامل، ح ٨، ص ١٠٣ - ١٠٥، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ح ١، ص ٣٦٤، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٣٥٧ عباس إقبال، تاريخ إيران، ص ٤١ -

الأمير محمد الجفاني هذا قد استولى على كرمان كما سيأتي في تاريخ السامانيين) في عام (٣٢٢ هـ) وكان ماكان عاملهم هناك). وأسرع ماكان للسيطرة على الدامغان ولكن عامل وشمكير ويدعى بانجين الديلمي، هزمه وهزم جيش الأمير الجفاني أيضا فرجع ما كان إلى نيسابور وبقي فيها حاكما من قبل الأمير نصر.

كان لوشمكير خلاف الأمير نصر، عدو كبير هو علي بن بويه الذي رأى في آخر عهد مرداويج أن الصلاح يقتضى وقتذاك الصلح معه وأخذ ينتظر السانحة في فارس. ولما قتل مرداويج ونجا الحسن بن بويه أمده أخوه علي بجند وبعث به للسيطرة على أصفهان عندما بلغه أن وشمكير قد أنفذ عسكره مدداً لما كان بن كالي، وأن أصفهان خالية، فسار إليها من رامهرمز وأخرج من بقى منها من أصحاب وشمكير، وملكها واستقر بها^(١)، ثم توجه لفتح همدان والري وقزوین وقم وكاشان. واتخذ أباالفضل بن العميد وزيراً له^(٢). فاضطر وشمكير إلى استدعاء ما كان إليه وكان يقضى أيامه في نيسابور في حسرة الاستيلاء على جرجان وضياعها فولاه هذه الولاية. ويذهب الدكتور فتحى أبو سيف إلى أن وشمكير قد اقتنع على ما يبدو بضرورة مصالحة (ما كان بن كالي) ليفوت على السامانيين في خراسان استخدامهم أسلوب التفرقة بين قادة الديلم، فتنازل وشمكير عن جرجان، ثم عن سارية بطبرستان، ومنحهما لماكن بن كالي، فاستحكمت المودة بينهما، وخرج ماكان بن كالي على طاعة

(١) ابن خلدون، العبر، ج ٣، ص ٥٠٦.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٣٦٤، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج ٣، ص ٤٣.

السامانيين^(١). وفي هذه الأثناء تملك علي بن بويه علي خوزستان وأجبر وزير الخليفة علي أن يترك له الجند المقيم بالبصرة ليحارب بهم وشمكير ويرسل منهم مددا لأخيه الحسن بأصفهان ويفسر بعض الباحثين تحول علي بن بويه من مهادنة الدولة الزيارية، إلى الطمع في أملاكها، في عهد وشمكير بتنافي قوة الطرفدار الجيد (علي بن بويه) التي أصبحت تعادل قوة الزياريين (الطرفدار القديم)، لا سيما وأن بينهما مسافة خاضعة لخلافة تفصل بين أراضيها. كما أن وشمكير كان أقل قدرة من أخيه مرداويج، كما كان يواجه صعوبات سياسية تحول بينه وبين فرض التبعية على الديلم، كما كان الحال في عهد مرواويج^(٢). ولو أراد فعلا تنفيذ هذه التبعية، لما استطاع بسبب قوة علي بن بويه، فالفريقان متساويان في القوة، كذلك لم يكن لدى ابن بويه ما يجعله يلين في معاملة الزياريين، كما كان يمكن أن يلين لو كان تعامله مع أئمة الزيدية فالزياريين في نظر علي بن بويه ينقصون عن الإمامة الزيدية شيئا هاما هو لهيبة الروحية^(٣). وفي عام (٣٢٧ هـ) استخلص وشمكير أصفهان من يد الحسن بن بويه الذي هرب إلى اصطخر ثم استطاع الأمير الزياري فتح قلعة (الموت) وزادت قوته وشوخته^(٤).

(١) فتحى أبو سيف، خراسان، ص ١٢٣-١٢٤.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ١٠٥، ١١٤.

(٣) حسن محمود، أحمد الشريف، العالم الإسلامي، ص ٥١٣.

(٤) عباس إقبال، تاريخ إيران، ص ٤٣.

قتل ما كان (٣٢٩ هـ):

ساء الأمير نصر الساماني نكران ما كان لجميله وتركه له وذهابه إلى عدوه وشمكير، فأنفذ أبا علي أحمد بن الأمير محمد ابن محتاج في (٣٢٨ هـ) لتأديبه والسيطرة على جرجان، وحاصر الأمير ابن محتاج ماكان في هذه المدينة فسير وشمكير (شيرج) أخا (إيلي بن النعمان) من الري مددا لما كان، ولكنه بدلا من مناصرة ما كان علي أبي علي بن محتاج توسط بينهما، فاشتراط أبو علي أخذ جرجان لكي يصرف نظره عن أسر ماكان. والتجأ ما كان بطبرستان.

وبينما كان وشمكير حزينا علي ذهاب جرجان، توأطأ الحسن بن بويه وأخوه مع أبي علي بن محتاج، فاستفادوا من أن وشمكير وجه أغلب جنده لمقابلته، فاستصفوا أصفهان واستأسروا جمعا من قواد وشمكير. وبعد أن أخذ أبو علي بن محتاج جرجان عهد إلى (إبراهيم بن سيمجور) بحكمها وأتى الري في بداية ربيع الأول من عام (٣٢٩ هـ) وكان يغرض هو وأبناء بويه إلى الأتباع علي وشمكير واستخلاص الولايات التي فتحها مردأويج في مدة عشرة أعوام منه. وهكذا وقع وشمكير بين فكي كماشة فلم يجد بدا من الهروب إلى الري ليعاونه ماكان، بينما كان أولاد بويه قد اقتربوا من حدود الري قادمين من أصفهان بعون من أبي علي بن محتاج. واشتعلت الحرب بين الفريقين في الري في ٢١ من ربيع الأول من عام (٣٢٩ هـ) ولم يفد ماكان استبساله شيئا إذ كانت الغلبة من نصيب أبي علي بن محتاج والحسن بن بويه. وانتهى أمر ماكان إلى القتل. وركن وشمكير إلى الفرار إلى طبرستان، ودخل أبو علي الري وبعث برأس ماكان وأسرى كثيرين من الديلم إلى بخارى حيث يوجد الأمير نصر

الساماني، وطلب من كاتبه صياغة رسالة مختصرة لارسالها للأمير الساماني بشأن انتصاراته، فكتب له الكاتب عبارة حازت على إعجاب الأمير الساماني وهي "أما ما كان قد أصبح كاسمه". ثم مد سيطرته إلى زنجان وأبهر وقزوین وقم والكرج وهمدان ونهاوند والدينور، وأوصل حدود الدولة السامانية حتى حلوان^(١).

ولما وصل خبر مقتل ماكان إلى (ساری) ثار ابن عمه (حسن بن فيروزان) بحجة أن وشمكير تسبب في قتل ماكان في حرب الري عمداً، لكنه غلب على أمره مع حربته مع شيرج بن ليلى، فالتجأ بأبي علي بن محتاج بالعراق وحثه على ضم طبرستان. فبدأ أبو علي بحصار ساری لكنه لم ينل منها شيئاً بسبب قسوة شتائها ومقاومة وشمكير، وفي النهاية طب وشمكير الأمان ووافق علي أن يخطب للأمير نصر الساماني من ذلك الوقت فصاعداً. وفي أواخر سنة (٣٣٠ هـ) صالح أبو علي وشمكير وتحرك إلى بخارى مصطحباً معه سالار ولد وشمكير كرهينة، ولم يكد يصل خراسان حتى وصله خبر موت الأمير نصر الساماني^(٢).

علاقة وشمكير ببني بويه:

رافق حسن بن فيروزان أبا علي بن محتاج في عودته إلى بخارى، وفي أثناء الطريق انقض على معسكر أبي علي وهرب راجعاً إلى خراسان بأسلاب عظيمة وبابن وشمكير (سالار). ثم أخذ جرجان والدمغان وسمنان، ولم ير عامل السامانيين في جرجان إبراهيم بن سيمجور غير

(١) ابن الأثير، الكامل، ح ٨، ص ٥٦، أبو الفداء، المختصر، ح ٢، ص ٨٨، عباس أقبال،

تاريخ إيران، ص ٤٤.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ح ٨، ص ١٤٢، فتحى أبو سيف، خراسان، ص ١٢٦ - ١٢٧.

مصالحته حلا. وانتهز وشمكير الفرصة أيضا فاستعاد الري ، بينما أرسل حسن بن فيروزان ابنه سالار إليه وقبل طاعته.

وحدث الحسن بن بويه حليف أبي علي بن محتاج خطأ لاستخلاص الري من قبضة وشمكير الذي انهزم أمامه إلى طبرستان، وفر منها إلى خراسان، فأطبق الحسن بن بويه على طبرستان، ودخل حسن بن فيروزان في طاعته، وزوجه بابنته التي ولدت له فخر الدولة الديلمي.

وكان وشمكير يهدف من فراره إلى خراسان أن يستمد الأمير نوحا بن نصر الساماني وقائده المعروف أبا علي بن محتاج. فأمدّه الأمير الساماني بأبي علي هذا و(منصور بن قراتكين) لفتح الري، لكنهما لم يستطيعا الصمود أمام الحسن بن بويه. غير أن وشمكير نجح في اخراج جرجان عن يد حسن بن فيروزان في صفر من (٣٣٣ هـ) وإن لم يستطع الحفاظ عليها طويلا، بل اضطر إلى الهروب إلى خراسان بحماية من منصور بن قراتكين^(١).

وكان هذا الموقف وراء خروج الأمير نوح الساماني إلى جرجان لقتال حسن بن فيروزان والحسن بن بويه، لكن حاكم طوس (أبا منصور محمد بن عبد الرزاق الطوسي) الذي جمعت باسمه أول شاهنامه نثرية، ولهذا فإنه يذكر بالخير في تاريخ الأدب الفارسي^(٢) ثار على نوح وتحالف

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ٦٢
(٢) صار قائد جيش خراسان من قبل أبي بن محتاج نحو عام (٣٣٥ هـ) أول أمره،
وحيثما فكر في محالفة ركن الدولة الديلمي لضرب وشمكير بن زيبار، عرف الأخير
بأمره فُدس إليه السم فمات (٣٥٠ هـ). وشهرته الأدبية تفوق شهرته السياسية لأنه
أمر أبا منصور المعمرى وزيره بتدوين أخبار الملوك الفرس السابقين بما يسمى
الشاهنامه، فاستقدم هذا الوزير علماء خراسان والعالمين بالتاريخ وأنجزوا هذا
العمل عام (٣٤٦ هـ). وقد صارت هذه الشاهنامه المصدر الرئيسي الذي استقى منه
الفردوسي الشاعر الفارسي الشهير (توفي عام ٤١١ أو ٤١٦ هـ) شاهنامته
الشعرية، وكذلك الشاعر الفارسي الدقيقي (متوفى نحو ٣٦٥ هـ) من قبله.

مع آل بويه. فتحول نوح إليه أولا فهرب أمامه إلى الرى محتفيا بحلفائه. وأكرمه ابن بويه ووجه إلى آذربيجان لحرب أحد أمراء آل مسافر.

وفى عام (٣٣٦ هـ) استخلص منصور بن قراتكين طوس ونيسابور من أيدي أتباع أبي منصور الطوسى واستأسر أمه وبعض أتباعه وأرسلهم إلى بخارى. وفى نفس العام أخرج الحسن بن بويه وصهره حسن بن فيروزان وشمكير مرة ثانية عن طبرستان وجرجان، فلقا الأمير الزيارى هذه المرة بآل سامان فى خراسان ليستمدهم.

ومن هذا التاريخ حتى نجاح فتح الحسن بن بويه فى طبرستان للمرة الثانية فى (٣٤٢ هـ) ، حدث صدام كثير بين آل بويه والقواد السامانيين الذين كانوا يقدمون لعون وشمكير، فقد أرسل الأمير نوح ابن نصر السامانى قائد جيوشه أبى على بن محتاج إلى الرى، فنسقى ابن محتاج مع وشمكير بن زيار خطة حربية، وسارا معا تجاه الرى التى كان يحكمها ركن الدولة البويهى، والذى فضل أمام ما رآه من ضخامة جيشهما، أن يتحصن بقوته فى قلعة طبرك - طبره - الحصينة واستمر الحصار طويلا، وكان النصر للطرفين سجالا إلى أن تصالح أبو على مع ركن الدولة البويهى^(١) فى الرى وانتهزها البويهى فرصة لكى يزيع وشمكير نهائيا عن طبرستان وجرجان. ففر وشمكير هاربا إلى خراسان مرة أخرى، وإتهم أبى على بن محتاج أمام الأمير نوح بالتحالف مع البويهيين، وذلك لأن الخراسانيين تخوفوا قرب الشتاء، وتهيّبوا سقوط الثلج عليهم، فوافقوا على الصلح. وتم الاتفاق بينهما على التزام ركن

(١) فى عام ٣٣٤ هـ استولى أحمد بن بويه على بغداد وحجر على خليفتها المستكفى، ولقبه الخليفة معز الدولة ولقب أخاه الحسن بركن الدولة وأخاه عليا بعماد الدولة، وسوف يذكر هؤلاء بالقابهم بعد هذا.

الدولة بدفع ٢٠٠ ألف دينار سنويا للأمير نوح مقابل رفع الحصار عنه، وترك الرى له، ولقى هذا الاتفاق القبول عند ابن محتاج الذى فضل العودة إلى خراسان. ولقد عارض الأمير السامانى هذا الاتفاق. ويرى الدكتور فتحى أبوسيف أن وشمكير - وكان قد عارض هذا الاتفاق - قد لعب دوراً فى معارضة الأمير نوح السامانى لهذا الصلح، ويستند فى ذلك على رسالة احتفظ بها ابن مسكويه، أرسل بها وشمكير إلى الأمير السامانى، بين له فيها أنه كان بالإمكان دحر قوة ركن الدولة وهزيمته، لولا تخاذل ابن محتاج ومما لآته للبويهيين، فعزله نوح عن حكم خراسان، فعصى أبو على وأعلن امارته على نيسابور^(١). فحول نوح إليه وشمكير ليزيله، فاتجه مضطراً إلى ركن الدولة. فصحبه ركن الدولة إلى جرجان التى كان يحكمها وشمكير باسم السامانيين، فحاصره ركن الدولة فى مدينة سارية بطبرستان، مما جعله يلوذ بالفرار منها^(٢). ولكن هذا الحال لم يدم، لأن بمجرد عودة ركن الدولة استولى وشمكير على جرجان بعون الخراسانيين، حتى جعل ركن الدولة وشمكير فى النهاية يختفى فى جيلان (٣٥١ هـ) فعادت إلى طاعته طبرستان وجرجان من جديد.

وفاة وشمكير الزيارى (٢٥٧ هـ / ٨٧٦ م):

وخلال هذا الصراع أخرج البويهيون ولاية كرمان أيضاً عن يد أميرها (أبى على بن الياس)، فقصد أبو على الأمير منصور بن نوح السامانى فى بخارى، وشجعه على تملك ولايات آل بويه، فوجه الأمير

(١) مسكويه، تجارب الأمم، ح ٢، ص ١٥٤ - ١٥٧، فتحى أبو سيف، خراسان،

ص ١٢٩ - ١٣٠.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ح ٨، ص ٢٠٧، ٢٠٨.

الساماني إلى الري جيشا كثيفا يقوده كل من وشمكير وأبو الحسن سيمجورى. ويبدو أن الدافع الذى دفع الأمير الساماني لاعطاء القيادة لوشمكير، ما وصله من معلومات عن تهاون نوابه فى خراسان، وعدم جديتهم فى محاربة البويهيين، كما حدث من قبل مع ابن محتاج. ويذهب الدكتور فتحى أبو سيف إلى أن الأمير الساماني ربما أراد استغلال رغبة وشمكير فى قتال البويهيين الذين قضوا على سلطانه فى جرجان وطبرستان، وقد اتضح ذلك فى الرسائل المتبادلة بين وشمكير وركن الدولة، التى هدده فيها وشمكير بالأفظار جارحة، حتى أن كاتب ركن الدولة كان يستحى من قراءة هذه الألفاظ والتهديدات^(١).

ولقد طلب ركن الدولة المدد والمساعدة من جميع أفراد الأسرة البويهية، فقدم إليه ابن (بناه خسرو) المعروف بعضد الدولة ابن أخيه باختيار الذى لقب فيما بعد بعز الدولة، ولكن قبل أن يلتقى الجيشان ببضعة أيام خر وشمكير فى (أول المحرم من عام ٣٥٧ هـ / ٩٧٦ م) من على جواده بينما كان يصطاد فلقى حتفه. وانفرط عقد جيشه ونجا الحسن بن بويه من هذا الخطر الداهم.

ولاية بيستون بن وشمكير (٢٥٧-٣٦٦ هـ):

بعد موت وشمكير خلفه فى الإمارة الزيارية ابنه الأكبر أبو منصور بيستون الذى كان بطبرستان فى ذلك الوقت لكن كبار أتباعه الذين رافقوا جيش السامانيين بايعوا أخا وشمكير الأصغر وهو (قابوس). وانحاز أبو الحسن سيمجورى إلى قابوس أيضا. فركن بيستون إلى حماية

(١) مسكويه، تجارب الأمم، ح ٢، ص ٢٣٢ - ٢٣٤ ابن الأثير، الكامل، ح ٨، ص ٢٠٨، ابن كثير، البداية والنهاية، ح ١١، ص ٢٦٣، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ح ٣، ص ١١٠ - ١١١، فتحى أبو سيف، خراسان، ص ١٣١ - ١٣٢.

ركن الدولة الذي ملكه طبرستان، وتزوج ركن الدولة بابنته التي ولدت له
عضد الدولة. واستولى قابوس بعون السامانيين على جرجان. ودام هذا
الحال حتى عام (٣٦٦ هـ) حين مات بيستون واستقل قابوس في ملكه
لكن لم يبق له من جميع البلاد التي فتحها جده مردأويج غير جرجان
وقسم من طبرستان، وكان يحيا فيها في واقع الأمر تحت حماية
السامانيين. وقد لقب المطيع الخليفة العباسي بيستون في (٣٦٠ هـ)
بظهير الدولة، بأمر من عضد الدولة، وأصدر أمره بأن يحكم جرجان
وطبرستان رسميا (١).

ولاية شمس المعالي قابوس بن وشمكير (٣٦٦-٤٠٣هـ):

مات ركن الدولة في نفس العام الذي تولى فيه قابوس، وقسمت
بلاد بين أبنائه الثلاثة عضد الدولة ومؤيد الدولة وفخر الدولة فصارت
فارس وكرمان لعضد الدولة ومؤيد الدولة. وهمذان وجزء من عراق
العجم لفخر الدولة.

وفي عام (٣٦٩ هـ) طمع عضد الدولة ومؤيد الدولة في ملك
أخيها فخر الدولة واستخلصا منه بالفعل همذان. فلجا فخر الدولة إلى
حماية قابوس في جرجان، حيث كانت تربطهما صلة قرابة (٢). فاستقبله
بحفاوة وكرم ووعدده أن يقوم لنجدته ويسترد له ملكه من أخويه. وعند
ذاك أرسل عضد الدولة ومؤيد الدولة إلى قابوس أن يترك فخر الدولة
الري إليهما مقابل خراج عام، فرفض قابوس هذا الاقتراح واعتبر قبوله
مخالفا للضيافة والمروءة وأغلظ لهما في رده، وأصبح هذا الرد العنيف

(١) عباس إقبال، تاريخ إيران، ص ٤٧.

(٢) أبو الفداء، المختصر، ج ٢، ص ١٢١ - ١٢٢.

ذريعة لغزو أخوى فخر الدولة طبرستان وجرجان. ولما لم يستطع قابوس المقاومة، هرب بعد حرب قصيرة هزم فيها بالقرب من (استراباد) إلى خراسان في جمادى الآخرة من (٣٧١ هـ) ولحق به فخر الدولة وخرجت عنهما جرجان وطبرستان واللذان سقطتا في أيدي عضد الدولة وأخيه مؤيد الدولة.

وكانت حكومة خراسان وإمارة جيشها في هذا الوقت لحسام الدولة أبي العباس تاش من طرف السامانيين، وقد صدر إليه أمر نوح بن منصور باعادة قابوس وفخر الدولة إلى بلادهما آمنين. فوجه أبو العباس تاش أحد أعوانه ويسمى (فائق الخاصة) إلى قومس واتجه هو إلى جرجان وحاصر فيها مؤيد الدولة واستمر حصاره لها شهرين لكنه لم يستطع دخول المدينة بالرغم من انضمام فائق إليه. وفي النهاية تواضع مؤيد الدولة مع فائق وجنده، بعد أن دفع له رشوة طائلة، على أن يهربوا جميعا في أول بداية القتال. وخرج مؤيد الدولة من جرجان في رمضان من (٣٧١ هـ) وحمل على جند تاش وقابوس وفخر الدولة. ولما انسحب فائق وأصحابه بناء على الاتفاق، ولم يستطع تاش وقابوس وفخر الدولة الثبات، ولوا وجوهم منهزمين إلى نيسابور، ولم يحقق الجيش الساماني شيئا. واستمر قابوس في حالة من التشتت بسبب تردى الوضع الداخلى للبلاد الساماني والمنافسة الشديدة بين حسام الدولة تاش وفائق الخاصة، ورؤساء الأسرة السيمجورية حتى عام (٣٨٨ هـ)، ونتيجة لهذا بات قابوس بعدما حكم أربعة أعوام (٣٦٦ - ٣٧١ هـ) محروما من

الإمارة مدة سبعة عشر عاما (٣٧١ - ٣٨٨ هـ) بعيدا عن ملك أبيه يعيش في حماية آل سامان في خراسان^(١).

أما فخر الدولة بن بويه فلما مات أخوه عضد الدولة في (٣٧٢ هـ) وأخوه مؤيد الدولة في (٣٧٣ هـ) قدم الري بدعوة صاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة^(٢) وخلف أخاه وسلك غير سبيل المروءة خلافا لقابوس، فبدلا من أن يساعده في وصوله إلى حكمه الضائع، أناب أبا العباس تاش الذي تحول عن السامانيين واحتفى به في حكم جرجان. وكان المانع في عودة قابوس إلى جرجان والذي صرف فخر الدولة عن هذا الأمير هو وزيره صاحب بن عباد الذي لم يكن على صفاء مع قابوس. وهكذا ظلت ولاية جرجان في يد عمال آل بويه حتى عام (٣٨٨ هـ)، وظل قابوس منتظرا بخراسان مؤملا في عون السامانيين وقواد جيشهم.

وبعد موت صاحب بن عباد في عام (٣٨٥ هـ) ووفاة فخر الدولة في سنة (٣٨٧ هـ) ظهر في أحوال ديالمة العراق الضعف التام وتولى أمرهم ابن فخر الدولة الأصغر (مجد الدولة أبو طالب رستم الذي لم يتجاوز الرابعة من عمره). فأفاد قابوس من هذا الوضع، ولما كان يائسا من عون آل سامان الذين صاروا فريسة الهرج والمرج والضعف الشديد، انتوى أن يستعين برفاقه الديلم والطبريين ويستعيد جرجان من عمال آل بويه بنفسه. وكان أول من تصدى لعون قابوس هو الاسبهد شهريار بن

(١)

عباس إقبال، تاريخ إيران، ص ٤٨، فتحى أبو سيف، خراسان، ص ١٣٤ - ١٣٤.

(٢)

الصاحب بن عباد المتوفى عام (٣٨٥ هـ) من رجال وكتاب البويهيين وكان من أهل الطالقان. لحق في شبابه بخدمة ابن العميد وزير لمؤيد الدولة البويهى. ويشتهر أكثر من السياسة بعلمه وأدبه وحديثه بأهل العلم والأدب والفضل، وكان لا يقل عنهم إن لم يزد تمكنا في علوم الأدب. وكان له مكتبة ضخمة بلغ عدد ما فيها أن ملأ عشرة مجلدات، ومن آثاره كتاب المحيط في علوم اللغة العربية.

شروين من رؤساء طبرستان، ويفضل هذه المساعدة تمكن بسهولة من أن يتغلب على أخى زوج فخر الدولة وهو (رستم بن مرزبان) خال مجد الدولة وأخى (سيدة خاتون) أمه. واستولى على (أمل) أيضا اثنان من أتباع قابوس ثم أطبقا على استرآباد. وسعى فيروزان بن حسن بن فيروزان المعروف مرارا أن يستعيد استرآباد لآل بويه من أتباع قابوس ولكنه أصيب بالفشل فى كل مرة ومزقت جيوش الدولة شر ممزق. ونتيجة لهذا فتحت جرجان أيضا، وعاد قابوس فى شعبان من سنة (٣٨٨هـ) بعد سبعة عشر عاما من الفراق إلى عرشه بدعوة من أتباعه^(١).

وزحف مجد الدولة بجيشه يعزم استعادة طبرستان وجرجان من قابوس مرتين، لكنه أدرك فى النهاية أنه ليس كفواله، فاضطر إلى مصالحته، خاصة وأن أخا فيروزان وهو نصر بن حسن الذى كان يحكم قومس من جانب الديالمة قبل عودة قابوس، ثم طرده عنها أتباع قابوس، قد سلك طريق العصيان ونهب أموال الرعية والظلم والجور وتسبب بذلك فى إشعال فتنة كبرى، وكان مجد الدولة يود أن يدفع شروره بيد قابوس. وهرب إلى قهستان خوفا من مجد الدولة وضم إلى جانبه أبا القاسم سيمجورى وحثه على مهاجمة الرى وأتى به وبأتباعه إلى ضواحي هذه المدينة. لكنهما لقيا هزيمة فادحة من قابوس ففرا إلى السلطان محمود الغزنوى.

وقد وسع شمس المعالى فى فترة حكمه الثانية (٣٨٨ - ٤٠٣ هـ)، من دائرة ملكه فى ناحية الغرب، فقد استولى على رويان وجالوس

(١) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج ٣، ص ١١٢، عباس إقبال، تاريخ إيران، ص ٤٩ - ٥٠.

وجيلان وأتاب ابنه (منوجهر) فى حكمها. ولما زادت قوة السلطان محمود الغزنوى وشوكته فى هذا الوقت بسبب استيلائه على خراسان، شعر قابوس بالخطر المحقق بدولته، وسعى لإرضاء السلطان محمود الغزنوى، فقام بإرسال التحف والهدايا إليه وأظهر له الحب والإخلاص. ولكن هذا الصفو دام فقط حتى (٣٩٠ هـ). لأن فى هذا العام، على النحو الذى سوف يرد فى تاريخ السامانيين فيما بعد، تكدر الصفو بينهما بسبب ثورة الأمير المنتصر إسماعيل بن نوح السامانى على السلطان محمود، والتجأ الأول إلى قابوس الذى استقبله بالإكرام، ولم يعد الوداد كما كان إلا بعد أن خلص قابوس من اتحيازه إلى الأمير المنتصر ولم يسمح له بالقدوم إلى جرجان.

مقتل قابوس (٤٠٣ هـ):

كان قابوس رجلا فظا غليظا سريع الغضب يحكم بالقتل بسهولة، بل ويقتل بيده كل برئ لأدنى المظنة، لهذا تجرع من يديه جمع كثير مرارة الموت ورجفت قلوب المقربين إليه، واستقرت الضغينة فى صدور غالب قواد جيشه ورعيته له، إلى أن قتل حاجبه الخاص وكان رجلا مسالما وديعا - بة الجيش، فثار الجند وأحاطوا بمقامه فى قلعة (جناشك) - بين جرجان القديمة واستراياد- ولكنهم لم يتمكنوا من القبض عليه، فذهبوا إلى جرجان واستدعوا منوجهر ابنه من طبرستان وأفهموه أنه إذا لم يتحالف معهم فى عزل أبيه فسوف يجلسون غيره فى الحكم. فاستسلم منوجهر طوعا أو كرها وصاحب الجيش للقبض على أبيه فى بسطام حيث التجأ. وتلقى الأب والابن فى هذا المكان. واعتزل قابوس الحكم برغم اصرار ابنه على قبول أمره وإستعداده. لدفع شر الجند، ووافق قابوس أن

ينزوى فى قلعة جناشك، ولكن الجنود لخوفهم من عودته وانتقامه منهم، انتهزوا فرصة وقتلوه فى نفس القلعة فى عام (٤٠٣ هـ).

وكان شمس المعالى قابوس رغم شدته وفضاظته أشهر أفراد الأسرة الزيارية، لأنه كان رجلا فاضلا وكريما محبا للفضل ومشجعا للشعراء وأديبا حسن الخط، وكان دائم الاختلاط والمراسلة مع الفضلاء والعلماء فى عهده حتى فى أثناء غيبته فى خراسان وفقدانه للحكم، وكان كثير الانعام والاحرام لهم، فوصل صيت فضائله إلى الأطراف والأكناف. ومهر فى الشعر الفارسى والعربى، وكان بلاطه مجمع الفضلاء والشعراء الذين كان يغدق عليهم فى عيدى النيروز والمهرجان. ومن شعرائه المعروفين الحكيم أبو بكر محمد بن على الخسروى السرخسى، وأبو القاسم زياد بن محمد القمى الجرجانى اللذان مدحاه بالفارسية. وقد كثر الشعراء العرب والحاشية العربية عنده. وقد ألف العالم الجليل أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى كتابه الشهير (الآثار الباقية) فى عام (٣٩٠ هـ) باسم قابوس، وقصده من خوارزم حباله الحكيم والطبيب العظيم أبو على الحسين بن سينا، ولكن قبل وصوله جرجان سمع بخبر القبض عليه وقتله، فعاد آيسا إلى قزوين وهمذان فى حماية آل بويه^(١).

ولاية فلك المعالى منوچهر (٤٠٣ - ٤٣٣ هـ):

بعد مقتل قابوس خلفه ابنه منوچهر ولقبه القادر الخليفة العباسى (٣٨١ - ٤٢٢ هـ) بفلك المعالى وكان أول عمل له بعد توليه القبض على قتلة أبيه ومعاقبتهم. وكان لمنوچهر أخ اسمه (دارا) حكم طبرستان قبله،

(١) ابن خلکان، وفيات الأعيان، ح ١، ص ١٥٢ - ١٥٤، حسن إبراهيم حسن، تاريخ

الإسلام، ح ٣، ص ٣٩١، ٤٠٢، عباس إقبال، تاريخ إيران، ص ٥١ - ٥٢.

لجا إلى السلطان محمود الغزنوي في غزنة قبل قتل أبيه بفترة لسوء ظن
وقع بينهما، وكان يعيش في كنف الغزنويين أملا في الوصول إلى الحكم.
وقد لقي دارا هذا الحظوة والمكانة الرفيعة عند السلطان في أول الأمر،
ولكن محمودا الغزنوي تغير عليه لجفاء قوله في مجلسه فهرب إلى والي
الكرج. فأخبر السلطان واليها بخبره وطلب منه أن يسلمه إليه. فلما وصله
ألقى به في السجن، وإن عفا عنه بعد مدة، لأنه كان يريد أن يجعله آلة
لتنفيذ هدفه في السيطرة على جرجان وطبرستان بأن يصل به إلى
حكمهما. ولاح قتل قابوس للسلطان محمود الغزنوي فرصة مناسبة لاتمام
نيته، لكن منوجهر بادر بإرسال التحف والهدايا واعترف بسيادة سلطان
غزنة عليه وطلب ابنته ليتزوج بها. وأصبح هدف محمود واقعا عمليا
بسبب أن منوجهر كان قد نصبه الخليفة العباسي رسميا وقبل اطاعة
السلطان، فزوجه بابنته وعقدت بين الطرفين معاهدة مقتضاها قبول
منوجهر لتبعية السلطان محمود.

وفي عام (٤٢١ هـ) حينما مرض السلطان محمود مرض الموت
سير منوجهر لمسعود الغزنوي خلفه رسولا خشية أن يتحول بعد موت
أبيه عن عهده معه، ويجعل من دارا أخيه الذي كان يتوقع هذه الفرصة
ليستولى فيها على جرجان وطبرستان، السببة لتحقيق مقاصده، فتمكن
من تجديد العهد السابق مع الغزنويين، وبناء عليه لم يتعرض الغزنويين
إلى بلاده ما دام منوجهر حيا.

ولقد وقع بين فلك المعالي منوجهر ومجد الدولة الديلمي صاحب
الري خلاف مرتين، وكان منوجهر ينحاز إلى أعداء مجد الدولة عداء له،
لكن هذه الخلافات التي سوف يشار إليها في تأريخ أحداث البويهيين
والغزنويين، لم تؤد إلى حرب حاسمة وكان الأمر ينتهي دائما بالصلح.

ومع أن فك المعالى لم يكن فى مثل فضل أبيه شمس المعالى، لكنه سار على نفس سيرته، ونهج نهجه فى اجتلاب الفضلاء واکرام الشعراء، وكانت احدى مآثره ظهور الشاعر الفارسى الشهير (منوجهرى الداغنى) فى عهده، والذى اشتق تخلصه من اسم هذا الأمير الزيارى، ومنوجهرى الداغنى هذا هو أبو النجم أحمد بن قوص بن أحمد المنوجهرى الداغنى المتوفى (٤٣٢ هـ) وهو من كبار الشعراء فى القرن الخامس وعصر مسعود الغزنوى ممدوحه. وكان هذا الشاعر على وقوف تام بالأدبين العربى والفارسى وأفاد كثيرا من الأدب العربى معانى وأساليب وألفاظا نادرة. ويعد مبتكرا لفن الطبيعة والشراب. وفوق الأدب كان على دراية بالطب والنجوم وتقرأ الاصطلاحات كثيرا فى أشعاره^(١).

ولاية نوشيروان بن فلك المعالى (٤٢٣ - ٤٣٥ هـ):

مات فلك المعالى منوجهر بجرجان بعد جلوس السلطان مسعود الغزنوى على عرش أبيه بعامين، واشتهر أن خال فلك المعالى وهو باكاليجار كوهى بن ويهان [واسمه مركب من كلمة (أبو) العربية، وكلمة (كاليجار) الديلمية، ومعناها الحرب، وكأنما اسمه ترجمة لاسم أبو الهيجاء، وأبو الحرب العربيتين، وهذا اللقب كان متداول بين الديلم وتلقب به بعض بنى بويه، والسلاجقة] قائده ورئيس حجابيه قد سأل له السم حتى يؤول الحكم إلى باكاليجار، لأن منوجهر لم يكن له وارث غير ابن صبى اسمه نوشيروان.

أنفذ باكاليجار بعد موت منوجهر رسلا إلى السلطان مسعود الغزنوى، وطلب منه أن يعهد إليه بإدارة بلاد فلك المعالى، فقبل مسعود

(١) عباس إقبال، تاريخ إيران، ص ٥٣.

عرضه وتزوج بابنته بعد أن عقد معه معاهدة ، وقبض باكاليجار على زمام الأمور باسم نوشيروان الصبى^(١).

وفى الآونة التى خرج فيها مسعود الغزنوى إلى الهند مجاهدا (فى عام ٤٢٥ هـ) سلك باكاليجار سبيل العصيان وامتنع عن دفع الخراج السنوى وتحالف مع جماعة من أعدائه فى الرى وأصفهان. وتحرك السلطان مسعود فى ربيع الأول من (٤٢٦ هـ) صوب جرجان، ولما سمع باكاليجار بذلك أخذ معه نوشيروان بن فلك المعالى وتحصن بسارى، فاتاها مسعود بعد تسخيره جرجان واسترآباد، فغادرها باكاليجار مرغما ومعه نوشيروان إلى كجور وجيلان، وكان مسعود يسعى سعيا حثيثا للقبض عليه حتى انتهى إلى آمل.

وفى جمادى الأولى من هذا العام تغلب السلطان الغزنوى على جيش باكاليجار فى (ناتل) احدى قرى غرب آمل وأسر قائد عسكره. ثم أمر مسعود بتحصيل المال جزافا من أهل آمل فلما عجزوا عن تسديده أساء عماله وجنده معاملتهم وارتكبوا فى حقهم قبائح كثيرة. وفى هذا الوقت وصل مسعودا من حدود خراسان أخبارا رهجمات التركمان السلاجقة، فصمم مسعود على ترك طبرستان وجرجان وقصد خراسان. وكان لباكاليجار ولد رهينة مع السلطان مسعود، فأرسل بابن له آخر له يطلب عفوه فأعاده مسعود إلى أبيه بخلع وأبقى باكاليجار فى إمارة طبرستان وجرجان على أساس المعاهدة السابقة وعاود رحلته إلى خراسان.

(١) عباس إقبال، تاريخ إيران، ص ٤٥٠.

وظل باكاليجار يحكم باسمه نوشيروان بن فلك المعالى من وقت عودة السلطان مسعود عن جرجان حتى عام (٤٣٣ هـ) ، أى لمدة سبعة أعوام، وتسلط على كافة أمور الدولة بعلة صغر سن نوشيروان الذى كان محجورا عليه. ولما هزم مسعود الغزنوى فى عام (٣٢٩ هـ) على يد طغرلبك السلجوقى وسقط الجزء الغربى للبلاد الغزنوية فى يد السلاجقة، خلص باكاليجار من تبعية الغزنويين، واعتبر نفسه مستقلا. لكن نوشيروان الذى كان قد بلغ الرشد فى هذا الوقت قام بالقبض على باكاليجار واسترد حكم أجداده وتخلص من قبضته وهدأ باله من هذا الأمر. ولكن طغرلبك السلجوقى كان قد استولى فى هذه الأيام على خراسان والعراق، وكان بصدد السيطرة على طبرستان وجرجان. وتحرك السلطان السلجوقى قبل أن يبلغه القبض على باكاليجار للإستيلاء على هاتين الولايتين فى عام (٤٣٣ هـ)، وهرب نوشيروان إلى سارى. وفى النهاية لم يجد بدا من قبول تبعيته لطغرلبك وتعهد له بأداء ثلاثين ألف دينار سنويا^(١). وبقي فى إمارته الاسمية تحت أمر عامل السلطان السلجوقى، الذى أقيمت له الخطبة على منابر هذه البلاد، واستمر هذا الحال حتى عام (٤٣٥ هـ)، حينما مات نوشيروان وتولى ابنه (جستان). وبعد عام (٤٣٣ هـ) الذى استولى فيه طغرلبك على جرجان وطبرستان عام انقراض أسرة آل زيار، لأنه بالرغم من أن أمراء هذه الأسرة كانوا قد فقدوا استقلالهم الواقعى قبل ذلك بفترات، وكانوا يعيشون تحت حماية الغزنويين، لكنهم كانوا يؤدون الخراج إلى الغزنويين وحسب، حتى سنة استيلاء طغرلبك، فى حين أرسل طغرلبك من بين أتباعه الديالمة من

(١) ابن الأثير، الكامل، ح ٩ ص ١٨٢ - ١٨٣، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام،

يسمى (مرد أويج) لحكم جرجان وطبرستان، فتزوج مرد أويج هذا بأب
نوشيروان، فوقع الأخير تحت مراقبة الأول من كل جهة وانصاع لأمره.
ولا يعرف نهاية جستان بن نوشيروان ولا سنة وفاته (١).

خاتمة

إن من اشتهر من الأمراء الزياريين لسبب خاص في تاريخ إيران
اشتهارا جديرا هو الأمير عنصر المعالي كيكافوس الذي كان ابنا للاسكندر
ابن شمس المعالي قابوس، وليس يعرف بالضبط هل وصل الإمارة حقا،
وهو مؤلف الكتاب الأشهر (قابوسنامه) وقد صنفه هذا الأمير في عام
٤٧٥ هـ ككتاب نصح لتربية ابنه (جيلان شاه). وكتاب قابوسنامه أحد
الكتب السامقة للنثر الفارسي، ويمثل كمال المهارة والمقام العالي للأمير
عنصر المعالي في الفضل والأدب والاطلاع.

والخلاصة: أن الدور الذي قامت به الدولة الزيارية يختلف عن
الدور الذي قامت به الدولة الزيدية في طبرستان. فالزياريين قاموا
بتوسيع القاعدة التي أسسها الزيديون لهجرة الديلم في الشمال، ومدوا
خط هجرتهم نحو الجنوب، فاستولوا على أصفهان، والري، ونهاوند،
وهمذان، ورغم كونها دولة شيعية المذهب. إلا أنها استغنت عن الإمامة
الزيدية، واتصلت بالعباسيين، وفكر ملوكها في إقامة دولة فارسية، ولذلك
أحيوا التقاليد الساسانية في هذه البلاد (٢).

(١) عباس إقبال، تاريخ إيران، ص ٥٥، ٥٦.

(٢) حسن محمود، أحمد الشريف، العالم الإسلامي، ص ٤٨٩.

أسماء الأمراء الزياريين وزمن إمارة كل منهم

- ١ - أبو الحجاج مردأويج بن زيار (٣١٦ - ٣٢٣ هـ).
- ٢ - أبو طاهر وشمكير بن زيار (٣٢٣ - ٣٥٧ هـ).
- ٣ - ظهير الدولة بيستون بن وشمكير (٣٥٧ - ٣٦٦ هـ).
- ٤ - شمس المعالي أبو الحسن قابوس أخو بيستون (٣٦٦ - ٤٠٣ هـ).
- ٥ - فلك المعالي منوجهر بن قابوس (٤٠٣ - ٤٢٣ هـ).
- ٦ - نوشيروان بن منوجهر (٤٢٣ - ٤٣٥ هـ).
- ٧ - جستان بن نوشيروان (٤٣٥ - ؟).

الفصل السابع

الدولة الغزنوية

(٢٥١-٥٨٢هـ / ٩٦٢-١١٢٦م)

- تقديم.
- قيام الدولة الغزنوية.
- أبو اسحاق ألبتكين مؤسس الدولة الغزنوية.
- ولاية سبكتكين (٣٦٦-٣٨٧هـ / ٩٧٦-٩٩٧م).
- ولاية يمين الدولة محمود بن سبكتكين الغزنوي (٣٨٨-٤٢١هـ / ٩٩٨-١٠٣١م)
- حروب محمود الغزنوي لصاحب سجستان.
- السلطان محمود وخانات الترخستان.
- إستيلاء محمود الغزنوي على خوارزم (٤٠٧-٤٠٨هـ).
- فتوح محمود الغزنوي في بلاد الهند (٣٩٢-٤١٦هـ).
- فتح الري وأصفهان (٤٢٠هـ).
- وفاة السلطان محمود (٤٢١هـ).
- السلطان محمد بن محمود.
- السلطان مسعود بن محمود (٤٢١-٤٣٢هـ).
- حروب السلطان مسعود.
- السلطان مسعود والتراكمة الغز والسلاجقة.
- وفاة السلطان مسعود (٤٣٢هـ).
- السلطان مودود بن مسعود (٤٣٢-٤٤١هـ).
- عبد الرشيد - فروخ زاد.
- ظهير الدولة إبراهيم.

الفصل السابع

السدولسة الغزنوية

(٢٥١-٥٨٢هـ / ٩٦٢-١١٣٦م)

تقديم :

امتدت فتوحات المسلمين في آسيا إلى بلاد السند، وهي تقع شرقي فارس على ساحل بحر الهند، وهي عبارة عن دلتا نهر السند العظيم. Indus، وتعتبر المدخل لشبه القارة الهندية. وقد كان يسكنها عناصر آرية Aryas تشبه سكان فارس، وإن كان أغلب سكانها من عناصر تسمى الهندية فنسبت إليها البلاد تميزت بلون أسود خاص، مما جعل العرب يعدونهم من جملة السودان كما يذكر صاعد الأندلسي، وسكنها أيضاً أصناف من قبائل مجهولة مثل : الزط، السياجة، الطقوف، كذلك وجدت عناصر تركية كثيرة في بلاد اسمها "قيقان" تلي خراسان من الشرق وتعتبر من بلاد السند. وكانت الهند دائماً ممالك متفرقة تتراوح بين القوة والضعف، وكان بعضها خاضعاً للفرس المجاورين لهم. وكان يوجد بالسند مملكة قوية هي مملكة (الموريا Maurya) قبل أن يغزوها الإسكندر الأكبر في عام ٣٢٥ ق.م. وكان لسكان هذه البلاد ديانة قديمة مزدهرة عرفت بالبرهمية نسبة إلى شخص يدعى (برهام)، ويقول مؤرخو العرب أنها ديانة تؤمن بإله واحد، إلا أنها تبطل النبوات وتحرم ذبح الحيوان وتمنع من إيلامه. غير أنها مزجت بالوثنية (عبادة قوى الطبيعة، الأصنام)^(١)، ثم ظهرت حركة البوذية التي سماها العرب

(١) أحمد السادتي، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، سلسلة الألف كتاب، رقم ١٥٨، القاهرة ١٩٥٧، ج ١، ص ٢٩.

بالصابنة، وهي حركة دينية إصلاحية قامت على أساس فكرة الزهد الفلسفية (اليوجا)، وهي تنسب إلى بوذا (الحكيم) الذي عاش حوالي (٥٦٣ - ٤٨٣ ق.م)، وعرف أتباعها عند العرب بالبدة وهم البوذيون. كما يذكر (الشهرستاني) (١).

ولقد اتصل العرب ببلاد السند قبل الإسلام، فقد كانوا يرحلون إليها للتجارة، ولما جاء الإسلام فإن عامل الخليفة عمر بن الخطاب على البحرين وعمان وكان يدعى عثمان بن أبي العاص الثقفي، كان متلفهاً على الغارة في السند، فأرسل إليها حملة في سنة ١٥ هـ/٦٣٦م، وصلت إلى بلدة (تانة)، مما أغضب الخليفة لتغيره بالمسلمين (٢). ولكن ازدياد اهتمام العرب ببلاد السند كان منذ أن استولوا على (مكران) في شرقها، والتي فتحت عنوة في أيام عمر أو معاوية، واتخذوها قاعدة للإغارة على السند. كذلك كان المسلمون يغزون السند أحياناً من ناحية مفازة سجستان التي كانت قد فتحت في أيام معاوية بن أبي سفيان. ويذكر المؤرخون غارات العرب المبكرة على السند في عهد الخليفة عثمان ابن عفان وفي أواخر أيام الخليفة علي بن أبي طالب، إلا أنها لم تكن شديدة ومتصلة إلا في أيام معاوية، فقد كانت بلاد الهند كما يذكر (جيبون) ترتعش في أيامه. وكانت أغلب هذه الغارات على بلاد قيقان من أرض السند التي كان أهلها من الترك، وأيضاً ضد (الخلج) وهم جنس من الترك

(١) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٤٤٤ - ٤٤٦.

(٢) يذكر البلاذري (فتوح البلدان، ص ٤٢٠) أن عثمان بن أبي العاص لما رجع من غزوه كتب إلى عمر يعلمه ذلك، فكتب إليه عمر يا أبا ثقيف حملت دودا على عود، وإني أحلف بالله لو أصيبو لأخذت من قومك مثلهم".

أو الهياطلة، الذين كانوا يعيشون في أرض (كابل) أو (زُبُلستان) التي كانت تقع بين الهند ونواحي سجستان^(١).

وكان المهلب بن أبي صفرة القائد المعروف أشهر القادة المسلمين الذين غزوا السند في أيام معاوية، فقد توغل في أعالي الهند وهزم أهلها عند (بته) ولو هو (لاهور، الأهور) وهما بين الملتان وكابل في سنة ٤٤ هـ / ٦٦٤ م، ولكن انشغال العرب بالفتنة بعد موت معاوية، ثم فتنة (ابن الأشعث) بسجستان أيام عبد الملك بن مروان، حد من نشاط المسلمين في هذه الناحية، وإن كان (زنبيل) حاكم هذه المناطق قد صالح الحجاج بن يوسف الثقفي بعد تسليمه ابن الأشعث وقبل دفع الجزية، وإلى الحجاج بن يوسف الثقفي يعود الفضل في غزو بلاد السند وفتحها، فقد أعد حملة برية وبحرية جعل على قيادتها محمد بن القاسم الثقفي صهرة وابن عمه، الذي لم يكن يتجاوز سبعة عشر عاماً، وكان بحق معجزة حربية، فقد دبر خطة محكمة مثلما كان الحال بالنسبة للغزو في بلاد ماوراء النهر، فسار محمد من مكران في سنة ٨٩ هـ / ٧٠٨ م ففتح (أرمينيل) و(والدبيل) ميناء السند العظيم، ثم سار عنها إلى شمال السند، وأخذ لا يمر بمدينة إلا فتحها صلحاً أو عنوة، حتى قتل داهر وغلب على بلاد السند ودخل عاصمتها (راور) عنوة، ثم استولى على ملتان وأصاب بها ذهباً كثيراً، وسماها المعمورة بدلاً من ملتان، وذلك في سنة ٩٥ هـ / ٧١٥ م. بعدها أوغل محمد بن القاسم في شمال السند إلى مدينتي بيلمان وقندهار، حتى وصل إلى أقصى حدود قشмир أو كشمير التي كانت تجاور الترك. وقد كان فتح محمد بن القاسم لبلاد السند من أعظم الفتوح

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٢١، أحمد الساداتى، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية، ص ٥٦-٥٧.

الإسلامية، فبعده لم يتجاوز أحد من الغزاة فتوحاته فيها إلى أيام الغزنويين^(١).

ولقد استمر المد الإسلامي يصبغ هذا الإقليم بالصبغة الإسلامية في الدين والثقافة خلال عصري بني أمية والعباسيين، فقد أنشأ العباسيون بها عدة مدن ومساجد ساعدت على نشر الثقافة الإسلامية، كما قام هشام ابن عمرو التغلبي في خلافة أبي جعفر المنصور العباسي بفتح ما استغلق من السند، وأعاد قواد العباسيين فتح بقية أقاليم الهند التي كانت قد خرجت على طاعة المسلمين مثل كشمير والملتان وغيرها. وكان اكتساب إقليم السند الصبغة الإسلامية في هذه الفترة مقدمة لظهور حركة قومية هندية تكتسب الشكل الإسلامي والطابع الإسلامي، وهذه الحركة الاستقلالية التي تعبر عن تراث الهند وماضيها وقوميتها تتخذ صورة دولة مستقلة هي الدول الغزنوية التي استمرت نحو قرنين من الزمان (٣٥١-٥٨٢هـ/٩٦٢-١١٣٦م)^(٢).

قيام الدولة الغزنوية :

ينتسب الغزنويون إلى "غزنة" أو غزني أو غزنيين، وهي من مدن أفغانستان الحالية الواقعة في سفوح جبال سليمان، وكانت هذه المدينة المركز الأول والعاصمة للغزنويين. وقد بدأت منها أهميتهم واعتبارهم. ولقد اشتهرت هذه المدينة في التاريخ في ختام القرن الرابع

(١) البلاذري، نفسه، ص ٤٢٣-٤٢٧، ابن خلدون، العبر، ج ٣، ص ٧٦-٧٧، ٨٣-٨٤، عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية، ج ٢، ص ٢٢٨-٢٣٧، الساداتي، نفس المرجع، ح ١، ص ٥٩-٦٦.
(٢) البلاذري، نفسه، ص ٤٣٠-٤٣٣، حسن محمود وأحمد الشريف، العالم الإسلامي، ص ٤٧٢.

الهجري (العاشر الميلادي) عندما اتخذها السلطان محمود الغزنوي العظيم حاضرة له. ولكنه لم ينته إلينا للأسف كما يذكر (لسترنج) وصف واف لغزنة حين جدد السلطان محمود بناءها وزينها بما غنمه من غزواته في الهند. غير أنه من حسن الحظ أن (الاصطخري) قد وصفها قبل ذلك بفترة، فقال إنها مثل بلدة الباميان ولا بساتين لها. ويجري بها نهر، "وليس في هذه المدن التي في نواحي بلخ أكثر مالا وتجارة من غزنة، فإنها فرضة الهند"، ولقد ذكر الرحالة (المقدسي) أسماء كثير من رساتيقها وقراها ومدنها، وكتب اسمها (غزنين) بصيغة المثني، وذكر أن استعمال اسم غزنين كان أكثر من غزنة. وزاد المقدسي على ذلك أن البلاد التي ما بين غزنة وكابل كانت تعرف باسم "كابليستان"^(١).

أبو إسحاق ألبتكين مؤسس الدولة الغزنوية :

وتعتبر الدولة الغزنوية التركية أعظم دولة ظهرت في أفغانستان وبلاد الهند في العصر الإسلامي، وكانت أفغانستان جزءاً من أملاك الدولة السامانية التي انبثقت منها الدولة الغزنوية، ومؤسس هذه الدولة مملوك من مماليك السامانيين الذين تدرجوا في الرقي إلى أن بلغوا مرتبة الإمارة وهو أبو إسحاق ألبتكين. وقبل أن نتحدث عن أولية الدولة الغزنوية يجدر بنا أن نشير باختصار إلى النظام التربوي الذي اتبعه السامانيون في تربية مماليكهم الأتراك، لنتعرف على عوامل صعود نجم ألبتكين المملوك التركي لآل سامان الذي أسس الدولة الغزنوية. ويرجع الفضل إلى الوزير نظام الملك الطوسي في شرح هذا النظام التربوي، فهو يذكر في كتابه

(١) الإصطخري، ص ٢٨٠، ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٥٨، ٣٧٥، المقدسي،

أحسن التقاسيم، ص ٢٩٦-٢٩٧، لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٢٨٧.

"سياسة نامه" إن ممالك السامانيين كانوا يرقون تدريجياً بناء على خدماتهم وشجاعتهم، وليس اعتماداً على المحسوبية أو الجاه، وبعد هذا الاستهلال يوضح لنا مراحل تربية وترقية هؤلاء الممالك، فيقول إن المملوك عند شرائه يخدم عاماً على قدميه، فيسير مرتدياً قباء من القطن يسمى زنداجي (نسبة إلى مدينة زنداجي شمالي بخاري التي اشتهرت بالملابس القطنية) بجوار سيده الممتطي صهوة جواده. ولم يكن مسموحاً لهذا المملوك بركوب الخيل في عامه الأول في ربة العبودية، وإلا تعرض لعقاب شديد. فإذا أتم عامه الأول في الخدمة أخبر عريف الدار بذلك حاجب الحجاب، فيقدم الحاجب للمملوك حصاناً تركياً بعنان دون سرج، ثم يمنح المملوك في العام الخامس من خدمته سرجاً ولجاماً مزيّناً بنجوم من المعدن، وسروالاً من القطن المخلوط بالحرير، وبعض الأسلحة التي يُحلقها في سرج فرسه، وفي العام السادس يمنح المملوك ملابس أفخر من ذي قبل. وفي العام السابع يمنح قباء ذا طنب واحد وستة عشر وتدا، كما يمنح ثلاثة من الرقيق ليقوموا بخدمته. وعندئذ يستحق المملوك لقب (عريف الدار) ويضع على رأسه طاقية من الجوخ الأسود الموشاة بالفضة، كما يرتدي قباءاً حريراً كنجويا (نسبة إلى مدينة كنجة في إقليم شيروان على ساحل بحر قزوين وكانت مركزاً لتجارة الحرير، وهي بجمهورية أذربيجان الآن). ثم يأخذ المملوك بعد ذلك في الترقى عاماً بعد عام، وتزداد حاشيته تدريجياً إلى أن يصل إلى مرتبة (صاحب الخيل) ثم (حاجب الحجاب). ورغم هذه المناصب فإن هؤلاء الممالك لم يتلقبوا بألقاب الإمارة، ولم يتولوا أعمالاً كبيرة كحكم الولايات، أو قيادة

فرقة من الفرق العسكرية إلا بعد أن ينضجوا، وحدد السامانيون سن النضج لمماليكهم بسن الخامسة والثلاثين^(١).

ويعلق الدكتور (أحمد مختار العبادي) على هذا النظام بقوله إن هذا النظام التربوي العسكري الإسلامي الذي اتبعه السامانيون مع مماليكهم، كان يقوم على التدريب والترتيب في تنشئتهم، كي يكتسبوا الخبرة اللازمة في مناصب الإدارة والقيادة، وتجدر الإشارة إلى أن هذا النظام التربوي الساماني كان الأساس الذي سار على منهاجه بعد ذلك عدد كبير من الدول الإسلامية مثل دولة السلاجقة الأتراك وأتباعها من الأتابكة والأيوبيين، غير أنه قد تبلور وازدهر بشكل راسخ متين زمن دولة المماليك في مصر والشام، مما مكنها من صد الزحف المغولي شرقا والانتصار على المستعمر الصليبي غربا^(٢).

وكان (ألبتكين) غلاما تركيا اشتراه الأمير الشهيد أحمد بن إسماعيل الساماني، ثم دخل في خدمة أخيه نصر من بعده، وأثبت في خدمة السامانيين كفاءة عالية، فبلغ عندهم منزلة كبيرة فأسندوا إليه منصبا عاليا هو رئاسة الحجاب الذي بلغه في عهد عبد الملك بن نوح الساماني (٣٤٣-٣٥٠هـ)،^(٣) وقام ألبتكين باغتيال بكر بن مالك قائد الجيش الساماني في بخاري في عام ٣٤٥هـ، وكان قد ولي قبل ذلك في عام ٣٤٤هـ عاملا على مدينة (هراة) من قبل عبد الملك بن نوح، غير أنه أقصي عن منصبه بعد وفاة مولاة، ثم رقي في عام ٣٤٩هـ/٩٦٠م إلى منصب قيادة جيش السامانيين، وتولي حكومة خراسان حتى أواخر عام

(١) نظام الملك، سياست نامه، ص ١٤١.

(٢) أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، ص ١٥٥.

(٣) ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٤٧٣.

٣٥٠ هـ، ولعل عبد الملك بن نوح قد منحه قيادة الجيوش وحكم خراسان رغبة في إبعاده عن العاصمة كما يذكر (عبد الحي حبيبي صاحب تاريخ مختصر أفغانستان)، فتسلم البتكين مهام عمله في خراسان حيث اصطحب معه غلمانه وعبده ومنهم بلكاتكين Balkatgin وسُبُكتكين Subuktigin، الشاب، الذي ساعد البتكين في إدارة أمور خراسان وبسط سلطانه عليها^(١).

ويبدو أن البتكين لم يفقد نفوذه في العاصمة بخاري بعد انتقاله إلى خراسان حتى أبا الفضل البلعمي الوزير أرسل له بعد وفاة الأمير عبد الملك بن نوح لأخذ رأيه فيمن يصلح للإمارة مما يدل على قوة نفوذ البتكين، واختلفت آراء المؤرخين حول رد البتكين، فيرى بعضهم أن إجابته على سلطات بخاري أفادت ضرورة تعيين أحد أبناء عبد الملك، ويرى البعض الآخر أن إجابة البتكين أفادت تعيين منصور بن أخو عبد الملك بدلاً من ابنه وأغلب الظن أن سبب هذا اللبس يرجع إلى أن عبد الملك بن نوح كان له أخ باسم منصور وابن بنفس الاسم مما أوجد لبساً عند بعض المؤرخين في معرفة ميول البتكين الحقيقية. ومع هذا فليس هناك شك أن الذي تولى من بعد عبد الملك هو أخوه منصور وليس ابنه، وذلك لأن قادة الجيش في بخاري أقدموا على تنصيب منصور الأخ بدلاً من الابن الذي تحمس له البتكين، فقرر البتكين تنفيذ ما يريده بالقوة واتفق مع قادة خراسان على ذلك، وسار بقوته نحو بخاري^(٢).

(١) نظام الملك، سياست نامه، ص ١٤٥، ٣٨١، عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ١٦٩.

(٢) الترشيح، تاريخ بخارى، ص ١٣٢، فتحي أبو سيف، خراسان، ص ١٧٧.

ونجد أن الأمير الساماني منصور بن نوح استطاع أن يغري قادة خراسان بالخروج على البتكين، وعين قائدا آخر على جيوش خراسان، مما جعل موقف البتكين حرجا^(١)، فاضطر إلى التوقف في بلخ، وألحق الهزيمة بجند الأمير منصور بن نوح، ورغم هذا الانتصار، ورغم ما لأبتكن من أملاك وضياع واسعة في كل من خراسان وبلاد ما وراء النهر (٥٠٠ ضيعة، ١٠ آلاف جواد وبغل وجمل، وعدة آلاف من رؤوس الأنعام)، إلا أنه قد يمم ناظره ناحية أفغانستان لكي يتجنب مقاتلة ولي نعمته الأمير الساماني من جديد. ويعود السبب وراء اختيار أفغانستان بالتحديد لأنها كانت داراً للكافرين، فعزم على جهادهم، وهناك سبب آخر لزحفه نحو غزنة هو تصميم الأمير منصور على حربه، إذ سير ضده جيشاً أوكل قيادته لأحد قادة بخاري ويدعى اشعث بن محمد في ٣٥١هـ/٩٦٢م، فسارع البتكين بالسير نحو غزنة، واستطاع هزيمة حاكمها الذي اختلف في اسمه بين أبي بكر أو أبي علي لائق، فتمكن البتكين من محاصرته في قلعة غزنة الحصينة حتى سقطت في يده بعد أربعة شهور، وأعلن نفسه حاكماً على غزنة واتخذها داراً لإقامته^(٢).

ولما فشلت الحملات التي وجهها الأمير منصور بن نوح الساماني نحو البتكين، فضل السامانيون الاعتراف به وإقراره على غزنة، وما استطاع أن يضمه إليه من ممتلكات جديدة، حيث استطاع ضم بست، وجزءاً من مملكة كابل المجاورة، وكان ذلك في عام ٣٥١هـ/٩٦٢م، ومن ثم يعتبر هذا التاريخ بداية تأسيس الدولة الغزنوية. ولقد انشغل البتكين بعد استقراره في غزنة بالجهاد على حدود كابل ومعابر المناطق الجبلية

(١) النرشخي، تاريخ بخاري ص ١٣٢.

(٢) نظام الملك، نفسه، ص ١٥٠، ١٥٢.

شرقي أفغانستان، واستولى في هذه الفترة (٣٥١-٣٥٢هـ) على كابل، ثم دخل في حرب مع أحد راجات السند وقبل أن تنتهي هذه الحرب مات ألبتكين في عام (٣٥٢هـ/٩٦٣م) تاركاً حكم غزنة لابنه أبي إسحاق إبراهيم، وإن كان نظام الملك يجزم بأن ألبتكين لم يكن له أبناء، ففعل إبراهيم هذا كان أحد قاداته^(١).

ولاية سبكتكين (٣٦٦-٣٨٧هـ/٩٧٦-٩٩٧م):

وبعد عام من ولاية أبي إسحاق إبراهيم الدولة الغزنوية، أخرجه أبو علي أمير غزنة السابق منها فهرب أبو إسحاق إلى بخاري واستمد الأمير منصور بن نوح، فساعده على استعادة إمارته واشترط عليه أن يعتبر نفسه تابعاً له، فقبل ذلك وسك عملة غزنة وخطب على منابرها باسمه. وهكذا توطدت العلاقات الودية بين حكومة بخاري وغزنة خلال عهد منصور بن نوح الساماني. ووقعت إمارة غزنة بعد موت أبي إسحاق إبراهيم بن ألبتكين في عام ٣٥٥هـ في يد غلمان ألبتكين، وتولاها منهم اثنان واحد بعد الآخر بموافقة جنوده ومجاهدي جيشه إلى أن صارت في العشرين من شعبان عام ٣٦٦هـ من نصيب سبكتكين صهر ألبتكين.

وتفصيل ذلك أنه عندما تولى أحد قادة الجيش الغزنوي ويدعى (بيريبتكين) الإمارة في غزنة، وجلب على نفسه كراهية الجند باستدعاء (أبي علي لائق) مصطحباً بابن حاكم كابل لمساعدته في حكم غزنة، مما أثار الجند وكان على رأسهم سبكتكين، فقاد حملة تمكن عن طريقها من أسر أبي علي لائق وابن حاكم كابل، ووضعهما في السجن ثم أمر بقتلهما

(١) نظام الملك، سياسته، ص ١٥٣، ابن الأثير، الكامل، ح ٧، ص ١٤٣

بعد ذلك. وقد أدت هذه الأعمال إلى ارتفاع شأن سبكتكين فوافق قادة وأشرف غزنة على تنصيبه أميراً عليهم في عام (٣٦٦هـ/٩٧٦م) "لما عرفوه من عقله ودينه ومروءته وكماله خلال الخير فيه، فقدموه عليهم وولوه أمرهم وحلفوا له وأطاعوه، فأحسن السيرة فيهم وساس أمورهم سياسة حسنة"^(١).

و(ناصر الدين سبكتكين) الذي ربط فيما بعد النسابة ممن تمتعوا بعطف الدولة الغزنوية، شجرة نسبه بملوك الفرس الأقدمين، أصله من الترك الوثنيين كما يذكر (البيهقي)، وكان قد وقع هو وجماعة من قومه في أسر المسلمين من الترك أنفسهم، أو من مطوعة السامانيين، فساقه تجار الرقيق إلى خراسان فاشتراه البتكين بنيسابور. ولم تلبث أخلاق المملوك الشاب أن اجتذبت اهتمام سيده منذ البداية، فترقى بأسرع مما جرت به العادة كما يذكر (نظام الملك)، وبعد اعتلاء منصور الساماني العرش سحب سبكتكين مولاه إلى غزنة حيث قدم له ولخلفائه من بعده خدمات جليلة انتهت بإعلانه أميراً على غزنة كما ذكرنا^(٢).

استقر حكم الدولة الغزنوية على يد الأمير سبكتكين واتسعت دائرة حكمه، وتمكن بعد ولايته بفترة لم تتعد عامين من الاستيلاء على (قصدار) القريبة من غزنة، و(بست) الواقعة بين سجستان وهرات، وكان صاحب (بست) ويدعى (طغان) قد استعان به على الثوار الذين استولوا على بلاده، ولكنه لم يف بتعهداته له وماطله، فأنزل به سبكتكين الهزيمة واستولى على بست، ثم صار إلى قصدار بعد أن خرج عليه وألحها

(١) ابن الأثير، الكامل، ح ٧، ص ١٤٦، عبد العزيز جنكيزخان، تركستان، ص

٥٠، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ح ٣، ص ٨٥.

(٢) البيهقي، تاريخ البيهقي، ص ٢١٦-٢١٨، ابن خلدون، العبر ح ٤، ص ٤٧٣.

واعتمص بها لمناعتها وصعوبة مسالكها، واستولى عليها وأرغم هذا الوالي على الاعتراف بطاعته. ومن الغنائم التي صارت من نصيب سبكتكين في هذا السفر التحاق الشاعر (أبي الفتح علي بن محمد البستي) بخدمته، وكان في البداية يعيش في بلاط بايتوز أمير قصدار ويعمل كاتباً له^(١).

وقد أتاحت هذه الانتصارات الفرصة لسبكتكين للاستيلاء على جزء كبير من بلاد الهند، فاستولى على بعض المواقع الجبلية فيها حيث توجد مدينة كابل حاضرة بلاد أفغانستان حالياً. وكانت هذه المواقع ولا تزال تعرف باسم Hind أو Hund، ويعرف ملوكها باسم ملوك مملكة الشاهات، ويعرفون عامة باسم ملوك الهند في كابل، وعاد سبكتكين بعد ذلك غانما إلى غزنة، وقد أفزعت أعماله أحد ملوك الهند ويدعى (جيبال) الذي كانت مملكته تمتد في شمال غرب الهند، وقد رأى في استيلاء سبكتكين على أطراف بلاده تهديداً لمملكته، فدخل مع سبكتكين في حروب طاحنة، لكن سبكتكين ألحق به الهزيمة في سنة ٣٦٩هـ، وأجبره على طلب الصلح على مال يؤديه وبلاد يسلمها وخمسين فيلاً يحملها إليه، فاستقر ذلك، ورهن عنده جماعة من أهله حتى يتم تسليم البلاد. وأرسل معه سبكتكين من يتسلمها، ولكن (جيبال) قبض على من معه من المسلمين وجعلهم عنده عوضاً عن رهائنه، فلما سمع سبكتكين بذلك سار نحو الهند وتوغل داخل حدودها وخرب كل ما مر عليه من بلادهم، حتى افتتح قلاعها الحصينة مثل لمغان وهدم بيوت الأصنام، كما افتتح (بشوار)

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص ١٤٧، ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٤٧٤، حسن إبراهيم حسن، نفسه، ج ٣، ص ٨٥-٨٦، عباس إقبال، تاريخ إيران، ص ١٧١.

وهي مدن لم يصل إليها فاتح مسلم من قبل على حد تعبير (العتبي).^(١) وقد اهتم سبكتكين ببناء المساجد في المدن الجديدة التي فتحها، فيكون بذلك قد شارك مدن السند مثل زابل وقصدار والمنصورة في نشر الدين الإسلامي والثقافة العربية الإسلامية ببلاد الهند، ثم عاد إلى غزنة وسار في إثره جيبال في مائة ألف مقاتل، فلقبه سبكتكين وألحق به هزيمة قاسية وغنم أموالهم وأثقالهم ودوابهم، وذل الهنود بعد هذه الواقعة، ولم يكن لهم بعدها راية، ورضوا بالألا يطلبوا في أقاصي بلادهم، وكان من أثر انتصار سبكتكين في هذه الموقعة أن دخل في طاعته الأفغان والخلج. كما قوت هذه الغنائم من مركزه في غزنة، وأدت هذه الحروب التي انشغل فيها سبكتكين ببلاد الهند إلى عدم اهتمامه بما حدث في بخاري أو خراسان من فتن واضطرابات^(٢) ويعلق ابن خلدون على ذلك بقوله " وكان سبكتكين في شغل عن أمرهم بما هو فيه من الجهاد مع كفار الهند "^(٣).

وكانت الفترة التي تولى فيها سبكتكين حكم غزنة هي نفس الفترة التي شهدت اضمحلال وانهيار الدولة السامانية، ومع أن سبكتكين كان من الناحية الفعلية مستقلاً عن السامانيين وأكثر نفوذاً منهم، فإنه كان يعترف بما يقول المستشرق (لين بول) لهم بالسيادة، وشن الحروب وفتح البلاد لحسابهم حتى " اتسعت رقعة ولايته، وعظم حجم جريدته، وعمرت أرض خزانته، وأشفقت النفوس من هيئته "^(٤)، لذلك لم يجد الأمير نوح ابن منصور بديلاً عن الاستعانة بقوة سبكتكين عندما خرج على طاعته كل

-
- (١) العتبي، تاريخ اليميني، ج ١، ص ٦٣، ٥٨، الساداتى، نفسه، ج ١، ص ٦٦ وما بعدها.
(٢) العتبي، تاريخ اليميني، ج ١، ص ٢٥٨، ٦٣، ٧٦، ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص ١٦٤، حسن إبراهيم حسن، نفسه، ج ٣، ص ٨٦، فتحي أبو سيف، خراسان، ص ١٧٩.
(٣) ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٤٦٧.
(٤) العتبي، تاريخ اليميني، ج ١، ص ٦٣، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج ٣، ص ٨٦.

من أبي علي السيمجوري وفائق بخراسان ويبدو أن سبكتكين وجدها فرصة، فأسرع في إجابة الأمير الساماني إلى طلبه مصطحبا ابنه محمود معه لتعزيده، وسار إلى جيحون، في جيش كبير ومعه مائتان من القبيلة ليقضي على هذين العاصيين. وحاول بعض المؤرخين^(١) تبرير إجابة سبكتكين لنجدة الأمير نوح بن منصور على أنها حرص من سبكتكين على إظهار الولاء والطاعة للأمير الساماني. إلا أنه يبدو أن سبكتكين علم بحقيقة الموقف المتدهور في خراسان من ناحية، وضعف أمراء السامانيين من ناحية أخرى، وأدرك أن الدولة السامانية تعيش آخر أيامها، فلا مانع إذن من مد نفوذه إلى أملاك جديدة غربا تجاه خراسان. وقد أشار (الهروي) إلى تزعج سبكتكين التوسعية في خراسان وما وراء النهر كإحدى أهدافه لمساعدة الأمير نوح، وخاصة أن بعض المدن الخراسانية كانت تستنجد بسبكتكين وتدعوه لامتلاكها، إذ يذكر (الجوزجاني) أن أهالي مدينة بلخ راسلوا سبكتكين واستنجدوا به من ظلم عمال السامانيين. فوافق سبكتكين على تلبية نداء الأمير الساماني في بخارى. وسارع جيشه بالسير نحو هراة التي كانت مركزا لتجميع الخارجين في خراسان على سلطة السامانيين. وكان كل من فائق وأبي علي السيمجوري قد راسلا فخر الدولة بن بويه لمساعدتهما فأجابهما إلى ذلك، بعد أن شجعه وزيره صاحب بن عباد، فأرسلت إليهما الإمدادات العسكرية معونة لهما. ورغم ذلك فقد تعرضت قوتهم للهزيمة بسبب انحياز (دارا بن قابوس بن وشمكير) أمير جرجان الذي كان قد انضم إليهما إلى جيش الأمير وسبكتكين. مما أدى إلى حدوث خلل في

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص ١٦٤، ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٤٦٧.

صفوف جيشهم وهزيمته^(١). واستطاع سبكتكين إرغام كل من أبي علي السيمجوري وفائق على الخضوع للأمير الساماني نوح بن منصور، مع إلزامهما بدفع خمسة عشر ألف درهم له.

ويسرد (الكرديزي) رواية تتعلق بدهاء سبكتكين الذي لما كان على علم بنية (دارا) للغدر بأصحابه قال في حضرة جاسوس لأبي علي على إن دارا وفائق وأخا لأبي علي يدعى أبو القاسم قد قرروا الانضمام إلى قوات السامانيين أثناء المعركة، وأن أحدهم وعد بأن يسلم أبا علي في يد سبكتكين. فلما انضم دارا فعلا إلى السامانيين، فقد أبو علي الثقة في حليفه الآخرين كذلك مما تسبب في هزيمته^(٢).

ولكن لم يمض وقت طويل حتى رفض أبو علي السيمجوري هذا الاتفاق وثار من جديد على سلطان السامانيين، مما دفع سبكتكين إلى معاودة حربه بالقرب من هراة (٣٨٤هـ / ٩٤٤م)، ورغم ما أبداه أبو علي من استماتة في القتال، إلا أن هذه المقاومة ضعفت مع الوقت أمام مهارة محمود بن سبكتكين، وتمكنت قوة سبكتكين من دخول هراة حيث تمت المقابلة مع الأمير نوح الذي عظم جهود آل سبكتكين، فأطلق على الأمير سبكتكين لقب "ناصر الدين والدولة" ومنحه ولاية بلخ، ولقب محمود ابن سبكتكين "بسيف الدولة"، ومنحه قيادة جيوش خراسان، فسار محمود نحو نيسابور ليقوم بمهام عمله الجديد، وتمكن من دخولها^(٣).

- (١) ابن الأثير، الكامل، نفس الجزء، ص ١٦٤، ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٤٦٧.
(٢) العتبي، نفسه، ج ١، ص ٥٠ - ٥٤، النرشخي، تاريخ بخاري، ص ١٦٤ - ١٧٣،
بارتولد، تركستان، ص ٣٣٩، حسن إبراهيم حسن، نفسه، ج ٣، ص ٨٧.
(٣) ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص ١٦٤، ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٤٦٧ - ٤٦٨،
بارتولد، نفسه، ص ٣٩٩، فامبري، تاريخ بخاري، ص ١٢١.

وما كاد محمود يستقر في نيسابور حتى فوجئ من جديد بمحاصرة أبي علي السيمجوري وفائق لها (٣٨٥هـ/٩٩٥م)، فاضطر محمود أمام هذا الحصار إلى ترك نيسابور واتجه نحو هراة بعد أن مني بهزيمة على يد أبي علي السيمجوري. وعبثا حاول أصحاب وقادة أبي علي إقناعه بضرورة مطاردة محمود وقوته حتى لا يجتمع مع أبيه سبكتكين ويكونا جيشا واحدا. وفضل السيمجوري مراسلة كل من الأمير نوح وسبكتكين لاستمالتهما في تركه على نيسابور ولكن دون جدوى. (١) وما أن سمع سبكتكين بما حدث لابنه محمود في نيسابور حتى سارع بالسير نحوها، حيث تقابل مع جيش أبي علي السيمجوري وفائق بالقرب من طوس إحدى مدن خراسان. وقد استطاع بمهارته العسكرية أن يشترك في هذه المعركة بمداهمة جيش السيمجوري وفائق من الخلف مما أدى إلى انكسار جيشهما (٣٨٥هـ/٩٩٥م)، وغلب على أبي علي السيمجوري وفائق من جراء هذه الهزيمة اليأس في عمل شيء جديد ضد سبكتكين وقوته المنتصرة (٢). فحاول كل منهما منفردا أن يفتح باب التفاوض مع الأمير نوح الساماني لينال العفو لنفسه، وهرب القائدان الثائران إلى سرخس ومنها إلى أمل، مستفيدين من أن سبكتكين وجيشه الكبير لم يكن بوسعهم أن يجتازوا الصحراء في سرعة. ومن أمل أرسل كل منهما رسله إلى الأمير نوح يستعطفه. ولا ندري الأسباب التي جعلت الأمير يقبل إمكانية الصلح مع أبي علي في الوقت الذي لم يقبل فيه مصالحة فائق. ففعل الأمير أراد أن يفرق بينهما باتخاذ موقف مغاير لكل

(١) ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٤٦٨.

(٢) قال بعض الشعراء في شأن هذا الانتصار نكابة في أبي علي سيمجور:

عصى السلطان فابتدرت إليه
رجال ما بقلعون أبا قبيس
وصبر طوس مطلقه فكانت
عليه طوس اشام من طويس

(أبو الفداء، المختصر، ج ٢، ص ١٣٠).

منهما، وربما كان للوزير عبد الله بن عزيز دور في هذا القرار، فمن المعروف عنه ميله لآل سيمجور من قبل^(١). وأغلب الظن أن يكون الأمير قد وافق على حضور كليهما إلى بخاري ولكن فائق لم يأمن على نفسه، ففضل الالتجاء إلى إيلك خان في بلاد الترك وهو ما يميل إليه حمد الله المستوفي. وتذكر الروايات أن المأمون بن محمد أمير (الجرجانية) الذي كان يأوي أبا علي، أرسل إلى حكومة بخاري يشفع في أبي علي ويسأل الصفح عنه، فسمح له بالرجوع إلى بخاري، حيث قوبل باحتفال كبير من جانب الوزير عبد الله بن عزيز والحاجب بكتوزون وغيرهما من الأعيان، واستقبله الأمير نوح الساماني في دار الإمارة، غير أنه لم يلبث أن اعتقل فيما بعد بأمر من نوح نفسه بقلعة بخاري هو وثمانية عشر من إخوته وأصحابه في عام ٣٨٦هـ/٩٩٦م^(٢). ولعل هذا تم بناء على رغبة سبكتكين الذي طلبه أسيرا ليأمن جانبه رغم معارضة حاشية الأمير وعلى رأسهم وزيره ابن عزيز، حتى أنهم أرغموا الأمير بعد ذلك على معاودة طلب أبي علي السيمجوري من سبكتكين. ولكن عيون الأخير ومندوبيه في بخاري راسلوه قبل أن يصل طلب الأمير، فسارع سبكتكين بترحيله إلى غزنة واعتذر للأمير وأودعه السجن، ومات في سجنه بغزنة عام ٣٨٧هـ/٩٩٧م^(٣). وازداد نفوذ سبكتكين وابنه في خراسان فيروي (البيهقي) أن كبار قادة خراسان وبعض أبناء البيت الساماني كانوا يقفون ممتطين جيادهم بباب خيمة الأمير العادل سبكتكين فبأذا ما خرج عليهم

(١) ابن الأثير، الكامل ج ٧، ص ١٦٩، ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٤٦٨-٤٦٩.

(٢) العتبي، نفسه، ج ١، ص ٥٥-٥٦، النرشخي، تاريخ بخاري، ص ١٨٦-١٩١،

ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٤٦٨-٤٦٩، بارتولد، تركستان، ص ٤٠٠.

(٣) فامبري، تاريخ بخاري، ص ١٢٢، فتحي أبو سيف، خراسان، ص ١٨٣.

ترجل الجميع احتراماً له، مما يدل على ما وصلت إليه مكانة سبكتكين حتى بين أبناء البيت الساماني نفسه.

وكان فائق قد لاذ بالفرار إلى بلاد الترك شرقاً (كاشغر) عند إيليك خان وإسمه (أبو نصر أحمد بن علي، الذي حكم بعد بغراخان)^(١) - فعمل فائق على إقناع إيليك على غزو بخاري. وبدأت الأنباء تصل إلى الأمير نوح باستعداد إيليك خان للهجوم على بخاري. فسارع الأمير من جديد بطلب المساعدة من سبكتكين الذي جاء على رأس قوة كبيرة إلى بخاري. وبدلاً من استقبال سبكتكين، فوجئ برفض الأمير وامتناعه عن استقبال هذه القوة وتشكك سلطات بخاري في نواياها. وأغلب الظن أن المسئول عن اتخاذ هذا الموقف الذي دلل على تضارب وارتباك السلطات السامانية في قراراتها هو الوزير عبد الله بن عزيز الذي كان متسلطاً على شخص الأمير، وذلك لأنه رأى في قوة سبكتكين الجديدة ما يهدد وجوده في الوزارة، فأقنع الأمير بوسائله الخاصة لاتخاذ هذا الموقف من قوة سبكتكين القادمة إلى بخاري، واكتفى بطلب مساعدة هذه القوة أو جزء منها عند قدوم إيليك خان فعلاً للحرب^(٢).

وقد أدى هذا إلى اتخاذ سبكتكين موقفاً مغايراً تماماً، فبدلاً من حرب إيليك خان تم الاتفاق معه على اقتسام أملاك السامانيين. وزحف محمود بن سبكتكين نحو بخاري على رأس قوته لعزل الوزير ابن عزيز وإبعاده عن السلطة، حيث تم تعيين وزير آخر عن طريق سبكتكين وهو

(١) أبو الفداء، المختصر، ج ٢، ص ١٢٩.

(٢) ويذكر ابن خلدون رواية غريبة مفداها أن فائق لما فارقه أبو علي السيمجوري، سار إلى كاشغر فأكرمه إيليك خان وكتب إلى نوح يشفع فيه، فقبل شفاعته، وولاه عليها وأقام بها (العبر، ج ٤، ص ٤٦٩) فهل يفهم من هذه الرواية أن الأمير الساماني عزل إيليك خان عن ملكه وأعطاه لفائق؟!.

أبو نصر أحمد بن محمد بن أبي زيد. وبعد عزل ابن عزيز سلم إلى سبكتكين هو والحاجب إيمنكو بناء على رغبته، فأودعهما السجن بقلعة (كرديز).

هذا وقد ظل سبكتكين بطبيعة الحال الحاكم المطلق على جميع الولايات الواقعة جنوبي جيجون، ولم يعد للأمير نوح الساماني يد في مجريات الأحداث بخراسان. أما في بلاد ما وراء النهر فقد جهد الوزير أبو نصر أحمد في إعادة الأمور إلى نصابها باستعمال الشدة " يغسل دما بدم " كما يذكر العتبي^(١). غير أن الوزير أبا نصر أحمد قتل على يد غلمانه بعد خمسة أشهر من توليه السلطة في بخاري. وقد نكل الأمير نوح بهؤلاء الغلمان القتلة، خوفا من أن يتهمه سبكتكين الذي كان يسبغ حمايته على الوزير أبي نصر بالتواطؤ على قتله، ثم بعث نوح رسولا إلى سبكتكين يرجوه تعيين خلفا للقتيل، فترك سبكتكين الأمر للأمير نوح الساماني نفسه، فوقع اختياره على أبي المظفر محمد بن إبراهيم البرغشي الذي ظل يشغل منصب الوزارة حتى وفاة الأمير نوح في يوم الجمعة الرابع عشر من رجب عام ٣٨٧هـ/٢٣ يوليو ٩٩٧م^(٢).

وفي تلك الظروف تفجرت الأحداث في خراسان من جديد أثناء غياب كل من سبكتكين ومحمود، حيث ثار أحد إخوة أبي علي السيمجوري ويدعى أبا القاسم انتقاما لما حدث لأخيه، واستطاع حصار نيسابور والاستيلاء عليها، إلا أن هذه الحركة سرعان ما خمد أوارها، عندما سارع محمود بن سبكتكين بالسير إلى نيسابور عائدا إليها، إذ اضطر

(١) العتبي، نفسه، ج ١، ص ٥٧، النرشخي، تاريخ بخاري، ص ١٩٦، بارتولد،

تركستان، ص ٤٠١.

(٢) بارتولد، تركستان، ص ٤٠١-٤٠٢.

أبو القاسم السيمجوري إلى إخراجها فارا بنفسه من لقاء جيش محمود الذي استقامت له أمور خراسان. وبعد أن اطمأن سبكتكين إلى أحوال خراسان فضل العودة إلى غزنة. فقلعه أراد الاطمئنان على أحوالها، وربما كما يذكر بعض المؤرخين، لإحساسه بالمرض وعدم قدرته على تحمل الظروف المناخية في بلخ التي كان يحكمها مما دفعه للعودة. ولكن اشتد عليه المرض فمات وهو في طريقه إلى غزنة (٣٨٧هـ/٩٩٧م)، بعد أن حكم عشرين عاما وضع خلالها أساس إمبراطورية الغزنويين بفضل ما أحرزه من نصر مؤزر في فتوحه في الشرق والغرب، وما اشتهر عنه من الصلابة وقوة الإرادة ومثانة الخلق، وكان سبكتكين عادلا خيرا كثير الجهاد، حسن الاعتقاد، ذا مروءة تامة وحسن عهد ووفاء^(١). وقد رثاه شاعره المشهور أبو الفتح البستي وكان كاتباً له بقوله^(٢):

قلت إذ مات ناصر الدين والدو لة حباه ربه بالكرامة
وتداعت جموعه بافتراق هكذا هكذا تكون القيامة

ولاية يمين الدولة محمود بن سبكتكين الغزنوي

(٣٨٨-٤٢١هـ/٩٩٨-١٠٣١م):

أوصى سبكتكين قبل وفاته أن تؤول إمارة غزنة ومعها بلخ إلى ابنه الأصغر إسماعيل متخطيا بذلك حق محمود الأكبر سنا، والأكثر تجربة في إدارة أمور السياسة والحرب. ويرجع الهروي ذلك إلى أن محمود كان قد حرم من ميراث أبيه دون أن يذكر الأسباب التي دفعت سبكتكين

(١) العتبي، تاريخ اليميني، ح ١، ص ٥٠-٥١، ٥٤، حسن إبراهيم حسن، تاريخ

الإسلام، ح ٣، ص ٨٧.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٢٦٢-٢٦٣.

لحرمانه من هذا الميراث. ورغم أن سبكتكين أدرك قبل وفاته كفاءة محمود وقدرته سياسيا وعسكريا، وضعف قدرات إسماعيل بالنسبة لمحمود إلا أنه أقدم على هذه الخطوة، وأوصى أن تؤول الإمارة من بعده لإسماعيل. وقد أدى هذا إلى استضعاف الجند لإسماعيل، فاشتطوا في طلب الأموال منه حتى أفنى الخزائن التي خلفها أبوه^(١). على الرغم من أنهم هم الذين رفعوه إلى دست الإمارة تنفيذا لوصية أبيه.

ونظرا لما قدره محمود من خطورة اشتعال الفتنة داخل البيت الغزنوي، لاسيما بعدما رأى حدوث الاضطرابات المتكررة في خراسان، فرأى بثاقب نظره حل هذه المشكلة سلميا مع أخيه. ولكن إسماعيل رفض الحلول السلمية^(٢). وعلى العكس من ذلك أسرع بتقديم مساعداته للأمير الساماني أبو الحارث منصور بن نوح وحرضه على حرب محمود في خراسان، مما دفع بالمشكلة بين الأخوين إلى اتخاذ خطوات أخرى غير سلمية.

ولاندرى العوامل الأساسية التي جعلت سبكتكين يسند ولاية عهده لإسماعيل بدلا من محمود، رغم وضوح الاختلاف في قدرات كل منهما. ويميل بعض المؤرخين مثل (بوزورث) إلى تفسير هذا العمل على أساس أن إسماعيل بن سبكتكين من زوجته التي كانت لها مكانتها الخاصة عنده وهي ابنة ألبتكين قائده ومولاه من قبل، أما محمود فكان ابنه من زوجة أخرى وهي أخت حاكم زابل حتى أن محمود كان يطلق عليه الزابلي. إلا أنه يبدو أن سبكتكين وضع في اعتباره بالإضافة إلى العامل السابق أن خراسان في حاجة إلى قائد متمرس لإدارة أمورها، ولم

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص١٨٤، أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص١٢٣.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص١٨٥.

يجد شبيها لمحمود ابنه في قدراته السياسية والعسكرية التي ظهرت إبان فترة حروب سبكتكين في الهند، وكذلك في حسن إدارة محمود لخراسان بعد ذلك، مما دفع سبكتكين إلى منح حكم غزنة لإسماعيل وترك خراسان لمحمود، حتى تظل هذه الولاية - خراسان - لأهميتها الاستراتيجية والاقتصادية تابعة للغزنويين، ولكن محمود لم يفتح بذلك بعد وفاة أبيه^(١).

ولما يأس محمود من الحل السلمي اضطر للسير نحو غزنة، لإرغام أخيه على الخضوع له. واستطاع محمود ضم قوة عمه (بغراجق) إليه، وكان عمه متوليا على هراة وبوشنج من مدن خراسان. وضم محمود إليه أيضا بعض قوات أخيه نصر الذي كان متوليا بست. وبعد أن اطمأن محمود إلى قوة جيشه سار إلى غزنة، فاضطر إسماعيل إلى ترك بلخ والرجوع ناحية غزنة للدفاع عنها، حيث وقعت الحرب بين الجانبين، فانتصرت قوات محمود، وتمكنت من حصر إسماعيل في إحدى القلاع، فلم يلبث أن طلب الأمان الذي منحه له محمود وأشركه معه في الإمارة، لكنه ألقى به في السجن بعد مدة لسوء ظن به، ومات إسماعيل في السجن، وكانت مدة إمارته سبعة شهور، فتمكن محمود بعد ذلك من الأفراد بالولاية في غزنة^(٢).

وكان من أهم أغراض محمود الغونوي بعدما وضع يده على مملكته الصغيرة التي ورثها عن أبيه سبكتكين أن يرث ملك السامانيين. ولكن محمود الذي جاء إلى غزنة لم يكن على استعداد للتنازل عن سلطاته في خراسان، ولعله تلكا كثيرا في مساومة أخيه إسماعيل لحل ما بينهما

(١) فتحي أبو سيف، خراسان، ص ١٨٥.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص ١٨٥، ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٤٦٩-٤٧٠، عبد العزيز جنكيزخان، تركستان قلب آسيا، ص ٢٥٠، عباس إقبال، تاريخ إيران، ص ١٧٢.

سلميا لتوقعه خطورة ترك هذه الولاية. ولذلك ما أن قضى على تمرد اسماعيل حتى عاد إلى خراسان من جديد، فوصل إلى بلخ حيث تقابل مع الأمير الساماني منصور بن نوح الذي بارك انتصاراته على أخيه ومنحه حق ولاية بلخ وهرارة وترمذ وبست إرضاء له وتعويضا عن ولاية خراسان التي كان بكتوزون مدير أمر الأمير الساماني قد استولى عليها مستغلا الصراع الدائر بين أبناء سبكتكين محمود واسماعيل^(١). ولكن الأمير الساماني رفض الموافقة على منح محمود حق قيادة الجيوش في خراسان كما كانت له من قبل. وذلك لأن قيادات بخاري العسكرية أرغمت الأمير أثناء غياب محمود عن خراسان على منح هذا المنصب إلى أحدهم وهو (بكتوزون). وحاول محمود الذي حز في نفسه تصرف الأمير منصور بن نوح معه عن طريق المراسلات والسفراء أن يسترد له منصبه بقرار جديد من الأمير منصور بن نوح، ولكن الأمير الذي فقد سلطانه لم يجرؤ على استصدار هذا القرار، مما جعل محمود يعد عدته للسير نحو نيسابور لاستعادة منصبه بالقوة. إلا أن بكتوزون هرب من المدينة انتظارا لوصول الإمدادات، حيث سار الأمير منصور نفسه لإمداده واجتمعت قوتيهما بالقرب من سرخس، وأنعم الأمير علي بكتوزون بلقب "سنان الدولة" نكاية في محمود بن سبكتكين، مما جعل محمود يترك نيسابور مؤقتا وانحاز إلى مدينة مرو الروذ.^(٢)

ولا ندري الأسباب التي جعلت كل من فانق وبكتوزون اتفقا على عزل الأمير منصور بن نوح حيث تم عزله فعلا، إذ استطاعوا القبض عليه عندما كان يتنزه في رحلة صيد ووكلا به من سمل عينه بعد أسبوع

(١) ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٤٦٩-٤٧٠.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص ١٩١، ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٤٧٠.

من ذلك وأرسلوه إلى بخاري، وعينوا بدلا منه أحد أخوته ويدعى أبو الفوارس عبد الملك بن نوح (٣٨٩هـ/٩٨٨م). فعمل بكتوزون وفائق تشككا في إخلاص منصور بن نوح لهما، وأما ما ذكره (العنبي) أن محمود بن سبكتكين كان يعلم انشقاكات فائق وبكتوزون على الأمير منصور، ثم ما تبع ذلك من غضب محمود عندما سمع بعزل الأمير الساماني^(١) لنا أن نحتمل حدوث بعض الاتصالات الودية والتي ربما حدثت سرا بينه وبين الأمير الساماني. فلما تشكك كل من فائق وبكتوزون في إخلاص الأمير منصور لهما قاما بعزله.

واتخذ محمود بن سبكتكين من هذه الحادثة ذريعة له في الهجوم على هذه القوة المعادية، وأرسل إليهما "يقبح عليهما فعلهما، وسار نحوهما طامعا في الاستيلاء على الملك"^(٢). فسار تجاه سرخس حيث جمعت قوتهم، ولكنهم ما أن سمعوا باقترابه حتى انسحبوا إلى مرو، فجد محمود في طلبهم وألحق بهم، وكادت الحرب أن تقع بين الطرفين إلا أنه تم التوصل بين الجانبين عن إمكانية الحل السلمي، حيث اتفق مبدئيا على احتفاظ محمود بولاية بعض المدن الخراسانية الهامة أمثال بلخ وهراة وغيرها، بينما تبقى نيسابور ومرو لبكتوزون وفائق، مع احتفاظ بكتوزون بقيادة جيش خراسان، فيكون محمود بهذه الاتفاقية قد خسر منصبه الذي حرص على الحفاظ عليه. ورغم ذلك فقد رضى بهذا الاتفاق، ومن الواضح أن الذي حمله على ذلك كما يذكر (بارتولد) هو التفوق العددي لخصومه الذين انضم إليهم أبو القاسم سيمجوري. ورغمما

(١) العنبي، تاريخ اليميني، ح ١، ١٢٤، ابن الأثير، الكامل، ح ٧، ص ١٩٦،

ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٤٧٠.

(٢) ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٤٧٠.

من أن هذا الاتفاق لم يكن لصالح محمود إلا أنه سرّ به كثيرا حتى أنه تصدق كما تذكر بعض المصادر (الكرديزي والبيهقي) بألفي دينار على الفقراء متبشرا بالسلام الذي حل على أطراف النزاع، وكان ذلك في ٣٨٩هـ/ مايو ٩٩٨م^(١).

ولكن هذا السلام لم يعش طويلا، وذلك لأن الجبهة المعادية لمحمود بن سبكتكين لم تكن طرفا واحدا، وإنما كانت أشبه بالحلف الذي ضم عدة أطراف بكتوزون وأنصاره، وفائق وفرقتة العسكرية، وأبو القاسم السيمجوري وجماعته، ومعهم الأمير الساماني، وبالإضافة إلى كل هؤلاء جمع هذا الحلف أيضا طرفا آخر وهو الأمير دارا بن قابوس ابن وشمكير الديلمي الذي لم يوافق على هذا الاتفاق، فحرض بعض أتباع الأمير الساماني وجنده على مهاجمة مؤخرة جيش محمود التي كانت تحت قيادة أخيه نصر مما أثار محمودا، فأصر على الحرب بعد أن كان قد مال إلى السلام. ولا ندري الأسباب التي جعلت محمود مسبقا يوافق على قبول الاتفاق والصلح، ورغم أن هذا الاتفاق كان ينص على حرمان محمود من قيادة جيوش خراسان، وهو المنصب الذي حرص عليه حرصا شديدا. وأغلب الظن أن محمود بعد حصوله على إمارة غزنة أصبح مولعا بإدارة أمورها، وكان يخشى غيابه عنها طويلا فتحدث بها بعض الفتن الداخلية، أو تتعرض أملاكه الهندية إلى غزوات الهنود، لذلك لم يمانع أولافي عقد هذا الاتفاق الذي أعطى له بعض الحقوق في خراسان، وأمن جانب القوة الأخرى، ولكنه عندما تأكد من عدم جدوى مثل هذه الاتفاقات أصر على استئصال شأفة هذه القوى ليريح نفسه نهائيا من أخطارها^(٢).

(١) بارتولد، تركستان، ص ٤٠٤، فتحي أبو سيف، خراسان، ص ١٨٧.

(٢) فتحي أبو سيف، خراسان، ص ١٨٨.

ونظم محمود جيشه لخوض الحرب الفاصلة مع القوى الخراسانية والسامانية ومن انضوى في صفوفهم. فوضع محمود نصر بن سبكتكين في الميمنة، ووضع أحد قاداته الموثوق بهم في المسيرة، وتولى هو بنفسه القلب، وبلغت قواته التي خاض بها هذه الحرب ما يقرب من ثلاثين الف مقاتل. وقد استخدم محمود الفيلة في القتال حتى بلغ عددها في هذه الحرب زهاء مائتين، وبدأ هجومه على القوى المتحالفة بالقرب من مرو في جمادى الأولى ٣٨٩هـ/ ٩٩٨م فكان النصر حليفه حيث تشتت أعداءه، ففر الأمير عبد الملك بن نوح إلى بخاري ومعه فائق تاركاً أتباعه بين قتلى وأسرى، وفر أبو القاسم السيمجوري نحو خوزستان، كما لاذ بكتوزون فاراً نحو نيسابور ومنها إلى جرجان، وبدأ محمود يعين عمالاً من قبله على مدن خراسان، نذكر منهم أبو الحارث أرسلان الجاذب الذي تولى مدينة طوس، وقام بدور هام في القضاء على جيوب المقاومة التي تصدت لسلطان محمود على خراسان. (١)

وبهذه الانتصارات أصبح محمود بن سبكتكين سيداً على خراسان، فعين أخاه نصر قائداً لجيوشها ولقبه بلقب (إسفهسالار) أي قائد جيوش خراسان ونائب الملك بها، وعاد إلى بلخ لمراقبة الأحداث في بخاري (٢). وأراد محمود أن يصبغ ولايته لخراسان بصبغة شرعية، فأرسل إلى الخليفة العباسي القادر بالله تقريراً عما حدث بينه وبين أمير السامانيين، وفي هذا التقرير يؤكد محمود أن سبب الحرب كان امتناع السامانيين عن الاعتراف بالخليفة. وأصبحت الخطبة في خراسان

(١) العتبي، نفسه، ح ١، ص ١٣٠-١٣١، ويحدد ابن خلدون تاريخ هذه المعركة بعام

٣٩٠هـ (العبر، ح ٤، ص ٤٧٠-٤٧١).

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص ١٨٦.

لمحمود بن سبكتكين وللخليفة القادر، إذ كانت الخطبة حتى ذلك الوقت باسم الطائع لله فغيرها محمود للقادر، ولم يمض وقت طويل حتى وصلت محمود مباركة الخليفة لما قام به، وأضفى الخليفة الشرعية على حكم محمود وما استولى عليه، وبذلك زالت الدولة السامانية من خراسان على يد محمود الغزنوي، ويعلق العتبي على ذلك بقوله "ورث دولة آل سامان وملك ديار خراسان". وعبر الخليفة عن رضاه فأصبغ على محمود الألقاب الفخرية "مثل نظام الدين"، و"يمين الدولة وأمين الملة"، حيث صارت ألقابه بعد ذلك، كما لقب محمود بعد بالسلطان وهو أول من لقب به، وظهرت هذه الألقاب على السكة التي كانت تحمل اسمه^(١).

أما أمير بخاري المهزوم فقد تعقدت أمامه الأمور بموت فائق الذي كان يمنيه بإمكانية إعادة الصفوف لحرب محمود^(٢). ثم طويت بعد ذلك صفحات سيادة السامانيين على خراسان، بل وعن بخاري نفسها، التي دهمتها في نفس السنة (٣٨٩هـ/٩٩٨م) جيوش إيليك خان وهو أبو نصر أحمد الذي يلقب بشمس الدولة^(٣) واستطاع دخول بخاري وأسر أمير السامانيين وأهل بيته. ويحدثنا (الصابي) عن حركات المقاومة التي قامت في بخاري للإبقاء على سيادة السامانيين، وعن انقسام الأهالي بين مؤيد لهم ومعارض إلى أن وصل الأمر بفقهاء المدينة أن أعلنوا عدم

(١) ابن الأثير، نفسه، ح ٧، ص ١٨٦-١٨٧، ابن خلكان، وفیات، ج ٢، ص ٨٤-٨٥،

حسن إبراهيم حسن، نفس المرجع، ح ٣، ص ٨٨.

(٢) أبو الفداء، المختصر، ج ٢، ص ١٣٤.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ح ٧، ص ١٩٧، ابن خلدون، العبر ج ٣، ص ٥٤٦، ح ٤، ص

٤٧١، بارتولد، تركستان، ص ٤٠٥.

شرعية قتال الخانية لاتفاقهم في الدين وحسن سيرتهم، مما ساعد على استسلام بخاري لسلطة الدولة الخانية^(١).

وبسقوط الدولة السامانية في بخاري، وسيطرة محمود الغزنوي على خراسان وتأييد الخلافة له بإعلان شرعية حكمه على هذه الولاية، تبدأ خراسان فترة أخرى في تاريخها تحت سيادة الدولة الغزنوية، "واتفق أصحاب الأطراف بخراسان على طاعته مثل آل أفريقون بالجوزجان والشاه صاحب غرسيان وبنى مأمون بخوارزم"^(٢).

وقد كان اعتلاء محمود الغزنوي العرش كسلطان مهيبا للغاية، وحدث ذلك في نفس الشهر الذي دخل فيه جيش إيليك خان بخاري (ذي القعدة ٣٨٩هـ / أكتوبر ٩٩٩م)، وقد أحاط محمود نفسه بمظاهر الأبهة والعظمة أكثر مما فعل السامانيون. ويذكر (بارتولد) أنه على الرغم من أن محمود الغزنوي قد تلقب بالسلطان، وخاطبه به مؤرخو البلاط وشعراؤه وكتاب الإنشاء، غير أنه ظل في حياته العادية يدعى بالأمير كخلفائه، ويستند في رأيه هذا بأن (الكرديزي) لا يكاد يستعمل لفظ السلطان كلقب لمحمود الغزنوي، كما أن هذا اللقب لم يكن من بين الألقاب التي ضربت على سكة الغزنويين الأوائل^(٣).

حروب محمود الغزنوي لصاحب سجستان:

ولم يكتف محمود بما استولى عليه من البلاد، بل عمل على مد نفوذه وتوسيع رقعة أملاكه، فيمم نازريه ناحية سجستان بهدف الاستيلاء

(١) فاميري، تاريخ بخاري، ص ١٢٣، بارتولد، تركستان، ص ٤٠٥.

(٢) ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٤٧١.

(٣) بارتولد، تركستان، ص ٤١١.

عليها. وكان يحكم سجستان في تلك الآونة (خلف بن أحمد)، الذي كان يحمل عداً خفياً ويتوجس خيفة من قوة الغزنويين الناهضة منذ أن استقل سبكتكين بحكم غزنة، واستيلاء محمود على خراسان بسبب مجاورة ملكه لملك الغزنويين. ورغم ذلك فقد توثقت الصداقة ظاهرياً بين الحكومتين السجستانية والغزنوية. ولما سنحت الفرصة لخلف بن أحمد للإغارة على أطراف بلاد الغزنويين لم يتورع عن انتهازها، فأغار على قهستان وهرارة وكان يحكمهما (بغراق) أخو سبكتكين وعم يمين الدولة محمود الغزنوي. وعند وفاة سبكتكين في عام ٣٨٧هـ، سرّ خلف بن أحمد عند سماعه هذا الخبر وأرسل ابنه (طاهر بن خلف) للاستيلاء على (بوشنج)، فنجح في ذلك وسلبها من يدي (بغراق)، فلما علم محمود بذلك أسرع لمساندة عمه في رد خطر طاهر بن خلف، غير أن القائد السجستاني نجح في إلحاق الهزيمة ببغراق وتمكن من قتله، فأشعل ذلك نار غضب محمود الغزنوي على حكومة سجستان واستعد للنار منهم.

وفي عام ٣٩٠هـ، كان خلف بن أحمد متوجهاً لقلعة (أسبهيد) إحدى قلاع سجستان الحصينة وبرفقته ولده وأهله، ففاجأه محمود بجيوش كثيفة عند هذه القلعة، وحاصره بها مدة طويلة، ولم يجد خلف بداً من التسليم، فنجح من الحصار بعد أن اقتدى نفسه بمائتي ألف دينار. (١) وبعدها انشغل محمود الغزنوي بفتوحه في بلاد الهند، فاسترد خلف بن أحمد رباطة جأشه وانتقم ممن ساندوا محمود الغزنوي على حصاره أشد انتقام، مما جعل ابنه طاهر يثور ضده مطالباً إياه بالاعتزال، فوافق خلف ابن أحمد على التنازل عن إمارته لابنه، وتظاهر بالانشغال بالعبادة

والعزلة وخذع ابنه بالحيلة والتدبير وإظهار شفقة الأب على ابنه، فلما تمكن من ابنه قتله ثم غسله وكفنه وأوسده الثرى بنفسه، وكان ذلك في عام ٣٩٢هـ.

وجار أهل سجستان في النهاية من مظالم خلف بن أحمد، واستدعوا محمودا الغزنوي لكي يخلصهم من جور وعسف أميرهم، ووعدوه بالمساعدة وتسليم بلدهم إليه، فأسرع محمود بإجابة مطالبهم وكان يتربص أن تسنح له مثل هذه الفرصة، فقاتل خلفا بن أحمد وحصره في قلعة (طاق) إحدى قلاع سجستان، وبعد أربعة أشهر من المقاومة سلم خلف واستولى محمود على سجستان في صفر من عام ٣٩٣هـ، وأرسل بخلف بن أحمد إلى الجوزجانان، فألقى به في السجن لما سمع بمكاتبة الإيلخان، ثم قتل في سجن (دهك) بين زرنج وبست، غير أن سجستان لم تلبث أن خرجت على طاعة السلطان محمود الغزنوي، فجرد إليها حملة كبيرة نجحت في الاستيلاء عليها وإخضاعها لسلطانها، فأقطعها أخاه صاحب الجيش نصر بن سبكتكين مضافة إلى نيسابور^(١).

السلطان محمود وخانات الترخستان :

وكان الخانيون أو الخانات الذين استولوا في ذلك الوقت (٣٨٩هـ) على بلاد ما وراء النهر، وكانوا قد خلفوا السامانيين في تلك البلاد. كانوا مسلمين يعدون قبول أمير الخليفة العباسي فرضا ويعتبرون

(١) العتبي، تاريخ اليميني، ج ١، ص ٩٩-١٠٤، ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٤٨٠-

٤٨١، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج ٣، ص ٨٨، عباس إقبال، تاريخ

إيران بعد الإسلام، ص ١٧٣-١٧٤.

أنفسهم كالعزنيين أتباعا للخليفة القادر ويسكون عملتهم ويخطبون باسمه، وأطلقوا على أنفسهم "موالي أمير المؤمنين".

وقد وقع نزاع بسبب منتصر الساماني بين محمود والأيلك نصر خان الذي حمل لقب "ناصر الحق" وضربه في سكته، غير أن هذه الفتنة قد خمدت وتزوج محمود ابنة نصر خان وبدأ السلام بين هذين الأميرين التركيين وأضحى نهر جيحون الفاصل بين ملكيهما. (١) وقد تلقى محمود هذا الصلح بحبور لأنه كان يتربص الفتح في الهند التي نذر أن يغزوها كل عام ويريد أن يفرع للاهتمام بها. لكن الصلح لم يدم طويلا لأن الأيلك نصرا بمجرد أن توجه محمود لإحدى غزواته وأقام في المولتان بالسند (٣٩٦هـ) أرسل قائدخ (سباشي تكين) للسيطرة على خراسان من ناحية و(جعفر تكين) حاكم بخاري إلى بلخ للاستيلاء على طوس ونيسابور من ناحية أخرى، وقد حقق الجيشان هدفهما، ولكن بينما أبدى سكان بلخ مقاومة مستميتة دفعت الغزاة فيما بعد إلى أن يسلموها للنهب، كان موقف أهالي نيسابور إزاء الغزاة سلبيا للغاية، بل إن الطبقة الارستقراطية أخذت جانبهم. ولما وصل الخبر إلى محمود الغزنوي عاد سريعا إلى غزنة ومنها إلى خراسان وهزم جعفر وسباشي وأنقذ خراسان من سيطرة الخانيين. وفي السنة التالية عبر الأيلك نصر بعون قدرخان بن بغراخان والى الختن بجند آخرين وأسرع لمحاربة محمود وكان مقيما في طخارستان في هذا الوقت مع جمع من الأتراك الغز والخلجيين (نسبة إلى خلج بكسر الخاء وهو لفظ تركي ينطق حاليا خلخ بمعنى السيف)

(١) يذكر ابن خلدون (العبر، ج ٤، ص ٤٨٢) أن الإمام سهل بن محمد بن سليمان الصعلوكي وطغان بك والى سرخس كاتا وسطاء الزواج والسلام بين السلطان محمود وإيلك خان.

والأفاغنة والهنود وخمسمائة فيل حربي. وفي الثاني والعشرين من ربيع الثاني من عام (٣٩٨هـ) على مقربة من جسر (جرخيان) على نهر بلخ في صحراء (كنز) على بعد فراسخ أربعة من بلخ استبك الطرفان ولقي جيش الخانيين هزيمة قاسية وغرق جزء منهم في الماء أثناء فراره. ويقال إن الأيلىك حين عثف قواده أجابوه بقولهم: "ليس لأحد قبل بمقاومة تلك القبلة وذلك السلاح والعدة وأنتك الرجال" كما يذكر الكرديزي وأكثر الشعراء تهنئة السلطان محمود بهذا الفتح^(١).

ومعركة (كنز) إحدى الوقائع العظيمة الأهمية في تاريخ الغزنويين، لأن خطر الخانيين من هذا الوقت حتى عهد السلاجقة قد انتهى عن خراسان. أما نصر فقد ثار عليه أخوه (طغان خان) حاكم (كاشغر) بسبب هزيمته وتحالف مع محمود في عام ٤٠٢هـ/١٠١٢م، ولم يستطع الخانيون بسبب نشوب الاختلافات الداخلية بينهم منافسة محمود أو مساواته، بل كان كل منهم يستمدد على الآخر وكان حكمه جاريا متبعا في بلادهم.

استيلاء محمود الغزنوي على خوارزم (٤٠٧-٤٠٨هـ)

كانت خوارزم،^(٢) وهي منطقة خيوه الحالية تحت إمرة أسرتين من الأمراء على عهد السامانيين أو لاهما أسرة المأمونيين التي حكمت

(١) ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٤٨٣-٤٨٤، بارتولد عن الكرديزي، تركستان، ص ٤١٢، عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ١٧٤-١٧٥.

(٢) خوارزم ناحية مشهورة ذات مدن وقرى كثيرة، وسيدة الرقعة فسيحة البقعة، وكان لإقليم خوارزم قصبان أولهما في الجانب الغربي (الفارسي) من نهر جيحون تسمى الجرجانية. والأخرى في الجانب الشرقي (التركي) يقال لها كاش. والخوارزمية يخالفون أهل الجانبين في الرسوم واللسان والخلق والطباع، وبخوارزم مدن درغان وكردران وسافردز وهزاراسب وغيرها، وكان يصدر منها ثياب القطن =

على الجزء الشمالي لنهر جيجون، وكانت عاصمتهم مدينة جرجانج أو الجرجانية أو أورجنج مدينة خيوه الحالية قد حلت محلها، وثانيهما الخوارزمشاهيون القدماء الذين سيطروا على الساحل الأيمن أي الجزء الشرقي لنهر جيجون وكانت عاصمتهم مدينة كاث أو شهرستان. وتجدر الإشارة إلى أن أخبار استيلاء محمود الغزنوي على خوارزم، قد استقيناهما من رواية مفصلة وفريدة نقلها (بيهقي) عن (تاريخ خوارزم) للبيروني.

وقد سبق ذكر لأبي العباس مأمون بن محمد صاحب جرجانية وقتلنا أن هذا الأمير حمل على أبي عبد الله خوارزمشاه صاحب شهر كاث (٣٨٥هـ) الذي كان قد أسر أبا علي السيمجوري واستخلص منه خوارزم الشرقية وقتله في نفس هذه الآونة في مقابل أبي علي السيمجوري، وقد أطلق على أبي العباس صاحب جرجانية من هذا الوقت خوارزمشاه أي ملك خوارزم في حين أن هذا اللقب كان لولاية كاث. وبعد وفاة أبي العباس في (٣٨٧هـ) خلفه ابنه أبو الحسن علي وقيل بيعته للخانيين بعد سقوط السامانيين، وبما أن محموداً قد تغلب عليهم فقد سالمه أبو الحسن وتزوج من أخته. وتولى جرجانية وخوارزم أبو العباس مأمون بن مأمون بعد أخيه أبي الحسن وتزوج هو أيضاً بأخت أخرى لمحمود، وكان مطيعاً للسلطان مجبرا حتى (٤٠٧) سنة قتله ولكنه كان يظهر الإخلاص والمحبة للخانيين.

والصوف أمتعة كثيرة تصل إلى الأفاق. وهم أكثر أهل خراسان إنتشاراً وسقراً (ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٩٥-٣٨٩، المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٨٤ وما بعدها، القزويني آثار البلاد، ص ٥٢٥-٥٢٧، لسترنج، بلدان الخلافة، ص ٤٨٩ وما بعدها).

وفي نفس العام ساء ظن محمود بخلوص نية أبي العباس فطلب إليه أن يخطب له في خوارزم فتظاهر خوارزمشاه بقبول طلبه، لكن أعيان خوارزم وأمراءها لم ينصاعوا وثاروا على حاكمهم وقتلوه وأمروا عليهم ابن أخيه أبا الحارث محمدا بن علي، فقصده السلطان محمود خوارزم بحجة الانتقام لدم أبي العباس خوارزمشاه وإنقاذ أخته بجيش ضخم، وبعد معركة في (هزاراسب) بالقرب من جرجانية هزم جند خوارزم شاه هزيمة شديدة، ثم دخل في الخامس من صفر (٤٠٨ هـ) جرجانية وقبض على جميع أفراد الأسرة المأمونية وأتى بهم غزوة، وترك خوارزم إلى قائده المشهور الترنتاش وزوال آل مأمون وصار الترنتاش ملك خوارزم. (١)

إن استيلاء محمود الغزنوي على خوارزم "التي انضافت كإحدى إخوانها إلى سائر ممالكه" كما يقول (العتبي) قد أعطاه التسوق على القراخانيين في بلاد ما وراء النهر.

وكان أفراد الأسرة المأمونية أغلبهم فضلاء محبين للفضل، وكانت جرجانية في عهدهم مركز اجتماع العلماء والفضلاء حتى أن أبا علي بن سينا كان يعيش هناك في بلاط أبي الحسن علي وأبي العباس مأمون، وكان أبو الريحان البيروني أيضاً من أجلة خواصهم ومستشاريهم (٢).

(١) ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٤٨٨-٤٨٩.

(٢) بارتولد، تركستان، ص ٤١٥-٤١٦، عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص

فتوح محمود الغزنوي في بلاد الهند (٣٩٢-٤١٦هـ) :

اصطبغت حملات محمود الغزنوي في بلاد الهند بين أعوام (٣٩٢-٤١٦هـ/١٠٠٠-١٠٢٤م) بصيغة الجهاد الديني، وكان يرمي من وراء هذه الحملات إلى نشر الإسلام في هذه البلاد ليكون ذلك كفارة لما كان من قتال المسلمين. ولذلك فرض - كما يقول ابن خلكان - على نفسه في كل عام غزو الهند. في حين كان محمود يبطن الإغارة على بلادهم ومعابدهم ومحال أصنامهم التي شهرت بكثرة ثروتها وآلاتها وأدواتها وأصنامها الفضية والذهبية، وقد جلب معه كل مرة بالإغارة على مدنهم غنائم لا تعد ولا تحصى. أضف إلى ذلك أن جيبال ملك البنجاب الذي حارب أباه سبكتكين حروبا طاحنة، كان لا يزال في قوة لا يستهان بها، كما أن قرب غزنة من بلاد الهند الشمالية، ووقوعها على قمة الهضبة التي تشرف على سهولها يجعلها سهلة الاتصال بوديان كابل وقورم ونهر جمال. كل ذلك أمد محمودا بمزايا فريدة ساعدت على نجاح غزواته في بلاد الهند. ومما ساعد محمودا على تحقيق هذه الأغراض كذلك استيلاؤه على بلاد ما وراء النهر التي آلت إلى إيليا خان بعد زوال الدولة السامانية، وعلى سجستان وبلاد الغور، مما قوى مركزه الحربي في الداخل وأطلق يده في توجيه حملاته المنتظمة إلى بلاد الهند. هذا ومن المعروف أن الهند لم تكن غريبة على محمود فقد سبق له أن شارك أباه سبكتكين في غزواته لها من قبل، مما يسر له الإطلاع على أحوالها والوقوف على قدر غير قليل من أساليب القتال عند أهلها. (١)

(١) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج ٤، ص ٩٠، الساداتي، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية، ج ١، ص ٨٧.

ولقد بدأ محمود هجماته على الهند بعد جلوسه على العرش في غزنة بخمس سنوات، وأنهاها قبل وفاته بخمس سنوات أخرى، لأنه انشغل بقمع أعدائه في الداخل والقادة السامانيين والخانات والأمير خلف بن أحمد صاحب سجستان، وفي الخمس سنوات الأخيرة لم تتركه ثورات العراق وخراسان والاهتمام للخطر التركي السلجوقي، أن يتوجه للهند خالي البال.

وفي سنة ٣٩٣هـ غزا محمود الغزنوي شمال الهند على رأس عشرة آلاف مقاتل؛ وانتصر على جيبال وأسره وغنم غنائم كثيرة حتى قيل إن عدد الأسرى بلغ أكثر من خمسمائة ألف، ثم أطلق جيبال على جزء من المال يؤديه وخمسين رأسا من الفيلة. وكان من عادة الهنود أن من وقع منهم أسيرا في أيدي المسلمين لا تتعد له بعدها رياسة، ولذلك حلق جيبال رأسه، ثم ألقى نفسه في النار فاحترق، وترك مملكته لابنه أنندبال Anandapal. وكان من أثر ما أحرزه محمود من نصر في هذه الغزوة أن أطلق عليه "الغازي" (١).

وبعد أن أحل محمود الغزنوي الهزيمة بجيبال سار نحو ويهند Und وانتصر على أهلها، ثم قصد إقليم الملتان، وهو مركز مشهور للحجاج من الهنود في جنوب بلاد البنجاب على سمت غزنة؛ فاستولى على مدينة بهاطية، وانتصر على صاحبها بحيرا (٣٩٥هـ) ونشر الإسلام فيها، وولي عليها أحد المسلمين، وعهد إليه بتعليم أهلها قواعد الإسلام. وفي سنة ٣٩٦هـ قصد محمود مدينة الملتان نفسها، وانتصر وهو في طريقه إليها على أنندبال بن جيبال لأنه لم يسمح له بالمرور من بلاده،

(١) ابن الأثير، الكامل، ح ٨، ص ٢٠٤، ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٤٨٠، الساداتي، نفسه، ح ٢، ص ٨٨.

ولما سمع أبو الفتوح داود صاحب الملتان وكان يدين أهلها بمذهب القرامطة، بقدوم محمود الغزنوي إلى بلاده، فر إلى سرنديب، فقضى محمود على مقاومة أهلها وافتتحها عنوة وفرض عليها الجزية. (١)

وفي سنة ٣٩٧ هـ أعلن محمود الغزنوي الحرب على ولد أئندبال الذي اعتنق الإسلام على يد محمود وتلقب بلقب نواسه شاه وحكم بلاده نيابة عنه، ولكنه ارتد عن هذا الدين وشق عصا الطاعة، فسار إليه محمود وانتصر عليه وضم بلاده إلى أملاكه. (٢)

وبينما كان محمود مشغولا بحرب إيلك خان، الذي استولى على بلاد ما وراء النهر من يد السامانيين ثم حارب جيوشهم على مقربة من بلخ وجيوش الغور على ما تقدم، عقد ملوك الهند وأمراؤها حلفا لمقاومة محمود والدفاع عن بلادهم وعن دينهم. وفي سنة ٣٩٨ هـ عبر محمود نهر السند والتقى في ويهند الواقعة في البنجاب بجيش جرار يتألف من قوات أبرهمن بال بن أئندبال وراجات أدجين وجواليار ودلهي وغيرها، وكادوا يظفرون بالمسلمين.

ثم تبع يمين الدولة أثر أبرهمن بال حتى بلغ قلعة بهيم نغر، وكان الهنود قد جعلوها خزانة لسنمهم الأعظم ونقلوا إليها الذخائر والجواهر، فنزلهم يمين الدولة وحصرهم وقتلهم وأرغمهم على طلب الأمان، وفتحوا باب الحصن وملك المسلمون القلعة، وصعد يمين الدولة إليها في خواص أصحابه وثقاته، فأخذ من الجواهر ما لا يحد ومن الدراهم تسعين ألف درهم شاهية، ومن الأواني الذهبية سبعمائة ألف

(١) ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٤٨١-٤٨٢.

(٢) ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٤٨٢، الساداتي، نفسه، ح ١، ص ٨٩.

وأربعمائة منا، وكان فيها بيت مملوء من فضة طوله ثلاثين ذراعاً وعرضه خمسة عشرة ذراعاً، إلى غير ذلك من الأمتعة. وعاد إلى غزنة بهذه الغنائم، ففرش تلك الجواهر في صحن داره؛ وكان قد اجتمع إليه الرسل والملوك، فأدخلهم قرأوا ما لم يسمعوا بمثله^(١).

وكان من أثر انتصار محمود في هذه الغزوة أن انتثر عقد هذا الحلف وزالت الثقة من نفوس هؤلاء الراجات، ودفع أنديبال إلى محمود غرامة كبيرة، وتعهد بأن يدفع إليه جزية سنوية، كما تعهد بأن لا يقف في طريقه إذا ما أراد المرور من بلاد البنجاب. أما داود صاحب بلاد الملتان فإنه ارتد إلى عقائد القرامطة، فغزا محمود بلاده في سنتي (٤٠٠-٤٠١ هـ) واستولى على حاضرتها وقتل كثيراً من أهلها، وقبض على داود وأرسله إلى بلاد الغور حيث قضى بقية حياته. ثم استولى محمود الغزنوي على (ناردبن) من قلاع البنجاب غرب نهر جيلم من أفرع نهر السند في سنة (٤٠٤ هـ) وهدم الصنم المعروف بسومنان وغنم غنام كثيرة^(٢).

ويعلق الدكتور الساداتي على كثرة حروب محمود الغزنوي في بلاد الهند بقوله "ولئن كانت فكرة الجهاد التي تسلطت على محمود ورجاله وأشرأبت بها نفوسهم، هي التي دفعت بهم إلى توالى غزوهم للهند، هذا بالإضافة إلى ما كان لكنوز هذه البلاد وثرانها الطائل من إغراء، فقد كان من العوامل البارزة التي ساعدت على إنتصارهم كذلك ما كان يغلب على الأمراء الهنادكة من تحلل إجتماعي جعلهم أبداً يقدمون

(١) ابن الأثير، الكامل، ح ٨، ص ٢٠٦، ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٤٨٤، حسن

إبراهيم حسن، نفسه، ح ٤، ص ٩١.

(٢) ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٤٨٥.

مصالحهم الخاصة ومآربهم الشخصية على كل شئ فلا يبغون عنها حولا، ولو حتى بقدر ضئيل في سبيل الهند".^(١)

ثم عزم محمود على امتلاك قشمير، ولكنه لم يوفق في حملاته العديدة التي قام بها في سنتي ٤٠٤ و ٤٠٥ و ٤٠٦ هـ وفقد كثيرا من جنده وغرق كثيرا منهم بسبب فيضان بعض الأنهار.

أقسم محمود على أن يغزو بلاد الهند في كل سنة، ولكنه انشغل في سنة ٤٠٧ هـ بضم بلاد خوارزم على أثر مقتل خوارزم شاه مأمون، ثم تفرغ لفتح قشمير لذلك نراه يسير من غزنة سيرا متصلا مدة ثلاثة أشهر، يعبر نهري سيجون وجيلوم فيخضع له ملوك هذه الجهات. ثم يستمر في سيره حتى يصل إلى قشمير فيخضع له صاحبها (جنكى بن شاهى) ويسلم على يديه. وضمن دلالة الطريق^(٢) ولما سمع راجا برن Baran، (ويدعى هودب أو هردتا Hardatta) زعيم بولند شهر بنبا وصول جيوش محمود إلى بلاده، سقط في يده، وأخذ الفرع من نفسه كل مأخذ وخشي على حياته من عقاب الله، ولم ير بدا من اعتناق الإسلام، إذ رأى أن هذا الدين يحوطه سياج متين من قوة الله سبحانه وتعالى. وسرعان ما تقدم على رأس عشرة آلاف من رجاله، وأعلنوا للفتحين رغبتهم في التحول عن دينهم القديم إلى الإسلام ومناصب الكفار العداء. ثم سار عنه إلى قلعة كلجند Kulchand، وعليها راجا مهبان Mahban، فقاتله محمود قتالا شديدا، وغنم المسلمون أمواله، وملكوا حصونه ثم سار نحو متعبد لهم في مدينة مثورا Mathura أو بندرابان Bandrapan، وهو يقع على نهر

(١) الساداتي، نفسه، ح ١، ص ٩١-٩٢.

(٢) وقشمير أو كشمير ناحية بأرض الهند متاخمة لقوم من الترك، فاختلط نسل الهند بالترك، فأهلها أكثر الناس ملاحه وحسنا، وهذه الناحية تحتوى على عدد كبير من المدن والضياح، وهى فى غاية المنعة (القزوينى، آثار البلاد، ص ١٠٤-١٠٥).

وفيه كثير من الأصنام : منها خمسة أصنام من الذهب الأحمر مرصعة بالجواهر، وكان فيها من الذهب ستمائة ألف وتسعون ألفا وثلاثمائة مثقال، ومن الأصنام المصوغة من النقرة حتى مائتي صنم، فأخذ يمين الدولة ذلك كله. ثم سار نحو كنوج Kannawj، وكان يحميها سبعة حصون على نهر الجنج، وكان صاحبها راجبال Radjyapala قد فارقها، ثم عبر نهر الجنج (أو كك على ما يسميه ابن الأثير) فاستولى محمود الغزنوي على قلاعها وأعمالها، وفيها نحو عشرة آلاف بيت من بيوت الأصنام. ثم سار إلى قلعة (البراهمة) وتسمى مجهاون Mujhawan فقاتلوه قتالا شديداً، فأحل بهم الهزيمة ولم ينج منهم إلا الشريد، ثم سار نحو قلعة آسي على نهر الجنج. فلما اقترب منها هرب صاحبها جندبال فاستولى عليها يمين الدولة، ثم سار إلى قلعة (شروة) Sharwa. فلما اقترب منها نقل صاحبها جنداري ماله وقبوله نحو جبال منيعة يحتمي بها، ففتحها يمين الدولة وغنم ما فيها، ثم سار في طلب جنداري، وأسر كثيراً منهم وغنم ما معهم من مال وفيلة. وكان السبي في هذه الغزوة من الكثرة بحيث أن أحدهم كان يباع بأقل من عشرة دراهم. ^(١) ولما عاد محمود الغزنوي من هذه الغزوة أمر ببناء جامع غزنة وأنفق على بنائه كل ما غنمه في هذه الغزاة، وجلب إليه جذوع الرخام من الهند، وفرشه بالمرمر، وأعلى جدرانه بالأصباغ وصباب الذهب المفرغة من تلك الأصنام، واحتضر بناء المسجد بنفسه، ونقل إليه الرخام من نيسابور^١، كما بنى أمام المسجد

(١) ابن الأثير، الكامل، ح ٨، ص ٢٤٩، ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٤٨٩-٤٩٠،

الساداتى، نفسه، ح ١، ص ٩٣.

مدرسة إحتوت فيها الكتب من العلوم القديمة، وأمر القواد والحجاب
وسائر الخدام فبنوا بجانب المسجد من الدور ما لا يحصى. (١)

وقد حز في نفس ملوك الهند ما أحرزه محمود الغزنوي من نصر
مؤزر وما أبداه بعضهم من تخاذل، فسار نندا راجا كالنجار Kalindjar
وراجا كواليار Gwaliyar إلى راجبال راجا كنوج وحارباه لتركة حاضرة
بلاده وقتلاه، وانضم إلى نندا كثير من ملوك الهند الخاضعين لنفوذ محمود
الغزنوي، الذي خسر سلطانه في هذه البلاد. فلم ير بدا من العودة إلى
الهند والقضاء على هذا الخطر قبل استفحاله، وقضى في طريقه على
جماعة من الأفغان الذين كانوا يقطنون المناطق الجبلية بين غزنة والهند
ويقطعون الطريق ويعوقون مواصلات محمود إلى هذه البلاد، ولما تم له
ما أراد، قصد نندا وحلفاءه وقضى عليهم في بلاد البنجاب وغنم منهم
غنائم كثيرة (١٠١٩/٤٠٩) (٢). ويذكر (ابن ظافر الأزدي) أن من جملة
المدن التي هاجمها السلطان محمود، مدينة (مهورة) التي تزعم الهنود أن
الجن كانت رفعت قواعد بنيانها وبنيت بيوت أصنامها، وكانت هذه المدينة
تشتمل على زهاء ألف قصر، وكان فيها ألف بيت للأصنام المصنوعة من
الذهب والفضة والمصنوعة من الخشب فعاد محمود إلى غزنة بما لا
يحصى من اليواقيت والجواهر ما لا يعرف له قيمة (٣).

وهكذا استمرت غزوات محمود الغزنوي في بلاد الهند سنة بعد
أخرى، حتى توج انتصاراته الباهرة في غزوته التي شنّها عليها باسترداد
ناردين، وهدم صنم (سومنان) وهو أعظم أصنامهم وكان الهنود يعتبرونه

(١) ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٤٩٠-٤٩١.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ح ٨، ص ٢٦٨، حسن ابراهيم حسن، نفسه، ح ٤، ص ٩٣.

(٣) ابن ظافر الأزدي، أخبار الدول المنقطعة، ص ٢٥٦-٢٥٧.

الملاذ الذي يحميهم من غزوات الغزنويين. "وكان كلما فتح محمود بن سبكتكين من الهند فتحا أو كسر صنما يقول أهل الهند: إن سومنات ساخط عليهم، ولو كان راضيا عنهم لأهلك محمودا دونه". فلما بلغ ذلك يمين الدولة عزم على غزوه وإهلاكه، ظنا منه أن الهنود إذا فقدوه ورأوا كذب ادعائهم الباطل دخلوا في الإسلام^(١). فاستعد لهذه الغزوة أتم استعداد، واخترق صحراء الهند (صحراء ثار) في ثلاثين ألف فارس سوى المتطوعة، واستولى على أجمر Adjmar وأهلواره Anhliwara، وتركها صاحبها بهيم Bhim، ووصل إلى سومنات في ١٦ ذي القعدة سنة ٤١٦ هـ (يناير ١٠٢٦ م)، فرأى حصنا منيعا يشرف على البحر من فوق مرتفع، واستبسل الهنود في الدفاع عنه أشد دفاع. ثم علم أن أمراء جوجرات Gudiarat الذين فروا قبل قدومه قد لموا شملهم للذود عن معبودهم وساروا نحو المدينة، فترك بعض رجاله يحاصرون الهند واتجه ببقية جيشه صوب جيوش هؤلاء الأمراء، وانتصر عليهم بعد أن كادت تحل به الهزيمة فولوا الأدبار، واستطاع أن يستولي على هذا الصنم المشهور. وكان من الحجر ويبلغ طوله خمسة أذرع وأرسل بقطع منه إلى غزنة ومكة وبغداد، وتذكر الروايات أن السلطان محمود هو الذي إقتحم المعبد وحطم بنفسه برمح كان معه هذا الصنم الشهير. وقد أقيم معبد (سومنات) وكان أحد النماذج الرفيعة لفن العمارة الهندية على قواعد حجرية وعمد بأعمدة خشبية، وكانت تبرق على سقفه أربع عشرة قبة من الذهب. وكانت خزائنه تغص بالنفائس والجواهر التي كان يبعث بها الراجان والزوار الهنود لسنين طويلة. وقد قدرت قيمة هذه النفائس التي

(١) ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٤٩٢.

غنمها محمود بنحو عشرين ألف ألف دينار. ^(١) وقد سر محمود الغزنوي بهذا النصر المؤزر، وأرسل إلى الخليفة يعلنه بما فتح الله على المسلمين في الهند ^(٢).

ويعلق الدكتور (الساداتي) على هذه الغزوة بأن محموداً لم يكن ليخاطر بعبور صحراء مهلكة مثل صحراء (ثار) لمجرد تحطيم صنم أو الإستيلاء على الأموال الموجودة في هذا المعبد الهندوكي. فواقع الأمر أن هذا المعبد كان أخطر مراكز المقاومة والعدوان الهندوكي. كما كان مقراً للخزانة التي ينفق منها على الأعمال الحربية، وهذا سبباً منطقياً للإستيلاء عليه. ^(٣)

ويقول (ابن ظافر الأزدي) إن هذا الصنم الذي هو أعظم الأصنام عند أهل الهند، قد أحيط حوله هالة كبيرة من القدسية، فهم يرون أنه يحيي ويميت، ويوجد ويغيث، ويبيد ويعيد، ويفعل ما يريد، وأنه إذا شاء أبرأ العطل من البرص والعمى والشلل، وزعموا أن الأرواح إذا فارقت الأجساد اجتمعت إليه فأنشأها فيمن شاء قبل الولادة، وهذا على مذهبهم في التناسخ، وكان كل ملك من ملوك الهند يقيم عنه نائباً في ملازمة عبادته والقيام بخدمته، ويرى أن ذلك إقامة لفرضه وتأدية لحجة، وكانت الهنود تعارض به البيت الحرام ^(٤).

(١) ابن ظافر الأزدي، أخبار الدول المنقطعة، ص ٢٥٩، - ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٤٩٣-٤٩٢.

(٢) ابن ظافر الأزدي، نفس المصدر، ص ٢٥٨، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٨٤-٨٥، حسن إبراهيم حسن، نفسه، ج ٣، ص ٩٣.

(٣) الساداتي، نفسه، ج ١، ص ٩٦.

(٤) ابن ظافر الأزدي، نفسه، ص ٢٥٨-٢٥٩.

وقد أعجب محمود بجمال إقليم جوجرات وحسن مناخه، حتى أنه فكر في اتخاذ (أنهلوارا) حاضرة له واستخلاف ابنه مسعود في حكم غزنة، لولا أن قواده أشاروا عليه بالعدول عن هذا الرأي، وإستولى على نهرواله وهو في طريق عودته إلى غزنة، التي عاد إليها محملاً بالغنائم. وكانت آخر غزوات محمود الغزنوي لبلاد الهند في سنة ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م) لتأديب الثوار الذين اعترضوه في أثناء عودته إلى غزنة، وأعد لهذه الغزوة أسطولاً صغيراً، وأحل الهزيمة بالجات (الزط) Djats في نهر السند. (١)

ولم يفتر محمود الغزنوي عن توجيه حملاته إلى بلاد الهند طوال عهده، حتى أننا نرى نائبه ينال تكين في هذه البلاد يستولي في السنة التي توفي فيها محمود على (نرسي)، وكانت تعد من أعظم مدن الهند في ذلك الوقت. ولقد علق كثير من الباحثين على غزوات محمود الغزنوي في بلاد الهند، يقول ولسلي هيچ: "يمكننا إلى حد ما أن نعتبر محمودا (الغزنوي) سلطاناً هندياً خالصاً. فقد فتح في خريف حياته إقليم البنجاب، ونشر الإسلام في ربوع الهند، وفتح طريقاً سلكه بعده كثيرون، وقنع خلفاؤه، بعد أن جردوا من أملاكهم في فارس وأفغانستان وبلاد ما وراء النهر، بحكم إقليم البنجاب، وكونوا أسرة هندية خالصة".

ويقول ستانلي لين بول: إن حملات الغزنويين في بلاد الهند واتخاذهم لاهور مقراً لهم، يمكن اعتبارها بدء حكم المسلمين الحقيقي في هذه البلاد. فقد مهدت الدولة الغزنوية في لاهور السبيل أمام محمد بن سام الغوري وخلفائه الذين تولوا سلطنة دلهي ونشروا نفوذ المسلمين في

أرجاء بلاد الهند الشمالية كافة. هذا ولو كانت غاية محمود من غزواته الهندية عموماً جمع الأموال فحسب، كما يقول بعض المؤرخين، لكان وافق على ما عرضه عليه الهنادكة إفتداء صنم سومنات بالأموال الطائلة، ولما رد عليهم بقوله المشهور بأنه يؤثر أن ينعتة الناس بأنه محطم الأصنام على أن يقولوا عنه بأنه بائع الأوثان.^(١)

وقد بلغ محمود الغزنوي في فتوحه "إلى حيث لم تبلغه في الإسلام راية ولم تنل به قط سورة ولا آية، فدحض عنها أجناس الشرك، وبنى بها مساجد وجوامع،^(٢) وأقام بدلاً عن بيوت الأصنام مساجد الإسلام، وعن مشاهد البهتان، معاهد التوحيد والإيمان، فصارت الأبطال تهدد في بطالاتها بإقدامه، وتفزع بإقبال ألويته وأعلامه، وظل أندبالهم وجيبالهم وكماتهم وأبطالهم كما قال الأشجع السلمي :

وعلى عدوك يابن عم محمد رصدان : ضوء الصبح والإظلام
فإذا تنبته رعته وإذا هسدا سلت عليه سيوفك الأحلام^(٣)

فتح الري وأصفهان (٤٢٠هـ) :

ومن أهم الأعمال التي قام بها محمود الغزنوي إزالته سلطان البويهيين في الري وبلاد الجبل، فقد انتهز فرصة استنجد مجد الدولة بن فخر الدولة الذي استبدت أمه السيدة خاتون بالأمر دونه، وانصرف إلى

(١) الساداتي، نفسه ن ح ١، ص ٩٧.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ح ٢، ص ٨٢.

(٣) العتبي : تاريخ اليميني ج ١، ص ٣٨ - ٣٩؛ حسن إبراهيم حسن، نفسه، ج ٣، ص

البناء واشتغل بقراءة الكتب، فاختلت دولته بعد موات أمه، فاستبد به جنده وتزايد شرهم. وكان محمود ينتظر الفرصة للاستيلاء على بلاد الجبل ولاستنصال الديالمة في هذه المنطقة، فأرسل في البداية عليا الحاجب إلى الري وأمره أن يقبض على مجد الدولة، ففعل على هذا. ثم وصل محمود بنفسه إلى الري في ربيع الآخر (٤٢٠هـ) واستحوذ على خزائن مجد الدولة ومكتبته القيمة وعلى ما يقرب من ألف ألف دينار نقدا وبقيمة خمسين ألف دينار جواهر، ثم قام بإحراق أكثر كتب مجد الدولة وكانت كتبها في الحكمة والنجوم وتأليفها في علوم الضلال، وبهذا زالت ودالت دولة الديالمة في الري.

وبعد فتح الري وقتل جماعة من أصحاب مجد الدولة بحجة سوء معتقدهم، فتح قزوين وساوه وآبه، وأرسل ابنه مسعودا لفتح زنجان وأبهر، ثم أنابه بعد فتح هاتين المدينتين على ممالك الديالمة التي فتحها جميعا وعاد إلى خراسان. (١)

وكانت حكومة أصفهان وهمدان وسابور خواست في هذا الوقت لعلاء الدولة أبي جعفر محمد بن دشمنزيار كاكوية، ولما رأى كاكويه أن محمودا تملك الري وقزوين وسائر أملاك مجد الدولة وأنه يرنو بنظره إلى بلاده، يادر وخطب في أصفهان لمحمود. فلم يتعرض محمود له، وهكذا بقي علاء الدولة في حكم ولاياته. (٢)

وبعد عودة محمود إلى غزنة هاجم مسعود أصفهان فأخرجها عن يد علاء الدولة وأتاب عنه حاكما لها وعاد إلى الري، لكن أهل أصفهان

(١) ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٤٩٤.

(٢) ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٥٥٨، عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص

ثاروا على والي مسعود وقتلوه. فقدم مسعود مرة أخرى إلى أصفهان من الري وأعمل في أهلها السيف فقتل منهم نحو خمسة آلاف وأعاد المدينة إلى حكمه وركن علاء الدولة إلى الفرار.

وفي (٤٢١هـ) هاجم مسعود همدان وطرد منها عمال علاء الدولة كاكوية فهرب علاء الدولة إلى خوزستان حتى يستمد أبا كاليجار وجلال الدولة الأميرين الديلميين، لكنهما لم يتمكنوا من عونه لصراعاتهما الداخلية ونزاع أحدهما مع الآخر، ومكث علاء الدولة في خوزستان إلى أن سمع بوفاة السلطان محمود وعودة مسعود إلى خراسان، فساغتم الفرصة وتملك أصفهان واستولى على أملاكه السابقة^(١).

بقية جهود محمود الغزنوي:

وفي سنة ٤٠١هـ، حارب محمود الغور وكانوا لا يدينون بالإسلام، وتقع بلادهم الجبلية الوعرة المسالك بين هراة وغزنة، ومن ثم كانوا يقطعون الطريق ويخيفون السبيل، وقد أوقع محمود بهم وأخضعهم لسلطانه ونشر الإسلام بينهم، وأرسل إليهم جماعة من المسلمين يعلمونهم أصول الدين.

ولقد أرضى السلطان محمود الغزنوي الخلافة العباسية حين تتبع المخالفين لها والخارجين عليها بالقتل والنفي، فقد اهتم بالقضاء على أهل البدع والأهواء، ففي عام ٤٠٨هـ جد في محاربتهم دون هوادة، فقتل الرافضة والإسماعيلية والقرامطة والجهمية والمشبهة، كما نفى المعتزلة إلى خراسان وضيق عليهم، وأحرق كتب الفلسفة والمعتزلة والنجوم، كما

(١) ابن خلدون، نفسه، ح ٤، ص ٤٩٦، ٤٩٨-٤٩٩.

رفض أن يستجيب للفاطميين الذين حاولوا استمالته تخفيفاً من حملته على أشياعهم وأنصارهم من الإسماعيلية^(١).

تقييم عهد السلطان محمود ووفاته (٤٢١هـ) :

أصيب محمود في آخر عمره بمرض السل (الدق)، وكانت ولادته في عام (٣٦٠هـ) وكان بسببه يشتد ضعفاً ونحافة يوماً عن يوم. واشتد عليه المرض في سفره إلى الري وعاد إلى خراسان بحالته هذه وأقام في بلخ، ثم قدم إلى غزنة في ربيع عام (٤٢١هـ)، وبعد بضعة أيام وافاه أجله في هذه المدينة في الثالث والعشرين من ربيع الأول من نفس العام.

وقد نال السلطان محمود وهو أول ملك مستقل وأكبر أفراد الأسرة الغزنوية بشجاعته وجرأته وكثرة فتوحاته وانتصاراته وجلال بلاطه شهرةً بليغةً في تاريخ المسلمين، خاصة لغزواته في الهند والغنم التي استقاها منها ولاجتماع العلماء والشعراء في بلاطه والأشعار والكتب التي صنفت باسمه الذي صار معروفاً في أكناف العالم وأطرافه. لكن ينبغي العلم أن أكثر هذه الشهرة يرجع إلى تملق معاصريه المتعصبين للذين عدوا غزواته في الهند في سبيل نشر الإسلام والقضاء على الكفار من أعظم الخدمات التي أسداها محمود للدين، وبرأوا ساحته كمجاهد في سبيل الله من كل عيب ونقص. بينما إذا نظرنا بعين الإنصاف وجدنا محموداً به عيوب عظيمة وأن فتوحاته بدل أن تقع في شعب إيران موقع الاستفادة انتهت بهم إلى أضرار بالغة. وبالجملة فإن حكم محمود من

(١) حسن إبراهيم حسن، نفسه، ج ٣، ص ٨٩، حسن محمود، أحمد الشريف، العالم الإسلامي، ص ٤٧٥.

وجهة نظر الشعب الإيراني من العهود الكثيرة الإزلام، وليس لمحمود يمين الدولة في تاريخ إيران مثل هذه الشهرة للأسباب الآتية :

١- مشهور أن في بلاط محمود قد اجتمع أربعمئة شاعر ماهر يمدحون السلطان كان من بينهم كما نعلم العنصري البلخي^(١) والفرخي السجستاني^(٢) والعسجدي المروزي^(٣) والزينبي العلوي^(٤) والفرديوسي الطوسي^(٥) والمنشوري السمرقندي^(٦) والكساني^(٧) المروزي^(٨) والغضائري الرازي^(٩). وليس من أدنى شبهة في أن أعظم

-
- (١) العنصري هو أبو القاسم حسن بن أحمد من شعراء القصيد الكبار في العصر الغزنوي وملك الشعراء في بلاط محمود. ويزيد ديوان قصائده وأغلبها في مدح محمود ومسعود عن ألفي بيت. وفوق القصائد له منظومات أخرى مثل وامق وعذرا وعين الحياة وغيرها، ويدل العنصري على إحاطة كاملة باللغة والأدب العربيين والعلوم العقلية، وقد صار أسوة أكثر شعراء القصيد الفرس، توفي عام (٤٩٢هـ).
- (٢) أبو الحسن علي بن جولوغ الفرخي المتوفي (٤٢٩هـ) ربا ديوانه عن تسعة آلاف بيت من قصائد وغزليات وقطعات ورباعيات، ويتميز عامة بالبساطة والسهولة والواقعية ويعد من ناظمي القصيدة الممتازين.
- (٣) العسجدي المتوفي نحو (٤٣٢هـ) هو أبو نظر عبد العزيز بن منصور، ضاع ديوانه إلا من أشعار في كتب سير الشعراء وأشهرها قصيدته في فتح محمود الغزنوي لمعبد سومنات.
- (٤) الزينبي هو عبد الجبار العلوي المحمودي وقيل أن اسمه الزينبي ذكرت كتب تذاكر الشعراء بعضا من أشعاره.
- (٥) الفرديوسي المتوفي ٤١١هـ أو ٤١٦هـ هو أبو القاسم حسين شاعر الحماسة الكبير وابن إحدى أسر الدهاقين الأغنياء، بدأ نظمه سيرة أسلافه الأسطوريين والتاريخيين في سن الأربعين (نحو عام ٣٧٠هـ) وأنهى نحو (٤٠٠هـ) منقفا من عمره ثلاثين عاما في ذلك بعد أن ذهب عنه ماله وشبابه وتقدم به مادحا السلطان محمود، لكنه لم يلق للأسباب التي سوف نشير إليها بعد ذلك، ما كان ينتظره من مال وجاء بل هرب خوفا من السلطان إلى آل باوند بطبرستان حيث هجاه. وينسب إليه خطأ قصة يوسف وزليخا الشعرية.
- (٦) هو أبو سعيد أحمد بن محمد المنشوري السمرقندي من الشعراء الذين ضاع شعرهم غير قطع في كتب الأدب.
- (٧) الكساني هو أبو الحسن مجد الدين إسحاق المتوفي عام (٣٩١هـ) شاعر المدح والوصف والحكمة والوعظ والمعاني الفلسفية ومدح السامانيين كذلك.
- (٨) وهو أبو يزيد محمد المتوفي (٤٢٦هـ) من أهل الري مدح آل بويه قبل محمود الغزنوي وأفاض في مدح محمود وعطاياه في قصيدته اللامية. وكان له مع العنصري مباحثة أدبية وقصائد انتقادية.

هؤلاء العظام المشاهير جميعا هو الفردوسي الطوسي، كما أنه لم يك بين علماء بلاط محمود من هو أجل قدرا وأعظم منزلة من أبي الريحان البيروني. لكن محمودا كما نعلم لكثرة لؤمه سلك مسلكا مشهورا مع الفردوسي وأصدر أمرا بقتل أبي الريحان في وقت من الأوقات بسبب الحقيقة العلمية التي قالها وكانت تبدو كفرا في نظر السلطان ولم ينج ذلك العالم إلا بوساطة (أبي نصر مشكان) كاتبه^(١).

ولم يكن بإمكان محمود وقد كان تركي الأصل ألا يحسن درك لطائف اللغة الفارسية ويعادي بشدة لتعصبه الشديد للمذهب السني كل ما يشتم فيه رائحة الحكمة وحرية الفكر، أن يكون طالب الشعر والأدب ناشد العلم والحكمة عن ميل قلبي أو تذوق طبيعي في أي وقت من الأوقات. وكان كل هذا التظاهر الذي شوهد منه لأن وجود الشعراء والعلماء المعروفين في البلاط في تلك الأيام كان يعد من أسباب عظمته وجلاله، وكان الشعراء بنظمهم قصائد المديح للأمراء والسلاطين والفضلاء وبتصنيف الكتب والرسائل باسمائهم أفضل وسيلة لإذاعة مفاخر ومدوحهم وإعلاء صوت واسم مخدومهم، حتى أن كل بلاط كان يباهي غيره في عدد شعرائه وكثرة فضلائه وشهرة أسمائهم وعلو سماتهم ووهج لمعاتهم. وكان محمود الذي لم يطق أن يتصور بلاطا في عصره يفوق بلاطه في غزنة صيتا في أي ناحية كلما وجد من هؤلاء الشعراء والعلماء أثرا اجتذبهم إلى غزنة بالوعد والوعيد، كما فعل بالغضائري إذ استدعاه من بلاط مجد الدولة في الري بكثرة صلاته وطلب من ملك خوارزم أن يبعث له بأبي علي بن سينا وأبي الريحان البيروني وأبي سهل

(١) أبو نصر منصور بن مشكان صاحب ديوان رسائل محمود ومسعود الغزنويين، وتعد مكاتباته ورسائله الفارسية من أبلغ ما كتب حتى عصره وظل في منصبه حتى وفاته (٤٣١هـ).

المسيحي وأبي نصر بن عراق وأبي الخير بن الخمار وقد كانوا سبب ازدهار بلاط جرجانية، فلاذ منهم أبو علي بن سينا وأبو سهل المسيحي وكانا يخشيان تعصب محمود بآل زيار وآل بويه. ودخل بقيتهم الذين ظلوا بجرجانية لا يبرحونها في بلاط محمود اضطرارا لما فتحها. (١)

وقد حدث محمودا تعصبه وجهله بالأدب أن يعامل الفردوسي الذي كان يخالفه المذهب بوضاعة وقبح وأن يؤذي هذا الشاعر العالي المقام فيبقى له في التاريخ ذكرا ذميما، وحق للفردوسي أن يقول فيه :

لم يكن للسلطان بلاط يقوم على العلم وإلا لكان وضعفي موضعني

٢- كان السلطان محمود يفرض في تعصبه للمذهب الحنفي، ولما

كان جمع غفير في بلاد ما وراء النهر وخراسان قد اعتنقوا المذهب الإسماعيلي أو مذاهب الشيعة الأخرى بسبب دعوة الدعاة الإسماعيليين في هذه المناطق، فكان محمود يقتلهم بقسوة بالغة حيثما ثقفهم خاصة وأن الدعاة الإسماعيلية كانوا يدعون الناس في إيران لاتباع الخلفاء الفاطميين في مصر، وكان هؤلاء الخلفاء يناهضون بني العباس مخدومي محمود. وكان محمود يتعقب أغلب من لم يتمذهب بالمذهب الحنفي بتهمة القرمطة (أي الإسماعيلية ومشايعة الفاطميين) فيقتلهم. وكان في هذا المضمار يستوي لديه القرامطة والمعتزلة والحكماء أو الفلاسفة كما فعل بأتباع مجد الدولة إذ قتلهم بتهمة الاعتزال، وجعل من الجزء الأعظم من مكتبته النفيسة طعمة للنيران، وقتل رسول الخليفة الفاطمي في مصر. وكان هذا السلطان حينما يتهم الأعيان والأثرياء بسوء الاعتقاد للاستيلاء على أموالهم وضمها إليه.

(١) عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ١٨١-١٨٤.

٣- كان محمود رجلا بخيلا عابدا للمال طالبا للثروة، ومع أنه كان يتذرع في غزواته للهند بنشر الإسلام والجهاد والغزو في سبيل ذلك في الظاهر، فقد كان غرضه الأصلي نهب المعابد المتخمة بالثروة في الهند والقدوم بغنائمها. ^(١) وبالرغم من أنه أنفق جزءا زهيدا من هذه الغنائم في التعمير أبنية وحدائق وآثار خيرية في غزنة وبلخ وطوس، لكنه كان يكثر أكثرها ولا يصل للشعب شيء منها، بل أن عماله كلما خرج للغزو كانوا يسلبون الرعية مالها بقسوة وزجر تامين، ولما كان هذا الغزو يتكرر كل عام تقريبا فقد أصيب شعب إيران إصابات بليغة، وقد نفرت العامة بسبب هذا الظلم من نظام حكم الغزنويين نفورا جعل أهل خراسان يستدعون التراكمة السلجوقيين للاستيلاء على بلادهم عن طواعية تامة لما ذهب ربح محمود وتقلد مسعود السلطنة، وانحسرت الدولة الغزنوية بسبب هذه الحالة سريعا عن إيران وبلاد ما وراء النهر.

٤- ومع أن السلطان محمود قد استوزر وزراء أكفاء، لكن أحدا منهم لم يستطع أن يؤسس أساسا متينا دائما لإدارة البلاد بسبب قوة السلطان واستبداده، ولم تكن أحوال العامة والرعايا مقترنة بالراحة والرفاهية إزاء تسلط جند محمود المغيرين الذين كانوا مزيجا من المجاهدين المتطوعين من أبناء قوميات مختلفة لعدم سيادة النظام والعدالة كما كانا في عهد الوزراء الأولين السامانيين أو عهد نظام الملك السلجوقي بعد. ^(٢)

(١) عباس إقبال، نفسه، ص ١٨٥، وسبق أن دحضنا مثل هذه الآراء، مستنديين إلى

رأى د. الساداتي.

(٢) عباس إقبال، نفسه، ص ١٨٥.

وزير السلطان محمود الأول هو أبو العباس فضل بن أحمد الاسفراييني الذي كان أولا كاتباً لفائق الخاصة، ثم لحق بعد زوال دولته بخدمة سبكتكين وابنه محمود ثم استقر في منصب وزارة محمود حتى (٤٠١هـ)، وكان أبو الفضل الاسفراييني رجلاً كافياً محنكاً صارت اللغة الفارسية في ديوان محمود بأمره اللغة الرسمية، فكتبت الأحكام والدفاتر والمراسلات بأمر من الوزير بالفارسية. وبعد عزل الاسفراييني، في (٤٠١هـ) استوزر محمود أبا القاسم أحمد بن حسن الميمندي الذي جمع الفضل والأدب مع الكفاءة والحنكة. وقد أعاد أبو القاسم الميمندي وكان ممدوح أكثر شعراء عهد محمود ومن المنشئين المشهورين باللغة العربية ديوان محمود إلى العربية خلافاً لما فعل الاسفراييني، وذلك لكي يثبت فضله ومقدرته في هذه اللغة. وبقول مشهور أن سبب حرمان الفردوسي من تحصيل مكافأته هو هذا الميمندي بينما كان الاسفراييني يشجع ذلك الشاعر ويكرمه. (١)

ومع أن الميمندي كان أخو محمود من الرضاة ورفيقه في مكتب التعليم، إلا أن محموداً أزاله من الوزارة في سنة (٤١٦هـ) وأرسله ليسجن بإحدى قلاع الهند وظل بها حتى موت محمود. وكانت وزارة محمود في سنى سلطنته الأخيرة لأبي علي حسن بن محمد بن ميكال المعروف بحسنك الوزير والذي يعد بدوره من فضلاء المنشئين.

كما كان لعهد محمود جوانب أخرى أكثر إجحافاً وظلماً ساقط إلى هلاك آلاف من رعاياه، لا على أساس اتهامهم بالإلحاد بل نتيجة للضرائب الفادحة. ومن الواضح أن حملات محمود الهندية قد جلبت غنائم لا

(١) بارتولد، تركستان، ص ٤٣٤.

تحصى له ولجنده وللعدد الكبير من "المطوعة" الذين سارعوا من كل فج، بما في ذلك من ما وراء النهر، إلى الانضمام إلى جيوشه. وأحيانا نبصر محمودا يصرف بعض هذه الأموال في تشييد مبان فخمة كالمسجد الجامع والمدرسة بغزنة. غير أن حملاته العسكرية كانت مصدر بلاء وخراب للكتل الشعبية، فقد كان محمود على الدوام في حاجة إلى المال من أجل هذه الحملات. وقد حدث أن أمر قبل إحدى حملاته العسكرية بجمع الأموال اللازمة في مدى يومين وتم ذلك بالفعل، غير أن الأهالي كما يذكر مؤرخ البلاط "سلخواسلخ الغنم"^(١) وهذه الوقائع تجعل من العسير القول بأن الوزير أبا العباس فضلا بن أحمد الاسفراييني، كما زعم ذلك المؤرخ نفسه، هو المسؤول الوحيد عن الضرائب الفادحة التي وصلت بالبلاد إلى تلك الحال حتى "تداعى معظم الضياع ووقفت القنى بين القصور والانقطاع وشرد في البلاد أكثر الأكرة والزراع". وانضاف إلى هذه الظروف اندلاع القحط (عام ٤٠١هـ / ١٠١٠-١٠١١)، فقد حدث بسبب الصقيع المبكر أن القمح لم ينضج في مواعده، فقاسى الأهالي من ذلك الأمرين، هذا على الرغم من أن القمح كان يوجد بكميات كبيرة في نيسابور، ويذكر العتبي أنه وجد بأسواقها ذات مد أربعمئة من من القمح وهي كاسدة. ومؤرخنا عندما ساق هذه الواقعة لم يستطع إلا أن يشهد الله على هذا بقوله "فسبحان من يقضي على من يشاء بالفناء مع إمكان الأقوات ووجود الكفايات". ويقال إنه هنالك بنيسابور ونواحيها وحدها ما يقرب من مائة ألف نسمة، ولعل إشارة مولر إلى ضحايا الحملات الهندية يصدق بدرجة أكبر على ضحايا القحط أي "بل إن ربع هذا العدد لمن شأنه أن يبدو شيئا مخيفا". أما الكلاب والققط فقد فنيت بالتقريب، بل كانت

(١) العتبي، تاريخ اليميني، ح ١، ص ٤٠.

هناك حالات أكلت فيها لحوم البشر. ورغم ما من أن الذين ثبتت عليهم هذه التهمة قد لقوا عقابا صارما إلا أنه يبدو أن ذلك لم يجد فتىلا. أما السلطان فقد اكتفى بأن أصدر أمره إلى ولاته بتوزيع المال على فقراء الناس. (١)

وقد اقتضى الأمر اتخاذ إجراءات أكثر فاعلية عندما توقف الرعايا عن دفع الضرائب نتيجة لما حاق بهم من كوارث، وقد رد الوزير على طلب السلطان للمال برفض حازم فلجأ السلطان إلى أفراد الطبقة الأرستقراطية ممن لم تكن لهم علاقة برجال الديوان، وبوجه خاص إلى رئيس بلخ الدهقان أبي إسحق محمد بن الحسين. وغير معروفة الوسيلة التي لجأ إليها الرئيس ليجمع أموال طائلة من هراة في ذات عام ٤٠١، غير أن هذا لم يمنع الوزير من الإصرار على رفضه الضغط على الرعايا لحل الضائقة المالية، وفضل عن طيب خاطر أن يذهب إلى الحبس، الأمر الذي أثار ثائرة السلطان فأمر بمصادرة أملاك الوزير على الرغم من أنه أقسم بأنه لم يخف مالا قط. وقد قيل إنه حين كشف فيما بعد عن وجود مال له كان وديعة عند أحد تجار بلخ، أعيدت محاكمته من جديد وظل يعذب كل يوم حتى أسلم الروح إلى بارئها (٤٠٤هـ/١٠١٣-١٠١٤). وقد تذرع السلطان بغيابه ساعة موت الوزير فأعرب حين عودته عن أسفه لما ابداه عماله من إفراط في الغيرة عند تنفيذ أوامره. (٢)

وإن كانت الأبنية الضخمة التي شادها محمود قد بنيت بالأموال التي جلبها من الهند، إلا أن عبء صيانتها قد وقع على كاهل الرعايا. ويحكي (حافظ أبرو) قصة منقولة عن القسم المفقود من مصنف بيهقي تتعلق بالبستان الكبير الذي أنشأه محمود ببلخ وكلف سكان المدينة مؤنة

(١) بارتولد، تركستان، ص ٤٢٩-٤٣٠.

(٢) العنبي، تاريخ اليميني، ح ١، ص ٤٠-٤١.

صيانته. وكان السلطان يعقد بهذا البستان المآدب ولكنها كانت تنقضي سريعا، وذات يوم سأل السلطان بطانته عن السبب في فقدان مآديه لروح المرح رغما من سحر البستان، فاستأذن العميد أبو نصر مشكان (أستاذ بيهقي) في أن يتحدث صراحة وقال: "إن أهل بلخ أجمعين تثقلهم مؤنة هذا البستان الذي لا يعود عليهم بالنفع، وهم في كل عام يشاركون بدفع أموال طائلة تصرف على هذا العبء الثقيل ولهذا فإن قلب السلطان لا ينتابه الفرح". فغضب السلطان ولم يكلم أبا نصر لأيام عديدة، وبعد ذلك بقليل استوقفه جمع من الناس في أحد شوارع المدينة وتظلموا إليه من هذه المؤنة الثقيلة، فقرر السلطان على الفور أن هؤلاء المتظلمين إنما فعلوا ذلك بإيعاز من أبي نصر، رغما من أن أبا نصر لم يكن له في واقع الأمر علم بما حدث. وبعد هذا استدعى السلطان رئيس بلخ وسأله عن مقدار ما ألحقه القراخانيون الذين طردهم السلطان من بلخ، من أضرار بالمدينة في عام ١٠٠٦، فرد الرئيس بأن تلك الأضرار لا يمكن حصرها "فقد أخضعوا المدينة لتخريب غير معقول وسيمر وقت طويل قبل أن تسترد حالتها الأولى، هذا إذا أمكن أن تستردها على الإطلاق". عندئذ قال السلطان: "لقد رفعنا جميع هذه المصائب عن أهل المدينة فإذا بهم يتضايقون الآن من مؤنة بستان واحد لي". فرد عليه الرئيس معتذرا: "إن ذلك الرجل لم يتحدث إلينا سلفا، وهذا التظلم حدث دون علم كبار أهل البلد وأعيانها". ورغما من هذا فإن السلطان عند رحيله إلى غزنة بعد أربعة أشهر من ذلك، أصدر أمرا كتابيا بإعفاء أهل بلخ من مؤنة البستان وجعلها على اليهود على ألا تزيد بأية حال عن خمسمائة درهم.

وهكذا فإنه لا يمكن القول بأية حال بأن محمودا كان مستبدا عادلا، استنادا على قاعدة السهر على إسعاد الرعية. وحتى فيما يتصل برعايته لشعراء وعلماء بلاطه فإن (أ. مولر) رغما من تحيزه لمحمود يعترف بأن دافعه لهذا لم يكن سوى رغبة دنيوية، هي أن يجمع ببلاطه النابهيين من أهل عصره لا حبا حقيقيا للمعرفة والنور. كذلك لا يمكن أن يُؤخذ اهتمامه بالدين كدليل على ورعه وتقواه، وشخص كمحمود لم تكن لتخفى عليه طبيعة الصلة الوثيقة بين الدين وبين نظام استبدادي كمنظامة، ومن هنا كان عطفه على الفقهاء والمشايخ ما بقوا أداة طيعة لسياسته. وفي بعض حالات استثنائية حين كان الأمر يتصل بمقدار ضئيل من المال فلربما كان محمود يأخذ في الاعتبار التماس أحد رجال الدين ليعفيه من ضريبة أو أخرى كما يذكر ابن خلدون^(١). غير أن رأيه فيما يتصل بدور رجال الدين كطبقة من طبقات المجتمع إنما ينعكس بوضوح تام في موقفه من حركة الزهد التي انبثقت بنيسابور في ذلك العهد. ومؤسس هذه الحركة هو الزاهد أبو بكر محمد بن إسحق رأس طائفة الكرامية التي أقامها أبو عبد الله محمد بن كرام. وكان والد أبي بكر من مشاهير الزهاد، كما أن أبا بكر نفسه عرف بالزهد والتقشف منذ أيام سبكتكين. ولقد ظل محمود بعد أبيه يبدي له الكثير من الاحترام والإجلال ويؤثر طائفة الكرامية بعطفه ورعايته. ويورد العتبي في هذا الشأن أبياتا لأبي الفتح البستي يشير فيها إلى ما حظيت به هذه الطائفة من عطف لدى السلطان:

والدين دين محمد بن كرام
بمحمد بن كرام غير كرام

الفقه فقه أبي حنيفة وحده
إن الذين أراهم لم يؤمنوا

(١) ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٤٩٧، بارتولد، باكستان، ص ٤٣٢.

غير أن بعض الفقهاء اتهم الكرامية بالتجسيد، وقد عرفت الطائفة بالمغالاة في التعصب، وكان أبو بكر اليد اليمنى للسلطان في قمع الملحدين. وبلغ نفوذ أبي بكر بين أهل نيسابور درجة كبيرة اضطرت الترك عند غزوهم لها أن يلقوا عليه القبض حماية لأنفسهم من شيعته وحذراً من مكيدته وأخذوه معهم عند تراجعهم أمام جيوش محمود ولكنه أفلح في الإفلات منهم، الأمر الذي ضاعف من نفوذه في دولة محمود. ولم يلبث أن انعقدت له رئاسة الصوفية وأصبح صاحب النفوذ بنيسابور، فكان أهلها أجمعون من الخاصة والعامة ينظرون إليه "بعين المرجو والمخوف". ولم يلبث قمعه الذي لم يعرف حدود الحرمة للملحدين، ومصادرة أملاكهم، أن جرّ إلى الكثير من التعسف والظلم فأثار عليه في نهاية الأمر سخط الجميع. واضطر السلطان بعد تردد طويل إلى أن يتخلص منه. وعادت رئاسة نيسابور مرة أخرى إلى رجل من غير رجال الدين، فقد عين السلطان في هذا المنصب أحد المقرّبين إليه وهو أبو علي الحسن بن محمد الذي ينحدر من صلب أسرة مشهورة، فقد كان جده "من جملة الأعيان والتناء" في دولة السامانيين، أما أبوه فقد انضم إلى محمود الذي كان ساعته أسفها سالار السامانيين على خراسان. وقد أسرع الرئيس الجديد باتخاذ إجراءات صارمة ضد الكرامية، فعوقب أبو بكر بمصادرة أملاكه واعتقل كبار أنصاره وأرسلوا إلى قلاع مختلفة. أما بقية ممثلي الطوائف الدينية الأخرى وخاصة العلويون فقد بين الرئيس الجديد "أن حشمتهم بالطاعة موصولة، وحرمتهم بلزوم القصد وترك تعدي الجد مكفولة، فتلقوه بالإجلال وقابلوا أمره بالامتثال علماً بأنه

ظل الله في أرضه، فما يغني غير الاقياد والميل على الغلو إلى الاقتصاد^(١).

وقد كان مرجع حروب محمود الدينية منذ البداية، كما أوضح ذلك عدد من البحاثة، هو طمعه في ثروات الهند وأنه لا أساس البتة للقول بأن دوافعها إنما كانت غيرته الدينية، كما أن قمعته للملحدين يمكن تفسيره أيضا بالدوافع السياسية التي أشرنا إليها قبل قليل، بل إن تهمة الإلحاد لم تكن أحيانا سوى وسيلة لمصادرة أملاك الشخص المتهم. ويقع في ذات الخطأ من يحاول أن يرى في محمود شخص المدافع عن الأماني القومية الإيرانية، برغم الملحمة الكبرى التي رفعها الفردوسي إليه. هذا وقد كان جيش محمود قاصرا على الممالك والمرتزة وحدهم، ولكي يدعم (نظام الملك) نظريته في أن الجيش يجب أن يضم ممثلي جميع الشعوب نجده يشير بصفة خاصة إلى ما فعله محمود؛ وقد وجدت الفاظه التأييد التام من الوقائع التاريخية كما يذكر العتبي. أما بقية الرعية فإنهم لم يكونوا في نظر محمود سوى مجموعة من دافعي الضرائب لا يتوقع منهم أدنى ضرب من الوطنية. ويذكر بيهقي أن سكان بلخ كان نصيبهم التقرير من محمود على مقاومتهم للقراخانيين، فقد قال لهم: "ما للرعية والقتال! لا جرم قد هلكت مدينتكم وأحرق من أملاككم بلاد يغل علي أموالا طائلة، وإني أحملكم غرامة هذه الخسارة، ولكنني أعفو عنكم فانظروا واحذروا أن يتكرر هذا فإن كل ملك يتسلط عليكم ويلزمكم بالخراج ويؤمنكم عليكم أن تدفعوا له الخراج وتحافظوا على أنفسكم.

(١) العتبي، تاريخ اليميني، ح ١، ص ٤٥.

ويبدو أنه ابتداء من ذلك العصر نشأ تقسيم الشعب إلى فئتين: عسكر يدفع إليه الملك الأرزاق مقابل الإخلاص في خدمته، ورعية يحميها السلطان من الأعداء في الداخل والخارج لقاء الطاعة العمياء ودفع الضرائب بلا امتعاض أو تذمر. وليس للعسكر أو الرعية أدنى حق في الاعتراض على رغبة السلطان أو أوامره، وقد إتضح ذلك في رسالة محمود إلى خوارزمشاه، هذا وقد ارتبط الحكم المطلق كما هي العادة دائماً بنمو نظام للتجسس، ويقال إن محموداً نفسه زكى العيون والأرصاد على ابنه مسعود كما يذكر البيهقي. (١)

إن جميع هذه الوقائع تدفعنا إلى الخروج بنتيجة مؤداها أن عهد محمود كان بلاشك عبئاً ثقيلاً على رعاياه، وإذا ما حدث أن محموداً نفسه لم يقدر له أن يتحمل العواقب الوخيمة لنظامه، ولم يحدث أن اهتز سلطان العرش من تحته، فإن مرد هذا كله هو هيئته الكبيرة في النفوس مما يجعل البون شاسعاً بينه وبين خلفائه. وقد حالت عزيمته القوية وذكاؤه وبعد نظره دون انعكاس حاد للجوانب العنيفة من شخصيته، ذلك أن محموداً كان يقع فريسة لسورة غضب شديد إذا ما عارضه أحد من الناس في القول، حتى مرت أحياناً على من فعلوا ذلك لحظات تعسة في حياتهم، ولكن حين يراجع نفسه فسرعان ما كان يعود إلى صوابه. وكان وضع الوزير في أمثال هذه الحالات عسيراً للغاية، وقد علقّت امرأة ذكية على ذلك بقولها: "إن السلطان ما استوزر أحداً من الناس فإنه يعاديه بعد أسبوع من ذلك رغم حبه إياه، إذ يتصوره شريكاً له في الملك، والملك لا يتم بالشريك". وقد أشرنا قبل قليل إلى مصير أحد هؤلاء الوزراء. كذلك فقد قاسى خلفه الميمندي مرارة العزل والحبس بإحدى القلاع بعد مصادرة

(١) بارتولد عن بيهقي، تركستان، ص ٣٤.

أمواله وكان ذلك في عام ٤١٦ هـ. ^(١) ورغمما من هذا فإن حالات الإعدام في عهد محمود (إذا ما استثنينا الاضطهاد الديني) كانت نادرة شيئاً ما، ويروي العتبي أن محموداً كان يرى أن "الملك الحازم من يسلب الجاني في حال سخطه ما يمكنه الوفاء بعينه أو بمثله عند رضاه، وجرح المال يؤسى بالتعويض والأحلاف فأما النفوس فليس لإتلافها من تلافٍ" وكان مصير الوزير الميمندي معرضاً لأن يصبح أكثر سوءاً، ذلك أن محموداً أرسل مكتوباً لأحد خواصه هو أبو القاسم كثير يأمره بإعدام الوزير "قصاصاً للدماء التي أريقَت بأمر منه". وكان لرفض أبي القاسم القاطع بأن يأخذ على عاتقه مثل هذه المسؤولية الفضل في إنقاذ حياة الوزير. ويبدو أن هذه الشجاعة التي تنطوي على الكثير من النبل لم تعد على أبي القاسم بسوء، مما يقف دليلاً على أن محموداً كان بإمكانه أن يملك زمام نفسه. ^(٢) وكان احترام القانون على عهد الغزنويين لا يزال قوياً في النفوس، بالدرجة التي جعلت المسؤولين في حالات مصادرة أملاك من حل بهم غضب السلطان يجهدون في إعطائها صورة المبايعة القانونية. فمثلاً حين عزل محمود حكام غرجستان وسجنهم حتى ماتوا في حبسه، لم يمنعه من أن يدفع إليهم نقداً قيمة أملاكهم التي كانت قد ضمت إلى بيت المال (وبن كان تقييم هذه الأملاك قد ترك لمحمود وحده). وأكثر من هذا مغزى ما يقصه بيهقي بشأن مصادرة أملاك أحد الوزراء ممن حل بهم سخط السلطان (في عهد مسعود) وحكم عليه بالشنق، فقد قسر على الإقرار بأنه باع إلى السلطان عن طواعية واختيار أملاكه من عقار

(١) ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٤٩٨.

(٢) العتبي، تاريخ اليميني، ح ١، ص ٦٩، بارتولد، نفسه، ص ٤٣٥-٤٣٦.

ومنقول وأنه تسلم النقود التي قدروها ثمناً لها، ثم سجل الحاكم في ذلك المحضر وأجرى القضاة اللازم في مثل هذه الحالات.

٢- السلطان محمد بن محمود

(من ربيع الآخر حتى شوال من عام ٤٢١هـ) :

عين السلطان محمود في مرض موته ابنه محمدا وكان في هذا الوقت والي جوزجانان وبلخ خلفا له وحرّم ابنه الآخر مسعود هذا الحق لغضبه عليه. فلما مات محمود قدم محمد من بلخ إلى غزنة وجلس على عرش أبيه وتلقب بلقب (جلال الدولة).

وكان محمد ضعيف النفس محبا للهو واللعب غير معتن بأمر الملك، ولهذا تواطأ جمع من كبار قواد الجيش وأكابر الدولة سرا مع مسعود وكان آنذاك في الري واستدعوه للسلطة وخلافة أبيه فقد كان أكثرهم يميلون إليه لقوته وشجاعته وعلو سنه^(١). وقدم مسعود بدعوتهم من الري إلى نيسابور ولحق به جماعة من خاصة محمود وأمراء جيشه كأبي النجم إياز بن أويماق غلام السلطان محمود المشهور وعلى حشاوند صاحب أبيه وهناؤه بالسلطنة، ووصل في نفس الحين منشور رسمي بإمارته من الخليفة القادر العباسي، فسلك مسعود طريقه إلى غزنة رابط الجأش ثابت الجنان.

فاختار محمد كبير حبابه عليا بن ايل أرسلان. وكان من أقرب خاصته فسمي لذلك بعلي القريب، ومعه عمه يوسف بن سبكتكين قائد لجيشه وتهايا لمنع مسعود. لكن هذين القائدين سرعان ما أدركا أن

(١) ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٤٩٧-٤٩٨.

مقاومة مسعود وحربه لن يجديا نفعاً فقبضا على محمد في (١٣ شوال ٤٢١ هـ) وكان مشغولاً بالخمر والشرب وأعمياه وحبسناه في إحدى القلاع، ثم ناديا بمسعود أميراً للجيش وسلطاناً للبلاد. أما مسعود فما أن بلغ هراة حتى قبض على (علي القريب) وقتله وألقى بعمه يوسف في الحبس وعامل كثيراً من قواد الجيش الذين غدروا بأخيه ومكروا به معاملة تختلف شدة ورأفة. ووفدت عليه رسل جميع الملوك من جميع الآفاق للتهنئة. (١)

وكانت وزارة محمد في السبعة شهور زمن إمارته لـ (خواجه أبي سهل أحمد بن حسن الحمدوي) وكان هذا الوزير من كبار المنشئين والفضلاء والمهتمين بالأدب في ذلك العهد.

٣- السلطان مسعود بن محمود (٤٢١ - ٤٣٢ هـ)

أمر شهاب الدولة مسعود بعد وروده غزنة وتوليه مقام أبيه أن يأتوه بأبي القاسم أحمد بن حسن الميمندي الذي ألقى في السجن بالهند بأمر السلطان محمود منذ عام (٤١٦ هـ) إلى عرشه ليستخلصه لوزارته وظل هذا الوزير في منصبه حتى وفاته في عام ٤٢٤ هـ. ومن بين من أمسك بهم مسعود حين حاز العرش أبو علي حسنك الميكالي الوزير فقد اتهمه السلطان بالقرمطة بسبب سعيه في إبلاغ أخيه محمد إلى السلطة ثم قام بشنقه.

(١) تاريخ البيهقي، ص ٨١ وما بعدها، ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٤٩٨، الساداتي، نفس المرجع، ح ١، ص ١٠١

حروب السلطان مسعود :

وأول واقعة هامة لعهد إمارة مسعود هي غزوة ولاية مكران سنة (٤٢٢هـ) فقد أنفذ السلطان جيشاً ليعين أحد ولدي واليسها المتوفي (عيسى) ثم أدخل مكران حتى حدود السند تحت طاعته، وفي السنة التالية سير مسعود جيشاً آخر إلى كرمان تقاتل مع نواب أبي كالجبار الديلمي أمير فارس لكن وزير الأخير أصاب جنده بهزيمة فعادوا منهزمين إلى خراسان. (١)

والحرب الثالثة لمسعود كانت في الري وهمدان وبلاد الجبل لتأديب العصاة الذين ثاروا بين عامي (٤٢٣) و (٤٢٤هـ) عليه بعد عودته من هذه الولايات إلى خراسان.

وفي نفس سنة وفاة محمود وأوبة مسعود إلى نيسابور كما سبقت الإشارة، تقدم علاء الدولة كاكويه من خوزستان إلى أصفهان واستولى ببسر على هذه المدينة وهمدان والري، وأخذ يهاجم أملاك فلك المعالي منوهر بن قابوس الزياري الذي كان يعيش تحت أمر الغزنويين وأخذ خوار ورامين ودومان من عماله فاستنجد فلك المعالي بالسلطان مسعود فسير جيشاً من خراسان لمدده. فاستعاد هذا الجيش بعون علي ابن عمران من أصحاب فلك المعالي ومن ممدوح الشاعر (منجوهري الدامغاني) الري من علاء الدولة الذي جرح بالمعركة وفر إلى قلعة (قردخان) التي تبعد عن همدان مسافة خمسة عشر فرسخاً. وبعد فرار علاء الدولة خطب منوهر في الري للسلطان مسعود وأتاب مسعود عنه أحد رجاله وهو (تاش الفراش) في حكم الري وبلاد الجبل في (٣٢٢هـ).

(١) ابن خلدون ، العبر ، ح ٤ ، ص ٤٩٩ .

وبعد أن التأمّت جراح علاء الدولة هاجم من ناحية همدان (بروجرد) ممداً فرهاد بن مرداويج، فأرسل تاش الفراش وعلي بن عمران جيشاً يتعقبهم، وقد تمكن هذا القائدان بعد سلسلة من الحروب في (٤٢٣ هـ) أخيراً من أن يجبرا علاء الدولة على الفرار إلى أصفهان ويخرجا همدان وبروجرد وسابورخواست والكرج عن سيطرته^(١).

وفي عام (٤٣٤ هـ) قدم مسعود بنفسه من غزنة بهدف معالجة أمور الري وبلاد الجبل إلى خراسان، ولما بلغ نيسابور علم أن عامله على البلاد المفتحة بالهند (أحمد بن ينالتكين) قد أعلن عصيانه. فاضطر السلطان إلى تغيير وجهته وصمم على إتيان الهند، وبعث أبا سهل الحمدوي الوزير السابق لأخيه محمد من نيسابور للري لمراقبة تصرفات تاش الفراش الذي جارّ الناس من جورده وظلمه، وقبل عذر علاء الدولة كاكويه وكان يطلب عفوه وأبقاه على أصفهان حاكماً بشرط أن يؤدي إليه خراجاً سنوياً.

وعمل أبو سهل الحمدوي على إصلاح ما خربته حكومة تاش الفراش بكل عدل وكفاءة، فحول للرعية أسباب الرفاهية والرضا أثر قضائه على البدع التي أقرها سلفه وخضع تاش لأمره، إلى أن حلت سنة (٤٢٥ هـ) وكان الصفاء بين أبي سهل وعلاء الدولة في الظاهر وحسب، ولكن علاء الدولة لما استنكف أن يؤدي الخراج السنوي ثم أعلن عصيانه يمدّه فرهاد بن مرداويج، وجه أبو سهل لهما جيشاً فقتل فرهاد ولان علاء الدولة بالأمير أبي كالجيار ببلاد. واستولى أبو سهل الحمدوي على أصفهان وغنم خزائن علاء الدولة وأرسل نفائسها إلى غزنة ومن بينها

(١) ابن خلدون، العبر، ح ٣، ص ٥٥٨، ح ٤، ص ٤٩٩-٥٠٠، عباس إقبال، نفسه، ص ١٩٠.

مؤلفات الحكيم المشهور أبي علي بن سينا الذي كان يعيش آنذاك في أصفهان وكان وزيراً لعلاء الدولة. ووقع علاء الدولة ثانية في حرب مع أبي سهل (٤٢٧ هـ) لكنه لم ينل نصراً فانهزم إلى طارم فأمنه ابن السلار صاحبها. (١)

ومن حروب مسعود في الغرب وقائعه في جرجان وطبرستان مع أبي كاليجار كوهي خال والقائم على أمر أنوشيروان الزيارى في سنة (٤٢٦ هـ) ولقد قاسى أهل طبرستان في هذه الحروب أذى شديداً من الجنود الغزنويين، ولقد استولى السلطان مسعود على جرجان، ثم سار إلى آمد فملكها وفارقها أصحابها، فقتلهم وقتل وأسر. ثم راسله صاحب طبرستان في عقد الصلح وتقرير البلاد عليه فأجابه مسعود إلى ذلك ورجع خراسان. (٢)

أما في الشرق أي الهند فقد يمم مسعود ناظريه إليها في عام (٤٢٤ هـ) بسبب عصيان عامل أبيه على الهند أحمد بن ينالتكين، وبعد أن طوع أحمد لأمره فتح إحدى قلاع الهند الهامة، ثم أب في السنة التالية إلى خراسان لما سمع بأنباء استيلاء التركمان عليها. وفي (٤٢٦ هـ) عصى أحمد بن ينالتكين مرة أخرى وهزم جند مسعود، فسير مسعود أحد قائديه الهنود المطيعين له ويدعى (تلك) كان على قدر كبير من الشجاعة وعلو الهمة، لدفعه فهزم أحمد وغرق معظم قواته أثناء فرارهم في مياه نهر السند فقتل أحمد نفسه فأرسل برأسه إلى مسعود. (٣)

(١) ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٥٠٠-٥٠٢.

(٢) ابن خلدون، نفسه، ح ٤، ص ٥٠١.

(٣) ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٥٠١، وحول مقتل ابن ينالتكين قارن، البيهقي، ص

٤٦٠-٤٦١، الساداتي، نفسه، ح ١، ص ١٠٢-١٠٣.

وفي سنة (٤٢٨ هـ) وأوائل سنة (٤٢٩ هـ) غزا مسعود الهند جريا على عادة أبيه وفتح في سفره هذا قلعة (هانسي) في جنوب شرقي البنجاب الذي استحوذ عليها في ربيع الأول من العام الأخير. وقد عاد مسعودا في أثر هذه الغزوات كأبيه موقرا بالفضائل مجللا بالفخر إلى غزنة، ولكن أيام هذه الفتوحات كانت آخر عهد شوكته، فقد حطم التركمان السلاجقة، نتيجة لبضع هزائم مجده مرة واحدة. (١)

السلطان مسعود والتراكم الغز والسلاجقة :

كما رأينا في تاريخ السامانيين فقد كانت بلادهم تحدها من الشمال والشمال الشرقي مساكن مجموعة من الترك لم يكونوا قد اعتنقوا الإسلام بعد، وكان الأمراء السامانيون أكثر أوقاتهم يجردون جيوشهم على مساكنهم للجهاد والسبي والغنم، وكانوا يسمون بلادهم دار الكفر كما فعل نوح بن أسد الساماني قبل تأسيس الأسرة السامانية إذ استولى على مدينة (اسبجباب) منهم، واستحوذ الأمير إسماعيل العادل على مدينة (طراز) ، والأمير نصر على بلاد أخرى ناحية فرغانة. وكان غير أولئك الترك الذين سكن أغلبهم الحدود الشرقية والشمالية الشرقية للولايات السامانية طائفة أخرى أيضا منهم سكنوا شمال بحيرة خوارزم (بحيرة آرال الحالية) وعلى حدود مصب سيحون وجيجتون والصحراء الواقعة بين بحيرة آرال والخرز وكانوا يسمون عامة بالغز، ولما كان هؤلاء الترك الذين يشتركون فيما يبدو مع التركمان الحاليين في الأصل والعنصر تسع قبائل سموا أيضا (تغراغز) أي التسع قبائل الأغزية (غز) التي شاعت فيما بعد مخفف لفظة الغز هذه.

(١) عن فتح هانسي ، أنظر الساداتي، نفسه، ح ١، ص ١٠٤.

وقد قام السامانيون بتهجير جموع كثيرة من تراكمة الغز عن مساكنهم الأصلية باقتضاء مصالح بلادهم وحدودهم، وأسكنوهم في البلاد شمالي ما وراء النهر التي استولوا عليها من قبضة الأتراك الشرقيين منذ فترة قريبة مثل اسبيجاب والمدن التي على مصب نهر سيحون. وكان من بين قبائل الغز هذه قبيلة عرفت باسم رئيسها (سلجوق) فسميت بالسلاجقة وقد آثرت الاستقرار في منطقة مصب نهر سيحون أي في جنوب بحيرة خوارزم. وسرعان ما دخل سلجوق في الإسلام وأدخل في طاعته مدينة (جند) من بلاد ماوراء النهر وكان أهلها مسلمين^(١)، فلما مات أقام أبناؤه بهذه المدينة، لكن مسلمي جند وقد تضرروا من مهاجمة السلاجقة لهم طردوا بعد موت سلجوق أبناءه وقبيلته عن مدينتهم إلى جنوبها، فأسكنهم السامانيون في قرية (نور) من قرى شمال شرقي بخاري. وقد زاد السلاجقة من يومئذ فصاعدا من شوكتهم وعدتهم يوما بعد يوم، ولما كانوا مسلمين فلم يتعرض لهم أحد وظلت قرية نور ببخاري مسكنا لهم إلى أن ثاروا على الغزنويين ونجحوا في تكوين دولة كبرى لهم.

وكما سبقت الإشارة في شرح حروب السلطان محمود لملوك الخانيين فإن هذه الأسرة قد دخلت منذ أن هزمهم محمود في (كنز) في عام (٣٩٨هـ) تحت حماية الغزنويين، وبقي طغان خان الذي تأمر على الخانيين بعد أيلكخان نصر حتى آخر حياته مطيعا ومحالفا للسلطان محمود. وبعد موت طغان خان في (٤٠٨هـ) خلفه أخوه أبو منصور محمد أرسلان خان، إلا أن (على تكين) وهو أمير آخر من أمراء هذه الأسرة ادعى الإمارة وظل في حرب مع أرسلان خان حتى موت الأخير.

(١) القرويني، آثار البلاد، ص ٥٥٧.

وقبل أن يموت أرسلان بقليل أي قبل (٤١٥ هـ) تغلب على تكين تغلبا كلياً، وقد حالف في ثورته هذه التركمان والسلاجقة وأدخل بخاري وسمرقند تحت استيلائهم.

وقصد السلطان محمود ما وراء النهر في (٤١٦ هـ) للقضاء على فتنة علي تكين وإرجاع إمارة الخانيين لأبناء قدرخان واستولى على بخاري وسمرقند من علي ذلك وألقي القبض بالحيلة على إسرائيل ابن سجلوق السابق ذكره رئيس السلاجقة وأودعه حبس إحدى قلاع الهند، وسار إلى أحياء الغز فنهبهم وأثخن فيهم قتلاً وأسراً، ثم رجع إلى خراسان^(١). ثم سمح مخالفاً رأى أرسلان جاذب والي طوس لأربع آلاف أسرة من التراكمة السلاجقة بعبور نهر جيحون وسكنى الصحراء الواقعة ما بين سرخس وبيورد في خراسان. وبعد عامين أقدم هؤلاء الترك كما تنبأ أرسلان جاذب على إيذاء شعب إقليم خراسان فعجز جاذب عن دفعهم وفي النهاية هاجمهم محمود في (٤١٩ هـ) وبعد أن أصاب منهم مقتلة عظيمة هزم بقيتهم تجاه جنوب خوارزم.

وبعد موت السلطان محمود توصل مسعود لكي يأخذ التاج والعرش من أخيه محمد بعلي تكين، ولكن قبل أن يرد على طلب مسعود كفى أمر محمد، ولم يلق على تكين إلى السلطان الجديد بعد جلوسه كبير بال. وفي (٤٢٣ هـ) هاجم آتون تاش حاكم خوارزم علياً تكين بأمر من السلطان مسعود، وكان علي حليفاً للسلاجقة لكنه لم يحقق نجاحاً بل ناله جرح في حربه هذه مات متأثراً به بعد يوم في مكان هذه المعركة. وعقد

(١) ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٤٩٥.

وزيره المشهور أبو نصر أحمد بن علي بن عبد الصمد صلحا مع علي تكين وغدا واسطة السلام بينه وبين السلطان مسعود.

وحيثما مات آلتون تاش أناب السلطان مسعود حكم خوارزم لعامل له وولي هارون ولد آلتون تاش عملا دون شأنه وكان ينتظر منصب أبيه، فدعاه هذا إلى مخالفة الترك السلاجقة، ثم أعلن في شوال (٤٢٣ هـ) قيامه على مسعود لكنه لم يحرز نجاحاً وأحمد مسعود فتنته ببسر وأدب السلاجقة أيضاً. وظل السلاجقة الأتراك مقيمين فيما وراء النهر حتى (٤٢٥ هـ) وكان علي تكين على قيد الحياة يعاملهم بلطف ورأفة. فلما مات هاجم ابنه وقائد جيشه السلاجقة وطردوهم مما وراء النهر. ومن ناحية أخرى قتل حاميهم الآخر هارون بن آلتون تاش حاكم خوارزم في نفس الأوان بيد غلمانه، وصار المقام حوالي خوارزم غير ممكن لهذه الجماعة، فارتحلوا إلى السفوح الجنوبية لجبال شمال خراسان أي في جنوب صحراء التركستان الحالية وحوالي مدينة نسا، وأرسلوا منها رسالة بتوسط صاحب ديوان خراسان أبي الفضل السوري بن المعتز إلى وزير السلطان أحمد بن عبد الصمد الوزير السابق لآلتون تاش والذي وصل منصب وزارة مسعود في (٤٢٤ هـ) بعد موت أحمد بن حسن الميمندي، فشفع له مسعود وكانت تربطه بهم أيام وزارته لآلتون تاش علاقة مودة وطلب إليه أن يسمح لهم بالإقامة بخراسان. وكانت هذه الرسالة من أبناء ميكائيل بن سجلوق الثلاثة محمد طغرل وداود حقربيك وبيقو، وقد بلغت مسعودا حينما كان مشغولا بقتال أتباع أبي كاليجار كوهي في طبرستان.

وبعد أن وصل مسعود إلى نيسابور أجمع بعد تردد طويل أن يبعث جيشا لدفع الترك عن خراسان ومع أن رأى الوزير والأخيار غيره كان

لا يدعو إلى استمالة السلاجقة الذين أظهروا عجزهم وطاعتهم له، إلا أن مسعودا رفض ذلك وأرسل بجيش خليط من الجنود الترك والهنود والعرب والأكراد بقيادة الحاجب بكتغدي لقتال الترك، غير أن هذا الجيش لقي الهزيمة على مقربة من مدينة نسا في شعبان (٤٢٦ هـ) من داود السجلوقي وعاد بكتغدي منهزما إلى مسعود بخراسان، وكانت هذه الهزيمة أول وهن كبير أصاب شوكة السلطان مسعود ودولته وجعلت السلاجقة، خلافا لذلك أكثر جراءة وشجاعة. وبعد هذه الواقعة أرسل السلاجقة رسولا إلى السلطان خوفا من نقمته عليهم وجعلوا شفيعهم لهم عنده أحمد بن عبد الصمد مرة أخرى واعتذروا عما حدث منهم، فترك مسعود الذي كان في خوف من قوة رؤساء هذه الطائفة الولايات الثلاثة نسا وأبيورد وفراوه (على بعد أربعة منازل من نسا) لطغرل وداود وبيغو على الترتيب ولقب كلا بدهقان وترك حكم هذه البلاد للإخوان الثلاثة فاستراح مؤقتا من فتنة الترك. (١)

وفي شعبان (٤٢٩ هـ) بعد أن عاد السلطان مسعود من الهند أمر كبير حبابه (سباشي) الذي ولي خراسان من فترة قبل ذلك أن يقاتل طغرل بك وداودا ويؤدب السلاجقة. وكان سباشي رجلا مامطلا، ويبدو أنه كان حليفاً للسلاجقة لأنه عند مواجهتهم فيما بين مرو وسرخس وقبل أن تحسم المعركة جمع أمواله وهرب متسترا بأستار الليل وتبعه أكثر جنده في الصباح، فاستحوذ طغرل بك ببسر على الجزء الأعظم لخراسان وألحق به نيسابور، إذ أخذوها من أبي سهل الحمدوي الذي كان طرد إليها من الري وجلس طغرل بك على عرش مسعود بها في شوال (٤٢٩ هـ) وأعلن

(١) لمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث راجع: ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٥٠٢.
٥٠٤، عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ١٩٥-١٩٦.

نفسه سلطانا. والذي سعى أبلغ من غيره لانتصار التراكمة السلجوقيين كان أحد رؤساء نيسابور لقب بقائد بوزكان واسمه أبو القاسم علي بن عبد الله الجويني وقد سخط على صاحب ديوان خراسان أبي الفضل السوري بن المعتز وظلمه وظلم سائر عمال الغزنويين فتواضع سرا مع السلاجقة. وبعد دخول طغرلبك نيسابور استخلص أبا القاسم الجويني لخدمته ثم رفعه بعد ذلك أي في (٤٣٦ هـ) إلى وزارته.^(١)

وبعد هذه الواقعة الهامة لم يحرك السلطان مسعود حتى أوائل (٤٣٠ هـ) ساكنا، فلم يتحرك إلا في هذا العام من غزنة إلى بلخ، ولما سمع الترك النازلون حوالي بلخ بنهوض السلطان ارتحلوا من أمام جيشه وسلخوا طريقهم إلى الصحراء. وقد أوعزت هزيمة سباشي عامة أعداء السلطان مسعود على التمرد ومن بين هؤلاء بوري تكين ولد إيلك نصر خان الذي عصا فيما وراء النهر، وتحالفت خوارزم أيضا وهي التي دخلت من (٤٢٦ هـ) أي بعد قتل هارون بن آتون تاش تحت طاعة أخيه أبي العباس خندان وخرجت عن دائرة نفوذ مسعود وتحالفت مع السلاجقة، وكان الخوف من أن تخرج بلاد ما وراء النهر وخوارزم جميعا عن سيادة الغزنويين بعد خراسان الغربية والرى والجبل (التي كان استولى عليها علاء الدولة كاكويه).

وأجبر مسعود على أن يعبر جيحون بعد أن عمر الجسر الذي كان مقاما على كئيب من ترمذ بين خراسان وما وراء النهر وذهب متعقبا بوري تكين وأبقى أحمد بن عبد الصمد في الجوزجانان وما حول بلخ.

(١) ابن خلدون، العبر، ج ٣، ص ٥٥٩.

وحيثما وصل مسعود إلى المناطق حول الصاغانيان عاد السلاجقة بإيعاز من أبي العباس خندان من الصحراء وتقدموا عن طريق سرخس إلى الجوزجانان وبلخ، فكاتب أحمد بن عبد الصمد السلطان بهذه الحادثة وأفهمه أنه يحتمل أن يقصد السلاجقة تحطيم جسر ترمذ وإذا تم لهم ذلك فسوف يستشكل رجوع السلطان. فكر مسعود راجعا على جناح السرعة فوصل ترمذ في أسبوعين وطلب بيقو أخو طغرلبك وداود اللذان استقرا بنيسابور عفو السلطان، فقبل عذرهم مرة أخرى، ثم أتى من هراة إلى طوس بعد عقد معاهدة معه أن يدفع أخويه. إلا أن الترك مع قبول طاعة السلطان أقدموا على نهب متعلقاته وجيشه بهراة وطوس، ومع أن مسعود كان ينبههم في كل مرة فيعتذرون، إلا أنهم لم يرفعوا أيديهم عن الإغارة والحرب وإذا انهزموا من ناحية فكاتبوا يهاجمون في نواح أخرى.^(١)

وأخذ قادة التركمان السلاجقة أخيرا على عاتقهم وهم طغرلبك وبيقو وداود وأخ لهم من أهم هو إبراهيم ينال، بعد المشورة في أمر حرب مسعود أو الانسحاب إلى جرجان والري، أن ينتزعوا القسم الشرقي لخراسان أي بلخ وترمذ وفارياب وهراة أيضا بالحرب من يد السلطان وتجمعوا من أجل هذا الهدف على حدود مرر وعزم السلطان مسعود في رمضان (٤٣٠هـ) برفقته جميع قواده إلى مرو وحينما بلغ قلعة دندانقان بالقرب من مرو واجهه السلاجقة من ناحية وواجه الجفاف جنده من ناحية أخرى، فلم يستطيعوا وعددهم مائة ألف أن يقاوموا ستة عشر ألفا فلقوا هزيمة عظيمة، وهرب مسعود إلى هراة وأعمل السلاجقة في أعمال المون الضخمة التي تحملها جند مسعود والتي أضحت أحد أسباب

(١) عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ١٩٧.

هزيمتهم الرئيسية إغارة وغنما. وكانت واقعة دندانقان بمنزلة حكم النهاية لسلطنة الغزنويين في ما وراء النهر وإيران لأن طغرلبيك عاد إلى نيسابور لساعته وذهب بيقو إلى هراة وداود إلى بلخ وأمر إبراهيم ابن ينال بالسيطرة على العراق العجمي، وأدخلوا جميع إيران وما وراء النهر تحت إمرة دولتهم بأسرع ما يكون وقضوا على أكثر الأسر المحلية، فضلا عن الغزنويين، التي كانت باقية في تلك البلاد. (١)

وفاة السلطان مسعود في (٤٣٢ هـ) :

وأتى مسعود غزنة بعد فراره من مرو وأمسك بجماعة من الأمراء من بينهم سباشي وبكتغدي وبعث بهم ليحبسوا بالهند. ثم أرسل ابنه مودوداً ومعه أحمد بن عبد الصمد في ربيع الأول (٤٣٢ هـ) بجيش جرار إلى خراسان ليجلي عنها السلاجقة وقصد هو الهند ليشتي بها واصطحب جلال الدولة محمد أخاه الأعمى. وفي أثناء الطريق أغار بعض غلمانه على الخزائن السلطانية وانقسم الجيش جماعتين على نفسه وانقلب أتباع مسعود، فأسر الغالبون مسعوداً ورفعوا أخاه الأعمى محمداً إلى الإمارة بالتهديد وحبس مسعود في حصن (كبرى) في ربيع الآخر (٤٣٢ هـ) بأمر أخيه ثم قتل في السجن بعد ذلك بقليل.

كان مسعود مثل أبيه شجاعاً رشيداً مقاتلاً محباً للشعراء، شغوفاً بالإنشاء والتعمير حتى غصت بلاده بالكثير من المدارس والمساجد والرباطات وزاد بلاد أبيه وسعة بسبب فتح الري وبلاد الجبل وكرمان والسند وجرجان وطبرستان، لكن اللهو والشرب والاستبداد غلب على طبيعه، وكانت الهزائم الكبرى التي جرت له بسبب لهوه المفرط واستبداده

(١) ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٥٠٤-٥٠٥.

بالرأي. فلم يطع المخلصين لدولته حينما منعه من تنفيذ أفكاره في حروبه في جرجان ومعاملته مع السلاجقة، ولم يدع الشراب واللهو حتى في اثناء ثورات خراسان وهجمات السلاجقة وبذلك كان غافلاً عن إدراك مشكلات الأمور الخارجية. (١)

السلطان مودود بن مسعود (٤٣٢-٤٤١):

لما قتل مسعود عاد أخوه محمد إلى غزنة، وأرسل إلى ابن أخيه مودود بخراسان يتصل من تبعة قتل أبيه، فرد عليه بهذه العبارة التي تنم عن حزنه وعزمه على القصاص من قتلة أبيه فقال: "أطال الله بقاء الأمير القاسم (محمد بن محمود سبكتكين)، ورزق ولد المعتوه أحمد عقلاً يعيش به، فقد ركب أمراً عظيماً، وأقدم على إراقة دم ملك مثل والدي، الذي لقبه أمير المؤمنين سيد الملوك والسلاطين. وستعلمون في أي حنف تورطتم، وأي شر تأبطتم وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون:

نفلق هاماً من رجال أعزة علينا، وهم كانوا أعق وأظلماً

سار مودود من خراسان قاصداً غزنة وحارب عمه محمداً، وكان قد عاد من الهند، بالقرب من دينور على طريق كابل وبشاور، وانتصر عليه، ودخل غزنة وقتل أولاده جميعاً إلا عبد الرحيم الذي أحسن معاملة مسعود عند القبض عليه وغضب لمقتله، كما قتل كل من رمى بالإشتراك في هذه المؤامرة، وبنى في المكان الذي انتصر فيه على عمه قرية ورباطاً، سماهما فتح آباد، ودخل غزنة في شهر شعبان سنة ٤٣٢ هـ.

(١) البيهقي، نفسه، ص ٣٧-٣٨ (من المقدمة) ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٥٠٥-٥٠٦، الساداتي، نفسه، ح ١، ص ١٠٥، ١٠٦.

وقد اثار انتصار مودود مخاوف الغز السلاجقة، فثار عليهم أهالى البلاد التى خضعت لهم، ودخلوا فى طاعة مودود الذى استقر أمره بغزنة، ولم يعد يخشى أحدا إلا أخاه (مجدودا). وكان أبوه مسعود قد سيره إلى الهند وولاه إقليم البنجاب فى سنة ٥٢٦ هـ كما تقدم، فعصى أخاه مودودا واستقل بلاهور والمولتان، وجهاز جيشاً سار به نحو غزنة، ولكنه مات فى شهر ذى الحجة من سنة ٤٣٢ هـ (أغسطس سنة ١٠٤١ م) بعد أن وصل إلى لاهور بثلاثة أيام. وقد اصبح السلاجقة على مر الأيام خطراً يهدد الدولة الغزنوية، ففى سنة ٤٣٥ هـ، انتصر ألب أرسلان بن داود السجلى على جيش مودود الغزنوى، ومع ذلك تمكنت جماعة من جيوش مودود من القضاء على جماعة من الغز بنواحي بست^(١).

ولم يقل اهتمام مودود بشئون الهند عن أسلافه فيها؛ فالروايات تذكر أن ثلاثة من ملوك الهند تحالفوا مع بعض رجالها مثل نواسى شاه ابن جيبال ملك ويهند، وديبال هريانة، وحاصروا لاهور حاضرة الغزنويين فى هذه البلاد، وأن مودودا أرسل جيشاً كبيراً للقضاء على قوة الهنود وتقويضهم خلفهم، فانهزم سخبال.

وكان من أثر هذا الانتصار أن استعاد الغزنويون هيبتهم فى بلاد الهند الشمال إلى حين. وكان مودود يعمل على استرداد البلاد التى استولى عليها السلاجقة فى عهد أبيه، فحاربهم فى سنة ٤٣٥ هـ كما تقدم، وطلب إلى عمال الأقاليم مساعدته على تحقيق أغراضه، ووعدهم بإقرارهم على مايفتحونه من بلاد، وغمرهم بالأموال الضخمة. ومن ثم نرى صاحب أصبهان ينشط لمساعدته لولا أن هلك كثير من جنده فى

(١) ابن خلدون، العبر، ج٤، ص ٥٠٦-٥٠٨، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج٤، ص ٩٩-١٠٠.

الصحراء، كما نرى ملك الترك يسير إلى ترمذ ويطرد السلاجقة منها، وتذهب طائفة من هؤلاء الترك إلى خوارزم ويسير مودود من غزنة سنة ٤٤١ هـ لحرب السلاجقة، ولكن المرض ينتابه، فيعود إلى حاضرة ملكه، ويموت في العشرين من رجب من هذه السنة، وهو في التاسعة والعشرين من عمره، بعد أن ملك تسع سنوات وعشر أشهر^(١).

وحال موت مودود المبكر دون القضاء على قوة السلاجقة؛ فقد عرف بالشجاعة والإقدام، وعمل على توطيد ملكه وإعادة مملكته إلى ماكانت عليه في عهد جده يمين الدولة محمود الغزنوي^(٢).

ولاية عبد الرشيد - فروخ زاد (٤٤١-٤٥١هـ):

تولى مسعود الثاني بعد وفاة أبيه مودود، ولكنه لم يبق في السلطنة سوى خمسة أيام، ثم تقلد السلطنة بعده عمه أبي الحسن علي بن مسعود الأول. وقد انتهز عبد الرشيد بن يمين الدولة محمود الغزنوي فرصة الاضطراب الذي ساد الدولة الغزنوية بعد موت مودود، ودعا الجند إلى طاعته فأجابوه، وساروا إلى غزنة ففر علي بن مسعود، واستقر الأمر له وتلقب عز الدولة، وشمس دين الله، وسيف الدولة وقيل إنه تقلب أيضاً جمال الدولة.

وقد عمل عبد الرشيد على طرد السلاجقة من خراسان، مستعيناً في ذلك بطغرل زوج أخت مودود وحاجبه الذي أرسله إلى هذه البلاد. ولما أنس طغرل من نفسه القوة قصد غزنة حتى أصبح علي بعد ستة فراسخ منها، وحاول خداع عبد الرشيد، مدعياً أن الجند تألبوا عليه وألحوا في

(١) ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٥٠٨-٥٠٩.

(٢) حسن إبراهيم حسن، نفسه، ح ٤، ص ١٠٠.

العودة للمطالبة بزيادة أرزاقهم. وعلى الرغم من اعتصام عبد الرشيد بقلعته في غزنة، قبل عليه طغرل وقتله سنة ٤٤٤ هـ، واستولى على بلاده وتزوج ابنة مسعود الأول.

ولكن عمل طغرل لم يرض بعض القواد، كما أنه لم يرض نائب الغزنويين في الهند برغم ما بذله من جهود في إغرائه واستمالته إليه. واتصل هذا الوالى بوجوه القواد، كما اتصل بزوجة طغرل، وأنكر على هؤلاء أعضاءهم وعودهم عن الأخذ بثأر عبد الرشيد. وبذلك أثار هذا الأمير حماسة بعض القواد، فدخلوا على طغرل وقتلوه، وولوا فروخ شاه الذى اعتمد على خرخيز نائب الغزنويين في الهند فى إدارة دولته. (١)

قضى (فروخ) فى السلطنة سبع سنين فى محاربة أعدائه، وخاصة السلاجقة، ولم يأمن جانب قواده ومماليكه. ويحدثنا بن الأثير فى حوادث سنة ٤٥٠ هـ أن بعض قواده ومماليكه ثاروا عليه واتفقوا على قتله وهو فى الحمام، ولكنه نجا بمساعدة بعض أنصاره. ويظهر أن هذه الحادثة قد أثرت فى حالته النفسية تأثيراً سيئاً، حتى إنه أخذ يكثر من ذكر الموت ويحتقر الحياة؛ ولم يعيش بعد هذه الحادثة طويلاً، فمات فى شهر صفر سنة ٤٥١ هـ، وتولى السلطنة من بعده أخوه إبراهيم ابن مسعود (٤٥١-٤٩٢ هـ)، الذى طالت سلطنته، وعقد الصلح من السلاجقة، وفتح فى الهند كثيراً من القلاع التى امتنعت على أبيه مسعود الأول وجده يمين الدولة محمود الغزنوى من قبل.

(١) ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٥١٠.

ولاية ظهير الدولة ابراهيم أخو فرخ زاد (٤٥١-٤٩٢هـ):

بعد أن جلس السلطان ابراهيم خلفا لأخيه دخل في صلح، في أول خطوة له، مع جغرى بك السلجوقى وأجمع أمرا أن ينهى النزاع الذى بقى من عهد مودود حتى يومه ما بين أصحاب جغرى بك وابنه ألب أرسلان والغزنويين للاستيلاء على خراسان لأنه حتى وقتذاك لم يقدر السلاجقة على القضاء على الغزنويين فى غزوة ولم يستطع الغزنويون أيضا استرداد خراسان.

وتعاهد ابراهيم وجغرى وقررا أن يكون كل منهما مالكا لما تحت يده من متصرفات، وألا يتعرض أحدهما للآخر ولا يرهق دم الناس بلا ذنب بسبب هذا الصراع. وقد ظل الطرفان فترات يراعيان هذه المعاهدة حتى أنه نتيجة هذا الصفاء والاخلاص زوج ألب أرسلان أحد أولاده من ابنة السلطان ابراهيم، وزوج ابن لألب أرسلان آخر وهو ملكشاه ابنته بعد ذلك لمسعود ولد السلطان ابراهيم.

كان السلطان ابراهيم ملكا عادلا عاقلا فاضلا دينا حكم اثنتين وأربعين سنة بهدوء وراحة وقصد الهند فى هذه الفترة مرارا للجهاد، من بينها نجاحه فى سنة (٤٧٢هـ) بافتتاحه بضع قلاع وإصابته قدرا من الغم والأسر منهم. وقد بلغت درجة تدينه أنه كان يصوم تطوعا ثلاثة شهور فى كل سنة ويكتب القرآن الكريم بيده كل عام ويرسل بنسخة إلى الكعبة. وكانت حكومة الهند فى عهد ابراهيم لأحد أولاده واسمه سيف الدولة محمود من (٤٦٩) حتى (٤٨٠هـ) ومحمود هذا الذى اشتغل غالبا بالجهاد فى الهند هو مخدوم وممدوح خاص للشاعر الكبير مسعود

ابن سعد بن سليمان الذي كان نفسه من الأمراء والمحاربين وكان يجالد بسيفه في ركاب سيف الدولة محمود^(١).

ولاية علاء الدولة مسعود بن إبراهيم (٤٩٢-٥٠٩هـ):

ولما تقلد علاء الدولة مسعود العرش في (٤٩٢هـ) سير ولده الأمير عضد الدولة شيرزاد لحكم الهند، ففتح عضد الدولة وهو من ممدوحى مسعود بن سعد بن سليمان أيضا، في الهند فتوحات كثيرة وكانت هجماته حتى الحدود التي بلغها الغزنويون وحسب في عهد السلطان محمود، فضلا عن أن قسما من البنجاب دخل في ملكية مسعود الثالث أيضا. وزوجة مسعود كما أشرنا هي ابنة السلطان ملكشاه السلجوقي وأخت السلطان سنجر.

ولاية أرسلان شاه بن مسعود الثالث (٥٠٩-٥١١هـ):

وبعد موت علاء الدولة مسعود خلفه ولده أرسلان شاه، لكن أخاه شيرزاد ادعى حكمه فقتله أرسلان شاه وحبس أخوته الآخرين ماعدا بهرام شاه الذي فر إلى خاله سنجر بخراسان، وعامل والدته بهرام شاه وكان زوجة أبيه باستخفاف.

وظل أرسلان شاه يحكم في غزنة حتى شوال من سنة (٥١١هـ). وفي هذا الوقت سير سنجر في مرو، أميرا من أمرانه هو الأمير (أنر) مع

(١) مسعود بن سعد المتوفى (٥١٥هـ) من كبار شعراء القصاصد في القرن الخامس ومعاصر العصرين الغزنوي والسلجوقي، أصله من همدان وولادته بلاهور، صاحب مسعودا بن إبراهيم الغزنوي في حروبه بالهند، فلما ساء ظن إبراهيم بمسعود ألقى به في الحبس وبخاشيته ومنهم الشاعر الذي مكث عشر سنوات حبسا نظم فيها أفضل قصائده التي سميت بالحبسيات. وقد أطلق سراحه ليعود ثانية نحو ثمانية أعوام حتى خرج عام (٥٠٠هـ) كان بالحبسيات يعرف العربية والهندية وله أشعار بالعربية أيضا.

بهرام شاه إلى سجستان، ولحق بهما هناك الأمير أبو الفضل نصر بن خلف ملك نيمروز، وعزم سنجر على اتيان غزنة برغم ممانعة السلطان محمد لفكرته هذه، وقبل غزنة بفرسخ واحد أصاب أرسلان شاه في شوال (٥١١هـ) بهزيمة شديدة وأبلى الأمير أبو الفضل السجستاني في هذه الحرب بلاء حسنا. وورد سنجر غزنة تام الانتصار وأجلس بهرام شاه على عرشها. وقبل بناء على الميثاق الذي واثق به سنجر خاله أن يخطب للخليفة وللسلطان محمد وسنجر ثم له، وأن يرسل مانتين وخمسين ألف دينار سنويا إلى ديوان سنجر، ثم كتب سنجر خبر هذا الفتح المبين الذي لم يسبق للسلاجقة في تاريخهم (لأن أحدا من السلاطين السلاجقة لم يستحوذ على غزنة من قبل) إلى أخيه السلطان محمد. وكان السلطان محمد في هذه الآونة في مرض الموت، وخلفه أخوه سنجر على حكم كل البلاد السلجوقية (في ذي الحجة من ٥١١هـ).

ولاية يمين الجولة بهرام شاه بن مسعود (٥١١-٥٤٨هـ):

وبعد أن عاد سنجر إلى خراسان واستقر بهرام شاه على كرسي الغزنويين الدولة أعاد أرسلان شاه وكان قد فر إلى الهند واستعاد غزنة من أخيه. فقصده بهرام شاه خراسان ليستمد سنجر ثم طرد أخاه مرة أخرى من غزنة بعد مقام شهر واحد بها، لكن هذه المرة وقع أرسلان شاه أسيرا فقتله أخوه وأصبح بهرام شاه ملك غزنة والهند تحت حماية السلطان سنجر، لكن الغزنويين كما مرت الإشارة لم يكن استقلالهم كاملا وكانوا يؤدون الجزية للسلاجقة.

وقد أمضى بهرام شاه القسم الأكبر من أيامه من الشطر الأول لحكمه الذي طال إلى حد ما، في إدارة أمور الهند والغزو الجهاد بها بسبب

الصفاء بينه وبين سنجر وأمنه من جانب خراسان وعمل على النهوض بدولته من جديد، وجهد في إقرار الأمور في الهند فقضى على فتن البنجاب والملتان ورد عصبة الأمراء الهنادكة عن لاهور، وكانت الآمال قد بعثت في أنفسهم من جديد لطرد الغزنويين من بلادهم، ونجح بهرام في تثبيت أقدامه بالهند من جديد. (١)

لكنه في سنة (٥٢٩هـ) استنكف أن يرسل المال للسلطان سنجر متذرعاً بضخامته، فأتاه السلطان مقاتلاً فلم يجد بهرام شاه محيصاً من إظهار العجز وطلب العفو، فاستدعاه السلطان ليقابله لكن بهرام شاه ركن إلى الفرار من أمامه اشفاقاً فدخل السلطان غزنة واغتم كل أموال بهرام شاه، ثم أمنه ودعاه إلى غزنة وعاد إلى خراسان في سنة (٥٣٠هـ).

وكان البلاء العظيم الذي ابتلى به بهرام شاه في الشطر الثاني لحكمه والذي قضى على شأفة الدولة الغزنوية في إيران وفي الهند كليهما هو تعاضم قوة أسرة الأمراء الغوريين الذين كانوا ينزلون فيما بين غزنة وهراة.

فقد ساهم بهرام شاه في أحوال الغوريين عندما أمن قطب الدين محمد الغوري الذي استوحش من أخوته قبل ذلك فلاذ بغزنة وذلك بسعاية جماعة من الأشرار، فصارت هذه الحادثة سبب ظهور العداء بين الغوريين وبهرام شاه. فقدم سيف الدين السورى بجيوشه إلى غزنة وهزم بهرام شاه بالهند وجلس هو على عرش غزنة. ولما علم بهرام شاه في شتاء هذا العام أى (٥٤٤هـ) أن الجنود السوريين قد آبوا إلى بلاد الغور وأن وصول الامداد إلى سيف الدين السورى المعتلى عرش غزنة في هذا

(١) الساداتى، نفس المرجع، ص ١٠٨.

الفصل أمر مستحيل أتى غزنة على حين غرة فقبض على سيف الدين وقتله.

وصمم علاء الدين حسين الذي كان حانقا لقتل أخيه الأول ثم اشتعل غضبا لسماعه قتل أخيه الثاني، مقسما بأغلظ الأيمان أن يقلب غزنة رأسا على عقب ويمحو آثار أسرة بهرام شاه، فهاجم بهرام بجيش كبير وبعد ثلاثة حروب انتصر فيها أجبره على الفرار إلى الهند. ثم أعمل السيف ليل ونهار سبعة أيام في الناس وحرق غزنة وأخرج أجساد السلاطين الغزنويين خلا جسد محمود ومسعود وإبراهيم وأشعل فيها النار وحطم كثيرا من الأبنية والعمائر والكتب. وبعد عودة علاء الدين الغوري وهزيمته وأسره بيد السلطان سنجر عاد بهرام شاه في عام (٥٤٧هـ) إلى غزنة ومات فيها في السنة التالية. ولقد كان بهرام شاه أحد أفضل وأشهر السلاطين الغزنويين لأنه كان ينافس في تربية الشعراء وأهل الفضل السلطان سنجر معاصره، وكانت غزنة ولاهور تضارعان (مرو شاهجهان) في عهده في هذا المجال. ويجب ذكر أسماء (مسعود بن سعد بن سلمان) و (السنائي الغزنوي) ^(١) و (عبد الواسع الجبلي) ^(٢)

(١) السنائي هو الحكيم أبو المجد مجدود بن آدم مدح مسعودا بن إبراهيم وبهرامشاه أول الأمر، ثم أثر العزلة والزهد بعد لقائه الصوفية بخراسان ثم السفر إلى مكة وغيرها إلى أن عاد إلى غزنة نحو عام (٤١٨هـ) فظل بها حتى موته. ومن آثاره ديوانه الشامل قصائد وغزليات ومقطعات وحديقة الحقيقة وسير العباد إلى المعاد وطريق التحقيق وكرنامة بلخ ومثنويان هما عشاق نامه وعقل نامه، ويمكن اعتبار سنائي أول شاعر للغزل الصوفي الإيراني مزج المعاني الصوفية بمضامين العشق.

(٢) الجبلي المتوفى سنة (٥٥٥هـ) هو بديع الزمان عبد الواسع بن عبد الجامع الفرغسي مادح سلاطين غزنة والسلطان سنجر السلجوقي وملوك الغور والخوارزميين، كان ماهرا في علوم عصره خاصة الأدب موشحا كلامه بالصناعة اللفظية، وأنشد الشعر بالعربية فسماه العوفي بذى البلاغتين، (تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ٢٠٦، هـ ٢).

و (سيد حسن أشرف الغزنوى) ^(١) و (عثمان المختار الغزنوى) ^(٢) من الشعراء العظام الذين مدحوا بهرام شاه. ومن أشهر الكتب المتعددة التى ألفت باسم هذا الملك بالنظم والنثر (حديقة الحقيقة) ^(٣) المنظومة المعروفة للحكيم السنائى والتى نظمها هذا الشاعر الأستاذ فى عام (٥٢٥هـ) قبل وفاته بقليل، ثم (كليلة ودمنة بهرامشاهى) من انشاء قلم المنشئ الكبير (أبى المعالى نصر الله بن عبد الحميد الشيرازى) ^(٤) والتى تعد احدى سامقات النثر الفارسى، ثم (البصائر اليمينية) فى التفسير من تأليف فخر الدين محمد بن مسعود النيسابورى الذى كان من أجلة علماء بلاط بهرام شاه، وفى عام (٥٣٠هـ) حين قدم سنجر لتأديب بهرام شاه بغزنة تقدم هذا العالم سفيرا من جانب صاحب غزنة إلى السلطان وجعل سنجر يترأف بحال بهرام شاه.

(١) هو أشرف الدين أبو محمد حسن بن محمد الحسينى الغزنوى الملقب بالأشرف والمتوفى عام (٥٥٧هـ) من واعظى وفصحاء القرن السادس، مدح الغزنويين والسلاجقة، ويشمل ديوانه أربعة آلاف بيت فى القصائد والغزل والترجيحات فى سائر الموضوعات. (تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ٢٠٦، هـ ٣).

(٢) وهو أبو المفاخر خواجه حكيم سراج الدين أبو عمر عثمان بن عمر عاصر مسعود بن سعد والسنائى وأبا الفرج الرونى الشاعر ومدح الغزنويين، ويشمل ديوانه ثمانية آلاف بيت وله مثنوى فى قصة شهريار بن بروز بن سهراب بن رستم البطل الأسطورى واسمه (شهريار نامه) ألفه تلبية لرغبة السلطان مسعود بن ابراهيم.

(٣) حديقة الحقيقة وشريعة الطريقة من أهم آثار السنائى وتشمل عشرة آلاف بيت الفت باسم بهرام شاه الغزنوى على عشرة أبواب فى التوحيد وذكر كلام البارئ ونعت النبى وصفة العقل وفضيلة العلم وذكر النفس وصفة الأفلاك، ومدح بهرام شاه والحكمة والأمثال وصفة تصنيف الكتاب. ويتضمن الحكمة والمواعظ والموضوعات الصوفية وبيان مقام العلم والعقل. (نفس المرجع، ص ٢٠٦، هـ ٥).

(٤) أبو المعالى نصر الله المتوفى فى النصف الثانى للقرن السادس كاتب بهرام شاه ووزير خسرو شاه، ومن آثار ترجمة كليلة ودمنة إلى الفارسية من العربية وهى نموذج للإنشاء الفصيح الذى احتذاه كتاب القرن السادس ومن جاء بعدهم.

ولاية تاج الدولة خسرو شاه بن بهرام شاه (٥٤٨-٥٥٥هـ):

بعد موت بهرام شاه خلفه ابنه خسرو شاه لكن الغوريين كانوا قد حازوا جانبا عظيما من القوة في هذا الوقت وسار السلطان سنجر شيخا واهنا، وحل التراكمة الغز في ممالك سنجر لهذه الأسباب ولقد كان خسرو شاه غير قادر على الحفاظ على قصبه أجداده، فاستولى الغز منه على غزنة في عام (٥٥٥هـ) ففر إلى الهند وانحصر من هذا الوقت فصاعدا الملك الغزنوي في الهند الغربية. ولقد عاد خسرو شاه إلى غزنة من جديد تحت حماية السلطان سنجر، وبعد مقتله وضياع ملكه على أيدي التركمان، إرتد خسرو شاه إلى الهند ثانية حيث قضى بلاهور عام ٥٥٥هـ، سنة وفاته.

ولاية سراج الدولة خسرو ملك بن خسرو شاه:

(٥٥٥ - ٥٥٨٢هـ)

بعد فتح غزنة على يد الغز أتى خسرو شاه لاهور وتوفى بها وخلفه ابنه (خسرو ملك أو ملكشاه) أميرا عليها. وفي عهده استصفي الغوريون غزنة من الترك ولما قروا بالامن هذه الناحية توجهوا لفتح بقية البلاد الغزنوية وأخرج شهاب الدين محمد بن سام بيشاور و لاهور والمولتان أي وديان حدود كابل والسند عن كف خسرو ملك بالتدريج، وطلب خسرو ملك الصلح في عام (٥٥٨٢هـ) من شهاب الدين لكن قبل أن ينجح في هذا المسعى قبض عليه أشياع شهاب الدين. ^(١) وبهذه الحادثة انتهت دولة آل محمود. وظل خسرو ملك حتى عام (٥٥٩٨هـ) محبوسا في الغور ثم قتل في هذا التاريخ. وهكذا زالت الدولة الغزنوية على يد شهاب

(١) الساداتي، نفسه، ح ١، ص ١١٠، عباس إقبال، نفسه، ص ٢٠٧.

الدين الغورى، ومن ثم تداعى سلطان الغزنويين فى الهند، وانقسمت إلى أسرات اسلامية مستقلة. وكان سلاطين الغزنويين كما ذكر (ابن الأثير) من أحسن الملوك سيرة ولاسيما جدهم محمود، فان آثاره فى الجهاد معروفة وأعماله للأخرة مشهودة. ويعلق (فيليب حتى) على صعود وسقوط الغزنويين بقوله " إن ظهور الدولة الغزنوية كان يمثل أول انتصار العنصر التركى فى صراعه مع العنصر الفارسى على السيادة النهائية فى الإسلام ". ويرى (حتى) أن الدولة الغزنوية لاختلفت فى أساسها عن الدولة الصفارية أو الدولة السامانية، وأرجع ثباتها وإستمرارها رغم تفكك أوصالها إلى قوة السيف. ومن ثم فإنه لما تراخت اليد التى كانت تقبض على هذا السيف، لم يكن بد من أن تتداعى هذه الأجزاء التى كانت تتألف منها الامبراطورية الغزنوية، بعد وفاة السلطان محمود الغزنوى. (١)

(١) حسن إبراهيم حسن، نفس المرجع، ح ٤، ص ١٠٢.

أسماء الحكام الفرنويين وأيام امارة كل منهم

- أبو اسحاق البتكين ٣٥١-٣٥٢ هـ
اسحاق بن البتكين ٣٥٢-٣٥٥ هـ
بلكاتكين ٣٥٥-٣٦٢ هـ
بيرى ٣٦٢-٣٦٦ هـ
ناصر الدين سبكتين ٣٦٦-٣٨٧ هـ
اسماعيل بن سبكتين ٣٨٧-٣٨٨ هـ
(سبعة شهور)
١- يمين الدولة أبو القاسم محمود بن سبكتين ٣٨٧-٤٢١ هـ
٢- جلال الدولة أبو أحمد محمد بن محمود (٤٢١ هـ-سبعة شهور)
٣- شهاب الدولة أبو سعد مسعود بن محمود ٤٢١-٤٣٢ هـ
٤- شهاب الدولة أبو الفتح مودود بن مسعود ٤٣٢-٤٤١ هـ
٥- ٦- بهاء الدولة أبو الحسن على بن مسعود ٤٤١ (مجموع شهرين) ومسعود بن مودود
٧- عز الدولة أبو منصور عبد الرشيد بن محمود بن سبكتين. ٤٤١-٤٤٤ هـ
٨- جمال الدولة أبو الفضل فرخ زاد بن مسعود بن محمود ٤٤١-٤٥١ هـ
٩- ظهير الدولة أبو المظفر ابراهيم أخو فراخ زاد ٤٥١-٤٩٢ هـ
١٠- علاء الدولة أبو سعيد مسعود بن ابراهيم ٤٩٢-٥٠٩ هـ
١١- سلطان الدولة أبو الفتح أرسلان شاه بن مسعود ٥٠٩-٥١١ هـ
الثالث.

- ١٢- يمين الدولة شاه أبو المظفر بهرام شاه بن مسعود
٥٤٨-٥١١ هـ
- ١٣- تاج الدولة أبو شجاع خسرو شاه بن بهرام شاه
٥٥٥-٥٤٨ هـ
- ١٤- سراج الدولة أبو الملوك خسرو ملك بن خسرو شاه^(١)
٥٨٢-٥٥٥ هـ

(١) عباس إقبال، نفسه، ص ٢٠٨.

الفصل الثامن

الدولة الغورية

(٥٤٣-٦١٢هـ / ١١٤٨-١٢١٥م)

- تقديم.
- عرض جغرافى لمنطقة الغور.
- أصل الغوريين وبداية ظهورهم.
- قيام الدولة الغورية.
- سلطنة سيف الدين السورى.
- (٥٤٣-٥٤٤هـ / ١١٤٨-١١٦٠م).
- ولاية علاء الدين حسين الغورى (جهان سوز).
- (٥٤٤-٥٥٦هـ / ١١٤٨-١١٦٠م).
- ولاية سيف الدين محمد بن علاء الدين الغورى.
- (٥٥٦-٥٥٨هـ / ١١٦٠-١١٦٢م).
- ولاية غياث الدين محمد بن سام الغورى.
- (٥٥٨-٥٩٩هـ / ١١٦٢-١٢٠٢م).
- الصراع الغورى الخوارزمى.
- وفاة غياث الدين محمد.
- ولاية شهاب الدين محمد الغورى.
- (٥٩٩-٦٠٢هـ / ٦٠٢-١٢٠٥م).
- - فتح الهند.
- - حروب شهاب الدين محمد الخوارزميين والخطا.
- - وفاة شهاب الدين محمد.
- ولاية غياث الدين محمود.
- (٦٠٢-٦١٢هـ / ١٢٠٦-١٢١٥م).

الفصل الثامن

الدولة الغورية

(٥٤٣-٦١٢هـ / ١١٤٨-١٢١٥م)

تقديم:

عرض جغرافي لمنطقة الغور:

تنسب هذه الدولة إلى مكان نشأتها وهو جبال الغور. وكانت الغور أو (غورستان) منطقة جبلية واسعة تمتد من هراة إلى الباميان وتخوم كابل وغزنة، وهي جنوب نهر هراة. وهذه المنطقة عبارة عن وديان المناطق الجبلية التي تسمى الآن (كوه بابا) أي جبل بابا و (سفيد كوه) أي الجبل الأبيض، وتتصل جبال خراسان عن طريقها بسلسلة جبال هندوكوش. وبهذه المنطقة (الغور) كما أشار جغرافيو العرب مخارج (منابع) كثير من الأنهار الكبيرة مثل نهر هيرمند، ونهر هري رود، ونهر خواش، ونهر فره، ونهر مرغاب الذي كان يخرج من حدود غرجستان. ولقد برر القسم الغربي من هذه المنطقة وكان يسمى غرجستان ولاية هراة. ولعل قرب المنطقتين غورستان وغرجستان كان وراء الإلتباس الذي وقع فيه (ياقوت الحموي) حينما قرر أنهما منطقة واحدة، وأن غرجستان تكتب غالباً غورستان.

وغرجستان أو (غرشستان) كما يذكر القزويني، تقع شرق باذغيس عند منابع نهر مرغاب، وهي منطقة جبلية أيضاً عرفت عند الجغرافيين العرب باسم (غرج الشار)، ويلقب ملك هذه الجبال بـ(الشار).

والغرج كما ذكر المقدسى هي الجبال، فتفسير غرج الشار إذن هو جبال الملك، ولكنها صارت تعرف عند العوام باسم غرجستان وملكها يعرف باسم (الغرجة). وفي القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى كان يوجد فى هذه الناحية الواسعة عشرة جوامع فى مختلف بلدانها. وأكبر مدينتين فى منطقة غرجستان هما: أبشين وشورمين، وذكر ياقوت الحموى إسم مدينتين أخريين فى غرجستان هما: (سنجة وبيوار) وموضعيهما فى الجبال.

أما مدينة أبشين (أفشين أو بشين) فكانت تقع على الضفة الشرقية لنهر مرغاب، وكان يوجد حولها البساتين، واشتهرت بزراعة الأرض بوفرة فكان يحمل منها الزيت والأرز إلى بلخ، وكان لها حصن مكين ومسجد جامع. وشورمين (سورمين) تقع فى الجبال على بعد أربع مراحل جنوب أبشين، واشتهرت بالزبيب الذى كان يحمل منها إلى النواحي القريبة. ورغم أن أبشين وشورمين كانت أكبر مدن غرجستان، إلا أن (ملك الغرجة) لم يتخذ إحداها مقرا له، ولكنه كان يقيم بقريّة كبيرة فى أحد جبال غرجستان تسمى بليكان (أو بلكيان).^(١) وعلى هذه الولاية دروب وأبواب حديد فلا يمكن أحدا دخولها إلا بإذن، وثم عدل حقيقى ونظر عزيزى وبقية من سنن العمرين ورسوم تقر بها العين، لا أعمال ظلمة ولا أسباب مغيرة ما يؤخذ من أغنيائهم فهو موضوع فى فقرائهم، ومن جنى جناية فالعفو أو الحد، ومع ذلك قوم سلماء صالحون من الطينة الأولى".^(٢)

(١) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٧١، المقدسى، أحسن التقاسيم، ص ٣٠٩، ٣٤٨

ياقوت الحموى، معجم البلدان، ح ١، ص ٨٠٣، ص ٧٢، ١٦٣، ١٨٦، القزوينى، آثار البلاد، ص ٤٢٥-٤٢٦، لسترنج، بلدان الخلافة، ص ٤٥٨.

(٢) المقدسى، نفسه، ص ٣٠٩-٣١٠.

أما السفوح الشمالية للولايات الجبلية الغور والغرستان التي تعد بداية سهول ماواء النهر ووادي الفروع الجنوبية للأمودريا، فقد كانت تسمى قديما (طخارستان)، وهي المنطقة التي تسمى حاليا بالتركستان الأفغانية. ويسمى ابن حوقل طخيرستان، وهي أكبر مدن الطالقان، وبينها وبين الجبل غلوة ولها نهر كبير وبساتين وكروم، ويذكر القزويني أن بدخشان تعد من ناحية طخارستان وتوجد بشمالها^(١). وكانت غالبية سكان الغور في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي من الكفار الوثنيين، وإن كان بها بعض المسلمين كما يذكر ابن حوقل. وبالغور شعاب عامرة ذات عيون وبساتين كثيرة خصبة جداً وأنهار، وقد اشتهرت ببعض المعادن مثل الفضة والذهب، ويوجد أكثرها عند الباميان ونهر كابل (أطلق العرب عليه اسم بنجهير أي خمسة جبال بلغة سكان هذه البلاد)، ويستخرج أغزر هذه المعادن من موضع يعرف باسم (خرخيز). و(بنجهير) مدينة على جبل، ويغلب على أهلها العبث والفساد، وتشتهر بمزارعها الخصبة ويغلب على نهرهم البساتين.^(٢)

وبعد سقوط دولة الغزنويين استقل رؤساء الغور وكانوا قبل ذلك من أعوانها - كما سنرى - وأنشأوا لهم عاصمة تسمى (فيروز كوه)، وهي قلعة عظيمة في جبال الغور، ويسمىها ياقوت الحموي (بيروز كوه) أي جبل الفيروز. ومن نواحيها كما يذكر (المستوفى) مدينة هنگران. وهناك بعض القلاع في منطقة الغور مثل (كليون وفيوار) وبينهما مقدار عشرة

(١) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٧٤، القزويني، نفسه، ص ٣٠٦.

(٢) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٧٥.

فراسخ ، وقلعة خستار. ويذكر القزوينى مدينة أخرى من مدن الغور الكبرى هي (خوست) أو (خشت).^(١)

وكان (الباميان) تؤلف القسم الشرقى من الغور، وهى قسبة كورة عظيمة تحمل نفس الاسم. وكانت الباميان مركزا بوذيا عظيما قبل الإسلام، وكانت فى القرن الرابع كما يصفها الإصطخرى "تكون نحوا من نصف بلخ، وهى على جبل وليس لها سور"، وأرضها خصبة جدا يسقيها نهر كبير. وقد أشاد المقدسى بذكرها فقال عنها أنها "ناحية واسعة كثيرة الخير وقصبتها صغيرة". وكان يوجد فى مدينة الباميان بعد الاسلام جامع وأسواق عامرة بالمتاجر، ولها أربعة أبواب تفضى إلى خارجها ومن أكبر مدن كورة الباميان فى القرن الرابع ثلاث هى: بسغورفند و سكيوند ولخراب. وهناك أيضا بلدة سبران وهى بين بست وكابل^(٢) ، ولقد وصف الجغرافيون العرب أصنام البوذيين (البد) فى الباميان، لاسيما الصنمان العظيمان اللذان نقرا فى أسفل الجبل، ويسمى أحدهما (سرجبت) والآخر (خنكبت) أى بوذا الأحمر وبوذا الأشهب، وليس لهما فى الدنيا نظير، وكان هذان الصنمان يوجدان فى بيت ذاهب فى الهواء بأساطين مرفوعة منقوشة فيه كل طير خلقه الله على وجه الأرض.^(٣)

(١) الإصطخرى، ص ٢٧٢، ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٧١، ياقوت الحموى، معجم البلدان، ج ٣، ص ٨٢٣، ص ٤ ص ٩٣٠، القزوينى، آثار البلاد، ص ٣٦٥، ٤٣٠.

(٢) ابن حوقل، نفسه، ص ٣٧٥، المقدسى، نفسه، ص ٣٠٣، القزوينى، نفسه، ص ٣٩٠.

(٣) ياقوت، نفسه، ج ١، ص ٤٨١، القزوينى، نفسه، ص ١٥٤. هذان التمثالان هما أكبر تماثيل لبوذا فى العالم الذى يؤمن بالبوذية، حيث يبلغ طول أحدهما ٥٥ مترا والآخر ٣٦ مترا، ويعود تاريخهما إلى نحو ١٥٠٠ عام. ومن دواعى الأسف والحزن أن حركة طالبان الإسلامية الحاكمة فى أفغانستان قد قامت بتدمير تماثيل بوذا التاريخية فى النصف الأول من شهر مارس ٢٠٠١م (ذى الحجة ١٤٢١هـ) وفى مقدمتها التمثالان العملاقان فى مدينة باميان التى تقع فى وسط أفغانستان =

وكان يوجد بالباميان أيضا عدة معادن مثل الزئبق وعين كبريت، ينبع منها ماء كثير ولها صوت وغلبة، من إغتسل بهذا الماء يزول جربه، وإذا عرضت عليه شعلة النار يشتعل، وليس بنواحي الباميان مدينة على جبل سواها، والفواكهة تجلب إليهم وليس لهم بساتين، وقد خربت الباميان ومدنها على يد جنكيزخان. ^(١) وكان لقب ملك الباميان في القرن الثالث الهجرى كما يذكر ابن خرداذبه (شيرباميان) ^(٢). ورغم أن الغوريين قد اتخذوا مدينة فيروز كوه عاصمة لهم فى بداية دولتهم، إلا أنهم سيطروا بالتدريج على طخارستان فى الشمال وأهم مدنها الباميان، وعلى غرجستان والجمال وهرارة فى الجنوب والغرب، ثم إختاروا باميان وهرارة ومن بعدهما غزنة مجالا لعروشهم.

أصل الغوريين وبداية ظهورهم:

لم يكن أصل الغوريين ونسبهم معروفا على وجه الدقة. والمتعارف عليه حتى الآن أنهم كانوا من الشعوب الجبلية التى كانت تقطن فى منطقة الغور، وكانوا مستقلين بصفة عامة بسبب الوضع الطبيعى لمساكنهم كأكثر العشائر الجبلية، ولم يتمكن الملوك الفاتحون

=حاليا، على الرغم من الجهود الدولية التى شاركت فيها منظمات عربية وإسلامية لإنقاذ هذا التراث الإنسانى. ولقد تعددت ردود أفعال المنظمات الدولية تجاه عملية تدمير التماثيل البوذية، فقد وصفتها منظمة اليونسكو بأنها عمل غير إنسانى ويعتبر "جريمة ضد الثقافة"، بينما وصفتها الأمم المتحدة بأنها مأساة، وقالت الخارجية الأمريكية إن هذا التدمير لتراث تاريخى ودينى لايعوض، ويعد جريمة ضد الجنس البشرى. كما تظاهر آلاف الأفغان اللاجئين فى الهند واستنكروا هذه العملية البشعة ورددوا الشعارات المعادية لحركة طالبان التى دمرت جزءاً مهما من التراث الإنسانى.

(١) الإصطخرى، نفسه، ص ٢٧٧، ٢٨٠، ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٧٥،

المقدسى، أحسن التقاسيم، ص ٣٠٣، ياقوت الحموى، نفسه، ح ١ ص ٤٨١،
القرزوينى، نفسه، ص ١٥٤، لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٦٠-٤٦١.

(٢) ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ص ٧٠.

والغزاة من السيطرة عليهم بسبب صعوبة الوصول إلى بلادهم. ولما أصبح لملوك الغور شأن عظيم واتسعت دائرة أملاكهم في بلاد الأفغان والهند، ادعوا نسبا شريفا في الجاهلية والإسلام، فقالوا إنهم من أبناء الضحاك بطل (الشاهنامه) المعروف، كما ادعوا أن أحد أجدادهم الأعلى، ويدعى (شنسب) قد اعتنق الإسلام على يد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ولهذا عرف سلاطين الغور حينما من الدهر بأسم آل شنسب. وتذكر الروايات أن يعقوب الصفار فشل في السيطرة على الغوريين والإستيلاء على بلادهم، فعندما تقدم للاستيلاء على بلاد الرخج وكابل، فر رؤساء الغوريين أمام تقدم جيوشه ولاذوا بمناطقهم الجبلية بالغور، فعجز يعقوب عن تعقبهم لصعوبة الوصول إليهم. (١)

ويعتبر (محمد بن السورى) من أبرز شخصيات الغوريين قبل تأسيس دولتهم نحو منتصف القرن السادس الهجرى. وكان محمد بن السورى هذا زعيما للغوريين، وكان معاصرا لسبكتكين وإبنة محمود الغزنوى، ودائما ماكان الغوريون يهاجمون أملاك الغزنويين فى منطقة (بست) وكانوا يفسدون السابلة ويمتنعون بجالهم الوعرة الضيقة، وأقاموا على ذلك متمردين على فسادهم وقطع الطرق، إلى أن تصدى لهم السلطان محمود فى عام ٤٠١ هـ، فى جيوش جرارة وسار معه الترنشاش الحاجب صاحب هراة وأرسلان صاحب طوس، وهاجم الغوريين هجوما مكثفا، فاضطر محمد بن السورى إلى التقهقر أمامه والتحصن باحدى قلاع الغور، ولما أعياه طول الحصار وفت فى عضد المدافعين، استسلم محمد بن السورى وطلب الأمان من السلطان محمود الذى قبض عليه أسيرا وهو وقرابته وخاصته وأودعه السجن، وملك قلعتهم وغنم جميع

(١) عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ٢١٠.

أموالهم، وبعد فترة أسف ابن سورى على نفسه فتناول سما كان معه ومات فى الأسر، فأتاب محمود الغزنوى ابن الزعيم الراحل فى حكومة الغور خلفا لأبيه. (١)

ولقد تمتع الغوريون باستقلالهم الذاتى فى بلادهم الأصلية رغم تبعيتهم للغزنويين، وظلت أسرهم تحكم بلاد الغور بلا إنقطاع، وإن كانوا على ما يبدو قد جنحوا للهدوء والسلم زمن سلطنة ظهير الدولة إبراهيم الغزنوى (٤٥١-٤٩٢هـ/١٠٥٩-١٠٩٩م) الذى كان يتصف بقوة الشكيمة كما يذكر الوزير نظام الملك فى مؤلفه القيم "سياست نامه". وإستمر وضع الغوريين كحكام مستقلين تحت السيادة الغزنوية حتى السنوات الأولى لسلطنة بهرام شاه الغزنوى (٥١٢-٥٤٧هـ/١١١٨-١١٥٢م)، والسلطان سنجر السلجوقى، فى عام ٥٢٩هـ/١١٣٥م، دخل الغوريون تحت السيادة السلجوقية. وتفصيل ذلك أن السلطان بهرام شاه الغزنوى وكان حليفا للسلطان سنجر السلجوقى منذ أن قام الأخير بمساعدته للاستيلاء على عرش غزنة فى عام ٥٠٨هـ، قد قام بظلم الرعية وإغتصب أموالهم، فارتاب السلطان سنجر فى ولاته وعدم إخلاصه فى الوفاء بوعوده، فسار سنجر إلى غزنة، ولكن بهرام شاه فر منها قبل وصول السلاجقة إليها وقيامهم بجباية أموالها، ومن منفاه أرسل بهرام شاه إلى سنجر يتضرع ويسأل الصفح عن جرمه والعفو عن ذنبه، فأرسل سنجر السلجوقى إلى بهرام شاه المذعور يطلب منه العودة إلى غزنة، ووضح له أنه ماجاء إلى غزنة طامعا فيها، وإنما قصد بذلك إصلاحه ورده إلى الطاعة، فعاد بهرام شاه إلى غزنة فى سنة ٥٣٠هـ،

(١) ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٤٨٥.

وقد تأكدت طاعته هو وبلاده لسنجر السلجوقي، وبالتالي صارت تبعية الغوريين للسلاجقة أيضا. (١)

ومع ذلك فقد كان للغوريين بزعامة الملك عز الدين حسين ببهرام شاه المطيع لسنجر السلجوقي علاقات حسنة، توثقت فيما بعد بمصاهرة قطب الدين محمد الغورى (الملقب بملك الجبال) له، وتذكر الروايات أن سبب إلتحام محمد الغورى ببهرام شاه فى غزنة هو أن الغورى وكان مقيما فى (فيروز كوه) التى بناها بنفسه، قد حدث بينه وبين اخوته صراعا فخافهم على نفسه، ولذلك لاذ ببهرام شاه صهره بغزنة، فعظم شأنه عنده. وفى عام ٥٤٢ هـ اندلعت الفتن بين بهرام شاه وأخيه أرسلان فمال قطب الدين محمد بن الحسين الغورى إلى أرسلان، وارتاب به بهرام لذلك، ولما انقضى أمر أرسلان بالفشل، سار محمد الغورى فى جموعه إلى غزنة فى سنة ٥٤٣ هـ بقصد زيارتها فى الظاهر، بينما كان يبطن الغدر ببهرام شاه، فلما شعر بهرام بمقصده الحقيقى قام بالقبض عليه وحبسه ثم قتله بالسم خفية، فاستوحش الغوريون لذلك. (٢)

وتجدر الإشارة إلى أن عز الدين حسين ملك الغور الذى عاصر السلطان سنجر السلجوقي وبهرام شاه الغزنوى قد أنجب سبعة أبناء بلغ أربعة منهم الحكم، ولذلك لقب بأبى السلاطين. أما الأبن الأكبر للملك عز الدين حسين وهو الملك فخر الدين مسعود فلم يستطع أن يخلف أباه سلطانا فى بلادهم الأصلية (الغور)، لأن أمه كانت جارية تركية، ولذلك انتهت سلطنة الغوريين إلى أخيه شاه بن الحسين ثم ملك من بعده أخوه سيف الدين شورى بن الحسين، فقام بتوزيع أملاك أبيه بين أخوته وأناب

(١) ابن الأثير، الكامل، طبعة الدكتور الدقاق، ح ٩، ص ١٥٥-١٥٦، ٢٨٤.
(٢) ابن الأثير، الكامل، ح ٩، ص ٣٥٦-٣٥٧، ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٥٢٣.

لكل منهم حكم بلد منها، فكان من نصيب أخيه الأكبر فخر الدين مسعود حكم ولاية طخارستان وذلك في سنة (٥٥٥ هـ) (١).

قيام الدولة الغورية في أفغانستان والهند

سلطنة سيف الدين السورى

(٥٤٣-٥٤٤هـ / ١١٤٨-١١٤٩م)

يعتبر الملك سيف الدين سورى بن الحسين المؤسس الحقيقى للدولة الغورية في أفغانستان والهند. فقد اتخذ هذا الملك من حادثة مقتل أخيه قطب الدين محمد الغورى على يد بهرام شاه الغزنوى في عام ٥٤٣هـ / ١١٤٨م، ذريعة للقضاء على حكم الدولة الغزنوية المتداعية للسقوط، فجمع قواته للثأر لأخيه وسار على رأسها نحو غزنة والتحم مع بهرام شاه في معركة حامية الوطيس، في جمادى الأولى ٥٤٣هـ، فانجلت هذه المعركة بهزيمة بهرام شاه وفراره إلى الهند ودخل سيف الدين الغورى غزنة وجلس على عرشها وضمها إلى أملاكه بالغور، ويعتبر استيلاء الملك سيف الدين السورى على غزنة في هذا التاريخ بداية سلطنة الملوك الغوريين المستقلة، حيث عظمت قوتهم وعلا شأنهم وتركوا بلادهم الجبلية. (٢)

ويبدو أن الملك الجديد لغزنة قد إستقر حكمه بها، ففرق قواته عنه وأعادها إلى الغور، وفي الوقت نفسه كان بهرام شاه يرقب هذه الأحداث بتحفر فلما تأكد له عودة القوات الغورية إلى بلادها، انتهر فرصة

(١) ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٥٢٤، عباس إقبال، نفس المرجع، ص ٢١١.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ح ٩، ص ٣٥٧.

حلول فصل الشتاء لسنة ٥٤٤هـ / ١٤٩م، وإمتلاء الطرق بين غزنة والغور بالثلوج وصعوبة الإتصال بينهما، وجّهز قواته فى الهند لاستعادة ملكه المفقود فى غزنة، وجعل على مقدمته السلار بن الحسين وأمير هندوستان ابراهيم العلوى، فلما علم سيف الدين السورى بذلك، خرج للقائه فى جمع قليل من جنده الموجودين معه فى غزنة لصعوبة وصول الإمدادات إليه من الغور، فانفض عنه عسكر غزنة وانضموا إلى سيدهم السابق بهرام شاه، فوَقعت الهزيمة بالملك الغورى ووقع أسيرا فى يد بهرام شاه الذى استقر بغزنة، فأمر بالتشهير به هو ووزيره السيد الماهيانى، وأركب كلا منهما ناقة وطاف بهما فى طرقات المدينة بإهانة بليغة وقد جُلل وجهيهما بالسواد، وكان الناس يقذفونهما بالتراب والفضلات ثم قتلها وصلبها على باب غزنة، فأوقد بذلك نار الحقد عليه التى كانت مشتعلة قبل مقتل أخيه قطب الدين محمد الغورى. ^(١) ويصف ابن الأثير سورى بن الحسين بقوله إنه " كان أحد الأجواد، له الكرم الغزير والمروءة العظيمة، حتى إنه كان يرمى الدراهم فى المفاليع إلى الفقراء لتقع بيد من تقع، ومن يتفق له". ^(٢)

ولاية علاء الدين حسين الغورى (جهان سوز):

(٥٤٤-٥٥٦هـ / ١١٤٨-١١٦٠م)

بعد مقتل قطب الدين محمد ملك الجبال على يد بهرام شاه، إنتقلت إمارة فيروز كوه إلى أخيه (بهاء الدين سام)، فقام بعقد علاقات ودية مع جيرانه الملوك المحليين بغرجستان وكان كل منهم يلقب باسم (شاز)، لكى

(١) ابن الأثير، الكامل، ح ٩، ص ٣٥٧. ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٥٢٤، حسن ابراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ح ٤، ص ١٦٤، عباس إقبال، نفس المرجع، ص ٢١١-٢١٢.

(٢) ابن الأثير، نفس المصدر والجزء والصفحة.

يأمن جانبهم ويحافظ على إستقلال إمارته من تطلعاتهم. فلما قتل سيف الدين السورى أجمع إخوته على رناسته للغور لأنه أكبر أبناء الملك عزالدين حسين (رغم وجود الملك فخر الدين مسعود الأسن منه، والذي حرم من زعامة الغوريين لنفس السبب السابق ذكره). واستعد بهاء الدين سام بجيش ضخم يطلب به دم أخويه المقتولين على يد بهرام شاه وقصد غزنة. ولكنه مرض مرضا شديدا فى الطريق قبل الوصول إليها بسبب حزنه الشديد على أخويه القتيلين، ثم قضى نحبه متأثرا بمرض الجدري، فأجمع الغوريون على سلطنة أخيه علاء الدين حسين بن حسين الغورى.

ولم يتقاعص علاء الدين الغورى عن نيل ثأر أخويه اللذين قُتلا على يد بهرام شاه صاحب غزنة، بل أقسم بأغلظ الأيمان أن يقلب غزنة رأسا على عقب وأن يمحو آثار الغزنويين، وأعد لذلك جيشا ضخما من شعب الغور وخرجستان وتوجه به إلى غزنة فى عام ٥٤٤هـ، فلما علم بهرام شاه بذلك عاد مسرعا من الهند لدفعه بأفيال وجيش عظيم، وقاتل علاء الدين قتالا شديدا وامتدت المعارك بينهما إلى عدة مواضع فى سجستان، وبين سجستان وغزنة، وأخيرا بالقرب من غزنة، وفى المرات الثلاثة تحقق النصر لعلاء الدين الغورى، فلأذ بهرام شاه إلى الهند وإستحوذ علاء الدين على عاصمة الغزنويين وأنزل بأهلها العقاب الصارم، فأعمل السيف ليل نهار سبعة أيام فى رقابهم ونهب المدينة وجعلها طعمة للنيران مدة أسبوع، وأحرق الكتب التى كان السلطان مسعود قد حملها إلى غزنة من خزائن علاء الدولة صاحب أصفهان فى عام (٥٢٥هـ)،^(١) وسوى بآثار الغزنويين وعمائرهم الأرض، ثم أخرج أجساد السلاطين الغزنويين عدا أجساد محمود ومسعود وإبراهيم، وأشعل

(١) ابن خلدون، العبر، ح، ٤، ص ٥٠٠.

فيها النار، ثم أخرج جسداً أخويه وعاد إلى الغور عن طريق (بست)، فخرج عليها وأمر بتخريب عمائر الغزنويين وأبنتيهم بها أيضاً، ولقب علاء الدين بعد إحراق غزنة بلقب (جهان سوز) أي محرق الدنيا، ملك الدنيا والدين. (١)

لكن على الرغم من هذه المآسى التي حلت بغزنة على أيدي الغور لم يصب الأدب بسوء، بل على العكس من ذلك كان محل تقديرهم. فقد ذكر (نظامى عروضى السمرقندى) أن علاء الدين الغورى حين أمر بنهب غزنة وتخريب عماراتها "اشترى مدائح محمود ومسعود وإبراهيم (الغزنويين) بالذهب وخبأها في خزانة كتبه". ولم يجرؤ أحد في عسكر علاء الدين في هذه المدينة المنكوبة أن يطلق على ملوك الغور لقب سلاطين. ولعل موقف علاء الدين هذا من رفات السلاطين محمود ومسعود وإبراهيم ومدائحهم، إنما يعود لتقديره هو شخصياً لهؤلاء السلاطين العظام ودورهم في نشر الإسلام في هذه البقاع وتحقيقهم العدل والأمن لرعاياهم، ويدل على ذلك أيضاً أنه كان دأب القراءة في الشاهنامة ماقاله مؤلفها الفردوسى في مدح السلطان محمود " أول ماينطق به الطفل الرضيع في مهده "محمود" (الغزنوى) تتمثل في جسمه صولة الفيل، وفي روحه علم جبريل، وفي كفه مطر الربيع، وفي قلبه نهر النيل، ملك العالم محمود، ذو العزة القعساء الذى جمع بين الذب والحمل على مورد الماء". (٢)

(١) ابن الأثير، الكامل، ح ٩، ص ٣٧٦، عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ٢١٢-٢١٣.

(٢) ترجم الأستاذ براون أرجوزة نظامى عروضى: (جهار مقاله) إلى الإنجليزية، كما ترجمت أيضاً إلى اللغة العربية (بعناية عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب، القاهرة ١٩٤٩).

فرض علاء الدين الغورى سيطرته على جبال الغور ومدينة فيروزكوه فاستفحل ملكه واستعمل العمال، وكان فيمن ولاه بلاد الغور ابنا أخيه سام بن الحسين، وهما غياث الدين وشهاب الدين، فأحسننا السيرة فى عملهما واستملا الأهل بالعدل، وبذلا الأموال فأحبهما الناس وانتشر ذكرها فى الآفاق^(١). وطمع علاء الدين الغورى بعد ذلك فى ملك خراسان فبعث جيوشه إلى هراة باستدعاء أهلها، فحاصرتها حصارا طويلا ثم منكها بالأمان، غير أن قواته نهبت (تاب وأوبه، ومارباد) ويتضح من رواية لابن الأثير أن غزو علاء الدين الغورى لهراة كان لحساب السلطان سنجر السلجوقى فى الظاهر، بينما كان يبطن غير ذلك، فبعد أن دخلها خطب فيها لهذا السلطان. غير أن علاء الدين الغورى طمع فيما يبدو فى مد سلطانه على حساب أملاك السلاجقة، فزحف إلى بلخ وبها الأمير (قماج) من قبل السلطان سنجر، واستمال كبار حاشيته فغدروا به وملك علاء الدين بلخ. ثم أعلن عصيانه لسلطان سنجر السلجوقى وإمتنع عن إرسال التحف والهدايا التى كان يرسلها سنويا من بلاد الغور إلى بلاطه. ولما علم السلطان سنجر بذلك خشى ازدياد نفوذه وزحف إليه فى عام ٥٤٧هـ، وقاتله وقتل من الغورية خلقا كثيرا ولاسيما الرجالة، وظفر به عند مدينة (أوبه) وأسره، غير أنه عاد وعفى عنه وأخلى سبيله وعامله بقدر كبير من الشهامه والرفقة والعقل،^(٢) وعندما حضر علاء الدين

(١) ابن الأثير، الكامل، ح ٩، ص ٣٧٧.

(٢) يقول ابن الأثير (الكامل، ح ٩، ص ٣٧٦) إن السلطان سنجر أحضر علاء الدين بين يديه وقال له "يا حسين لو ظفرت بى ماكنت تفعل، فأخرج له قيد فضه وقال: كنت أريدك بهذا وأحملك إلى فيروزكوه، فخلع عليه سنجر وردة إلى فيروزكوه"، ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٥٢٤-٥٢٥.

مجلس السلطان، وهبه سنجر طبقا كان أمامه مليئا بالجواهر القيمة،
وإرتجل شعرا يمدحه به، فقال (الأبيات مترجمة إلى العربية):^(١)

أسرني الشاه ولم يقتلني مع أنى أستحق القتل يقينا
بل وهبني طبق در ثمين وهكذا كان عفوه وجوده في الأولى والثانية

وقد اختاره السلطان سنجر أولا لمنادمته، ثم أعاده إلى قاعدة
ملكه في الغور (فيروز كوه).

وفي أثناء غياب علاء الدين الغوري أسيرا ونديفا في بلاط سنجر
السلجوقي، أضمر بعض أمراء الغور الحسد لإبني أخيه سام (غياث الدين
وشهاب الدين)، وعند عودة علاء الدين إلى حضرته أوغروا صدره
عليهما وادعوا عصيانهم له، ورموها بتدبير قتله والإستيلاء على ملكه.
فأراد علاء الدين أن يمتحن طاعتهما قبل أن يقمعهما، فأرسل في طلبهما
فامتنعا عن الحضور، إذ نوى إليهما الخبر بما دبره لهما حاشية السوء،
فأرسل إليهما عمهما جيشا بقيادة (خروش الغوري) فأنزلا به الهزيمة
وأسر قائد الجيش، فأبقيا عليه وأحسننا إليه وخلعا عليه، وعندئذ أظهر
غياث الدين وشهاب الدين العصيان لعمهما وقطعا الخطبة له على منابر
أعمالهما، ولم يجد علاء الدين بدا من السير إليهما بنفسه، فقاتلاه قتالا
شديدا حتى إنهم فطلب منهما الأمان لنفسه فأمناه وأحسننا معاملته
وأجلساه على العرش وتفانوا في خدمته، "فبكى علاء الدين وقال: هذان
صبيان قد فعلا ما لو قدرت عليه منهما لم أفعله"، فكافأهما وزوج أحدهما

(١) عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الاسلام، ص ٢١٣.

وهو غياث الدين إحدى بناته وقلده ولاية عهده، ولكنه تغير عليهما بعد مدة وسجنهما. وبعدما أمن جانبهما إنشغل علاء الدين الغورى بالفتح، فتمكن من فتح بعض قلاع سجستان وطخارستان ووادي نهر مرغاب، وفي نهاية عمره لبي دعوة الدعاة الإسماعيلية، ثم توفي بعد هذا بقليل في عام ٥٥٦هـ/ ١١٦٠م. وكان كما وصفه (ابن الأثير) من أحسن الملوك سيرة في رعيته. (١)

ولاية سيف الدين محمد بن علاء الدين الغورى:

(٥٥٦-٥٥٨هـ/١١٦٠-١١٦٢م)

وبعد وفاة علاء الدين (جهان سوز) خلفه ابنه السلطان سيف الدين محمد على عرش الغور وفيروزكوه، وفي عهده نشط دعاة الإسماعيلية وكثر أتباعهم، وكان هؤلاء الدعاة قد دعوا السلطان السابق علاء الدين الغورى ووجدوا منه عطفًا نحوهم، غير أن سيف الدين الغورى شعر بخطورة دعوتهم وعمد إلى القضاء عليهم في بداية حكمه، وأمر بقتلهم حيث وجدوا في بلاده. وقد تبادل المراسلات والهدايا مع الملوك والأمراء الذين خطب ودهم ومودتهم، كما أطلق سراح إبنى عمه غياث الدين محمد وشهاب الدين محمد من حبسهما. (٢)

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٧٦-٣٧٧، ٤٤٧-٤٤٨، ابن خلدون، العبر، ج ٤،

ص ٥٢٥، حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج ٤، ص ١٦٧.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ٤٤٨.

ولم يمكث سيف الدين محمد في سلطنة الغور طويلا، فقد صار فريسة هجوم الترك الغز ولم تنقض مدة طويلة من حكمه (حوالي سنة وعدة أشهر)، فقد قام هؤلاء الترك بالإستيلاء على خراسان وسجستان وكرمان (١) من أملاك سنجر السلجوقي وذلك في أواخر حكمه، وأطلقوا أيديهم في نهب جميع النواحي المجاورة ومنها أملاك الغوريين في غرجستان، فأعد سيف الدين محمد العدة لقتالهم وسار على رأس جيش لحربهم (ببلخ) وخرج في ركابه جماعة من خاصته، وسمع أمراء الغز بذلك، فألحوا في طلبه وأوقعوا به فقاتلهم، ووقعت خيانة في صفوف جيشه أودت بحياته، فقد كان قائد جيش الغور يحقد على السلطان قتله أخاه، فرمى السلطان برمح في صدره فخر صريعا من على جواده، فأجهز الغز على جيشه وقتلوا منه الكثير وذلك في شهر رجب سنة ٥٥٨ هـ. وأسر بعض آخر وهرب الباقون ولحق عسكره ببلادهم، وكان سيف الدين عند مصرعه في العشرين من عمره. وكان عادلا حسن السيرة، "فمن عدله وخوفه عاقبة الظلم أنه لما حاصر أهل هراة وملكها، أراد عسكره أن ينهبوها فنزل على درب المدينة وأحضر الأموال والثياب فأعطى جميع عسكره منها، وقال هذا خير من أن تنهبوا أموال المسلمين، وتسخطوا الله تعالى، فإن الملك يبقى على الكفر ولا يبقى على الظلم". (٢)

(١) وهي مدينة بين غزنة والهند، وسكانها قوم يقال لهم ابغان، وهي على اسم كرماني المعروف وليست هي (ابن الأثير، ح ٩، ص ٣٧٦).

(٢) ابن الأثير، الكامل، ح ٩، ص ٤٦٢.

ولاية غياث الدين محمد بن سام الغوري:

(٥٥٨ هـ / ١١٦٢-١٢٠٣ م)

بعد مصرع السلطان سيف الدين محمد رفع الأمراء الغوريون ابن عمه وصهره غياث الدين أبا الفتح محمداً بن سام على العرش، فخطب له على منابر الغور وغزنة. ^(١) وفي بداية حكمه واجه السلطان الجديد ثورة عمه الأكبر فخر الدين مسعود بن حسين الذي كان يحكم طخارستان وباميان منذ عام ٥٥٠ هـ من قبل علاء الدين جهان سوز، ورغم أن فخر الدين كان أكبر أبناء (أبي السلاطين) عز الدين حسين ولم يبق من ولده السبعة غيره، لكنه لم يتولى سلطنة الغوريين، فظن أن الفرصة مواتية بعد وفاة ابن أخيه سيف الدين محمد بن علاء الدين لضم أملاك الغوريين إلى سلطانه، ومن أجل تنفيذ حلمه القديم عقد تحالفات سياسية وعسكرية مع أعداء الغوريين، مثل الأمراء التابعين للسلطان سنجر والذين أذاقوا مرارة الهزيمة على أيدي الغزنويين، مثل الأمير قماج حاكم بلخ والأمير تاج الدين يلدز والى هراة، وإتجه المتحالفون إلى فيروز كوه لتقويض دعائم حكم السلطان الجديد.

واستعد السلطان غياث الدين وأخوه شهاب الدين لمواجهة هذا التحالف، والتقوا مع تاج الدين يلدز الذي كان أسبق الحلفاء وصولاً إلى فيروزكوه في معركة طاحنة فقتلاه وفرقا جنده، ثم عاجلا الأمير قماج بالهجوم وهزماه أيضا وأرسلارأس يلدز وعلما من أعلام جيش قماج إلى باميان مقر حكم عمهما فخر الدين مسعود، فاضطرب الأخير لهذا الموقف اضطرابا شديداً وعزم على العودة إلى طخارستان، لكن الغوريين تقاطروا

(١) ابن الأثير، الكامل، ح ٩، ص ٣٧٧.

عليه وعاجلوه بعد الفرار وأسروه، إلا أن ابني أخيه عامله بكل التواضع والإحترام وأعاداه إلى إمارته باميان كما كان قبل تمرده عليهم. (١)

وبعدما تخلص غياث الدين من ثورة عمه فخر الدين مسعود وإستتبت له الأمور بالغور وقوى أمره، إستعد لتحرير أملاك الغوريين التي استولى الأتراك الغز عليها، منذ خمس عشرة سنة (٥٥٥هـ) فجمع جيشا جرارا يتكون من الغورية والخراسانية والخلج وجعل على قيادته أخيه شهاب الدين، فسار إليهم فى عام ٥٦٩هـ وقاتلهم وهزمهم واستخلص غزنة منهم وكانوا قد حكموها خمس عشرة سنة أذاقوا فيها أهلها ألوان التعذيب وعاملوهم معاملة قوامها الظلم والجور والعسف. ثم سار شهاب الدين الذى إشتهر بحسن سيرته وعدله إلى كرمان (وهى بين غزنة والهند وليست كرمان المشهورة) وعبر نهر السند واستولى على بعض بلادها الجبلية مثل شنوران، كما استصفى غياث الدين هراة أيضا فى عام ٥٧١هـ من يد أحد عبيد سنجر السلجوقى السابقين، وطوع إليه أيضا بوشنج وسجستان وجوزجانان ومروالروذ، ووسع حدود دولة الغوريين من ناحية الغرب والجنوب الغربى سعة عظيمة. (٢)

وفى سنة ٥٧٩هـ، سار شهاب الدين على رأس جيش كثيف من الخراسانيين والغور، فعبر نهر السند وحاصر لاهور وبذل الأمان لخسروشاه وأنكحه ابنته وسوغه مايريد من الإقطاعات، على أن يخرج إليه ويخطب لأخيه السلطان غياث الدين محمد فرفض ذلك، وبقي شهاب

(١) عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ٢١٥.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ح ٩، ص ٣٧٨، ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٥٢٥، عباس إقبال، نفسه، ص ٢١٥، ومروالروذ ناحية واسعة بين الغور وغزنة، وينسب إليها الفاضى الإمام العالم الفاضل حسين المروروذى عديم النظر فى العظم والورع (القزوينى، آثار البلاد، ص ٤٥٥).

الدين يحاصره حتى أعياه الحصار وخذله أهل البلد، فبعث وفداً من أهل لاهور على رأسه خطيب وقاضى المدينة يستأمنان له فأمنه شهاب الدين الغورى، ودخل البلد واستولى عليها من يد صاحبها الغزنوى خسرو شاه بن بهرام (٥٥٥-٥٨٢هـ/١١٦٠-١١٨٦م) وأحسن معاملته وبقي خسرو شاه عنده مكرماً، ثم طلب أخوه غياث الدين محمد إرسال خسرو شاه إليه، فارتاب من ذلك فأمنه شهاب الدين وحلف له وبعث به وبأهله مع جيش يحفظونهم، فلما وصلوا بلاد الغور أمر به فقتل فى إحدى القلاع. وبذلك زالت الدولة الغزنوية على يد شهاب الدين الغورى سنة ٥٨٢هـ (١١٨٦م)، وتداعى سلطان الغزنويين فى الهند بعد مائتى وثلاث عشرة سنة تقريباً، وانقسمت دولتهم إلى دويلات إسلامية مستقلة. وكان سلاطين الغزنويين كما ذكر ابن الأثير^(١) " من أحسن الملوك سيرة، ولاسيما جدهم محمود (الغزنوى) فإن آثاره فى الجهاد معروفة وأعماله للأخرة مشهورة".

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم بأبائهم أو مجدهم قعدوا"

استقر سلطان غياث الدين الغورى وقوى أمره واتسعت رقعة مملكته وكثر عدد جنده، وأصبح بحيث يستطيع أن يعلن نفسه سلطاناً على البلاد. لذلك نراه يبعث إلى أخيه شهاب الدين يأمره بإقامة الخطبة له بالسلطنة على منابر الهند حيث استقر سلطان الغور فى لاهور، وبعد أن كان لقب غياث الدين محمد "شمس الدين"، أصبح الآن يلقب بالقباب

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٧٩.

"غياث الدين والدنيا معين الإسلام قسيم أمير المؤمنين"، كما تقلب أخوه شهاب الدين بلقب عز الدين. (١)

الصراع الغوري الخوارزمي:

فى الوقت الذى كان السلطان غياث الدين وأخوه الملك شهاب الدين يقومان بهذه الفتوحات العظيمة فى خراسان والهند، كانت الأسرة الخوارزمشاهية القوية الناهضة قد أعلنت عن وجودها ورفعت شعار القوة والسلطنة فى خوارزم وبلاد ماوراء النهر وخراسان، وأسسوا فى هذه المناطق دولة فنية فاقت دولة الغوريين فى القوة والعظمة خاصة فى عهد حاكمها السلطان (علاء الدين تكش ٥٦٨هـ/٥٩٦هـ) وكان معاصراً للأخوين غياث الدين وشهاب الدين، وقد حاز هذا السلطان شهرة وقوة فوق العادة بسبب فتوحاته العظيمة، وكان سلطان خوارزم يجاور سلطنة الغوريين من ناحية خراسان وجوزجانان.

وفى عام ٥٨٦هـ أخذ جلال الدين محمود سلطان شاه أخو علاء الدين تكش سلطان خوارزم (وكان قد عصا أخاه واستولى على حدود مرو الرود وبنجده وهى حدود ملك الغوريين) يهاجم بلاد الغوريين على الرغم من حسن العلاقات بينهما فأرسل السلطان غياث الدين جيشاً لردهم أكثر من مرة، وفى إحدى المعارك بين الطرفين نجح شهاب الدين وملك شمس الدين بن فخر الدين مسعود أمير باميان وتاج الدين ملك نيمروز عام ٥٨٨هـ فى تطويق جيش سلطان شاه، فأصابوه بهزيمة فادحة بالقرب من شاطىء نهر مرغاب، فلاذ بالفرار.

(١) ابن الأثير الكامل ح ٩، ص ٣٨٠، ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٥٢٦.

وبعد وفاة السلطان علاء الدين خوارزم شاه وولاية ابنه علاء الدين محمد فى عام ٥٩٦ هـ ، ظن الغوريون أن الفرصة مواتية للإستيلاء على خراسان ، فجهزوا جيشا ضخما وهاجموا مدن خراسان الهامة مثل أبيورد و نسا و سرخس و مرو و طوس و هى صلب مدن الدولة الخوارزمية وكان ذلك فى عام ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م ، ثم تقدموا حتى حدود قهستان و جرجان و بسطام ، ^(١) وأضحت خراسان مرة واحدة موطن الجند الغورى ، ولقد تحقق للغوريين كل هذه الإنتصارات بفضل تحالفهم مع ابن أخى علاء الدين محمد خوارزم شاه ، وبعد أن اغتصب غياث الدين هذه البلاد الخوارزمية أقطعها بعض أتباعه ثم رحل إلى أملاكه فى بلاد الهند. ^(٢)

تقدمت الجيوش الغورية بعد ذلك نحو نيسابور وأرسلوا إلى (على شاه) نائب علاء الدين محمد خوارزمشاه بها. يندروه بالحرب إن امتنع من الطاعة وسلم لهم المدينة، فرفض الإنذار واستعد للحصار، وزحفت الجيوش الغورية نحو المدينة وخرّبوا العمائر بظاهرها وقطعوا الأشجار، وحمل (محمود بن غياث الدين) على الأسوار وضايق أهلها، ونجح فى أن يستولى على بعض أسوارها ورفع راية أبيه السلطان غياث الدين عليها، وفى الوقت نفسه حمل شهاب الدين من الناحية الأخرى للأسوار، فسقطت بين يديه وملك البلد ونهب جنوده عامتها، ثم نادوا بالأمان ورفع النهب،

(١) بسطام مدينة كبيرة بقومس بقرب دامغان، وينسب إليها سلطان العارفين أبو يزيد تيغور بن عيسى البسطامى صاحب العجائب (القزوينى، آثار البلاد، ص ٣٠٨).
(٢) ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٨٠، ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٥٣٣، حافظ أحمد حمدى، الدولة الخوارزمية والمغول، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٤٩، ص ٣٣.

واعتصم الخوارزميون بالجامع فأخرجهم أهل البلد وسلموهم لغياث الدين^(١).

ثم اتجه الغوريون بقيادة شهاب الدين إلى (هستان) بعدما علموا بوجود قرية بالقرب منها معظم أهلها إسماعيلية، فدخلها وقتل المقاتلين وسبى الذرية وخرّب القرية، ثم سار إلى مدينة (كناباد) وكان جميع أهلها من الاسماعيلية فضرب حولها الحصار. وكانت أعمال شهاب الدين الوحشية مع الاسماعيلية رغم عقد الصلح معهم سبباً في حدوث جفوة بين غياث الدين وشهاب الدين، فقد أرسل صاحب قهستان إلى غياث الدين بشكوى يستغيث من شهاب الدين ويذكرونه بالعهد الذي أبرم بينهما. وبينما كان شهاب الدين مشغولاً بحصار (كناباد) أتاه رسول أخيه السلطان غياث الدين يطلب إليه الرحيل من قهستان وفك حصار كناباد، فأبى فانفذ الرسول أمر السلطان بإجباره على العودة كرها وسل سيفه وقطع حبال سرادق شهاب الدين، فرحل الأخير مع عسكره غاضباً وأبى المقام في غزنة ورحل إلى بلاد الهند، فغزاها في عام ٥٩٨هـ وهزم الهنود عند نهر واكد واستباحهم وملك المدينة عنوة، ثم صالح ملكها على جزية يؤديها إليه، ثم عاد إلى غزنة^(٢).

وفي ذى الحجة من ٥٩٧هـ هاجم السلطان خوارزم شاه الغوريين على مقربة من نيسابور وهزمهم، فطلب غياث الدين وشهاب الدين عفوه فعفا عنهما ورحلا عن خراسان. ولكنهم عاودا الهجوم على خراسان في عام ٥٩٨هـ/١٢٠١م، وطلبوا من خوارزم شاه تسليمهم قطعة من

(١) ابن الأثير، الكامل، ح ١٠، ص ٢٧٢-٢٧٣.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ح ١٠، ص ٢٧٣، ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٥٣٣-٥٣٤، الساداتى، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية، ص ١١٣.

خراسان فرفض، فاتخذوا من رفضه ذريعة لقتاله وهاجم الملك شهاب الدين مدينة طوس وأضر أهلها كثيرا. ويذكر ابن الأثير أن علاء الدين خوارزم شاه بعد أن تخلص من متاعبه والأخطار التي أحاطت بدولته عقب وفاة أبيه، أرسل في سنة ٥٩٨هـ/١٢٠١م، إلى السلطان غياث الدين كتابا يعتب فيه عليه ويؤنبه، وقد جاء في هذا الكتاب "كنت اعتقد أن تخلف على بعد أبي وأن تنصرني على الخطأ، وتردهم عن بلادي، فحيث لم تفعل فلا أقل من أن لاتؤذيني وتأخذ بلادي، والذي أريده أن تعيد ما أخذته مني إلى، وإلا إنتصرت عليك بالخطأ وغيرهم من الأتراك، إن عجزى عن أخذ بلادي، فإننى إنما شغلتني عن منعكم عنها الإشتغال بعزاء والدى وتقرير أمن بلادي، وإلا فما أنا بعاجز عنكم وعن أخذ بلادك خراسان وغيرها" (١) وتجدر الإشارة إلى أن السلطان غياث الدين لما بلغه وفاة خوارزم شاه أمر كما يذكر ابن الأثير " أن لاتضرب نوبته ثلاثة أيام، وجلس للعزاء على ما بينهما من العداوة والمحاربة، وفعل ذلك عقلا منه ومروءة" (٢).

ولما وصلت هذه الرسالة إلى السلطان غياث الدين صانع سلطان خوارزشاه حتى يحضر شهاب الدين من غزوة الهند، غير أن صاحب خوارزم على ما يبدو طمع في غياث الدين وأراد استغلال فرصة غياب أخيه شهاب الدين، وأرسل إلى نائب الغوريين في خراسان يأمره بالرحيل عن نيسابور ويتهدده إن لم يصدع لأوامره، فكتب صاحب خراسان بذلك إلى مولاه غياث الدين وأوضح له أن أهل نيسابور يميلون إلى الخوارزمية، فوعده السلطان الغورى بالنصر، وقد أتبع السلطان

(١) ابن الأثير، الكامل، ح ١٠، ص ٢٧٧، ابن خلدون، نفسه، ٤٣، ص ٥٣٤، حافظ

أحمد حمدى، الدولة الخوارزمية، ص ٣٣-٣٤.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ح ١٠، ص ٢٦٦-٢٦٧.

الخوارزمي كتبه بعدة حملات عسكرية على البلاد الخراسانية، فقد خرج على رأس قواته في عام ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م نحو خراسان، فلما وصل إلى نسا وأبيورد هرب هندوخان ابن أخيه ولحق بغياث الدين في فيروزكوه، فملك خوارزمشاه مرو وسار إلى نيسابور وحاصرها شهرين، فلما أبطأ عن حاكمها الغوري وصول الإمدادات من فيروزكوه شعر بصعوبة موقفه وعدم جدوى المقاومة، ولذلك استأمن لصاحب خوارزم وخرج إليه هو وأصحابه فأحسن إليهم، وطلب علاء الدين صاحب خوارزم من هذا الوالي أن يسعى في الصلح بينه وبين السلطان الغوري غياث الدين وأخيه شهاب الدين فوعده بذلك. (١)

سعى صاحب خوارزم لصلح الغوريين، واصطنع أحد أعيان الدولة الغورية ويدعى الحسن بن خرميل ليكون مع صاحب خراسان في طلب الصلح عند غياث الدين. ورحل لفتح بعض المدن مثل سرخس وغيرها، ثم عاد إلى بلده، ومن عاصمة ملكه أرسل مرة أخرى إلى السلطان غياث الدين الغوري في طلب الصلح، فوافق هذه المرة وأرسل أميراً من أكابر الدولة الغورية يدعى (الحسن بن محمد المرغني نسبة إلى مرغن إحدى قرى الغور) لعقد الصلح، ولما وصل هذا الوسيط عند خوارزمشاه تبين غدره وقبض عليه وسجنه، وسار (خوارزمشاه) إلى هراة وحاصرها، فلما وصلت هذه الأخبار إلى السلطان غياث الدين صمم على معاقبة سلطان خوارزمشاه الغادر، وأرسل عساكره مدداً لهراة مع ابن أخته (ألب غازي) فنزل على خمسة فراسخ منها، ثم خرج بنفسه على رأس قواته إلى هراة ليمنع سقوطها في يد خوارزمشاه الذي كان يضرب حولها الحصار منذ أربعين يوماً، فلما علم خوارزمشاه بذلك توقع وصول شهاب

(١) ابن الأثير، الكامل، ح ١٠، ص ٢٧٧، ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٥٣٤-٥٣٥.

الدين الغورى من الهند وبالتالي لحاقه بهراة، أدرك خوارزمشاه صعوبة الاستيلاء على هراة فأرسل إلى أميرها وصالحه على مال يؤديه إليه، وفك الحصار وارتحل عنها، وبلغ الخبر شهاب الدين فخرج على رأس قواته إلى طوس فى طريقه إلى خوارزم لحصارها، فجاء الخبر بوفاة أخيه غياث الدين فأثنى عزمه وسار إلى هراة ومنها إلى مرو، لكن جند خوارزمشاه أحاطوا به فيها، فلاذ منهزما بالفرار إلى الغور. (١)

ومع أحد أسباب صراع الغوريين والخوارزمشاهيين الرئيسية هو المجاورة وطمع أحدهما فى الاستيلاء على بلاد الآخر ، إلا أن عاملاً آخر أوسع من دائرة نيران هذا القتال والجدال وهو الخليفة العباسى الناصر لدين الله (٥٧٥-٦٢٢هـ) لأنه كان يعيش فى عداة شديد للخوارزمشاهيين من عهد استيلاء علاء الدين تكش على إيران الغربية وتفكيره فى القضاء على دولته، ولكى يأمن شر هجوم الخوارزميين كان يبعث بالهدايا الفاخرة والرسل إلى غياث الدين الغورى ويحرضه على مهاجمة بلاد خوارزم شاه كما وقع فى (٥٩٤هـ) حين أوعز الناصر إلى غياث الدين الغورى بالحملة على بلاد خوارزم شاه بعد أن استخلص علاء الدين تكش بلاد الري وهمدان وأصفهان من يد عمال الخليفة وصار معارضاً له ليجبر الغورى تكش على العودة إلى خوارزم. وعاد تكش إلى خوارزم ولكى ينتقم من الغوريين تحالف مع الأتراك القراختانيين الذين يحكمون فى كاشغر وكانت ماوراء النهر تابعة لهم أيضاً وحثهم على مهاجمة بلاد الغوريين وقصد هو بنفسه طوس بهدف ضم هراة. لكن قادة الغوريين هزموا القراختانيين وتصالح خوارزم شاه مع الغوريين. وفى عهد السلطان محمد خوارزم شاه

(١) ابن الأثير، الكامل، ح ١٠، ص ٢٧٨-٢٧٩، ٢٨١، ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٥٣٦.

ورث نفس معاملة أبيه للخليفة، مما جعل الخليفة يعاود تحريض غياث الدين وشهاب الدين على ملك خوارزم فتتابعت غزوات هذين الأخوين على خراسان وخوارزم وأكثرها كان بتحريض الناصر، ولم يتورع هذا الخليفة المخادع في عدائه للخوارزميين وعناده لهم، عن تحريض الكفار القراخانيين والمغول وفي النهاية سقطت أسرته بيد المغول الذين دعاهم إلى البلاد الإسلامية بنفسه. (١)

وفاة السلطان غياث الدين محمد:

توفي غياث الدين الغوري سنة ٥٩٩ هـ وقد اتسع ملكه. وكان كما وصفه ابن الأثير (٢)، مظفرا منصورا في حروبه لم تنهزم له راية قط. وكان جوادا حسن الاعتقاد كثير الصدقات، وقد شيد الخانقاهات في الطرق، وأسقط المكوس ولم يتعرض إلى مال أحد من الناس. وكان من عادته إذا مات غريبا في بلده لا يتعرض لتركته حتى يأتي وارثه ويأخذها ومن مات ببلده أودع ماله ليوزعه القضاة على مستحقيه طبقا لقواعد الشريعة الإسلامية. وإذا وصل إلى بلد من البلاد عم إحسانه الفقهاء وأهل الورع والدين وخلع عليهم وفرض لهم العطايا في كل سنة من خزانته، كما وزع الأموال على الفقراء. وكان يشمل بعطفه ورعايته كل من وصل إلى حضرته من العلويين والشعراء وغيرهم. وقد أولع بالأدب والبلاغة وعرف بحسن الخط حتى كان ينسخ المصاحف بخطه ويقفها على المدارس التي بناها. وعلى الرغم من ميل غياث الدين محمد إلى عقائد

(١) عاصر ابن الأثير صاحب الكامل الخليفة الناصر واتهمه بالظلم وقبح السيرة وأنه أطمع التتر في بلاد المسلمين، لمزيد من التفاصيل: أنظر الكامل في، ح ١٠، ص ٤٥٣.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ح ١٠، ص ٢٦٤، ٢٨٢-٢٨٣، القزويني، آثار البلاد، ص ٤٣٠، ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٥٣٧.

المذهب الشافعي وبناءه المساجد لأصحاب هذا المذهب، لم يؤثر أصحاب مذهب على مذهب، بل كان يسوى بينهم وبين غيرهم من أصحاب المذاهب الأخرى، كما أثر عنه أنه تحول إلى هذا المذهب - بعدما كان يدين بالكرامية - على يد محمد بن محمود المروروزي، وكان من فقهاء الشافعية. وكان غياث الدين يقول: التعصب في المذاهب من الملك قبيح.^(١) وكان (فخر الدين مباركشاه) المروروزي أهم وأكبر شعراء عصر السلطان غياث الدين، ولقد شرع هذا الشاعر في نظم تاريخ سلاطين الغوريين ونسبهم على وزن شاهنامه الفردوسي علاء الدين جهان سوز ثم أتمه باسم غياث الدين.

ولاية شهاب الدين محمد الغوري:

(٥٩٩-٦٠٢هـ / ١٢٠٢-١٢٠٥م)

بعد وفاة السلطان غياث الدين محمد كان ابنه محمود الذي حمل نفس لقب أبيه، ينتظر أن يترك عمه شهاب الدين محمد سلطنة الغور له، إلا أن شهاب الدين حال دون تولية محمود السلطنة خلفاً لأبيه، وجلس هو على العرش واتخذ لنفسه لقباً جديداً هو معز الدين، ولكنه لم يحرم ابن أخيه من الرئاسة فلقد إمرارة بست وإسفرايين ليعده عن التطلع إلى العرش في الغور. غير أن السلطان الجديد على ما يبدو لم ينس إساءة أخيه السلطان السابق غياث الدين له عندما كان يحاصر إحدى قرى قهستان، وصب جام غضبه على أسرته بعد وفاته؛ فالروايات تذكر أن غياث الدين كان كلفاً بأحدى مغنياته فتزوجها، فلما مات غياث الدين قبض

(١) ابن الأثير، الكامل، ح ١٠، ص ٢٦٤، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ٤،

عليها شهاب الدين وضربها ضربا مبرحا وضرب ولدها غياث الدين محمود وزوج أختها، واستولى على أموالهم وممتلكاتهم ثم نفاهم إلى الهند في أقبح صورة ونبش قبور موتاهم ورمى بعظامهم. (١)

فتح الهند (٥٧١-٦٠٢ هـ):

ويعتبر السلطان معز الدين محمد بن سام أو الملك شهاب الدين السابق هو أعظم ملوك الغور من كل جانب فقد تحققت في أيامه أعظم وأكبر فتوحات الغوريين مع أنه لم يحكم سوى سنتين وشهر واحد، هذا فضلا عن حروبه بخراسان وخورازم.

وبعد فتح لاهور انقلب شهاب الدين محمد من هذه المدينة إلى الهند الوسطى أي ولايتي راجبوتانا وأجره على رأس قوات عظيمة من الغورية والخلج والخراسانية، فالتقوا وإقتلوا، لكنه هزم في المنطقة الأخيرة، ومع شدة تجلده وحنكته فقد كان أدنى إلى أن يلقي حتفه. فقد تلقى ضربة أقعدت يده اليسرى عن الحركة، وضربة أخرى على رأسه سقط منها إلى الأرض، وفي عاقبة الأمر أنجاه أتباعه وآب شهاب الدين حانقا متأثرا إلى أجره، وأمر من شدة الغضب أن يقيد الأمراء الغوريين الذين انهزموا في هذه الحرب أمام مخالي خيلهم المملوءة شعيرا، وجلف لئن لم يأكلوه ليضربن أعناقهم، فأكلوه خوفا على حياتهم، وعاملهم باذلال، ويقال أنه من تاريخ هذه الهزيمة حتى فوزه في (٥٨٨ هـ) بالانتقام مما حل به كان يتحاشى في هذه الفترة أن يستبدل قميصه أو أن ينام مع زوجته. وكان الحاكم على جميع الراجات الذين حاربوا المسلمين امرأة

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٢٨٢، ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٥٣٦-٥٣٧، حسن إبراهيم حسن، نفسه، ج ٤، ص ١٧٠.

هي أكبر من ملوكهم كما يذكر ابن الأثير. ^(١) ولعل هذه الملكة هي الراجا الذي ذكره عباس إقبال والدكتور الساداتى باسم (بريت وى) ووصفه بأنه القائد العسكرى الذى هزم الغوريين. ^(٢)

وفى (٥٨٨هـ) هاجم شهاب الدين محمد بجند كثيف أمده به السلطان غياث الدين أجرة منطلقا من غزنة وفى (تانى سر) على اثنين وتسعين ميلا شمال غربى (دهلى) أصاب بريت وى وقد خف مائة وخمسون أميرا هنديا لموازرتها بهزيمة فادحة أسرت فيها (بريت وى) ثم قتلت وحاز الغوريون غنائم كثيرة من بينها أربعة وعشرون فيلا حربيا. ويعلق ابن الأثير على هذه المعركة بقوله " وتمكن شهاب الدين - بعد هذه الواقعة - من بلاد الهند، وأمن معرة فسادهم، وإلتزموا له بالأموال، وسلموا إليه الرهائن وصالحوه، وأقطع مملوكه قطب الدين أيبك مدينة دهلى وهى كرسى الممالك التى فتحها من الهند، فأرسل عسكرا من الخليج مع محمد بن بختيار، فملكوا من بلاد الهند مواضع ماوصل إليها مسلم قبله، حتى قاربوا حدود الصين من جهة المشرق". ^(٣)

وقد جعل فتح تانى سر سائر الهند الشمالية حتى وسطها تحت تصرف الغوريين، وبعد أن قام الملك شهاب الدين بشكر الله تعالى على هذا الفتح المبين أناب غلامه قطب الدين أى بك فى الولايات المفتوحة ثم عاد إلى أخيه بغزنة.

وفى عام (٥٩٠هـ) تملك الملك شهاب الدين قنوج وبنارس، وفى (٥٩٢هـ) سيطر على قلعة كواليور ومن بعدها فى (٥٩٧هـ) نهرواله، ثم

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ح ٩ ، ص ٣٨١ .
(٢) عباس إقبال ، المرجع السابق ، ص ٢١٩ ، الساداتى ، نفسه ، ح ١ ، ص ١٥٥ .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ح ٩ ، ص ٣٨٢ .

استولى بعد هذا بقليل قطب الدين آيبك وقواده الآخرون على ولايات بهار والبنغال (١) وبهذا دخل القسم الأعظم للهند بعد فترة وبعد أن كان مجزءاً تحت حكم موحد وصار في طاعة دولة مسلمة فارسية اللغة.

ومع أن أكثر هذه البلاد قد تم فتحه بيد السلطان محمود الغزنوى وخلفائه، إلا أن تسلط الغزنويين لم يدم إلا على القسم الغربى للهند أى الوادى الأعلى للجناح وسهول السند، وطرد راجات الهند تدريجاً العمال الغزنويين من الهند الوسطى والشرقية. أما استيلاء الملك شهاب الدين الغورى وغلمانه وقواده فقد بقى مستمراً خلاف الغزنويين، ومع أن شهاب الدين قد عاجله أجله وتجزأت دولته الواسعة، إلا أن غلمان الغوريين المسلمين قد حفظوا جميع البلاد المفتوحة كما كانت تحت حكمهم، وحافظوا على الإسلام واللغة الفارسية فيها على أثر الفتوحات المتجددة ودوام حكمهم، واستمر هذا الحال حتى عهد تولى السلاطين الكوركانيين الذين ورثوا غلمان الغوريين فى هذا الامر.

وظل الملك شهاب الدين الغورى حتى (٥٩٩هـ) سنة وفاة أخيه السلطان غياث الدين محمد نانبا عن أخيه مجاهداً بالسيف باسمه، فلما مات أخوه انتهت إليه سلطنة الغور ومن هذا الأوان لقب بالسلطان معز الدين. (٢)

حروب شهاب الدين مع الخوارزميين والخطا:

وفى شهر رجب سنة ٦٠٠ هـ استرد خوارزم شاه محمد مدينة هراة من ابن أخت شهاب الدين الغورى. (٣) وفى هذه السنة ترك شهاب

(١) ابن الأثير، الكامل، ح ١٠، ص ٢٧٤-٢٧٥.

(٢) عباس إقبال، المرجع السابق، ص ٢٢٠.

(٣) ابن الأثير، نفسه، ح ١٠، ص ٢٨٥.

الدين الغوري غزنة حاضرة ملكه قاصدا لاهور لغزو بلاد الهند. ولما علم خوارزم شاه محمد بذلك حاصر مدينة هراة؛ فلم ير شهاب الدين بدأ من العودة إلى خراسان. ثم أغز السير حتى بلغ ظاهر مدينة مرو حاضرة خراسان، ودار القتال بين جند شهاب الدين وجندة خوارزم شاه الذي استنجد بالخطا من أتراك بلاد ماوراء النهر، فساروا إلى بلاد الغور. ولما علم شهاب الدين الغوري بذلك عدل عن الاستمرار في القتال مع خوارزم شاه محمد، وعاد إلى بلاده والتقى بمقدمة جيش الخطا (صفر سنة ٦٠١ هـ) في صحراء (أندخوى) وأحل بهم الهزيمة. فقتل فيهم وأسر كثيراً ثم دهمه جيش كثيف من الخطا أحل الهزيمة بشهاب الدين وأسرته وكثرت الأراجيف بقتله. بينما كان قد دخل أندخوى فيمن معه وحصره الكفار بها ثم صالحه الخطا وأطلقوا سراجه بعد أن قتل أكثر جنده ونهب جميع خزانته، ثم سار شهاب الدين إلى غزنة ولحق به أحد مماليكه إلى الهند ويدعى (أبيك بال تر) ودخل المولتان وقتل نائبه فيها، واستولى على البلاد وأساء السيرة في الرعية وظلمهم وأخذ أموالهم وأدعى السلطنة لنفسه. ولما نمت خبره إلى شهاب الدين سار إلى الهند وقبض عليه وقتله (جمادى الآخرة سنة ٦٠١ هـ).^(١)

ولم ينس شهاب الدين هزيمته على أيدي الخطا والأتراك وعول على أخذ الثأر منهم وغزو بلادهم. وقد ذكر المؤرخون أنه سار على رأس جيش يتألف من عشرين ألف مقاتل قاصدا الخطا، ولما وصل إلى بلادهم فرق عسكريه في مفازة قليلة الماء، وكان الخطا قد نزلوا بطرفها، وكلما خرجت طائفة من الغور فاجأهم الخطا وفتكوا بهم قتلا وأسرا، ومن سلم

(١) ابن الأثير، الكامل، ح ١٠، ص ٢٨٥-٢٨٧، ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص

منهم قفل هاربا إلى بلاده. وقد وصل شهاب الدين وقد أعياه التعب والارهاق هو وجنده دون أن يعلم بما حل بجنده الذين تعرضوا للهلاك، فقاتل الخطا الذين بلغ عددهم أضعاف عدد جنده وحصروه في "أندخوى" وكادت الهزيمة تحل بجيشه. وهنا فكر شهاب الدين في خدعة حربية تكلفت بالنجاح؛ فقد أمر طائفة من جنده بأن تسير ليلا وتعود إليه في الصباح، وظن الخطا أن المدد قد أتى من بلاد الغور وأخذ الخوف يدب إلى قلوبهم. وكان صاحب سمرقند وكان مسلماً يدين بالطاعة للخطا، وقد خاف على الإسلام والمسلمين إن هم ظفروا بشهاب الدين، لذلك نراه يثير مخاوف الخطا من تدفق الأمداد على شهاب الدين، وأشار عليهم بأن يجنحوا للسلم ويطلبوا الصلح، فوافقوا على رأيه، وأرسلوا إلى سلطان الغور في الصلح وأرسل صاحب سمرقند إلى شهاب الدين سرا يشير عليه بأن يتظاهر بالامتناع عن إجابة الغور إلى الصلح أولاً ثم يجيبهم إليه قبل فوات الفرصة. فلما أتت رسل الخطا تظاهر شهاب الدين بقوته وأبى قبول الصلح، ثم عاد فأجابهم إليه، وأبرم الصلح بين الفريقين على ألا يغير أحدهما على الآخر. وبذلك عاد شهاب الدين محمد بن سام الغورى إلى بلاده وتخلص من هزيمة محققة على أيدي الخطا. (١)

ولما ذاع نبا مقتل شهاب الدين محمد على أيدي الخطا وأن أصحابه لم يقفوا له على أثر، تنافس أمراء دولته على الحكم وقامت الثورات في أطراف بلاده، ومن هؤلاء الثائرين "دائيال" صاحب جبل الجودى (٢)، وكان قد أسلم. فلما بلغه مقتل شهاب الدين إرتد عن

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٢٨٧-٢٨٨، حافظ أحمد حمدى، الدولة

الخوارزمية، ص ٤٤، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج ٤، ص ١٧٠-١٧١.

(٢) لعل هذا الجبل كما يذكر د. حسن إبراهيم حسن (نفسه، ج ٤، ص ١٧١ هـ) هو

المذكور في القرآن في سورة هود (١١ : ٤٤) التى تنص على أن سفينة نوح =

الإسلام. كما ثار (بنو كوكر) وكان موطنهم في الجبال بين لاهور والملتان متعصبين بها لمنعتها،^(١) وأدخلوا صاحب جبل الجودي في طاعتهم وقطعوا الطريق بين لاهور وغزنة.

وقد أرسل شهاب الدين مملوكة قطب الدين أيبك قائده في الهند والمولتان يأمره بأن يدعو بني كوكر إلى الطاعة ويتهددهم بالحرب إلا لم يجنحوا للسلم، فلم يثق زعيمهم بقوله وهدد بتخريب البلاد، وكثرت جموعه وقويت شوكته وجبى الأموال باسمه. ولما نمت ذلك إلى شهاب الدين أمر مملوكة قطب الدين بالعودة إلى بلاده وقتال بني كوكر، فعاد إلى دهلي واستعد للحرب. وأقام شهاب الدين في "فرشابور" مهد الغور إلى منتصف شهر شعبان سنة ٦٠١ هـ،^(٢) ثم عاد إلى غزنة واستعد لحرب الخطأ، فاتفق أن كثرت الشكاوى ضد بني كوكر، بقيامهم بقطع الطرق وترويع الناس، وفي شهر ربيع الأول سنة ٦٠٢ هـ سار على رأس جيش كبير، وانقطعت أخباره من غزته وفرشابور وانتشرت الأراجيف بهزيمته، ولكنه كان قد أغز السير إلى بني كوكر، فداهمهم ونشب بينهما القتال وأقبل قائده قطب الدين في عسكره ونادوا بشعار الإسلام وأحلوا الهزيمة ببني كوكر، وطار دوهم في كل مكان حتى بلغوا أكمة احتفى بها الكوكرية، فأضرم جند شهاب الدين النار فيها وغنم المسلمون " ما لم يسمع بمثله حتى إن المماليك كانوا يباعون كل خمسة بدينار ركني". وهرب زعيم الكوكرية بعد أن قتل إخوته وأهله. أما ابن دانيال فقد استجار بقطب الدين

=عليه السلام قد رست على جبل الجودي حين أمر الله سبحانه وتعالى الماء بأن يكف قائلاً (وقيل بأرض ابني ماءك وباسماء ألقى وغبض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين).

(١) ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٥٣٨.

(٢) فرشابور مدينة وولاية واسعة من أعمال لاهور، وهي تقع بينها وبين غزنة (ابن الأثير، نفسه، ح ١٠، ص ٣٠١، ١٥).

أيبك، فأجاره وشفع فيه إلى شهاب الدين فأجابته إلى طلبه واستولى على قلعته وعاد إلى لاهور، وأخذ يستعد لحرب الخطا ثم عاد إلى غزنة، وأرسل إلى بهاء الدين سام صاحب "باميان" يأمره بالاستعداد للسير إلى سمرقند ويعمل جسرا ليعبر هو وعساكره عليه. (١)

كذلك خرج على شهاب الدين الغوري "التيراھية" وكانوا يسكنون البلاد الجبلية المحيطة بولاية "فرشابور". وكانوا على الوثنية، إذ ولد لهم بنت وقف أبوها على باب داره ونادى: من يتزوج هذه؟ من يقبلها؟ فإن أجابه أحد تركها وإلا قتلها. وكان للمرأة عدة أزواج. فإذا كان أحدهم عندها جعل مداسه على الباب، فإذا جاء غيره من أزواجها ورأى مداسه عاد، وطالما أغاروا على حدود بلاد الغور وأوقعوا بالمسلمين. وإذا وقع في أيديهم أسير من المسلمين أمعنوا في تعذيبه. وقد قيل إنهم أسروا رجلا من فرشابور فأمعنوا في تعذيبه أياما. وقد سأل زعيم التيراھية هذا الأسير عن حالة البلاد الإسلامية وقال له: لو حضرت أنا عند شهاب الدين ماذا كان يعطيني؟ فقال له "أى يعطيك الأموال والإقطاع ويرد إليك حكم هذه البلاد التى لكم". فأعاد هذا الزعيم الأسير إلى شهاب الدين يعرض عليه قبوله الإسلام، فعاد ومعه رسول "بالخلع والمنشور بالإقطاع". وسار هذا الزعيم مع جماعة من أهله إلى شهاب الدين فأسلموا على يديه، ثم عادوا إلى بلادهم واستراح الناس من شرهم. (٢)

(١) ابن الأثير، الكامل، ح ١٠، ص ٣٠٠-٣٠١، ابن خلدون، العبر، ح ٤، ص ٥٣٩.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ح ١٠، ص ٣٠٢-٣٠٣، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ح ٤، ص ١٧٢.

وفاة شهاب الدين محمد:

امتد ملك شهاب الدين محمد الغورى على غزنة وبعض بلاد خراسان، وقتل وهو يصلى العشاء على أيدى بعض الكوكرية من الهنود الذين كانوا قد لزموا عسكره عازمين على قتله ثأرا لما ألحقه بأهلهم من قتل وتشريد، وكان شهاب الدين قد عاد من لاهور يحمل مالا يحصى من الأموال التى اشتملت على ألف ومائتى حمل. وكان شهاب الدين قد أمر جنده فى الهند بالحقاق به، كما أمر جنده بخراسان بالاستعداد والتأهب حتى يصل إليهم ليغزوا بلاد الخطا الجبلية. (١)

ولما قتل شهاب الدين اجتمع الأمراء عند وزيره مؤيد الدين وطلبوا منه الاحتفاظ بالأموال والملك إلى أن يتفقوا على من يخلفه فى الحكم من البيت الغورى، ثم أخفوا جراحه وأظهروه بمظهر الحى ووضعوه على المحفة، وسار الوزير والأمراء والمماليك أمامه حتى وصلوا إلى غزنة حيث دفن شهاب الدين فى ٢٨ من شعبان سنة ٦٠٢ هـ.

وكان شهاب الدين مقداما كثير الغزو فى بلاد الهند. وكان حسن السيرة عادلا يحكم بين الناس بما يوجبه الشرع. فكان القاضى يحضر إلى قصره فى أيام السبت والأحد والاثنين والثلاثاء ويحضر معه كبار الأمراء، فإذا أصدر القاضى أحكامه أخذ كبار رجال الدولة فى تنفيذها لا فرق بين صغير وكبير وشريف ووضيع. وكان شهاب الدين يدين بعقائد المذهب الشافعى (وقيل بعقائد المذهب الحنفى)، ولكنه كان لا يفرق بين

(١) اختلفت الروايات حول مقتله، فمن يقول أن الكوكرية هم الذين قتلوه لنيل ثأرهم منه، فطعنوه ٢٢ ضربة قاتلة بالسكاكين، وهناك من يقول إن الاسماعيليه هم الذين قتلوه لأنهم خافوا خروجه إلى خراسان وكان له عسكر يحاصر بعض قلاعهم. (ابن الأثير، الكامل، ح ١٠، ص ٣٠٣.)

مذهب ومذهب، وكان العلماء يجتمعون بحضرته فيتناولون المسائل
الفقهية وغيرها. ومن هؤلاء الفقهاء فخر الدين الرازي الذي كان يقوم
بالوعظ في قصر الأمير، وقد أثر عنه أنه وعظ يوماً فحتم وعظه بقوله
مخاطباً شهاب الدين ياسلطان! لاسلطان يبقى.. وإن مردنا إلى الله، فبكى
شهاب الدين وأكثر من البكاء.

وكان شهاب الدين رقيق القلب لين الطبع، لقيه صبي علوي وهو
راكب فدعا له وقال إنه ما أكل شيئاً منذ خمسة أيام، فعاد شهاب الدين
لساعته ومعه الصبي وأمر فقدم له أشهى الطعام أمامه، ثم بعث في طلب
أبيه وسلمه إليه. ووزع كثيراً من المال على العلويين. ويذكر ابن الأثير
أن أحد ممالিকে كان مديناً بمبلغ عشرة آلاف دينار لتاجر من مراغة يعيش
في غزنة، فلما استشهد هذا المملوك، أمر السلطان شهاب الدين بإعطاء
إقطاع المملوك للتاجر إلى أن يستوفى دينه.^(١)

ولاية غياث الدين محمود:

(٦٠٢-٦١٢هـ/١٢٠٦-١٢١٥م)

لم ينجب شهاب الدين محمد ولدأ ذكراً يخلفه في الحكم، ومال
وزيره مؤيد الملك ومعه الأتراك إلى تولية غياث الدين محمود (ابن أخيه
غياث الدين محمد) صاحب بست وأسفرايين، ومال الأمراء الغورية إلى
تولية بهاء الدين سام صاحب باميان وابن أخت شهاب الدين، وسار
بعض أمراء الغور إلى بهاء الدين سام ونقلوا إليه نبأ مقتل خاله، وحثوه

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٣٠٤-٣٠٥، القزويني، آثار، ص ٤٣٠-٤٣١،

ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٥٤٠-٥٤١، حسن إبراهيم حسن، نفسه، ج ٤، ص

على المسير إلى غزنة ليجلس على عرش السلطنة. فكتب بهاء الدين إلى أمراء الغور بغزنة يأمرهم بحفظ البلد ويعلمهم بمسيره إليهم، كما كتب إلى أحد الأمراء وهو علاء الدين محمد (بن شجاع الدين أبي علي) صاحب "فيروزكوه" يستدعيه إليه ويعدده الجميل، وإلى غياث الدين محمود ابن غياث الدين محمد، وإلى ابن خزميل وإلى هراة يأمرهما بإقامة الخطبة له، وحفظ ما بأيديهما من الأعمال، ولم يكن يظن أن أحداً منهما يخالفه.

سار بهاء الدين سام إلى غزنة في عسكره ومعه أبناء علاء الدين محمود وجلال الدين، ولم يكد يسير مرحلتين حتى شعر بصداع أخذ يتزايد وأيقن بالموت، فعهد إلى ابنه علاء الدين بالملك من بعده وأمره بأن يسير مع أخيه إلى غزنة، وأمرهما بأن يحفظا مشايخ الغورية وضبط الملك، وأن يرفقا بالرعية ويبدلا الأموال لكسب محبة الناس، وأن يصلحا غياث الدين محمود على أن تكون له خراسان وبلاد الغور، وأن يحتفظا بغزنة والهند. ثم توفي بهاء الدين سام وبلغ إبنه علاء الدين وجلال الدين غزنة ونزلا بدار السلطنة في مستهل رمضان سنة ٦٠٢ هـ، وتلقاهما أمراء الغور وأهل البلاد، كما تلقاهما الأتراك على كره منهم. (١)

أما غياث الدين محمود فقد كان مشغولاً بحرب علاء الدين محمد بن شجاع الدين أبي علي صاحب "فيروزكوه". وكان غياث الدين يشعر بقوة منافسة بهاء الدين، لهذا رأى التريث حتى تنكشف الأمور، فلما انتشر خبر وفاة بهاء الدين بايع الأمراء غياث الدين وجلس على العرش، وتلقب بألقاب أبيه غياث الدين محمد، وأقيمت الخطبة له بسلطنة الغور

(١) ابن الأثير، الكامل، ح ١٠، ص ٣٠٦.

(١٠ رمضان سنة ٦٠٢ هـ). وقد أمر غياث الدين محمود الأمير تاج الدين الدز (بضم الدال مع تشديد الزاي) بأن يخرج ابني بهاء الدين سام منها، وقد لبي الدز طلب غياث الدين، وكان في الواقع يريد أن يتخذ من ذلك وسيلة لامتلاك غزنة، وأرغم علاء الدين محمود على الخروج من غزنة، ونهب الأتراك ما كان معه وألقوه عن فرسه وأخذوا ثيابه ولم يتركوا له غير سراويله، ولما علم الدز بذلك اعتذر إلى علاء الدين وبعث إليه بدواب وثياب ومال، فأخذ ما لبسه منها وترك الباقي. فلما وصل إلى "باميان" ركب حمارا ولبس السواد فأخرجوا له مراكب ملوكية وملابس جميلة، فلم يركب ولم يلبس، وقال "أريد أن يرانى الناس" وما صنع بي أهل غزنة حتى إذا عدت إليها وخربتها ونهبتها لايلومنى أحد". ثم دخل دار الإمارة وأخذ يجمع الجند. أما الدز فقد عمل على استخلاص الملك لنفسه، فعرض الوزارة على مؤيد الملك وزير شهاب الدين محمد فأجابه على كره منه، كما طلب الدز من غياث الدين محمود أن يخاطبه بالملك ويعتقه من الرق ويزوج ابنه من ابنته (أى من ابنة الدز) فلم يجبه غياث الدين إلى طلبه لوجود الفارق الاجتماعى في الكفاية الزوجية. (١)

وأما علاء الدين محمد بن شجاع الدين أبى على ، فقد ولاه السلطان شهاب الدين بلاد الغور ومايلها، ولما بلغه قتل شهاب الدين سار إلى "فيروزكوه" خوفا من أن يسبقه إليها غياث الدين محمود فيملكها ويستولى على خزانها، كما حاول "الذر" استمالة كبار الأمراء إليه ودعاهم إلى مساعدته على حرب خوارزم شاه علاء الدين محمد وبهاء الدين صاحب باميان، ولم يهتم بشأن غياث الدين محمود استخفافا به واستهتارا لشأنه، فبايعوه وبايعوا ابنه من بعده. ولما بلغ غياث الدين

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ح ١٠ ، ص ٣٠٧-٣٠٩ .

محمود خبر موت بهاء الدين سام كما تقدم أمر بأقامة الخطبة له
بالسلطنة. (١)

وقد استتب الأمر لغياث الدين محمود فدخل في طاعته
"ابن خرميل" والى هراة، وكان قد عزم على الدخول في طاعة خوارزم
شاه. ثم عاد والى هراة فخلع طاعة غياث الدين محمود وانضم إلى
خوارزم شاه حين علم بأن علاء الدين محمود وأخاه جلال الدين قد سارا
نحو غزنة لاستردادها من يد الدز (٣٠٣هـ). وانتهاز خوارزم شاه هذه
الفرصة فاسترد بلخ وكانت تابعة لغياث الدين. (٢) أما الدز الذي خان عهد
مولاه غياث الدين واستولى على غزنة وطرد علاء الدين وأخاه جلال
الدين صاحبي باميان منها، فقد دهمته جيوش علاء الدين الغوري، فخرج
لقتالهما فطارداه إلى كرمان، فاستولى عليها ثم عاد إلى غزنة واستردها
من جديد، واختلف مع أخيه جلال الدين في اقتسام الغنائم، وظهر بخلهما
فكرهما أهل غزنة ومالا إلى حكم غياث الدين محمود لكرمه وإحسانه. ثم
افترق الأخوان، فأقام علاء الدين بغزنة وذهب جلال الدين إلى باميان،
مما أطمع "الدز" في السير إلى غزنة وإعادتها إلى حوزته من جديد،
ولما تحقق أمله في الاستيلاء على غزنة طمع في استرداد كرمان التي
استولى عليها وأحسن إلى أهلها. (٣)

ولم تقف المتاعب التي أثارها الدز في وجه الغوريين عند هذا
الحد، فقد قتل علاء الدين محمود صاحب باميان، ثم يمم شطر باميان

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ح ١٠، ص ٣٠٩-٣١١.

(٢) ابن الأثير، نفسه ح ١٠، ص ٣١٢-٣١٣، حافظ أحمد حمدي، الدولة الخوارزمية،
ص ٣٤.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ح ١٠، ص ٣١٧، ٣١٨.

فأسر أخاه جلال الدين وعاد به إلى غزنة، وفي سنة ٦٠٣ هـ عاد عباس (عم علاء الدين وجلال الدين) إلى ملك باميان. (١)

ولنعد إلى الكلام على علاقة غياث الدين محمود بالذز، فقد طلب من الذز أن يقيم الخطبة، ولكنه استمر في تمردده حيث أمر الخطيب بأن يخطب لنفسه بعد الترحم على شهاب الدين وتلقبه بتاج الدين الذز، الأمر الذي أثار حنق أهل غزنة، إذ كانوا يعاونوه ظناً منهم أنه يحتفظ بولائه لغياث الدين محمود ويعترف بسلطنته. فلما أرسل غياث الدين محمود يعاتب الذز على تمردده أصر هذا على طلب عتقه، فتم يجد غياث الدين بدا من إجابته إلى طلبه وبعث إليه بالهدايا والخلع ومن بينها "ألف قباء وألف قلنسوة ومناطق الذهب وسيوفا كثيرة وجترين ومائة رأس من الخيل"، وبذلك صفا الجو بين الذز وغياث الدين محمود ولكن هذا الصفاء لم يدم طويلاً، إذ طلب "ابن خرميل" صاحب هراة الدخول في طاعة غياث الدين وأبدى استعداداًه لإخراج "الذز" من غزنة بالقوة، فإذا تم له ذلك قسم مال غزنة ثلاثة أقسام: قسم للسلطان غياث الدين محمود، وقسم لخوارزم شاه، وقسم للعسكر، وكان خوارزم قد أرسل إلى غياث الدين يعرب عن رغبته في مصاهرته. وقد وافق غياث الدين على طلب ابن خرميل، ولما اتصل هذا النبا بمسامع الذز جزع لذلك جزعا عظيماً، ظهر أثره عليه فعاد إلى تمردده وقطع الخطبة لغياث الدين (٢)، واستولى على بست وغيرها، كما أمر صاحب سجستان بقطع الخطبة لخوارزم شاه علاء الدين محمد، وهدد ابن خرميل بالإغارة على بلاده، وأطلق علاء الدين صاحب باميان من أسره وسير معه خمسة آلاف فارس لإعادته إلى

(١) ابن الأثير، نفسه، ح ١٠، ص ٣١٨-٣٢٣.

(٢) ابن الأثير، نفسه، ح ١٠، ص ٣٢٥-٣٢٦.

ملكه وزوجه ابنته. ثم استولى قائد خوارزم شاه على مدينة هراة من ابن خرميل وقتله في عام ٦٠٥ هـ، وهذه عاقبة الغدر، ثم أمد خوارزمشاه علاء الدين محمد خاله " أمير ملك " بالمسير إلى فيروزكوه قسبة بلاد الغور، وأن يقبض عليه وعلى أخيه على شاه بن خوارزمشاه، وأن يستولى على فيروزكوه من غياث الدين، فسار أمير ملك إلى فيروزكوه فاستولى عليها وقتل غياث الدين الغوري وأخي خوارزمشاه في يوم واحد، " واستقامت خراسان كلها لخوارزمشاه، وذلك سنة خمس وستمائة " (١).

ولم يلبث علاء الدين محمد أن استولى على كافة أرجاء خراسان وملك باميان، وأصبح بحيث يستطيع الاستيلاء على غزنة وقتل من بها من الجند الغوريين ولا سيما الأتراك. وهرب الدز (وكان غانبا عن باميان) إلى لاهور، فلحقت به جيوش أتباع شهاب الدين محمود وأحلت به الهزيمة وقتلته. وبذلك زالت الدولة الغورية على أيدي الخوارزميين بعد أن انتهكت قواها فيما شنته من حروب على الخطا والخوارزميين وعلى بلاد ماوراء النهر وسمرقند وخراسان وغيرها. ويعلق ابن الأثير على سقوط الدولة الغورية بقوله " ولقد كانت دولتهم من أحسن الدول سيرة وأعدلها وأكثرها جهادا، وكان محمود هذا عادلا حكيما من أكرم الملوك أخلاقا " (٢).

(١) ابن الأثير، الكامل، ح ١٠، ص ٣٣٤-٣٣٧، حسن ابراهيم حسن، نفسه، ح ٤، ص ١٧٦.

(٢) ابن الأثير، نفسه، ح ١٠، ص ٣٣٧.

الملاحق

الملاحق

(١) الملحق الأول:

شجرة نسب السامانيين

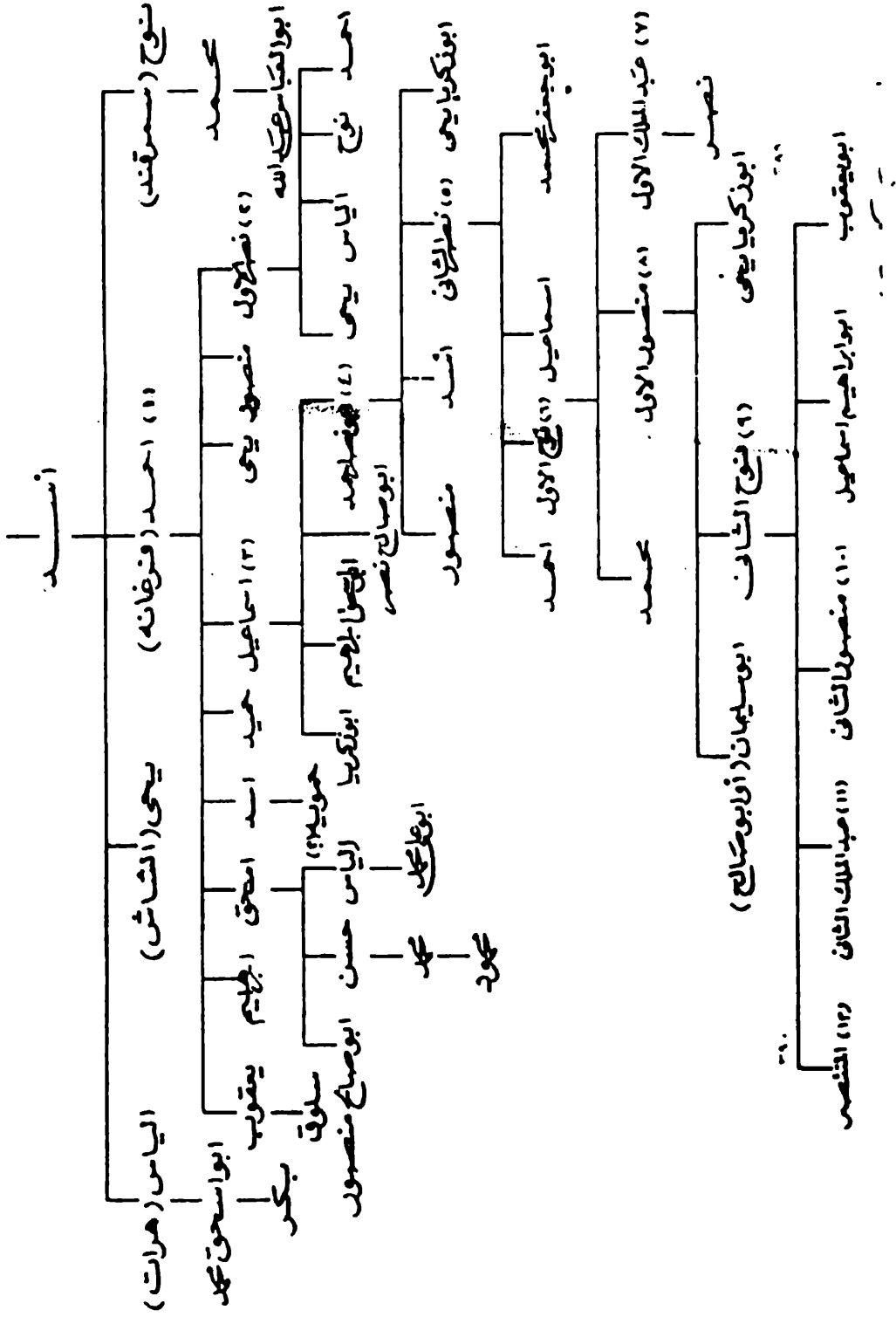
(٢) الملحق الثاني:

الدولة الساجية بالجبال.

(٣) الملحق الثالث:

شجرة نسب الغوريين.

١. شجرة نسب السامانيين



* بارتولد، تركستان، ص ٣٨٩.

الملحق الثاني

الدولة السّاجيّة، بالجبال (١)

كان أبو الساج ديوداذ من كبار قواد الأتراك، وتوفى عند عوده من عسكر عمرو الصفار باستدعاء الأمير الموفق له بجند يسابور في شهر ربيع الآخر سنة ست وستين. وخلف ولدين محمد بن أبي الساج، ويوسف بن أبي الساج، فأقام محمد يتنقل في جلائل الأعمال إلى أن وجهه المعتمد في آخر أيامه إلى المراغة لانتزاعها من يد عبد الله بن الحسين العلوي المتغلب عليها وذلك في سنة تسع وسبعين، وتوفى المعتمد وولى الإمام المعتضد فوصل الخبر إليه بأن محمد بن أبي الساج افتتحها بعد حرب شديد، وحصار طويل قبل فتحها.

الأفشين محمد بن أبي الساج

في سنة خمس وثمانين ومائتين ولاة المعتضد بالله أرمينية وأذربيجان، وسائر بلاد الجبل، فأقام فيها إلى أن توفى في سنة ثمان وثمانين ومائتين، فكانت مدة مملكته مذ ولاة المعتمد على الله قريبا من تسع سنين.

ديوداذ بن الأفشين

لما توفى محمد بن أبي الساج اجتمع الأجناد على نصب ولده ديوداذ مكانه، وخالفهم عمه يوسف في غلمانه، فالتقوا في شهر شعبان

(١) ابن ظافر الأردى، أخبار الدول المنقطعة، تحقيق د. عصام هزايمة وآخرون، دار الكندي للنشر والتوزيع، إربد، الأردن ١٩٩٩، ج ١، ص ١١٠-١١٨.

من السنة، فانهزم ديوداد، وخيره عمه بين البقاء معه أو النفوذ إلى باب الخليفة، فاختر النفوذ إلى باب الخليفة، فوصل بغداد يوم الخميس لتسع بقين من شهر رمضان من السنة بعينها، وكانت مدة ولايته شهراً أو شهرين، والله أعلم.

الأمير يوسف بن أبي الساج

وتولى يوسف بن ديوداد بلاد أذربيجان، وارتفع شأنه فيها ارتفاعاً عظيماً، ومك ملكاً كبيراً، وأقام والياً حتى سنة خمس وثلاثمائة، فجرى منه ما أوجب تسيير الإمام المقتدر بالله خاقان المفلح في جيش لحربه، وكان فاتكاً المعتضدي، فامتنع من الخروج، فقبض عليه وحبس وقبضت دورته وأملاكه. وحين صار الجيش بهمدان عرضهم خاقان، وسار إلى ابن أبي الساج في عشرة آلاف، والتقوا بسكونة، وابن أبي الساج في سبعة آلاف، فحمل أخو صعلوك، وهو في ميسرة ابن أبي الساج وحمل ابن حنارم على ميمنته، فانهزم جيش خاقان، ونجا خاقان إلى قم، وسار ابن أبي الساج إلى الري بعد أن منع من اتباع المنهزمين، فأربط أكثرهم.

ولما وصل الخبر إلى مدينة السلام ندب الأستاذ مؤنس لحرب ابن أبي الساج، فخرج في شوال منها، وقلد عبد الله بن محمد الفارقي أعماله مع أرمينية، وكان الحسين بن حمدان مسجوناً لنفاقه، فعرض عليه الخروج لمحاربة ابن أبي الساج، فلم يفعل، وسار مؤنس العجل، ولما قرب بعث نافذاً الخادم إلى ابن أبي الساج يعرض عليه تسليم الري للسلطان، وبقاء ما في يده عليه من أعماله، فأجاب إلى ذلك، وخرج عن الري وتسلمها نافذ، وكتب مؤنس إلى السلطان بذلك فأبى، وأمره باتباع

يوسف وإخراج الأعمال عن يده. وكان يوسف بعث أخاً صعلوكاً إلى قزوين يجبي له أموالها فجباها ثم استأمن إلى مؤنس، وفاز بما جبي.

والتقى مؤنس ويوسف في موضع يعرف بشاه، ومؤنس في خمسين ألفاً بين فارس وراجل، والتقت طلاع يوسف وعليها علي بن وصيف مع طلاع الأستاذ، وعليها سيما مابويه، فتقنطر سيما فأسر وبعث به (علي بن وصيف) إلى سبك غلام يوسف، فأمر بضرب رقبتة، وبعث بها إلى مولاه بكرة وقد أمر وستر، وحمل عسكر مؤنس على يوسف، فانهزم جميع عسكره، وكان معزلاً للحرب خمسمائة مملوك عن يمين عسكره، وغلماه سبك في ثلاثمائة عن يساره، وكان مؤنس قد أمر العسكر كله بالحملة، فنهاه أخو صعلوك عن ذلك، فلم يفعل وكان ينتظر مجئ الفارسية. وحين رأى يوسف عسكره قد انهزم حمل من جانبه فيمن معه. وحمل سبك فيمن معه.

وكان الأستاذ لما انهزم وجاءت خيل يوسف وسبك فظنها خيل الفاتكى، فبعث يستعجلهم، فقال الرسول: الأستاذ يستعجلكم، فقالوا: ومن الأستاذ؟ قال: مؤنس، فوقع عليه غلمان سبك وسلبوه، وحمل سبك مما يلي سفح الجبل وابن أبي السباج من الناحية الأخرى فحطموا العالم، فلم يكن لمؤنس إلا حمل المال الذي معه والنجا بخاصته، واحتوى يوسف على جميع سواده، ومنع من القتل وأمر رجال السلطان بوضع سلاحهم وأقاموا عنده أياماً ثم كساهم ودفع لكل راجل ديناراً وثوباً وللفرسان أيضاً. وقد كان سبك رام المسير وراء مؤنس لأنه تيقن أسره، فمنعه مولاه، وقال له: يا بني إذا أسرنا مؤنساً لم يكن في خزاننا مانجزه به، ولا ما نخلع عليه، ولا في أموالنا فضلة لما نهبه إجلالاً له، فشكر له مؤنس

ذلك فيما بعد، وأطلق يوسف هلال بن بدر وأعطاه أموالاً عظيمة، ولم يبق أحداً إلا وأنعم عليه.

ورجع الأستاذ إلى زنجان منهزماً، وقاعدة مملكة يوسف إذ ذاك مدينة أردبيل. وكاتب الدار النبوية بخبر الهزيمة، فخرجت إليه المراسم بالثبوت بزنجان إلى أن تجتمع إليه العساكر ثم يعود إلى أردبيل. فأقام بها إلى أن دخلت سنة سبع، ووافاه أحمد بن أخو صلوك الساماني المقدم ذكره في هذا الكتاب من أبهر إلى زنجان في جيشه، وأقام على بن حسان وعلى بن وهسوذان ملك الديلم ورحل مؤنس عند تكامل عساكره على تعبئة، فلقية يوسف على ظاهر أردبيل يوم الجمعة النصف من صفر سنة سبع وثلاثمائة، وقاتل أشد قتال، فانهزمت عساكره، وبقي في خاصة غلمانه ثابتاً على ربوة، فحمل عليه الأمير أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان والد سيف الدولة في جماعة من بني تغلب، وكاد أن يقلعه وثبت يوسف له وعاد أبو الهيجاء من ورائه ثم انقلب عليه حاملاً فانهزم، وتبعه أبو الهيجاء، فأسره بعض أعدائه وهو مجروح، وأحضره إلى مؤنس فأكرمه، وضرب له مضرباً إلى جانب مضربه، ونجا غلامه سُبُك الساجي وخاصته فلم يدرك.

وعاد مؤنس إلى بغداد ومعه يوسف، وقد كان أعداء له عجلة ليشهره عليها ويركب المخائنة معه فيها ينوحون عليه، فبلغ ذلك مؤنساً فانكره، وقال مثل هذا الأمير الجليل لا يشهر. وسأل الإمام المقتدر بالله في تبطيل ذلك، فأجابته. ودخل مؤنس في يوم الاثنين لتسع خلون من ربيع الآخر سنة سبع، وقد زينت له الشوارع، واجتمع الناس اجتماعاً لم ير مثله والأمير يوسف بين يديه على جمل، عليه الدراعة التي كانت على

عمرو بن الليث وهو مطرق، والناس يدعون الله أن يرفق قلب الخليفة عليه لما يرون من جماله ويعرفون من شهامته.

ولما وصل دار الخليفة رجّلوه ودخلوا به إليه فرآه ووعدّه الوزير حامد بن العباس والرئيس على بن عيسى عنه بالجميل. ثم أدخل قاعة أعدت لحبسه فجلس فيها. واصطنع الخليفة غلامه سُبك بسؤال مؤنس وولاه ما كان لسيدّه حفظاً لجانبه.

وأقام يوسف محبوساً إلى أن شفّع فيه مؤنس، فأطلقه المقتدر وخلع عليه وأوصله إليه لثمان خلون من المحرم سنة عشر وثلاثمائة، وولاه سائر أعماله أذربيجان وأضاف إليه ديار ربيعة، وآمد، وشمشاط، ورسم له انتزاع بلاد الري، وأبهر، وقزوين، وزنجان من نواحي صعلوك.

وسار يوسف من بغداد في شعبان سنة عشر وثلاثمائة، ووصل إلى أردبيل فوجد غلامه سُبك قد توفى، فوجد عليه جداً عظيماً، وكان حسن العشرة معه أيام سجنه لا يتصرف إلا على أوامره ولا يجلس إلا دون مجلسه. ولما وصل إليها سار قاصداً قتال أخى صعلوك وسار الآخر إليه فالتقوا بين أبهر وزنجان وعدة أخى صعلوك أكثر من عدة الأمير يوسف، فحمل عليه يوسف بنفسه حملات كثيرة فانهزم وأدركه وضربه من يده ضربة عظيمة ألقاه بها عن جواده فخرّ صريعاً. وكانت الواقعة لسبع خلون من ذى الحجة سنة إحدى عشرة.

وأقام يوسف رخي البال إلى أن أتته قاصمة الظهر، وغاية العمر في سنة خمس عشرة، وذلك أن أبا طاهر سليمان بن الحسن الجنابي القرمطي، صاحب هجر والأحساء لما طغى على البصرة وأخربها، وهزم جيوش الخليفة وكسرها، استدعى الخليفة يوسف من أذربيجان ورسم له

بمحاربتة، فسار يوسف إلى نواحي الكوفة وبلغ الجنابي خبره فسار إليه فالتقوا على مكان يعرف بالخذق بين الحيرة والنيل في يوم السبت لعشر خلون من شوال سنة خمس عشرة وكان يوسف في نحو أربعين ألفاً بين فارس وراجل، والجنابي في نحو أربعة آلاف، وبات القرامطة من قتال يوسف، وغلمانهم مالم يروا مثله حتى هموا بالفشل ثم انهزم أكثر من معه وبقي في نحو خمسمائة مملوك فحار في أمره، وقال: أروني صاحب أمرهم لعلى أحمل عليه فأموت به، فقيل له: هو من جملة أصحاب الخيل الدهم الذين شعارهم البياض، وكذلك كان زي سليمان وإخوته حتى لا يعرف بعضهم في الحرب من بعض، فحمل عليهم وهزم عليهم وغلمانهم ينقصون وشملهم القتل والأسر والانهزام حتى حمل فلم يرجع وأسر وقتل بعد ذلك بأربعة أيام.

وولد في سنة خمسين ومائتين وقتل في الوقت الذي ذكرناه، فكانت مملكته مضافة إلى مدة غلامه سُبك أيام القبض عليه نحو من سبع وعشرين سنة، وكان عمره خمساً وستين سنة. وكان شجاعاً صارماً لا يملأ قلبه شيء مع لين في كلامه وفتور في ألفاظه، وكان كثير اللجاج، من لجاجته وقعت مع القرمطي، وكذلك وقعت مع غلامه وصيف السبكي، وهي حكاية عجيبة. وكان زاهر المروءة يقول شعراً نازل الطبقة.

كتابه : ابن دانيال النصراني ثم محمد بن خلف إلى أن قبض عليه بواسطة عند مسيره لحرب الجنابي، ثم الحسن بن هارون.

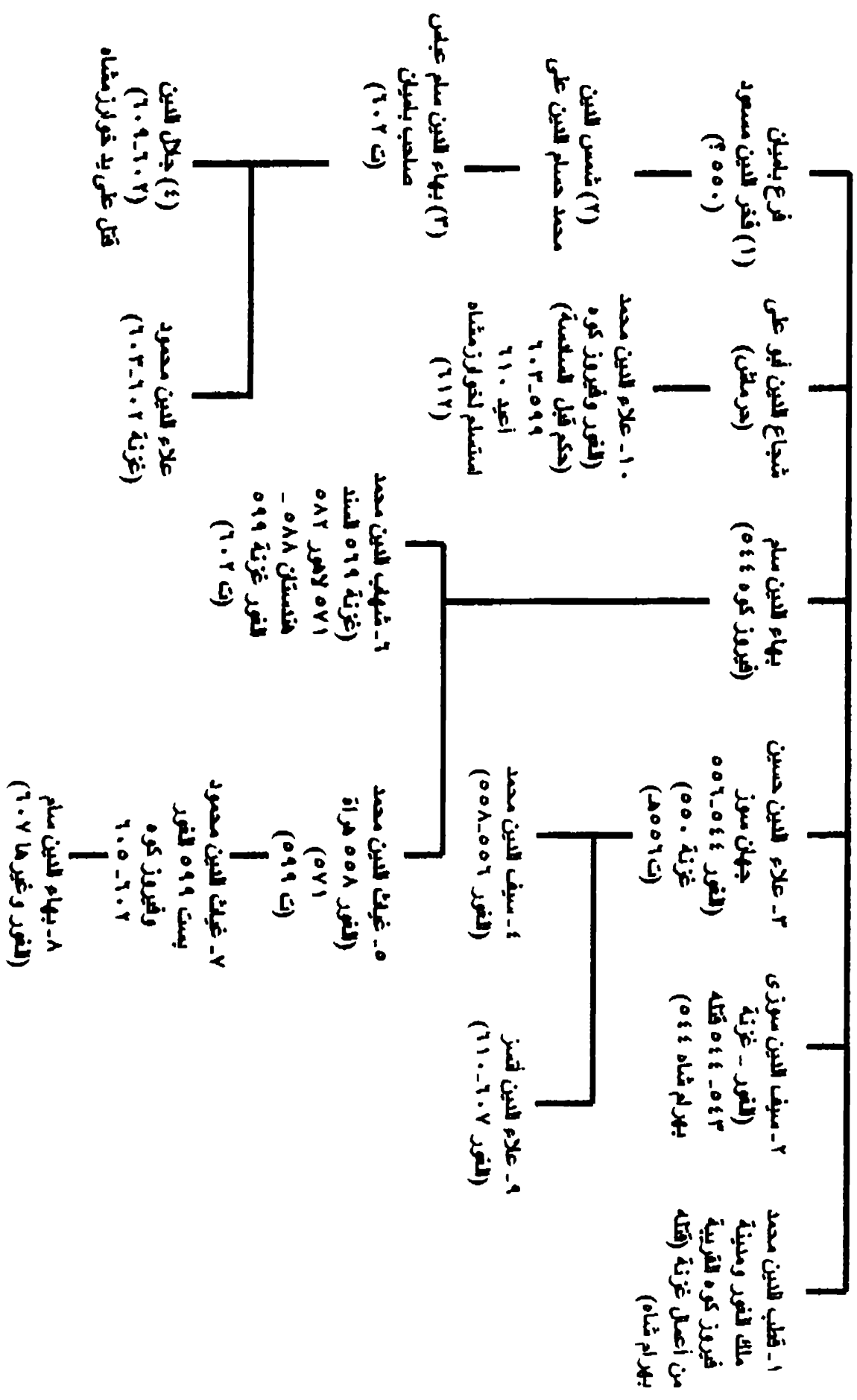
أبو المسافر الفتح بن محمد بن الأفشين

قلده الخليفة في ذي الحجة سنة خمس عشرة بلاد عمه، فسار إليها وملكها، واستمرت مملكته لها إلى أن قتل غلامه بالدوا بأردبيل في

شهر شعبان سنة سبع عشرة وثلاثمائة، فكانت مملكته نحو سنة ونصف،
وتغلب على بلاده وصيف السرواني غلام عمه ثم مفلح بعد غلامه، وترك
أبو المسافر ولداً يقال له أبو الفرج وهو أحد قواد الدولة العباسية كان في
صحبة ابن رائق.

تمت الدولة الساجية

الملحق الثالث
شجرة نسب الغوريين
(١٢١٥-١١٤٨هـ/١١٢٢-١٠٤٣م)
١- عز الدين حسن
(الغور في الافغان والهند)



مصادر ومراجع الكتاب

أولاً: المصادر العربية والمعربة.

- (١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار رضا، بيروت ١٩٦٥.
- (٢) ابن إسفنديار: تاريخ طبرستان، تصحيح عباس إقبال، طهران ١٣٢٠س.
- (٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق عبد الوهاب النجار، القاهرة ١٣٥٧هـ، الجزء التاسع والعاشر طبعة الدكتور محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٧م.
- (٤) ابن جلجل: طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٥٥م.
- (٥) ابن خرداذبه: المسالك والممالك، إعداد وتقديم خير الدين محمود قبلوى، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق ١٩٩٩م.
- (٦) ابن خلدون: العبر، الطبعة الثالثة، نشر الأستاذ خليل شحادة ومراجعة الدكتور سهيل زكار، دار الفكر، بيروت ١٩٩٦.
- (٧) ابن خلكان: وفيات الأعيان، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٤٩م.
- (٨) الحموي: معجم البلدان، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٠٦م.
- (٩) —————: معجم الأدباء، القاهرة ١٩٣٨م.
- (١٠) ابن حوقل: صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٩م.

- (١١) ابن طباطبا: الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية، القاهرة ١٣١٧هـ.
- (١٢) ابن طيفور: كتاب بغداد، نشر عزت العطار الحسينى، القاهرة ١٩٤٩م.
- (١٣) ابن ظافر الأزدي: أخبار الدول المنقطعة (تاريخ الدولة العباسية، تحقيق الدكتور محمد بن مسفر بن حسين الوهرانى، مكتبة الدار، المدينة المنورة ١٩٨٨م.
- _____ : أخبار الدول المنقطعة، تحقيق الدكتور عصام هزايمة وآخرون، جزءان، دار الكندى للنشر والتوزيع ، إربد، الأردن ١٩٩٩م.
- (١٤) ابن قتيبة: الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة ١٩٤٧م.
- (١٥) ابن كثير: البداية والنهاية ، الطبعة الأولى، مصر ١٩٣٢م.
- (١٦) ابن النديم: الفهرست، طبع مكتبة خياط، بيروت بدون تاريخ.
- (١٧) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر ، ط١، مصر بدون تاريخ.
- (١٨) البغدادي: الفرق بين الفرق، دراسة وتحقيق محمد عثمان الخشت، مكتبة ابن سينا، القاهرة ١٩٨٨م.
- (١٩) البلاذرى: فتوح البلدان، علق عليه رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٣م.
- (٢٠) البيهقى: تاريخ البيهقى، ترجمة يحيى الخشاب وصادق نشأت، مطبعة الأنجلو ، القاهرة ١٩٥٦م.
- (٢١) الثعالبي: يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر، تحقيق محمد محيى عبد الحميد، القاهرة ١٩٤٧م.

- (٢٢) الجهشياري: كتاب الوزراء والكتاب ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، القاهرة ١٩٣٨م.
- (٢٣) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناحي، ح ٢، القاهرة ١٩٦٤م، ح ٣، القاهرة ١٩٦٥م.
- (٢٤) السلمي : طبقات الصوفية، تحقيق نور الدين شربية، القاهرة ١٩٥٣م.
- (٢٥) السيوطي: تاريخ الخلفاء، تقديم عبد الله مسعود، دار القلم العربي، حلب ١٩٩١م.
- (٢٦) الشهرستاني: الملل والنحل ، طبعة القاهرة ١٩٤٨م.
- (٢٧) العتبي: تاريخ اليميني، في جزئين على هامش الفتح الوهبي للميني، القاهرة ١٢٨٦هـ.
- (٢٨) الإصطخري: المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال، القاهرة ١٩٦٢م.
- (٢٩) الأصفهاني: مقاتل الطالبين، بيروت ١٩٦١م.
- (٣٠) _____ : الأغاني، القاهرة ١٩٢٦-١٩٦١.
- (٣١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ، دار المعارف، مصر بدون تاريخ. وأيضا: المطبعة الحسينية ، القاهرة، بدون تاريخ.
- (٣٢) القفطي: أخبار العلماء بأخبار الحكماء، دار الآثار للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت بدون تاريخ.
- (٣٣) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، بغداد بدون تاريخ، القاهرة ١٣٠٣هـ. طبعة بيروت ١٩٦٨م.
- (٣٤) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن ١٩٠٦م.

- (٣٥) مسكويه : تجارب الأمم ، مصر ١٩١٥م.
- (٣٦) المقرئى : إيعاظ الءنفا بأءبار الأئمة الفاطميين الءلف؁ نشر وءءقبق الءءءور ءمال الءن الشيال؁ القاهرة ١٩٩٦م.
- (٣٧) مءهول : ءارىء سيسىءان؁ ءصءب مءك الشعراء بهار؁ ءاب ءوم إيران ١٣٥٢.
- (٣٨) مءهول : أءبار الءولة العباس وفيه أءبار العباسى وولءه؁ ءءقبق عبء العزىء الءورى وزمىله؁ ءار الطلىعة للءباعة والنشر؁ بىروء ١٩٧١م.
- (٣٩) نءام المءك : ساسء نامه؁ ءرءمة وءعلق السىء مءمء العزاوى؁ القاهرة ١٩٧٥م.
- (٤٠) النرشءى : ءارىء بءارى؁ عربة عن الفارسىة وءم له وءققه أمىن عبء المءبء ونصر الله الطرازى؁ ءار المعارف؁ مصر ١٩٦٥م.
- (٤١) النوبءى : فرء الشىعة؁ صءه وعلق علىه مءمء صاءق الأءبر؁ النءف ١٩٣٦م.
- (٤٢) اليعقوبى : ءارىء اليعقوبى؁ النءف ١٣٥٨هـ.

ءانىا : المرءع العربىة والأءنبىة المءربىة.

- (١) أمىن (ءءءور أءمء) : ظهر الاسلام؁ القاهرة ١٩٥٣م.
- (٢) _____ : ضءى الإسلام؁ القاهرة ١٩٣٨م.
- (٣) الباشا (ءءءور ءسن) : مءءل إلى الآءار الإسلامىة؁ القاهرة ١٩٧٩م.

- (٤) أشتياني (عباس إقبال): تاريخ إيران بعد الإسلام، ترجمة دكتور محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٠م.
- (٥) أبو سيف (دكتور فتحي): المشرق الإسلامي بين التبعية والإستقلال، القاهرة ١٩٨٧م.
- (٦) _____: خراسان تاريخها السياسي والحضارى من سقوط الحكم الطاهرى إلى بداية الحكم الغزنوى، القاهرة ١٩٩٥م.
- (٧) بارتولد (فاسيلي فلاديميرو فتش): تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى، نقله عن الروسية صلاح الدين هاشم، الطبعة الأولى، الكويت ١٩٨١م.
- (٨) _____: تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر، الطبعة الخامسة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣م.
- (٩) بروكلمان (كارل): تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة دكتور فارس نبيه وزميله، جزءان ، ١٩٦١م.
- (١٠) _____: تاريخ الأدب العربى، ترجمة عبد الحليم التجار، دار المعارف، مصر بدون تاريخ.
- (١١) جمال الدين (دكتور محمد السعيد): دولة الاسماعيلية فى إيران، مؤسسة سجل العرب، القاهرة ١٩٧٥م.
- (١٢) جنكيزخان (عبد العزيز): تركستان قلب آسيا، الجمعية الخيرية التركستانية، مصر ١٩٤٥م.
- (١٣) حسن (دكتور حسن إبراهيم): تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى، القاهرة ١٩٥٣م.

(١٤) حسن (دكتور زكى محمد): الفنون الإيرانية ، دار الكتب ، القاهرة ١٩٤٦م.

(١٥) حمدى (حافظ أحمد): الدولة الخوارزمية والمغول، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٤٩م.

(١٦) حيدر (دكتور محمد على): الدويلات الإسلامية فى المشرق، عالم الكتب، القاهرة ١٩٧٤م.

(١٧) الخضرى (محمد الخضرى): محاضرات فى تاريخ الدول الإسلامية: الدولة العباسية، القاهرة ١٩١٦م.

(١٨) الدورى (دكتور عبد العزيز): العصر العباسى الأول، بغداد ١٩٤٥م.

(١٩) الساداتى (دكتور احمد محمود): تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية وحضارتهم، الجزء الأول، سلسلة الألف كتاب رقم (١٥٨)، القاهرة ١٩٥٧م.

(٢٠) سالم (دكتور السيد عبد العزيز): العصر العباسى الأول، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية ١٩٩٥م.

(٢١) سيد (دكتور أيمن فواد): تاريخ المذاهب الدينية فى بلاد اليمن، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٩٨٨م.

(٢٢) السرنجاوى (عبد الفتاح): النزعات الاستقلالية فى الخلافة العباسية، الطبعة الرابعة، القاهرة ١٩٤٥م.

(٢٣) شاخت وبوزورث: تراث الإسلام ، ترجمة د. حسين مؤنس ود. إحسان صدقى العمدة، الطبعة الثانية، سلسلة عالم المعرفة،

رقم (١٢)، الكويت ١٩٨٨م.

- (٢٤) الشكعة (دكتور مصطفى): بديع الزمان الهمداني رائد القصة العربية والمقالة الصحفية، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٧٥ م.
- (٢٥) الشرقاوى (عفت): فى فلسفة الحضارة الإسلامية، القاهرة ١٩٧٨ م.
- (٢٦) العبادى (دكتور أحمد مختار): فى التاريخ العباسى والفاطمى، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية ١٩٩٩ م.
- (٢٧) عبد الحميد (دكتور سعد زغلول): التاريخ العباسى والأندلسى، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٥ م.
- (٢٨) عبد القادر (حامد عبد القادر): قصة الأدب الفارسى، لجنة البيان، القاهرة ١٩٥١ م.
- (٢٩) عبد النور (دكتور جبور): إخوان الصفا، مجموعة نوابغ الفكر العربى رقم (٧)، الطبعة الرابعة، دار المعارف، مصر ١٩٨٣ م.
- (٣٠) عيسى (أحمد): تاريخ البيمارستانات فى الإسلام، دمشق ١٩٣٩ م.
- (٣١) فامبرى (أرمنيوس): تاريخ بخارى، ترجمة دكتور أحمد محمود الساداتى، مراجعة د. يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٦١ م.
- (٣٢) قنديل (إسعاد): فنون الشعر الفارسى، القاهرة ١٩٧٥ م.
- (٣٣) كريستنس (آرثر): إيران فى عهد الساسانيين، ترجمة دكتور يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٥٧ م.
- (٣٤) لسترنج (كى): بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مطبعة الرابطة، بغداد ١٩٥٤ م.
- (٣٥) لوبون (غوستاف): حضارة العرب، ترجمة عادل زعتر، مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٠ م.

- (٣٦) لين بول (ستانلى): طبقات سلاطين الإسلام، ترجمة عن الفارسية
مكى طاهر، تحقيق على البصرى، القاهرة ١٩٨٦م.
- (٣٧) ماجد (دكتور عبد المنعم) : التاريخ السياسى للدولة
العربية، (جزءان) الطبعة الخامسة، مكتبة الأنجلو المصرية،
القاهرة ١٩٧٥م.
- (٣٨) متز (آدم): الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، ترجمة
د. محمد عبد الهادى أبوريدة، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٧٥م.
- (٣٩) محمد (دكتورة نبيلة حسن): محاضرات فى تاريخ الدولة
العباسية، مكتب كريدية إخوان، بيروت بدون تاريخ.
- (٤٠) محمود (دكتور حسن أحمد) والشريف (دكتور أحمد ابراهيم):
العالم الإسلامى فى العصر العباسى، القاهرة ١٩٦٣م.
- (٤١) معروف (تاجى): علماء ينسبون إلى مدن أعجمية وهم من أرومة
عربية ، مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد ، بغداد ١٩٦٥م.

الفهرس

رقم الصفحة	الموضوع
أ - ج	* مقدمة
	* الفصل الأول
٣٧ - ١	الدولة الطاهرية
	(٢٠٥-٢٥٩هـ / ٨٢٠-٨٧٢م)
	* الفصل الثاني
٧٩ - ٣٩	الدولة الزيدية في طبرستان
	(٢٥٠-٣١٦هـ / ٨٦٤-٩٢٨م)
	* الفصل الثالث
١٥٥ - ٨١	الدولة الصفارية
	(٢٥٤-٢٩٠هـ / ٨٦٧-٩٠٣م)
	* الفصل الرابع
٢٣٠ - ١٥٧	الدولة السامانية
	(٢٦١-٣٨٩هـ / ٨٧٤-٩٩٩م)
	* الفصل الخامس
٣٠٣ - ٢٣١	جوانب من حضارة الصفاريين والسامانيين
	* الفصل السادس
٣٤٤ - ٣٠٥	الدولة الزيارية في بلاد الديلم
	(٣١٦ - ٤٣٣هـ)
	* الفصل السابع
٤٣٤ - ٣٤٥	الدولة الغزنوية
	(٣٥١-٥٨٢هـ / ٩٦٢-١١٣٦م)
	* الفصل الثامن
٤٧٧ - ٤٣٥	الدولة الغورية
	(٥٤٣-٦١٢هـ / ١١٤٨-١٢١٥م)
٤٨٩-٤٧٩	* الملاحق
٤٩٨-٤٩١	* المصادر والمراجع
٤٩٩	* الفهرس